
S.D
حاصد الأرواح
رواية
باردوس
صابرين الديب

بادوس

رواية

عندما تنطبق أفخاخ العشق على قلوب الشياطين..

جروب حلم-هن

ولنا مع الحرف حلم..

للانضمام للحلم

[جروب حلم-هن]

بقلم

صابرين الديب

تصميم غلاف وداخلي

صابرين الديب

كلمة الكاتبة

آلاف الروايات تناولت جانب الخطيئة.. جانب الإثم..

ذلك الجانب الذي تسيطر فيه نزعة الإنسان غير السوية على نقاء سريرته وطُهر فطرته..

والآلاف من تلك الآلاف أيضًا منح النهاية شيئًا من الوردية أو الحالمية.. أو العدالة الشعرية التي ترضي القارئ صاحب المشاعر أو حتى صاحب الغضب ورغبة العقاب..

ترضي القارئ الذي يبحث عن نهاية تليق ببطله المفضل، أو شيطانه الذي يبحث له عن طريق عودة ولو فوق صراط يمر أعلى الجحيم..

وكذلك القارئ الذي لا يغفر، بل يرى أن لكل مخطئ نهاية.. ولكل مجرم لابد من عقوبة تليق بما أجرمه!

لكن أرض الواقع لا تمنح كلّ ما يريد.. أو حتى ما يحتاج..

أرض الواقع يسيطر عليها شياطين كُثُر، والفساد استشرى بأساسها ينخر فيه حتى تملك منه وقوَّضه..

أرض الواقع لا تمنحنا خيارات وردية، أو خواتيم دومًا سعيدة.. للبعض على الأقل..

أرض الواقع لا يلزمها قصاص يرضي كافة الأطراف..

بل ربما تكون فقط رسائل تنير درب التوبة، وإن لم يره الشيطان فتلك مشكلته..

وإن رآه وتجاهله.. فذاك اختياره!

أرض الواقع تطالبك بتقديم العزم والإقلاع والإياب حتى تتوب وتتطهر من آثامك..

ربما حينها تطالب بالغفران فتناله..

وليس كل الشياطين يعودون..

وليس كل الخطَّائين توابون!

قبل الدخول

اترك قلبك جانبًا.. دع أحلامك الوردية فوق رفٍ مهمل.. وتغافل عن أكوام التراب فوقها..

وقِّع صك العهد أنك وبكامل قواك العقلية قد زُرتَ هذه الصفحات دون إجبار.. بل بإرادتك الحرة؛ حتى لا تعود في النهاية لتلقي باللوم على أحرف تراصت لتخرج الجنون وربما الحقيقة المجردة..

حتى لا تتهمها ظلمًا بأنها اغتالت حلمًا أو قتلت أملًا..

فهنا الواقع وكفى..

حتى لا تندهش من وجع أو ألم أو حتى صرخة مقاومة..

فقط إعلم قبل أي شيء..

أن الحب..

لا يصنع المعجزات!!

فقط في الحب والقتل نظل مخلصين

فريدريش دورنمات

مقدمة

حتى عند قتل الرجال؛ انتبه لقواعد اللياقة..

"كونفشيوس"

***

بين رقي وأناقة رجل وبين اعتصار أصابعه لزناد طرفة عين.. لا تُحدِث فارقًا جللًا، خاصة إن كان ذات الرجل..

أداة قتل!..

موسيقى "فالس الربيع لشوبان" تصدح في أفق ظلامه الخاص، تجاور هسيس الليل لو كان لدُجنته صوت!!..

متعة تداعب سمعه لا توازيها إلا إراقة الدماء عندما تلون أفقه بالأحمر القاتم.. إن فرضنا أن تلك متعة بالفعل وهو يراها كذلك!!..

تعلو النغمات وتتباطأ، تتسارع وتعود لوقعها الهادئ مرة أخرى، بعقله يغيب معها وبعينيه لا يحيد عن سيارة سوداء باهظة لا تتقدمه بالكثير وتكاد تتلاشى في العتمة من حوله إلا من بصيص شاحب لمصابيح متفرقة بعضها محترق، توزعت بعشوائية على جانبي ذلك الطريق الهادئ كقبر..

أن تقتل!!.. ربما هي مهنة..

أن يصبح حصد الأرواح هواية؛ فذاك الجنون..

ومن قال أنه ليس للجنون سيد وسلطان!!..

بل هو ذاته، بعينه، أصوله وفروعه وجذوره التي تمتد لماضٍ خلق منه الرجل الحالي مع أول قطرة منها سالت والجاني يديه..

لم تكن المرة الأولى خطأً ولم تكن كذلك هي الأخيرة..

مع أول نشوة سرت في عروقه لسطوة نزع الروح، وأول بريق انتصار، بل أول سلاح احترافي استخدمه ومازال يحمل له الذكرى داخل خزانة لا يعلم مستقرها سواه، حينها اكتشف أن هذا الطريق المعبد بالسواد هو مسلكه الوحيد، هو خط سير لن يحيد عنه مهما تعثر أو عرقلته الظروف..

هو الذي سيسير فيه شاء.. أو شاء، فهو لن يأبى.. هو يريد!

طريق بدايته ونهايته ليل.. وفي نهاره هو مختلف.. هو السيد والرئيس، هو القائد والباقي حوله قطيع، حتى من يعلوه مقامًا.. عنده، معه، في عالمه؛ يعرف موضعه الحقيقي..

هو النمر!!..

لا.. هو ليس مجرد نمر..

هو نمر، يحمل بين عينيه الموت!..

وحانت اللحظة المنتظرة.. لحظة يتخلص فيها من بقايا إنسانية تعلق بأذياله أثناء النهار، ليطفئ ميلاد شرارتها في الليل..

لحظة هي الأقوى والأشرس والأعنف..

وكذلك، الأكثر متعة..

تخطى السيارة التي تابعها للحظات أخرى، وبقدمه زاد من دفع الوقود داخل المحرك حتى توسعت بينهما المسافة، توقف إلى جانب الطريق الهادئ بلا بشر وبلا ضوء..

من حقيبة متوسطة الحجم على المقعد المجاور أخرج سلاحًا ناريًا تأمله بعناية، بشغف، ولمعة مقلتيه توازي نبض قلبه التواق لما سيحدث بعد قليل..

هو لم يحب يومًا البنادق بعيدة المدى، لذته الخاصة في قرب محدد، تركيز شديد ورؤية ضحية تنازع آخر الأنفاس بينما ينتزع بيده منها الروح..

ألصق به بسرعة وحرفية كاتمًا للصوت، صوبه عبر الزجاج للخارج ودقق النظر لثوان قبل أن يترجل من سيارته بخطوات واثقة بعدما أطفأ أنوارها وأخرس سيمفونيته الهادئة، تحرك مسافة قصيرة ليرتكن فوق مقدمتها في انتظار يعلم أنه لن يطول..

يحيط به صمت اختلط بسكون ذرات الهواء.. كأنها تتحفز بالمثل، تقبع في خلفية الصورة حيث دقة المشاهدة والهروب من حيز الدم المراق..

من خلفه أتاه الصوت..

تحفز، اعتدل وتحضر، رفع السلاح بطول ذراعه واحتسب الوقت المناسب، مرقت إلى جواره السيارة المنشودة..

ترقب..

ثانية..

أخرى..

أحكم التصويب بدقة نمر يطارد فريسة تحت رحمة قنص..

وأطلق، وفقد السائق السيطرة.. فرصاصة في العنق ليست بالأمر الهين..

خرجت العربة عن المسار باندفاع ليعاجلها بطلقة جديدة تفرغ إحدى عجلاتها من الهواء، تصطدم بعدها بجانب الطريق، وتتخطاه، تتحرك بعشوائية وسط أرض ملأها العشب الأخضر والشجر..

أوقفتها إحدى الأشجار بارتطامٍ قاسٍ، على مسافة ليست بالبعيدة راقب هدفه في المقعد الخلفي يجاهد بهلع للتخلص من ضغط المقعد الأمامي على جسده، ويلتفت خلفه في ذعر..

يبحث عنه أو ربما يتوسل أملًا بنجدة..

وقت الخوف يتوقف الجسد والعقل بل ويكاد القلب عن العمل.. هو الآن في مصيدة النمر.. وللدقة، هدف فوهة سلاحه..

بعد تأمل لثوان ابتسم بشراسة باردة..

دقق ثانية وثبت يده بالأخرى، تمتم بسخرية أنيقة تشبه نبرته الخشنة كأنما هي من أعماق بئر لا قرار له:

- آسف.. هذه فقط متطلبات المهنة..

وكأن قواعد اللياقة تقتضي اعتذارًا!!..

أغمض إحدى عينيه وانطلقت الرصاصة لمستقرها الأخير في رأس الرجل ليسقط فوق صدره، وتتسع البسمة بنصر وازى نشوة تناثرت في أوردته فأنعشت جسده كله..

تحرك عائدًا نحو سيارته بثبات، واحدة مرت بجواره لم يأبه لها، جلس يفكك كاتم الصوت، يضعه في مكانه بالحقيبة ومعه مسدسه..

يغلقها و أصوات الليل تعود للظهور ببطء حذِر خجول من حوله كأنما اكتفت من المراقبة بصمت فقررت أن تأخذ موقعها من الصورة كما هو أصلها..

وبهاتفه أرسل كلمات قصيرة قاطعة:

"تمت المهمة.. الباردوس"

(١)

إذا كان لا مفر من أذية أحد فلتؤذه بقسوة؛ تجعلك لا تخاف من انتقامه

"نيكولو مكافيللي"

***

في عالم رجال الأعمال يتطلب الأمر أكثر من مجرد بذلة رمادية داكنة تحمل توقيع مصممٍ شهيرٍ، عينين بنفس اللون لكنهما تطلقان بوادر عاصفة وأمطار وقد يتضمن الأمر بعض الصواعق والرعود..

يتطلب أكثر من ربطة عنق فضية باهتة، قميص أبيض ناعم أنيق، وجسد طويل رياضي يحمل رأس العبقري المعروف "آمر صفوان".. رجل الأعمال الشاب، صاحب أحد أكبر شركات الاستيراد والتصدير بالمنطقة.. أو على الأقل الشريك فيها بالنصف تحديدًا.

يتطلب الكثير بخلاف ذاك الفك المربع والذقن المشذبة، الحاجبين المعقودين فوق نظرة ثاقبة تخبرك أنها تدرك دواخلك دون حديث، والأنف الشامخ يعلن عن كبرياء لا محدود..

يتطلب حذاقة وحصافة وقوة.. سيطرة وقيادة هو أهل لها بالفعل، والكل يشهد..

يتطلب القدرة على التحدي، ورفض الخسارة.. وهو!!

هو لم يخسر أبدًا..

دلف لمكتبه بخطوات واثقة، متتابعة تكاد تتفق في طول المسافة، نهض طاقم مساعديه بتحية احترام هزلها رأسه..

تبعته إحداهن بعدد من الأوراق والملفات المنظمة بين ذراعيها، جلس في مقعده المريح وهي تعاجله:

- هذه الصفقة لن نخسرها..

أومأ موافقًا باقتضاب:

- بالطبع لن نفعل.

ابتسمت برضى وناولته الملفات، تشرح باستفاضة وهو يتابع باهتمام، يضع توقيعه هنا وهناك، يقرأ البعض والأخرى يغلقها دون النظر إليها، بادرها بسؤال مهتم:

- هل أتى السيد غيث!!

نفت بهدوء:

- لم يظهر بعد.

رفع ناظريه إليها بتساؤل جاوبته ببسمة ماكرة:

- أعتقد أن ليلته كانت طويلة.

مط شفتيه بلامبالاة وأشار إليها بالانصراف، تحركت مغادرة وأمام بابه قابلت الوسيم الآخر، صاحب النصف المتبقي من الشركة، و "البلاي بوي" الأشهر "غيث الألفي".. بعينيه السوادوين ونظراته القاتمة رغم مرحه الظاهر، طابع الحسن الذي يميز ملامحه وشعره الداكن القصير.. بكرهه الحاد للملابس الرسمية واكتفائه بسروال من الجينز الأسود وقميص يحمل نفس اللون..

غمزها بهمس حميم:

- مرحبًا يا جميلة.. اشتقتك.

ابتسمت كمن اعتادت الأمر:

- مرحبًا سيد غيث.. السيد آمر بانتظارك.

أعاد خصلة بنية نافرة من شعرها خلف أذنها وانحنى يتمم همسه:

- وأنت!!.. لا تنتظرينني؟!

ابتعدت خطوة وقبل أن تجيبه ارتفع صوت صديقه:

- غيث.. دعك من اللهو الآن.. هناك عمل هام أحتاج رأيك فيه.

ابتعد عنها بهزة كتف محبطة:

- هادم اللذات يناديني.. أراكِ لاحقًا ربما.

أومأت وغادرت بخطوات سريعة، دخل هو للغرفة وأغلق بابها خلفه، ألقى ما في جعبته بإهمال على مكتب شريكه:

- هل قرأت هذا الخبر؟!

طالع ما أشار إليه بعينيه سريعًا:

- نعم.

جلس بأريحية على المقعد المقابل:

- يقولون أن الدماء أغرقت المكان.. خصومة سياسية.. تزيح المنافس من الطريق برصاصة وتفوز أنت.

اعتدل "آمر" بمقعده ساخرًا رغم برود النبرة:

- السياسة مستنقع قذر لا يخوضه سوى الحمقى ومن لديهم كاريزما الكذب.

تطلع إليه في صمت لثوان قبل أن يؤمن باحتقار:

- صدقت.. وهو يستحق، مجرد وغد يشق طريقه بالمال فوق بساط من الأكاذيب.

وقابل تطلعه بمثل صمته.. تفكر للحظة قبل أن يغير الموضوع برمته:

- اجتماعنا اليوم مع شركة القادسية سيكون النهائي والحاسم غيث.. أريد بعضًا من تركيزك..

غمزه بلؤم ماكر:

- في جيبي يا شريكي.. طمئن قلبك، لك كامل تركيزي.

ونال نظرة شك اقترنت برفعة حاجب قلقة، هو يدرك دلالة الغمزة والنبرة الخبيثة، بل وحتى تلك النظرة التي تشع بها مقلتاه العابثتان في هذه اللحظة.. فعندما يقترن الأمر بأنثى يتحول الغيث لسيل لا ينقطع، ويقتحم خط النار الأول ممنيًا نفسه بالنصر..

وهو في الغالب يحوز عليه..

لكنه هذه المرة يشعر باختلاف.. المرأة المالكة لهذه الشركة؛ مميزة ومتفردة تمامًا.. مغايرة لنوعه المعتاد ذي النظرة فبسمة فموعد فلقاء حميمي تنتهي قد بعده اللقاءات..

وليته يفهم!!

***

للفوز نشوة لا يدركها سوى أصحاب النفوذ.. ولا يتذوقها إلا الأقوياء..

صدق الشريك ونال الصفقة وتمت الشراكة بنجاح.. وهو يعلم بل يثق أن فراش صديقه امتلأ بدفء تلك المتظاهرة بالقوة، والداخل لين يتوسل دلال رجل!!

حينها في الليل يختلف الأمر.. بحفل في منزلها، دعوة مفتوحة للشركاء الجدد ومن يحبون.. ورغم كرهه لهذا النوع من السهرات إلا أن العلاقات الاجتماعية تتطلبها والاضطرار في عالمه جائز لو كان درجًا يصعده ببطء نحو ما يريد..

"أخبرتك!!"

قالها "غيث" بشبه تشفٍ وانتصار فابتسم ورمقه بتبجيل مفتعل:

- نعم.. فعلت.

وانحنى الصديق بحركة تمثيلية يظهر بها تواضعًا لا يمت له بصلة:

- ما جائزتي إذًا؟!

تخابث معه بندرة اعتادها:

- لقد حصلت عليها بالفعل.

نال قهقهة مرحة قبل أن يوافقه باعتراف:

- لا تفوتك فائتة يا رجل!

والجواب كان حاسمًا يشمل الكثير:

- لا.. وأنت تعلم.

وافقه وتحرك يتخطاه بخطوة واسعة ولهجة خبيثة:

- فاتتك هذه إذًا.

والتفت ببطء يروي فضولًا طفيفًا بدافع متعة..

رأى "غيث" يتوجه نحو حسناء أنيقة بابتسامته الخلابة التي تعرف هدفها وتحصل عليه في كل مرة..

"هل لي أن انال شرف رقصة مع رئيسي!!"

صوتها انتزعه من متابعة شريكه بنظراته فاستدار إليها بنظرة شملتها كليًا، فاتنة تلك المرأة ويعترف، لكن ما بينهما لن يصل لما تريد هي، ولن يتخطى ما يتوقف عنده هو..

قبل عرضها بأريحية دون رد، تملك من خصرها بذراع والأخرى تحكمت بكفها بين أصابعه، تحرك بخطوات متناغمة أنيقة وتابعته، عيناها تائهتان في ملامحه وعيناه تجوبان المكان بحثًا عن شيء ما أو ربما شخص!!.. يفتعل انشغالًا أو هو منشغل بالفعل لا تعلم ولا تبالي.. لكن ذلك يغضب أي امرأة تريد الاستئثار بجُل اهتمام رجل..

دمدمت بشبه ضيق ماكر:

- أن تكون امرأة جميلة بين ذراعيك لهو شيء يستدعي كامل انتباهك!!

تطلع لأسفل موجهًا نظراته إليها بلؤم وحقيقة تدركها قبله:

- ليس إن تكرر الأمر..

ومال بهمس أثار غضبها:

- التكرار يثير الملل عزيزتي..

زمت شفتيها حانقة وكادت تبتعد، أحكم ذراعه حولها أكثر:

- أما المثير فيك أنتِ..

وتوجه نحو أذنها بأنفاسه وهمسه:

- أنكِ في كل مرة بمذاق مختلف..

وانتشت الأنثى وفاز الذكر.. وأغلقت القضية على أن يبقى الوضع على ما هو عليه..

انتهت الرقصة وقلبها يدق لمجاملة تدرك عن يقين أنها لم تتجاوز شفتيه..

حمقاء هي كبنات جنسها، تبحث عن كلمة، تذوب لنظرة والكارثة والطامة وثورة المشاعر.. تتمثل في قبلة..

قبلة نالتها على ظاهر يدها بأناقة قبل أن يومىء لها برأسه ويتركها ليندمج مع بقية الحضور..

هنا هو صاحب التاج.. وهي!!..

هي من الرعايا في بلاطه وأبدًا لن تكون سلطانته مهما طمعت أو طمحت لذلك..

تابعته بأنظارها حتى أوشكت الليلة على الختام..

وانتهت هي بكل عين كانت تحوط به، بقوته وتلك الهالة المشعة من حوله تجبر حدقتاك على الخضوع لهيمنتها والالتصاق بها..

لم تتردد في اقتراب وازت كل خطوة فيه رعشة وفكرة ودقة قلب تمرد عليها وعلى كل منطق وعقل وحكمة تخبرها بالتراجع والابتعاد عن طريق الحلم؛ فالأمنيات بين يديه هباء منثور..

نادته، ببسمة ناعمة سألته عن وقت رحيله وبعنجهيته المعتادة أخبرها أن ترحل هي لأنه سيتأخر ولا داعي لانتظاره.. تهدل كتفاها يأسًا وانتفضت روحها غضبًا لكن خافقها أعلن عصيانه بتنهيدة حارة ووداع حتى لقاء آخر..

دارت بعينيها في المكان كأنما تؤمنه من حضور نساء تخشى عليه منهن وهو من تهابه أحجاره الصماء.. في لحظة خاطفة داهمتها البسمة المرحة والعين الغائمة بعاطفة تدركها وتتهرب منها:

- سأوصلك.

ابتسمت بتكلف:

- شكرًا لك سيد غيث.. سائق السيد آمر سيهتم بأمر إيصالي.

لكن التسلط ليس حكرًا على رئيس دون آخر..

أحكم قبضته على ظهرها بدفعة رقيقة مسيطرة، تبعتها همسة لا مفر من الخنوع لأمرها:

- قلت.. سأوصلك.

ثم غادره تسلطه ليعود لعبثه المعتاد:

- وربما تكون الليلة.. هي الليلة.

واحمرت وجنتاها بهروب مصطنع وتمتمة لم تصل لأذنيه بحروف لا يجوز فهمها..

لم تدرك أن هناك من لمح ذاك الرحيل بجبين مقطب وحاجبين متعانقين، بداخله صدىً يتردد لغضب وُلد للتو.. وُلد وليس من السهل محوه!

في عمق الليل أتتها رسالته بتساؤل:

"أنتِ وحدك!"

والسؤال له جواب حتمي ووحيد يدركه يقينًا لكن لا مانع من طرحه، وبقلب متلهف يكاد يطير فرحًا بما تظنه غيرة:

"معك في أحلامي"

ابتسم بانتصار مكرر.. فما يخصه، لا ينبغي لآخر المساس به حتى لو رفضه هو..

رهن إشارة أو على وعد، وربما قيد انتظار؛ لا يهم.. ما يهم أنه هو من يحدد متى وأين وإذا..!!

***

لكل غاية؛ وسيلة مبررة للحد الأقصى والأعلى ولا داعي لذكر التفاصيل!!..

قاعدة أرساها "مكافيللي" وتبناها كل من امتلك مسوغًا قذرًا لهدف يهمه الوصول إليه وغضَّ الطرف عن أي اعتبارات أو مبادئ أخرى..

وفي يوم ما حازت هي على كل الأسباب والدوافع التي تبيح لها كل ممنوعٍ وكما هي العادة مرغوب، لم تكن بداية القصة ضد رغبتها، بل ربما خذلان أضعفها فاستسلمت لتيار من داوى الجرح، بعدها أدمنت المسكنات التي كانت تتعاطاها معه دون رادع ودون داع.. إلا العشق!

مسكنات لم يطُل بها الأمد حتى لحظة الانكشاف..

لم تنل تبرئة، لم تعاند بإنكار، تشدقت باعتراف وطلب سماح ونالت الصفح..

ثم عادت لإدمانها في ظلام لا ينقشع.. ولا يعرفه أو يسبر خباياه غيرها..

بعدها أتت النهاية بضبط؛ وحال تلبس، أصبح الإثم علنيًا والحسرة من نصيبها ونصيب من شاركها الحياة حتى الممات حاملًا معه الندم وأشجان قلب سقط في سعير الخيانة، لم تتمكن من توبة بين يدي من غاب، ولم يمنحها غفرانًا ظنت أنها تستحقه بعد مرار عذابات خاضتها لسنواتٍ فقدت حصرها..

لم تعُد لمخدر يغيبها عن وعي بوجع، لم تنتظر سواه، ولم تبالِ إلا به.. لكنه هو من يتهرب، يرفض، ويقسو حد ذبح قلب ترك من الدنيا كل ما فيها وتعلق به هو رغم كل خطاياه..

لا تنكر أنها آذته.. آذته بقسوة تقسم معها أنه أضعف ما يمكن للابتعاد أو الاختفاء بعيدًا عنها، لكنه أثبت خطأها، غامر بهروب، وعاند بكبرياء.. والنتيجة أن انتقامه تمثل في تناءٍ لم تعد تتحمله وجفوة غليظة على روحها مع مرور السنون.. سنون تتساقط من عمرها كشجرة طال أوراقها خريف سرمدي.. ولم يعد يتبقى قدر ما راح!!..

والقدر الذي راح كثير.. ضاع في ملذات، حياة تمنتها وعندما امتلكتها فقدت رونقها ككل ملكية خاصة باتت داخل حدود المتاح..

ظلت تتأمل صوره التي تقتطعها من المجلات بصحبة أي نبأ عنه، وسيم هو طفلها.. جاذب لأنظار الفتيات كما كانت هي فاتنة مغوية يومًا، وسيم لكنه يمتلك نظرة تخيفها رغم جمود الصور وافتقادها للحياة..

نظرة تمتلئ بقسوة لا تفهمها لكنها تبررها..

فالدافع هي!!

تتابع أخباره باهتمام، تقص ملامحه من فوق الأوراق وتحتفظ بها في ألبوم مميز كبير خاص به وحده، ووقت الحنين.. حين الاشتياق لا تملك إلا أن تضمه بين أحضانها، القلب يئن بألم، العين تدمع بتوسل لقاء، والروح تستجدي قربًا لم تنلْه وربما لن تفعل!!..

وهي وقفت تراقبها، عادة شبه يومية لم تتخلص منها على مدار أعوام عاشتها فيها معها، في مقام أم، ربت وأطعمت وسهرت ومرضَّت وداوت ونثرت رأفتها مع رقتها فوق أسقام نفسها.. وربما حان وقت رد القليل من دَيْن سيظل طوقًا حول عنقها أبدَ حياتها..

دنت منها بخطوات وئيدة تخشى إزعاجها، وبمرح اصطنعته لأجلها فاجأتها:

"السيدة سوزان تحدق في أميرها الوسيم كعادتها كل ليلة.. وأنا أغار!!.. يكفيه تطلعًا لليوم، حان دوري"

انتزعت الألبوم والأوراق من بين يديها، واحتلت هي ذاك الفراغ فوق صدرها تضمها بدفء جعل قلب المرأة ينبض بحب، تربت على شعرها الأشقر القصير

والمشابه لوالدتها الإيطالية الأصل، بسمرة متوسطية جذابة وخصلات فاتحة ناعمة، عينين لوزيتين تنضحان ذهبًا رقراقًا وحنوًا لا تمنحه لأحد إلاها..

- أملكِ تشتاقه كارما.. ولا سبيل للوصول إليه!

ابتسمت في وجهها والغضب يملأ صدرها، ذاك المغرور الأحمق الذي يقسو على والدته رغم مُرفراق دام عقدًا ونيف من الزمان..

يحرمها ضمته ولقياه، يتركها في حالة عوز لعفو ارتجته منه دون كلل أو هوادة..

ربما حان وقت تدخلها، ردًا لجميل أو حتى عطفًا وحبًا في تلك السيدة التي ربتها واهتمت بها بعد رحيل والدتها إلى بلدها بلا رجعة.. رحيل تركت فيه خلفها ابنتها الصغيرة ذات العامين والزوج الذي عشق ففقد القلب والعقل حتى داوت هي آلامه بقربها وحبها وإن كان بعد حين..

ربتت على كتفها، نهضت تقبل رأسها.. وفي عقلها عقدت العزم..

ذلك الرجل، سيأتي..

سيقبل يديّ أمه، يرجوها هو صفحًا ومسامحة.. قد تجود هي بها أو لا.. لا يهم، ستذهب إليه، ستجلبه لها وليكن ما يكون!..

***

أن يتملككِ رجل؛ ربما هذه أقصى أمانيكِ..

لكن أن يصدر معشوقكِ فرمان الملكية ويعلنها بأمر لا تملكين أمامه سوى خضوع؛ فذاك ضعف أنثى تقر به، تعترف وتوقع وتضع بصمة قلبها قبل

أصابعها.. تمنحه إياه فقط لأن الفؤاد يخفق له.. وبهوس مخبول وبلاهة غير مستساغة..

والحب لم يكن اختيارًا، بل لم يكن حتى قرارًا، هو بئر سحيق تعثرت أمامه فسقطت فيه دون أن تصل لأقصى عمق فتغرق، أو تطفو على سطحه فتنال النجاة..

لا مناص من غوص فغوص أكبر، ووقتها أبدًا لن تبلُغ أرضًا صلبةً تحمل ثقل أوجاعها المحبوسة داخل صدرها..

كعادتها تبعته في صمت.. تتأمل خطواته الحازمة، تغوص بنظرة في خفايا تعلمها جيدًا بل تكاد تدرس تفاصيلها في كل لحظة قرب..

حملت أوراقها بروتينية، وقعها باعتيادية، ألقى نحوها نظرة داكنة وعاد يمسك بقلمه لينهي جولته البريدية الصباحية.. حملتها وخطت راحلة رغم بقايا سعادة نقلتها لها رسالته بين صحوها ومنامها ليلة أمس..

قرب الباب وجدت مرفقها حبيس قبضته، توقفت ونال منها استدارة غير مكتملة بأنفاس تقطعت حال أول لمسة:

- لا ترحلي معه مرة أخرى.

وابتسمت، حمقاء هي في بحر غرامه، رفعت رأسها إليه بأمل تشبثت به:

- تغار عليّ؟!

ولمعت عيناه ببريق غامض تملُكيّ النزعة:

- الغيرة ليست بقاموسي ريما.. لكن ما يخصني، يخصني أنا وفقط.

وكونها من خاصته أثلج صدرها حتى لو صدمها ببرود مشاعر:

- أنت تعلم أنني لك أنت.

تحركت زاوية فمه بشبه بسمة منتصرة:

- وكذلك هو يعلم.. ولن يتخطى حدود ما رسمته حولك.

تصدقه، نعم هو على حق، فالصديقان لن يتعديا خطوط أحدهما الحمراء..

والأنثى في حياة كلاهما..

خط بلون الدم!!

فإن كانت واحدة كافية في المرة، أو واحدة فقط لا تكفي؛ كل منهما له سلطانه، ومملكته الخاصة التي لا يدخلها الآخر أبدًا.

أومات بصمت، انحنى بشفتيه فوق وجنتها الدافئة، ثم نفث أنفاسه وهمس عند أذنها:

- أراكِ الليلة.

قرر وسيطر وحكم.. وهي خضعت!!

أذعنت برغبتها الكاملة لإرادة مالكها بلا اعتراض، أو حتى رمشة أهداب، مكتفية بلمسته الخافتة، قربه الذي يثير جنون دقاتها.. وعينين تغرق في زوابعهما حد التهلكة؛ بلا خلاص.

(٢)

أنا أقول: أن القتل شيء مجرد.. فأنت تضغط الزناد، ثم بعدها لا يمكنك فهم أي شيء يحدث..

"جان بول سارتر"

***

في عُرف الأنثى: العشق هو المسمى الأرَّقْ والأكثر أناقة للاستحواذ..

بكل تعقيداته، آلامه، طردية أو عكسية علاقاته، نهشه للروح حتى آخر رمق أو التحليق بها نحو السحب.. بكل صفة وسمة ونعت وقرب وتشبيه واستعارات تغنى بها الشعراء وتحاكى عنها الأدباء.. وبكل وجع عندما يصبح من طرف واحد والآخر؛ ليس في عالمه تلك اللفظة ولا يدري عنها شيئًا!!..

نعم، هو يستحوذ عليها، بكل ما فيها، بكل ما تملك، وبجُل ما تمنح..

والمنحة هنا شاملة كاملة ومزرية لنفسها المنهكة في طرقات غرامه الوعرة حالكة الظلمة، جامعة لكل نبضة خافق، لكل نظرة ورفَّة جفن، لكل همسة تنادي اسمه وكل ما يمكن أن تهَبه أنثى لرجلها الذي تعشق حتى لو تغاضى هو عن ذاك العشق وانقلب معه الأمر لصفة تمُلك لا تليق إلا به في عالمها هي..

لعبة أرسى قواعدها وسارت هي وفقها دون تردد، لأنه هو.. بتناقضاته، جموده وبروده، كبريائه العتيد، صلابته ونظرته التي تخيفها أحيانًا لكنها تذوب لها أحيانٌ أخرى..

بعد وعد بلقاء لهذه الليلة، نبرة تملُكية وصياغة لعقد احتكار روحها لأجله، بعد أمر حازم منه وطاعة منها.. انشغل العقل به أكثر، عادت لمكتبها شاردة، تناظر الأوراق لا ترى فيها حرفًا، وتبتسم ليس بحالمية أنثى وردية؛ بل بانتصار امرأة حتى لو لديها اليقين أنه منحها إياه بكامل تركيزه ورغبته ووقتما أراد..

"الجميلة شاردة فيمَ يا ترى؟"

واقتحم العابث أحلامها، رفعت إليه عينين حادتين، ستوقفه رغم أنها تعلم وبتأكيد؛ هو لن يتخطى الحدود سوى بحديث مرح اعتاده معها:

- في عملي سيد غيث.. هل أقدم لك خدمة ما!!

دار حول مكتبها، جلس فوقه ومال بوجه مقتربًا، يستند إلى ساقه بمرفقه، يتطلع إلى زرقة مقلتيها بخبث:

- حسنًا.. هل يا ترى انتبه الأمير الوسيم لسندريلا خاصته؟!

انعقد حاجباها بتراجُع لحظي تبعه نهوض هارب:

- ما الذي تقصده؟

اعتدل واقفًا يطالعها بمكره التلقائي، أدخل كفيه في جيبي سرواله وحرك قدمه يداعب بها أرضية الغرفة بشبه ملل:

- أتقصدين أن مسرحيتي ليلة أمس لم تؤتِ بثمارها للغارقة في العشق!

انقبض قلبها، وها هي تفهمه بطريقة خاطئة، تدرك في النهاية أن رئيسها المباشر يعي كل حرف ينطق به ويقصده بدقة.. هي خط أحمر؛ مادام قد وصمها بملكيته ولو بنظرة، رفعت رأسها بشموخ:

- أنا لا أفهم عمَ تتحدث!!.. ولا يهمني، لدي عمل كثير؛ لذا من فضلك اتركني أؤديه.

دنا منها بخطوات متباطئة أثارت توترها، واجهها والجدية تناثرت بنبرته:

- ربما.. دعيني أوضح لكِ أمرًا ما، أنا لا أهتم كثيرًا لقلوب النساء..

ولم يستطع أن يستمر بجديته لوقت طويل فعادت إليه وقاحته:

- في الواقع أنا أبالي بشيء أكثر متعة بالنسبة لي كرجل..

وابتسم بلؤم جعلها تبعد عينيها عنه في ضيق، رفع حاجبًا وأكمل بدهاء ذكر يفهم من يماثل جيناته وربما أفكاره وسياسته في الحياة:

- آمر لا يعلم.. أو للدقة لا يكترث كون قلبك ملكه أم لا.. هو تملككِ وأنتِ وافقتِ بكامل إرادتك، تلك النظرة الضائعة التي لمحتها في عينيكِ بالأمس دفعتني لتقديم بعض المساعدة، وأثق أنه تحرك.. ربما هاتفكِ ليلًا يتأكد من غيابي ووحدتك!!

عادت تنظر إليه، تدرك أنه صادقٌ كليًا، تعلم أنها لن تتخطى تلك الدائرة التي يسجنها بين منحنياتها اللانهائية لتكون داخل فخه دون تحرير، وتفهم ما يعنيه تمامًا لكن القلب له أحكامه.. ومن هي لتقف أمامها وتعلن التمرد!!..

ابتسمت..

وابتسامتها لم تكن بريئة كما أراد، ولا خجلى كما توقع.. بل حتى لم تكن ودودة ممتنة كما ينبغي لها، بل هي خبيثة توازي خبثه هو، اقتربت تلك الخطوات التي تباعدتها، وهمست برفعة رأس جعلته يغرق في نظراتها الشفافة بطبيعية:

- وكأنني لا أعلم!!..

وزمت شفتيها للحظة في تفكير قبل أن تردف باستخفاف مفتعل:

- أية لعبة لها قواعد سيد غيث، لها طرفان، بها فائز وخاسر.. وجولات..

ثم تراجعت من جديد، تدور حول مكتبها، تجلس فوق مقعدها، ترتب أوراقها بعشوائية واضحة والكلمة الأخيرة كانت لها تصرفه عنها وتصرف ما قاله عن ذهنها:

- والنتيجة الحاسمة؛ في نهاية الحرب..

وعادت تنظر إليه بتصميم:

- وتلك لم تنتهِ بعد.

ابتسم بمرح يشاكسها به، اقترب بنفسه هذه المرة ينحني بجذعه فوق المكتب، يمسك بذقنها، يرفع وجهها لتقابل سواد عينيه القاتم والذي يثير فيها رجفة لا تفهمها رغم عبثه شبه الدائم:

- يالكِ من مشاغبة صغيرة.. وذكية!!

بادلته البسمة ولم تبتعد فابتعد هو واستدار مغادرًا يلقي على مسامعها نصيحة نهائية:

- فقط احذري من اللعب بالنار مع من يمتلك منها سعيرًا خاصًا.

تابعت رحيله والكلمات تنقضّ على قلبها، تنغرس فيه بقسوة، تخبرها أنه على حق، مهما ادعت السيطرة، أو وازنت جحيمه الذي تعشقه دون إرادتها.. مهما تظاهرت بالقوة والانغماس في عالمه أكثر.. مهما ظنت أو أملت أنه يمكنها امتلاكه في يومٍ ما؛ فهو لن يمنح أكثر مما تأخذ بالفعل..

العابث على حق!!

ففي عرف الأنثى هي تضحك على نفسها وتشتري لها الوهم؛ لكي تساير مركب عشقها أمواج الحياة.. فتبحر بها نحو مرفأ المعشوق.

***

في محيط الذكر؛ كل من تحمل تاء التأنيث هي واجب قومي ينبغي عليه المحاربة لأجله، أو للأصح لأجل نيله وصولًا لحد التشبع والارتواء..

وفي محيط "ابن الألفي": نون النسوة هي ذكرى مبهمة وحاضر ممتلئ ومستقبل لا يبالي به، هي الكثير والقليل وما بينهما، وهي لا تفلت من بين مخالبه أبدًا..

بعدد شعيرات رأسه الداكنة كما يقولون، وربما بعدد نجمات السماء التي فشل العشاق في الاهتداء له، منذ متى!!.. نعم يذكر بالتحديد، إلى متى؟!.. ربما حتى الموت أو حد الملل..

كان يعبث بهاتفه داخل المصعد بانتظار وصوله للطابق الخاص بمكتبه بعدما أنهى جولة صباحية اعتيادية بالشركة، جولة فاته خلالها أمر هام ولا يدري كيف!!..

فالضئيلة صاحبة النظرة الخجول والخصلات الليلية المموجة الواقفة أمامه بارتباك لا ينبغي أن تُفَوَت!!

تراجعت باعتذار خافت مبهم:

- عفوًا سيد غيث، أخطأتُ المصعد!

اعتدل في وقفته باهتمام:

- لا تبالي.. تفضلي آنستي.

ومد يده بدعوة أنيقة:

- يمكنك استخدام مصعدي.

ترددت لثوان تأملها فيها بتفحص شامل، ابتسم بجاذبيته المبهرة ولا بأس من بعض شقاوة محببة:

- أنا لا أعض بالمناسبة!!

وازداد الارتباك بحلاوة جعلت ابتسامته تتسع مع نبرتها الهادئة الناعمة:

- عفوًا سيدي.. فقط لا أريد أن أضايقك.

تراجع بأحد الأركان تاركًا لها أكبر مساحة ممكنة:

- لن تفعلي.. صدقيني.

ويعلم أنها لن تفعل، بل ربما لو كان المكان أضيق لكان أفضل!

دلفت للداخل بخطوات متباطئة خفيفة كأنها لا تلامس الأرض، خطوات تناسب رقتها الواضحة بشدة، وقفت تفرك كفيها ببعضهما في حياء جليّ وعيناها لا تغادران موطئ قدميها، مد إصبعه نحو لوحة الأزرار بتساؤل:

- أي طابق؟

جاوبته بهمس لا يكاد يسمع:

- قبل الأخير من فضلك.

ضغطه لأجلها ثم استند بظهره للجدار، يطالع ملامحها الرهيفة، أنفها المستقيم وشفتيها المكتنزين بلذة مغوية، وجنتيها المرتفعتين وموجات غُرتها التي سقطت منها خصلة فوق جبينها تلامس صدغها برقة بدت كمقبلات مشهية لما يجول بذهنه بهاته اللحظة، عقد ذراعيه أمام صدره وسألها بجدية:

- منذ متى تعملين معنا؟

ألقت إليه بنظرة عسلية سريعة قبل أن تهرب من نظراته المقتحمة الجريئة بجواب:

- هذا الشهر فقط سيدي.

استمر بتحقيقه المفصل:

- أي قسم؟!

تبًا لارتباك شديد يغرر بثباتها الانفعالي أمام هذا الوسيم!!..

كيف لها أن تقف بجمود وهو يتطلع إليها بتلك الجرأة؟!.. يغزوها بعينيه بل ويخيفها كذلك!!.. يأخذ دور المحقق الذي غفل عن قرينة هامة في قضية ما فاستمر بالأسئلة حتى الوصول لحل يرضيه ويكفيه:

- الأرشيف.

لاحظت ليَّة شفاهه العابثة في المرآة التي تقابلها وتعكس صورته من خلفها بتأمل متفحص طالها بكل تفاصيلها دون أن تفلت منها واحدة:

- لا يناسبك.

توترت أكثر ولحسن حظها وصلت لمقصدها، انفتح الباب بمصاحبة سؤاله الأخير:

- لحظة يا صغيرة.. ما اسمك؟!

كانت تندفع خارجه بعجالة لكنها اصطدمت بصدر أحدهم حال ترديد لسانها للجواب بتمتمة:

- سديم.

تماسكت قبل سقوط لم يمنع صاحب الارتطام من دعمها فيه بإحاطة قاربت الضمة بينما يمنحها نظرة متمعنة وتلك الحمرة على وجنتيها تجذب عينيه:

- حسنًا.. مرحبًا سديم!

تراجعت بحدة متفاجئة، تعالى بداخلها هتاف يود لو انشقت الأرض وابتلعتها:

"يا إلهي.. ما هذا اليوم!!"

واقترب اللاهي من خلفها بمشاكسة:

- أخفتها يا رجل..

ثم غمزها بدعابة يحاول فك أسر خجلها:

- لا تخافي سديم، السيد آمر لا يعض هو الآخر.

وانعقد حاجبا الجاد بتساؤل، لايزال يتطلع إليها بدهشة، تلك الجنية الصغيرة تعمل عنده وهو لا يعلم!!..

لاحظ "غيث" نظرة شريكه الغارقة في الواقفة بمواجهتهما معًا لا تدري ماذا تفعل أو تقول!!..

وربما تبحث إلى أين المفر!!..

كعصفور وقع في شرك بين نمر وذئب فاتفقا على حبسه بلا إرادة، ابتسم ووكزه برفق دون أن تنتبه لهمسته:

- حررها من قيد عينيك المخيفتين.

استدار إليه بشرود وازى تساؤله:

- ماذا!!

أشار إليها برأسه فتنبه وتراجع خطوة مفسحًا الطريق لها، عندما مرت من أمامه اخترقت أذنها نبرته الخشنة بعمق اهتزله كيانها:

- اصطدام سعيد سديم!!.. كرريه فلن أمانع.

وتلوت أحشائها بخوف!!..

كانت تظن أن أحدهما اشتهر بالعبث والآخر بالجدية؛ جدية ترسم ملامحه الرجولية الغامضة التي لا تقارب وسامة شريكه في شيء لكنها جاذبة كزهرة وحشية تطبق على من يقترب أو كنيران تحترق بها الفراشات، لتكتشف أن كلاهما عابث.. حتى لو بطريقته الخاصة!!..

أما هو فتابعها للحظات قبل أن يلتفت لصديقه:

- غزوة جديدة!!

فضحك دون حساب:

- لا.. موظفة جديدة.

عاد يلاحق أثر رحيلها باهتمام شارد، دون وعي أو إرادة؛ اقتطعت تلك المنمنمة من عقله جزءً لا يخصها على الإطلاق، ولا يخص غيرها حتى!!

***

الرعشة والرجفة وتسارع الخفقات كلها علامات تدل على الكثير..

هي قابلت القطبين معًا اليوم، بنفس الوقت، وكلاهما مازحها وبجرأة حبست أنفاسها داخل صدرها فلم تتحرر إلا بتحررها من قيدهما وهروبها مبتعدة كطير مبتل أغرقه مطر بارد.. بل وأخافه حد الرعب!!

ظلت ضائعة في توترها حتى انتهى الدوام، انتهى بنهاية مأساوية استقبلتها عند جار سمج وابن عم يدعي الاهتمام بل ويمثل الحب:

- سديم.. تأخرتِ، لا أدري ما الداعي لعملك!!.. قلت لك لنتزوج وحينها ستكونين سيدة منزلك الخاص.

نال تطلعًا قاسيًا لا يظهر إلا له وهي تشير حولها بتوضيح:

- انظر حولك جيدًا حسان وأخبرني ماذا ترى!!

لم يفهم بالطبع، هو دومًا لا يفهمها!!..

لا يدرك لمَ ليست مثل صديقتها "ذهب" التي تعشق المال فيغدقه عليها ويحصل منها على مقابل سخي!!.. أو تلك المتفجرة بالأنوثة "هنادي" والتي تطهو له طعامه بعدما رفضت هي ذلك، والدافع مبَرَر كدافع كل أنثى في منطقة فقيرة تشبه مكان إقامتها!!

امرأة تبحث عن زوج ينتشلها من بؤس تحياه..

تحرش زوج أم، أو أخ يتعاطى السموم فلا يفرق بينها وبين زوجته لحد قارب الاعتداء!.. كلتاهما لجأت إليه، وكلتاهما حصلتا على وعد أجوف يشبهه، وأيضًا كلتاهما لن تصلا لشيء لأنه يريد أخرى تتدلل عليه وتمنعه ما تمنحه إياه الأخريات بسخاء..

أخرجته من شروده في ذكرى نسائه بجواب غليظ:

- نحن نسكن وسط القمامة، وأنت لا تزيد عني بالكثير حتى لو لديك عملك الخاص، تتملكني بعقد زواج لأصبح خادمة بمنزلك وحين الجد؛ تتخلى عن كل ما يمت لي بصلة.

وشددت قبضتها بأنين:

- لا حسان، أنت لا تنفعني.

تظاهر بتوتر لا يخص سوى العشاق:

- ومن قال أنني لا أهتم لأمرك وأمر خالتك سديم!!.. هي في مقام أمي التي حرمت منها، أنا أحتاجك وأنتِ تحتاجينني.. فلمَ لا نكمل نقصان بعضنا البعض بالزواج!!

ردت ببؤس ضائع:

- لأنك لن تتحمل الكثير يا ابن عمي.. ستسأم سريعًا وحينها أنا...

اقترب خطوة مقاطعًا على أمل:

- فقط امنحيني الفرصة، لن تخسري شيئًا، أبيع الدنيا لأجلك سديم، ألا يساوي ذلك ولو أقل القليل لديك؟!

أدارت وجهها بعيدًا عنه:

- تأخرت على خالتي.

وتحركت مبتعدة وهو يراقب، لا يكل ولا يمل ويعلم أنه سيصل ولو بعد حين!!

عندما فتحت باب شقتها المتواضعة تأملت كمثل كل يوم الجدران المتآكلة بحزن، تلك الجدران التي شهدت الكثير، قصة والديها العاشقين، ميلادها، أولى خطواتها، أولى كلماتها، ضحكاتها وبكائها ولحظات مرضها..

شهدت عزاء أمها وحسرة والدها.. عزاؤه بعدها بأقل من شهرين وإقامة خالتها معها.. خالتها التي أقعدها سائق طائش بحادث أفقدها القدرة على الحركة والعمل لتتكفل هي بكل شيء..

بعمل وجدته بعد عناء وأجر تراه كافٍ ليسد رمق العوز والحاجة التي تنخر في عظامها هي وخالتها وبيتها وما فيه حتى من حشرات..

"هذه أنتِ سديم!!"

وتظاهرت بمرح لأجل من تملك في هذه الدنيا بينما تطير نحو غرفتها:

- ومَن غيري يا قمري!!

وجاورتها في فراش مرضها، تمسك بكفها بحنان وتطبع على وجنتها المتغضنة قبلة محبة قبل أن تسمع ردها العطوف:

- لا قمر غيركِ هنا يا ابنتي.. طمئنيني على حالك وحال العمل!!

واستعادت ذكرى اللقاء..

عينا العابث الوقحتين، عينا الجاد المخيفتين.. وشرود فغرق وضياع وانتشال بصوت الخالة من جديد في اهتمام:

- هل هناك من ضايقك؟

ربتت على كفها برقة:

- لا خالتي.. العمل جيد وأنا أستمتع به كثيرًا.

ردت الربتة بأخرى أشد حنوًا:

- كان الله في عونك صغيرتي.

وانتهى يوم مثل سابقه وفي الغالب هو شبيه تاليه، حيرة وتعب وإنهاك لعقلها الذي وعى الدنيا على حين غرة؛ فلم ينتبه أن البراءة لا مكان لها وسط غابة الأقوياء!!

***

في عرف الرجل؛ الحب لفظة تمويه، يتبعها امتلاك حد الاحتراق.. وفي عرف "آمر صفوان"؛ لا وجود للحب، لكن الامتلاك متاح..

هو رجل وكفى.. ولأنه كذلك السيد المطاع فكل ما يهمه أن تُنَفذ أوامره، وحينها قد يتكرم بعطية أو قرب حسب ما يقتضيه الموقف وما يراه هو!!..

وهي امرأة تنفذ، وبحرفية ودقة..

تشعره بالسيطرة والبأس رُغم أن ذاك كله جزءً لا يتجزأ من كيانه الخاص خارج حسابات الأنثى وفي كل معادلة يذكر فيها اسمه؛ لكن لنيله معها متعة كما أن للخضوع متعة.. وللسلطة التي يملكها عليها لذة تعجبه حتى لو أضعفتها فلا يعبأ هو بما تحمله في قلبها الذي يدرك حصوله عليه داخل حدود الصفقة..

لذة تشبه لذوعة ثمرة ليمون، شهية، مميزة، قوية قاطعة للأنفاس ولو للحظات لا تطول!!.. لكن رحيق النسمات التي تليها مختلف وفريد بنكهتها الخاصة جدًا..

أيقظها من غفوتها غياب دفئه الذي جاورها فغاصت تتنعم به قدر ما أمكنها، فرقت ما بين أهدابها عنوة بقلب منقبض..

هل رحل!!..

لمحت جسده محاط بهالة القمر كأنها تمنحه رونقها بكرم، تعالت النبضات بجوف ضلوعها تغترف من رؤياه في شوق لا ينضب..

نهضت من الفراش وتلحفت بمئزر حريري قصير، تهادت نحوه بخفوت ثم مدت يدها تلامسه، تبحث عن احتواء تطمح إليه وربما ضمة بمشهد رومانسي لا يليق بها أو به!!..

شعر بأناملها الناعمة تتلمس ظهره بشغف اعتاده، تشنجت عضلاته لحظة بعدها ابتسم وتركها تفعل ما تريد لهذه المرة مادامت عيناها لا تريان ما تمسه في طريقها لعناقه، أحاطت خصره بذراعيها وأراحت وجنتها تستند إليه بفضول لا ينتهي:

- لا أدري لمَ تعشق الظلام!!

تغضنت ملامحه لثوان، حجب مقلتاه بجفنيه في طرفة متمهلة ثم باعد بينهما ثانيةً، يراقب ظل الضوء الفضي الشاحب من خلف زجاج النافذة التي يقف مواجهًا لها، ظلًا انعكس على وجهه فلمع بريقه فوق حدقتيه في رهبة:

- ربما لأنه يعيش بداخلي وأعيش فيه.

ربتت فوق موطن نابضه الهادئ، تدرك مقصده.. تتناساه وتتجاهل ما لا تعرفه فيكفيها أنه معها:

- لكنه مخيف.

التوت شفتاه بسخرية، وكأن الخوف ملاذه هو الآمن عكس كل البشر:

- أنا مخيف أكثر.

تنهدت بتسليم وضمته أقرب:

- نعم.

استدار إليها يحرر نفسه من دائرة احتضانها ويأسرها هي داخل طوق ذراعيه، تفحصها بنظراته فاستكانت لها بتأمل مواز، والهمس صاحب نبرته المستمتعة بفضول بدا كأنه تقريرًا لا سؤالًا:

- لكنك لا تخافينني ربما!!

ابتسمت بدلال مغوٍ:

- ربما.. قليلًا.

مال يقترب من شفتيها:

- قليلًا فقط!!

وضاعت همستها بين سطوة شفتيه:

- نعم.. فقط.

حملها عائدًا إلى الفراش لتتيه فيه ويغيب هو في عالمها..

قليلًا فقط!!

***

لا توقظ الشياطين الغافية إن كنت لا تتقن فن التعامل معها.. ولا تخطو بقدميك داخل عرين الوحش إن لم تكن قويًا بما يكفي لتصارعه..

وتهزمه!!..

ولا تطلق رصاصة لست أهلًا لدويها ولا للفوضى التي تعقبها، سَمِه جبنًا أو أطلق عليه تعريف الشجاعة.. لكنه هو الأصوب والأكثر حيطةً وحذرًا..

نعم هي ستطلق الرصاص، تعلم أنها بعده لن تفهم ما يحدث ولن تستجمع قواها بسهولة، لكنها ستتجاهل كل التنبيهات والإشارات التي تحثها على الهروب من أمام بوابة ذلك المبنى الضخم، كانت لديها الفرصة لتأتي من قبل.. تدرسه

عن قرب وتحتك به قبل أن تواجهه وتقتنص منه راحته ورغد عيشه تاركًا خلفه أمًا تبكيه.. وأضاعتها لظرف قهري..

لذا فالمواجهة الصريحة والمباشرة هي الحل الوحيد رغم مخاطره، فقط تتمنى أن يمر الأمر بسلام؛ هي تمتلك حق الحرب، وتبحث عن النصر.. ولن تعود إلا محملة به لأجل والدتها الروحية..

وقفت قبالة مكتب استقبال عريض فخم، تنظر للقاطن خلفه يتابع عمله بحرفية وإتقان، تنحنحت بحشرجة وأكسبت نبرتها حزمًا صارمًا قدر استطاعتها:

- مساء الخير.. هل يمكنني مقابلة السيد غيث الألفي من فضلك؟!

ناظرها الرجل بتأمل، الفاتنات الباحثات عن رئيسه كثيرات، لكن هذه!!..

ابتسم بروتينية وهو يرفع سماعة هاتفه:

- من يريد مقابلته؟!

ازدردت لعابًا وهميًا ففمَها رغم قوتها، صلابتها وعنادها اللامحدود جاف تمامًا:

- كارما.

رفع عينيه إليها بتساؤل يبحث عن اسمًا كاملًا.. أردفت بفهم دون جواب محدد:

- فقط كارما!!..

وعبثت بكامل إرادتها بقفير النحل.. لذا لا يجوز البكاء حين التعرض للسع!!.

(٣)

الكلمات.. مسدسات محشوة

"جان بول سارتر"

***

التفاصيل..

أحرف باذخة تحمل بين طياتها الكثير، تتناقض فيها الأضداد بفخامة وتتجاذب المتنافرات رغم اختلاف القطبية، الحلو والمر وبينهما الحامض بلذوعته الشهية.. الحاروالبارد وبوسطهما دفء لا يناله إلا القليلون..

التفاصيل كلمة لا ينتبه لها إلا دقيقو الملاحظة، وأصحاب الخبرة..

وعند المرأة هي بالفعل باذخة، تستطيع أن تخبرك عن لون قميصك قبل عام عندما تناولت معها طعام الغذاء وفي أي مكان منه بالضبط حدثت بقعة صلصة المعكرونة، عطرك الذي استخدمته يومها، ولأي مدى تنفست تبغك قبل أن تطفئه في مرمدة كريستالية انكسر طرفها فوق الطاولة الصغيرة بينكما..

أما عند الرجل، فهي مضمحلة.. صورة إجمالية لا تتشتت فيها الألوان ولا تختلف درجاتها، لا تلحظ العين بها ارتفاعًا أو انخفاضًا، بهجةً أو شجنًا..

إلا في حالة واحدة..

وتلك هي عندما تتعلق بالأنثى!!

حينها تكتسب صفة البذخ وبإفراط وتفريط، خاصة عندما تكون المتهادية أمامك، ممشوقة القوام، ذهبية العينين بمنحنيات مضبوطة ومناسبة لخيالاتك تمامًا حتى لو دارتها خلف زي محتشم..

بعنق طويل تشتهي أنت المرور عبر طرقاته رغم اختفائه خلف وشاح هادئ الألوان بوردات بيضاء صغيرة..

وشفتان ورديتان بطبيعية، مزمومتان بحزم منتظر حتى تنتهي عيناك من التدقيق.. في تلك التفاصيل!!

وللاختلاف مَزِيَّة تلحظها العين سريعًا وتطبقها الجوارح بفعل تلقائي، نهوض باحترام.. ابتسامة رسمية وترحيب ودود لا يتخطى أي حد:

- مرحبًا آنسة كارما.. تفضلي.

أشار بالجلوس ونال ترددًا، من بين ملامح القوة المرتسمة على كل خلجاتها ذاك الارتباك أدهشه لكنه احتفظ بدهشته لنفسه وهو ينظر إليها بتساؤل كان ردها عليه بسمة هادئة قدر استطاعتها.. فالمهمة ليست بالسهلة على الإطلاق:

- شكرًا لك.

جلست باعتدال على حافة المقعد كأنما تتحضر لهروب سريع وبادرها عائدًا لجلسته يرفع سماعة هاتفه في ترقب:

- ماذا أقدم لك!!

نفت بعجالة تريد الخوض في بحره العميق علّ قلق الانتظار ينتهي وفوضى التوقعات تصل لحدها الأقصى:

- لا.. لا شيء، فقط هو موضوع هام أحتاج للحديث معك بشأنه.

مط شفتيه وغالب تعليقًا وقحًا يعاند الظهور في حضرة تلك الشامخة، أومأ برأسه يحثها على البدء واستجابت بقيام.. خطوات غادية ورائحة لا هدف لها قبل أن تتوقف في مواجهته وتلقي بالقنبلة دون حساب لشظايا الانفجار:

- لقد جئتك من طرف والـ..

وابتلعت أحرفها، هي لا تعلم ما بينهما من أسباب لقطيعة دامت تلك السنون!!.. تبحث عن كلمات دبلوماسية أنيقة منمقة تشد انتباهه..

"تريثي كارما.. لا تعنيف في التو.. اجتذبيه بوتر المشاعر نحو أمه أولًا وبعدها سنرى!!"

خاطبت نفسها وهو على صمته المتأمل.. بدت لعينيه غريبة!!..

مميزة، فريدة لو شاء الدقة في الوصف، بشرتها الذهبية التي لم يرها من قبل، عيناها البراقتان بعزم وبأس، وحجابها المحتشم الذي أجبره على احترام لم يعتده، حيث هو والغزل قرينان، ونظراته دومًا تتمعن في كل أنثى دخلت أفق بصره:

- في الواقع.. أريد الحديث معك بشأن السيدة سوزان الأعصر.

ولو ظنت أن الخوف يمكن التغلب عليه بتماسك وإدعاء بسالة فهي مخطئة، لأن الثبات ولَّى هاربًا، والقوة رحلت تاركة إياها تقابل محيط سواد عينيه العاصف حينما نهض بحدة عنيفة أجفلتها، امتلأت مقلتاه بقسوة بدت سرمدية كأنما ولد بها، تشددت قبضتاه وانطحنت أسنانه بصوت لامس مسامعها كمعزوفة مرعبة:

- من!!

همسة هادرة رغم خفوتها ثقبت أذنيها، استجمعت شجاعتها وجابهته حتى لو ارتجف داخلها:

- والدتك سيد غيث.

وصل الحديث لمنتهاه، هو يفهم الآن.. يفهم وسيعالج الموقف بما يناسبه وتحتاجه أو تريده هي تحديدًا كما يعلم الآن عن يقين..

تحرك من خلف مكتبه ونظراته تحيط بها، تخلع عنها احتشامها وتحرمها براءة امتلكتها أو ظنت أنها تفعل، تجردها من كبريائها المفتعل وتضعها في حجمها الحقيقي الذي يراه في هاته اللحظة.. ظل يقترب بثبات وهي متجمدة في مكانها..

"الوقح"

همست بالكلمة داخلها دون صوت، النبرة مغتاظة غاضبة وبشدة، عيناه تمران فوق جسدها بتباطؤ مهلك لدقات القلب ولوجنتيها المنفجرتان بالدماء..

لقد فهمته هي الأخرى.. ففور أن علم من هي ومِن طرف مَن!!.. تغيرت نظرته من الاحترام للؤم وهو وصف مهذب بعدما غادرتها الشراسة اللحظية التي ولدت بين جفنيه.. لا بل تحولت لجرأة لا تحتملها برائتها.. جرأة وازت دنو أكبر وميل رأس ثم ليّة شفاه ببسمة هازئة مستفزة:

- الآن فهمت.. لم لا نتخطى المقدمات ونتفاهم في الثمن المناسب!!..

تأملته بذهول مستنكر دون وعي لمقصده، عاد للوراء خطوة متأملة أشعرتها بأنها عارية بالكلية مع استطرادته القاسية:

- وللحقيقة.. أعلم أنه ليس بالكثير.

وأدركت.. والرد كان صفعة انحبست قبل أن تلامس وجنته بين أصابع كفه القوية تلاها ارتطام بصدره إثر جذبة خشنة وهسيس مخيف:

- إياكِ حتى أن تفكري..

لكنها فكرت وقررت ونفذت في التو برفعة يدها الأخرى ومحاولة جديدة باءت بالفشل كذلك، كتف معصميها ولوى ذراعيها خلف ظهرها يلصقها به، مال برأسه حتى لفحت أنفاسه المستعرة وجنتها بهمس بارد جمد أوصالها:

- لقد فكرتِ..

وبادلته الهمس بآخر أحد وأعنف رغم ارتعاشها:

- اتركني أيها الـ..

تراجع ببسمة ساخرة:

- الـ ماذا عزيزتي كارما؟!.. أتحفيني بقاموسك من الشتائم.

جاهدت لتتخلص من قبضتيه، ضمته وقربه الخارج عن كل حد:

- السافل الحقير.. من تظن نفسك، كيف تلمسني بهذه الطريقة!!

حررها فجأة فكادت تسقط، تماسكت ترفع رأسها بعناد، ترميه بسهم نظرة قاتلة فقط لو أمكنها إزهاق روحه بها لفعلت وبرحابة صدر.. أما عنه فقد عاد لتأملها كليًا بتمعن متلذذ:

- كيف تريدنني أن ألمسك إذًا!!

لكنها كادت تصرخ بجنون من فرط وقاحته:

- إياك أن تمد إصبعًا نحوي أيها الـ.. الـ..

ولم تجد سبّة مناسبة لا تخدش حيائها الفطري فأكملت دون اهتمام:

- وإلا قطعته لك.. بل قطعت يدك بالكامل.

قهقهة غير محسوبة.. بل غير متوقعة خرجت من بين شفتيه، انقلبت سحنته بعدها.. بشراسة عادت للظهور، بقتامة ازدانت بها عيناه، وبريق لو كانت عاقلة لهربت من مداه:

- حسنًا.. أخبري من أرسلتك أن البضاعة لم تنل إعجاب المشتري..

واقترب خطوة ارتدتها هي للخلف بشبه ذعر:

- فأنا لا تستهويني...

وتفحصها ثانية بنظرة فاضحة:

- بائعات الهوى.

تدفق اللون الأحمر يملأ وجنتيها، بل وجهها بأكمله وعيناها تتسعان في استنكار محتقر، ضمت قبضتيها ترغب في توجيه لكمة لوجهه الوسيم والذي بدا لها في هذه اللحظة كأقبح ما يكون:

- كان مجيئي إلى هنا خطأً كبيرًا..

واستدارت على عقبيها تشتهي مغادرة وتضع كلمة الختام:

- سأخبرها أن ابنها قد مات.

بكبرياء عنيد تحركت والكلمة تتكرر في ذهنه، استوقفها عند الباب بدمدمة مهتاجة يأبى إلا أن يخط أحرف النهاية بيده:

- هي تعلم أنها هي من ماتت..

تجمدت مع قسوة حديثه وأردف هو:

- ماتت مع من قتلته.

ولم تصدق أنها استشعرت ألمًا في نبرته!!

كلا.. هو لا قلب له، هو أحقر من أن تأبه لأمره أو حتى تُرضخ مشاعرها لما تظنه وجعًا خالصًا رغم فظاظة وغلظة ما قال..

انعقد حاجباها دون جواب، آثرت الصمت والرحيل.. يتآكلها استعار بنار من جحيم الغضب، بل ينهشها.. ورغبة بالقتل تنتشر داخلها تخرس بها كل اعتراض أو رغبة في إعادة تفكير..

وعادت تتمنى!!

ليتها ما أتت.. فذاك الفاسد لا يستحق حتى محاولة في الأساس كان بذلها لأجل من ربتها وتحملت معها أوجاعها عبر السنون.

***

مؤلمة هي تلك التفاصيل التي تعود بذاكرتك لمنطقة مطموسة محوت ملامحها وتناسيتها حتى أصبح النسيان فعليًا فرض عين..

تفاصيل لم تعد تمر بخلدك ليأتي الحافز المناسب فيعيدها لقيد حياة لن توجع في دواماتها سواك..

تفاصيل مررت فوق رُفاتها بعدما أحرقتها ظنًا منك أنها انتهت، ولا ينبغي لها أن تبقى عالقة أسفل ركام امتد لأكثر من عقد من الزمان..

تفاصيل دفنتها مع من غادر دنياك واعتقدت أنك تخطيتها فانطلقت تغترف من ملذات الحياة ما استطاعت يداك أن تطاله دون اعتبارات..

جانب حالك الظلمة في نفسك لم يخطُ داخله أحد من قبل، وأتت حمقاء لتوقظ بجوف سعيرك شيطانًا أخمدته في هاوية اللامبالاة..

زفر ونفث دخان تبغه بضيق أطبق على صدره حد الاختناق، ارتكن جالسًا إلى ظهر الفراش، وكانت هي تحتضنه، تتأمله بتدقيق قبل أن تهمس:

- لستَ على طبيعتك.

لوى شفتيه بسخرية ومال بعينيه نحوها:

- وأنتِ الآن تعلمين طبيعتي!!

استقامت تناظره ببسمة متفهمة:

- بالتأكيد.. نحن نفهمكم معشرالرجال في وقت قصير بينما تحارون أنتم في فهم النساء.. ربما للأبد!!

واتسعت ابتسامتها.. تأملها وهي تردف مداعبة:

- لا تقل لي أن هناك أخرى!!

ثم كأنما أيقظت شياطينه مجتمعين، اعتدل بغتة يلقي بعقب تبغه فوق أرضية الغرفة غير مكترث بما يمكن أن يحرقه، يقبض على مرفقها بقسوة ويهدر في وجهها:

- مادمتُ معك.. فلن تشاركك فيّ أخرى جوان.. أنا لا أخون.

ارتفع حاجباها دهشة.. تألمت لقبضته لكنها ربتت على صدره برفق:

- لم أتهمك بالخيانة يا عزيزي.. تمهل قليلًا.

ظل على تطلعه لها للحظات ساكنًا قبل أن ينهض من الفراش، ويدخل إلى الشرفة الباردة بصمت.. تبعته، وقفت إلى جواره في هدوء:

- غيث.. ما بك؟!

تأمل الأفق بشرود:

"جرح قديم ظننته اندمل، لكن البعض يظل ينكأه حتى يعود للنزف"

حدث نفسه قبل أن يلتفت إليها مغيرًا الموضوع برمته:

- تغارين أم ماذا جوان!!

أتت بسمتها واثقة:

- لا يا وسيمي المفضل، لكنك مختلف، وأنا يعجبني الاختلاف.

واقتربت تحيط عنقه بذراعيها فضمها إليه بتلقائية:

- أتعلم أنك أول رجل في حياتي بعد زوجي الراحل؟!

رفع حاجبًا في وضع سخرية فنبهته بحدة:

- لا تسخر أو ترفض التصديق.. هذه حقيقة.

ربت على خصرها وقربها منه:

- حسنًا.. لن أفعل.

منح زاوية فمها قبلة خافتة ثم عاد يواجه السور بجسده، ثوان وغمغم في جدية والنبرة قاسية:

- أنا لست رجل الأحلام الوردية جوان.

تقبلت حديثه بصمت الفاهم العالم والموافق، ردت بصدق هادئ:

- وأنا لست امرأة للحب غيث.

التفت بوجهه نحوها، مد يده خلف عنقها يجذبها إليه، تمتم أمام شفتيها:

- بيننا اتفاق إذًا.

والفرصة للرد ابتلعتها شفتاه قبل أن ينسى نفسه فيها، يتناسى يومه، ذكرياته السوداء، ونيران بين جنبيه أججتها فتاة ذهبية تدعي الفضيلة.. وهي أبعد ما تكون عنها.

***

إن كنت تريد شيئًا بقوة: أطلق سراحه.. فإن عاد إليك كان ملكًا لك للأبد.. وإن لم يعد، فهو لم يكن لك منذ البداية..

وفي قانونه..

إن كنت تريد شيئًا بقوة فحارب لتناله، حتى لو تغاضيت عن شرف المحارب، وسلكت أكثر الطرق قذارة ليسقط بين ذراعيك مستسلمًا خاضعًا في النهاية..

هو سيفعل، سيتخطى كل ميثاق وعهد ليصل إليها مهما عاندت أو ظنت أنها نفذت هاربة من قفصه المعد لاستقبالها حتى التشبع التام..

وقف أمام مقر عملها الجديد ينتظر، ولو طال الانتظار فالجائزة حتمًا تستحق!!

لمحها تقترب بخطواتها الرقيقة وجسدها الضئيل ورغم ذلك يثير جنونه لتملكه، قبل أن تدخل من باب الشركة حجبها خارجًا وبدأ في مخططه دون تأجيل:

- حسان!!.. ماذا تفعل هنا؟

اقترب خطوة تراجعتها بعينين زاجرتين:

- أريد الحديث معك بعيدًا عن حينا سديم.. اقبلي رجاءً.

تماسكت بقوة، نيته ليست نقية وهي تدرك، هو هنا ليسبب لها الأذى أو على أقل تقدير ليفتح موضوعًا أغلقته وستظل تغلقه للأبد:

- ليس الآن حسان.. أنا أمام مقر عملي، من فضلك إرحل وحين عودتي سنتفاهم.

وخضوعها أيقظ عناده وشعوره بالنصر، هي خائفة.. مشكلة بسيطة وتفقد عملها وحينها لن تجد سواه لتمنحه نفسها خالصة مقابل أن يكون إلى جوارها.. أو حتى مقابل حفنة من المال:

- لا سديم.. أنت تهربين دومًا، لذلك سنتحدث هنا والآن ولا يهمني مقدار الضجة التي أسببها حتى تستمعي إليّ.

تلفتت حولها بقلق:

- اصمت.. ماذا بك؟.. ما الذي تريده بالضبط!!.. هل أتيت تصنع مشكلة تضيع مني عملي بسببها!!

تظاهر ببراءة وانكسار صاحب سوء نيتها بقلبه الذي يريدها:

- يا إلهي يا ابنة عمي!!.. كيف تفكرين بي هكذا؟!

تلفتت ثانية وبدت في عينيها نظرة ضائعة:

- ماذا تريد إذًا؟.. من فضلك إرحل حسان.. إرحل..

"هل من مشكلة هنا؟!"

رفعت رأسها بذعر، النبرة الخشنة المتجهمة، النظرة المتعالية والمتفحصة وردها وازى عرقًا باردًا ولد على جبينها:

- لا سيدي.. لا مشاكل على الإطلاق.

حول بصره إليها ولم تفهم المغزى!.. قبل أن يعود بعينيه للواقف معها، يمنحه هو الآخر تطلعًا أثار في جسده رجفة لم يدرِ لها سببًا، تأملًا بدا تحذيريًا، أو ربما مخيفًا كالموت:

- اتبعيني لمكتبي آنسة سديم.

والجبان لم ينطق بحرف، تأمل رحيلها خلف ذاك المهيب ورعشة ما تصيب كفه المتعرقة دون مبرر واضح أو معلوم.

***

في وصف الشجاعة لا تختلف الكلمات، هي قوة وإقدام.. تماسك ومواجهة، تحدي حتى تمام النصر.. لا انسحاب أمام هزيمة، أو خوف من غلبة..

كانت تظن نفسها تمتلك منها ما يكفي لتقف في وجه صعوبات حياتها البائسة حتى سمعت أمره واستجابت له بآلية جامدة تيبست فيها حتى الأفكار..

تبعته في وجوم وبداخلها تعاقبت الحسابات أبسطها الطرد من العمل وفقدان آخر مصدر للرزق ثم سقوط بين براثن ابن عمها الذي ترفضه..

في غرفة مساعديه نهضت إحداهن، تطالعه باهتمام وتنظر إليها شذرًا، وقبل أن تمنعها من الدخول خلفه أخرسها هو بحزم:

- اتركيها ريما.

خطت بتمهل ترفض الولوج إلى فخ جحيم تعلم أنه سينفتح على مصراعيه في وجهها، انتظرها بصبر ثم أقفل الباب خلفهما وعيناها تقعان على الفاتنة غير المصدقة بالخارج قبل أن ينغلق المزلاج بصوت مميز لفت انتباهها..

تحرك هو بثقة واعتيادية، خلع سترته وعلقها على مشجب قرب النافذة، عاد ليقف قبالة مكتبه، يرتكن إليه ويعقد ساعديه بمواجهة صدره.. يمنحها فيضًا كريمًا من غيض نظراته والتي لم تعِ لأي منها معنىً واضحًا..

همست بارتباك:

- سيدي.. أنا..

قاطعها بإشارة:

- من هو؟

تلعثمت للحظة لا تعلم من يقصد قبل أن تفهم من حركة عينه التي ضاقت باهتمام:

- ابن عمي.

مط شفتيه بتفكير، وما أكثرُ قسوةً ومخافةً من انتظارٍ لا تدري ما يليه!!.. هل سيكون طيبًا فتسكن وتهدأ.. أم نهايةً تخشاها فيملأك الرعب!

شدها من شرودها عنوة بصرامة:

- وما الذي كان يفعله أمام مقر الشركة؟

حاولت التماسك.. نعم حاولت بأقصى طاقتها، هي لم تخطئ، دفعته للرحيل، طالبته، أمرته.. لكنه رفض متعمدًا ليضعها في موضع اتهام محاصرة بأسئلة لا داعي لها:

- لا شيء سيدي..

واندفعت بحديث غبي:

- لو كنت تريد أن...

ثم تمهلت تسب نفسها على حماقتها، هل توحي إليه بطردها أم ماذا!!.. رفعت عينيها إليه بنظرة اعتدل لها دون شعور!..

هذه النظرة تتكرر..

هذه النظرة هي التي جذبته بالأسفل، انتزعته من روتينه اليومي ليذهب إليها ويتدخل بمحاولة إنقاذ.. أو هكذا رآها..

نظرة تصرخ بالقوة.. تئن بالضعف.. تتوسل السند.. وتمتلئ بالعزة.. وفي الخلفية خوف مجهول!!

نظرة أخضعت عينيه لسلطانها وهو يتساءل بجدية:

- أريد ماذا؟!

وثانيةً أخفضت رأسها بعد لقاء أعين لم تستطع الصمود في وغاه، تجيبه بهمس خافت لا يكاد يُسمع:

- لا شيء سيدي.

شعرت به يتحرك نحوها فعادت تنظر إليه بتردد، وقف على بعد خطوتين منها وأنهى اللقاء:

- هنا مقر عمل آنسة سديم.. لا مكان للقاءات الغرامية، هذا تحذير أول وأخير، بعده...

تراجعت بحدة مدافعة مستنكرة ومقاطعة دون انتباه:

- غرامية!!

وأتت قنبلته مفعولها بيقين:

- لا سيدي.. لا تفهم الأمر بصورة خاطئة، كل ما هنالك أنه...

واحتارت تبحث عن مسوغ لوجود ذاك الأرعن، برقت عيناه بانتصار ومال نحوها بتشديد:

- عمل فقط.. سديم.

عادت تتطلع إليه، تغوص في عينيه، ترهبا تلك الغيوم الساكنة مقلتيه بقدرما تجذبها ولا تعلم لها بداخلها مستقرًا أو أرضًا ثابتة تحتمل صمودها فوقها.. أومأت بموافقة شاردة فتراجع برأسه وأشار إليها بالخروج:

- إذهبي وأدِّيه على أكمل وجه إذًا.

كررت إيمائتها وتحركت بالتفاتة سريعة كأنها تهرب من محيطه لولا أن أوقفها بسؤال بدا لأذنيها كخطة ما تُحاك.. خطة تخيفها وتخشى السقوط في دروبها:

- هل تجيدين الطباعة على الحاسب سديم؟!

هزت رأسها بنعم، ابتسم دون أن تراه لكنها شعرت بالبسمة في نبرته:

- جيد.. يمكننا الاستفادة من خبراتك هذه.

وتلك المرة كان الهروب فعليًا حقيقيًا حتى آخر رمق ونفس ونبضة.. هروب من شيء ما استشعرته الأنثى بداخلها وصدق عليه العقل بحكمة.. تفهمته حواسها جميعًا حتى أضحى الفرارهو مطمح ومطمع لارتجافة روحها ونفسها.

***

الشجاعة ليست بالضرورة صفة محمودة..

هي أحيانًا حماقة ترسو بالنفس بعيدًا عن شواطئ السلامة وتوقعها بين أمواج قدر اختارها هي ولم تكن أهلًا لذاك الاختيار..

تذكر بكاء والدتها بعد عودتها.. رغم أنها استعملت أقل الكلمات المسببة للألم، رغم تزيين الموقف وتحسينه ومنحه رتوشًا تجمله، رغم محو مساوئه فقط لأجلها لكن دموعها حينها مزقت قلبها وملأته بالسواد نحو ذاك الفظ الغليظ..

تنهدت بحزن، يناوشها قرار بعدم اليأس، فاللقاءات ستتكرر بإرادتها أو دونها.. لكن القلق يغزو مواطن ثقتها فيهدها فوق رأسها.. ويذكرها بالمقابلة الوحيدة بينهما علَّها ترتدع!

"الذهبية تفكر بي بكل تأكيد"

ابتسمت بمرح نادر واستدارت بمقعدها لمن دخل مكتبها تتبعه شقيقته:

- أفكر في صفقتنا الجديدة باسل.

أشار لأخته بنصر:

- جوان العزيزة مكنتنا منها بطرفة عين ولا تسأليني كيف!!

منحتها نظرة متسائلة فكان الرد هزة كتف واثقة وبسمة منتشية:

- لكل منا مخططاته كارما.. المهم أن نصل لما نريد.

ثم غمزتها بشقاوة:

- وأنا فائزة على الصعيدين العملي.. والشخصي.

وضحكة وازت نصرًا يملأ كيانها وهي تشك فيما يمكن أن تشير إليه شريكتها، فشركة "صفوان-الألفي" لها ثقلها بالسوق، ورغم رغبتها في ذلك العقد؛ لكنها أصبحت الآن تخافه، بل تكاد ترفضه لولا بقايا عقل امتزج مع عزم ورغبة لا تهتز في النصر.

(٤)

كلما ازداد الشخص نقاءً؛ ازداد تعاسةً

"أنطون تشيخوف"

***

في دنيا البشر؛ تصبح كل المعادلات صعبة، تتخذ الوسطية منهجًا مخالفًا لطبيعتها وينطلق التطرف متحررًا من عقال السيطرة..

في دنيا البشر؛ من السهل أن تتحول لحمل ضعيف أو ذئب شرس، أن تصبح طريدة أو وحشًا الافتراس هو أساس يومه ولو اختلف المفهوم أو تنوعت الطرق ووجهات النظر..

وفي الدنيا البشر؛ ضعفك يعني أن تكون في المرتبة الأدنى مهما ادعيت القوة أو حتى شعرت بنفسك تمتلك شيئًا منها، فالكل أو البعض أو من يهمه الأمر سيستغلون ذاك الضعف ليحققوا مآربهم ولو كنت أنت الضحية..

ثم وفي قانون الغاب.. البقاء للأقوى، حيث يتراجع الأصلح للخطوط الخلفية مفسحًا له المكانة والمكان لأنه استحقه بل واستأثر به والسبب فقط وحشيته!!

وهي مهما تظاهرت بالصلابة والبأس.. بالعزيمة والتحدي حد العناد، لفت نفسها بثوب من الغلظة والخشونة، افتعلت شجاعة وظننت أنها تستطيع

المواجهة والصمود؛ ستظل تلك البريئة في عالم متشح بالسواد، في دنيا يحكمها الضواري على تدرج مناصبهم القيادية..

عندما غادرت عملها كانت تتنفس الصعداء، رئيسها المخيف ضبطها بوضع تلبس ظنه الأسوأ، وعندما حاولت الإنكار قاطعها دون تصديق.. وها هي، بعد شهر في شركاته، تلتقي به مرتين متقاربتين، وفي كل مرة تحثها كل خلية في جسدها على الهروب والبقاء بُعد مسافة آمنة..

لا تعلم لمَ!!.. تخشاه ربما، تخشى الآخر كذلك، ثم يعود انعدامها لتقدير ذاتها موبخًا:

"انظري لنفسك يا حمقاء.. تخشين ممن وعلى مَن!!"

وتتنهد ثانية مسَّلِمة ومستسلمة لواقع ليس بيدها سوى الخوض فيه، وصلت لمنزلها وعندما فتحت الباب أتاها صوته من خلفها ليؤجج غضبها قبل أن تشعر به يدفعها للداخل ويغلقه ورائه ليقابل عيناها بتحدٍ.. كادت تصرخ معنفة لكنها تنفست ببطء، تعد حتى عشر أو ربما عشرون وعيناه تتغزلان فيها بوقاحة أثارت تقززها قبل أن تهمس من بين أسنانها:

- لقد تخطيت كل الحدود حسان!

ابتسم مدعيًا البراءة:

- سديم.. لا تغضبي مني، كنت أريد رؤيتك فقط والحديث معك، وأنت دومًا تهربين.. حتى اليوم...

وقاطعته بحدة علا فيها صوتها دون قصد فالغرض واضح والفريسة ليست عمياء:

- اليوم ماذا؟!.. لقد أتيت أمام محل عملي، استوقفتني بجرأة ولفتَّ أنظار العاملين حتى رئيسي!!.. أخبرني ما الغرض مما فعلته؟

ثم هزت رأسها بيأس حانق تسبه في سرها:

- أنت فقط تريد إيذائي.

اقترب خطوة يدافع عن نفسه الخبيثة والسعي وراء الاقتراب هو عمل مقدس في قاموسه:

- لا سديم.. لم أقصد ذلك أبدًا، أردتُ فقط الحديث معك...

وتعود لمقاطعته فالكيل قد فاض وحان وقت إنهاء تلك اللعبة السخيفة:

- لا حسان.. لا تكذب، أنت أردت بي سوءً ثم فررت كفأر عندما ظهر رئيسي، من نظرة واحدة.. كيف تشعر بنفسك رجلًا وأنت لم تتحمل حتى عيناه، لم يوجه لك ولا كلمة واحدة!!

ظهر الامتعاض على ملامحها في مقابل الهياج على ملامحه وانتفخت أوداجه كضبع في أرض السباع:

- وتقول أنك رجلي أنا.. أماني وما أحتاج!!.. لا، أنت لا تصلح لأن تكون رجلًا من الأساس..

وعلت نبرتها أكثر تمتلئ بحزن مستتر خلف عباءة من القوة تتمسك بها:

- من يمتهن دمه ويسئ لآل رحمه ليس برجل!

واكتفى وصرخ وهاج وماج يظن نفسه المسيطر:

- اصمتي يا غبية.. بل أنتِ من لا تفهمين شيئًا، لم أرد أن أتسبب لكِ في المشاكل لو تحديته، ألم تري كيف ينظر إليك!!.. هذا العمل لن تعودي إليه سديم.. ورجولتي سأثبتها لكِ عندما تصبحين في بيتي..

ثم أشار لباب منزلها يكمل بعنجهية:

- لن تخرجي من هنا دون إذني بعد الآن.

اتسعت عيناها في غير تصديق من أمر غير مقبول أو حتى متاح له، ومن كلمات ألقاها مفتعلًا بها سببًا يسوغ له حقًا ليس ملكه في الأصل.. وقبل أن تلعنه، تطرده، تسأله من يظن نفسه!!.. كان قد غادر تاركًا عقلها يشتمه في كل خطوة ويدعو أن يسقط في غياهب الجحيم، سمعت صوت خالتها بنداء استشعرت فيه القلق والحزن، فذهبت إليها بوجه كسير..

كم تشعر بالعجز والقهر، أن تكون امراة وحيدة في غابة يحكمها أمثاله، يدعي فضيلة لا يمتلك منها ذرة، ويتظاهر باهتمام لأهله وكل ما يهمه هو الوصول إليها، ابتسمت لها بضعف:

- تعاليّ يا ابنتي.

جاورتها وارتمت فوق صدرها، لم تنتحب فقط سالت من عينها دمعة وجع لم تكد تلامس وجنتها حتى وصلها صوت الخالة الهامس بشبه حزم صارم:

- تزوجي سديم.

ابتعدت عنها بانتفاضة، تمسح عبرتها بذهول، تطالعها من خلف الغشاوة التي تجددت ولا تكاد تستوعب ما نطقت به:

- ماذا!!.. تريدين مني أن أتزوج ذلك الحقير.. شبه الرجل!!

لاحقتها خالتها بسرعة تنفي ما فهمته:

- لا صغيرتي.. بالطبع لا، لكنك تحتاجين لمن يحميكِ، تحتاجين لزوج يقف إلى جوارك، يساندك ويكون أمانك..

تراجعت أكثر ونظرتها تتقوى بدواخلها دون سبب محدد، بنفس امتلأت بالعزة ترفض الانحناء لظروف أجبرت على العيش فيها:

- لا خالتي، لست بحاجة لرجل، يمكنني الاعتناء بنفسي.

وابتعدت بعينيها تمنعهما الاتصال بعيني الخالة المتضرعتين:

- أماني ليس مع رجل يسعى لامتلاكي، أماني أحققه بذاتي وإيماني خالتي..

وتعود لتؤكد لنفسها قبل أي أحد:

- لستُ بحاجة لرجل!

ربتت على ركبتها محبة عطوفة متوسلة ومتفهمة:

- طفلتي.. لقد خلقنا الله ليسكن بعضنا إلى بعض، هذه سنة الكون، فقط أحسني الاختيار.

وعادت تربت في حنو أكبر وبيدها الأخرى تحيط بوجنتها تتملك من عينيها بنظرة أم رؤوم:

- وأنت تستحقين الأفضل.

شردت بعيدًا، بعيدًا للغاية تفكر في أفضلية، وابتسمت بمرارة لكنها حجبتها فلم تظهر فوق شفتيها، مرارة تخبرها وبوضوح؛ أن مثلها خضوعه لظروف تقهره في كل لحظة.. هو مسألة وقت فحسب!!

***

أن تمتلك القوة شيء، أن تستخدمها فذاك شيء آخر لا يمت للأول بصلة حتى لو ظننت أنك تقدر!

ابنته تمتلكها بالفعل، ولديها يقين أن بإمكانها تفعيلها والتمكن منها لتنال ما تطمح إليه، وبريئة هي لا تدري ما الذي تزج بنفسها في متاهاته لأجل من ربتها!!

هو يعلم، يدرك ويفهم.. وذاكرته تسعفه بصدق حديث دار بينه وبين زوجته قبل أن يداوي هو جروحها ويرمم نفسها الكسيرة و.. يتزوجها لتصبح أم ابنته، اختبارات كثيرة مرت بها، ومن يلومه؟!.. يريد لابنته أمًا وحينها لم تكن هي أهلٌ لذلك رغم إيمانه بالفرصة الثانية والتوبة.. ومنح الغفران عند المقدرة.

طرق بابها برفق وسمع إذنها بالدخول، فتح الباب وطالعها بابتسامة حانية قبل أن تبش لرؤيته وتنطلق إليه بضمة رقيقة:

- أبي.. متى عدت من سفرك!!

بادلها الاحتضان فاستكانت فوق صدره بأمان:

- قبل قليل، أوحشتني طفلتي.

تراجعت تقبل وجنته:

- وأنت أكثر أبي.. طمئني على حالك وصحتك!

جذبها من يدها وجاورها فوق فراشها العريض:

- بل طمئنيني أنت عنك!.. سوزان أخبرتني..

وتمهل لحظة قبل أن يردف بنظرة أثارت ارتباكها:

- ولم أصدق كلمة مما قالت!!

أدارت وجهها بهروب، لن تواجه عينيه لأنه حينها لن تستطيع مداراة ما تريد، لكنه يفقه كل ما تفعله، يفهمها هي صغيرته، مد يده يعيد عينيها لتلاقيه بثبات:

- أخبريني!

زمت شفتيها بحنق بدأ في الظهور على ملامحها الوردية وهي تعيد إحدى خصلاتها الذهبية خلف أذنها:

- كان وقحًا للغاية..

ونهضت تتحرك بتوتر، توقفت بعده تواجهه وهو على صمته منصتٌ لها باهتمام:

- بل كان.. كان..

عقد حاجبيه وتساءل ببوادر غضب:

- هل آذاكِ؟

هزت رأسها بنفي قاطع:

- لا يمكنه.. هو فقط..

ولم تجد ما تصفه به فأكمل هو:

- حتى الكلمات تؤذي كارما.. قصي عليّ تفاصيل اللقاء.

تنهدت باستسلام، عادت تجاوره، وبدأت تقص عليه ما حدث ثم أغفلت عمدًا التصاقه بها وتكبيله لها بين ذراعيه، أنهت حديثها برجاء متألم:

- أخبرني أبي.. لمَ قال عنها ذلك؟.. بل كيف جرؤ!

والتنهيدة من صدره هو هذه المرة قبل أن يتمتم بسخط:

- أخبرتك ألا تذهبي، الفتى سمعته معروفة ولن يتعامل معكِ بلياقة أبدًا.. كما أنه...

وعاد لصمته، لن يفضح سرها، هي استأمنته رغم أن ابنته تصر على المعرفة لكن ليس من حقها ذاك العلم ولا من حقه أن يخبرها، كيف ينهاها عن المحاولة من جديد!!.. كيف يأمرها ويجبرها على طاعته لتبتعد عن طريق ذلك الرجل المعبد بظلام لا نهاية له وهو يدرك كيف بدأ وإلام سينتهي!!.. صوتها قاطع أفكاره:

- مضينا عقد الشراكة قبل أيام.

استدار إليها بمفاجأة فهزت كتفيها:

- لن أستسلم حتى يعود لأحضان أمه، كما أن الصفقة هامة لكلينا، وكلانا منها مستفيد.

فكر لثوان، ابنته العنيدة لم تأخذ من خصاله سوى الصمود والصلابة، الرغبة الدائمة في التحدي حتى تمام النصر.. سألها بجدية:

- والعقد!!

هزت كتفيها بجواب خبير:

- مناسب لكلا الشركتين، هم سعوا لشراكتنا أيضًا أبي، وجوان هي من تولت الصفقة، كنت بفرعنا في الأسكندرية وقتها.

تأملها، بل تأمل روح العناد فيها، بريق عينيها العازم على الوصول إلى ما تريد، اقتراب عمل يتبعه محاولات حثيثة لإرجاعه لأحضان زوجته.. وهو يتركها تحاول، يعلم قوتها ويدرك أنها تستطيع مواجهته.. لكن النصر في حالتها غير مضمون.

شعر بتربيتها على كفه كأنما تطمئنه عليها وتبثه من قوتها لتخبره أنها تستطيع:

- لا تقلق أبي.. أعلم ما أفعله، العمل عمل، وخطتي لا علاقة لها به.

وضحكت بشرود ذكرى:

- كان العم أديب ليفخر بجوان وباسل.

شرد هو الآخر بتمتمة:

- رحمه الله..

وعاد يناظرها باهتمام فخور:

- لقد تركت لك إدارة نصيبنا من الشركة كارما لأنني أثق بعقليتك التجارية، فلا تتركي مشاعرك تتداخل معها فتفقدك اتزانك.. حتى لو كانت رغبة في إسعاد والدتك.

ضمته بفرحة لثقته حتى لو كانت مترددة:

- لا داعي لقلقك أبدًا أبي.

ثم تراجعت وبعينيها تصميم، قوة وبأس:

- سأعيده لأحضانها.. لها عليّ ذاك الواجب بعد كل شيء.

وفي قلبه هتف بخوف بينما يغمض عينيه بتنهيدة حاول السيطرة على رجفتها بصدره:

"ليتك فقط تعلمين ما فعلتْهُ به صغيرتي، لهربتِ من عالمه كله دون خطوة واحدة داخله!!"

***

الانسان الذي يمكنه إتقان الصبر يمكنه إتقان أي شيء آخر

"أندرو كارنجي"

لكل أنثى تشعر بالامتلاك حق مشروع.. بغيرة، غضب، إثبات ملكية حتى لو كان ذاك برعونة قد تفقدها ما تظن أنه ملكها بالفعل..

ولأنها امرأة امتلأت حد الفيض بقلق من أخرى لفتت نظر رجلها فقد تصرفت بسرعة تحجبها عنه أو تحجبه عنها.. فقط ليكون لها وحدها..

غادرت "سديم" غرفة مكتبه بخطوات مرتبكة وجلة، ومن خلف بابه المفتوح كان يتابعها بعينيه وابتسامة تدرك وحشتها تولد فوق شفتيه حتى اقتحمت هي مجال النظر تغلق أمامه كل منفذ وتقتل بسمته التي قتلتها هي قبلًا..

أغلقت مكتبه عليهما، توجهت إليه لترى عقدة جبينه تزين وجهه ونظرته تتحول لجمود بارد جمد قلبها قبل أن تتساءل ونبرتها حانقة:

- من كانت هذه!!

رفع رأسه بكبرياء رافض وبرود يتسلل لغيوم مقلتيه:

- لمَ تسألين؟

دنت أكثر وأكثر حتى لم يعد يفصل بينهما سوى خطوة واحدة:

- أخبرني آمر.. من هي؟!

قطع تلك الخطوة ليتملك من مرفقها بغلظة:

- أجيبي أنتِ؟

شعرت بالحيرة للحظة قبل أن تفهم ما يريده، وأجابت بخنوع أجبرها عليه قلب عاشق حد الغباء والحمق وربما الموت:

- أغار آمر.. الغيرة تقتلني، تحرقني، وبمجرد أن رأيتها تتبعك فقط!

وفي قاموس كل ذكر.. أن تغار عليك فاتنة، تناشدك حبك، قربك، اهتمامك، تتدلل عليك وتدللك؛ فذاك فخر لرجولتك..

لكن بحياة "ابن صفوان".. ذلك مسبب للغضب الأسود، اربدَّ وجهه، اسودت عيناه لتنذرا بعاصفة رعدية، وظهر بهما غضب أثار في روحها رعشة.. وكل ذاك في عينيه فقط، فملامحه كانت ساكنة، مصمتة وجافة لا تشي بشيء، ترك مرفقها ليمرر ظاهر يده على وجنتها برفق وتأمل، باغتها بعدها بضغطة قاسية لذقنها بين أنامله، يرفع وجهها عنوة إليه، لتغوص في صواعقه المنذرة بالويل:

- أخبرتك من قبل ريما، الغيرة ليست بقاموسي، لا أمارسها..

ومال إليها بحرارة أنفاس تحمل غضبًا داراه بحرفية:

- ولا تمارس عليّ!

وضغط أسنانه في تأكيد لتخرج الأحرف القليلة من بينها بحسم:

- أبدًا.

ارتاع قلبها وانتفض بين ضلوعها بخفقات هادرة، غاصت داخل نظرته الصارمة بأمر واحد يجبرها على الطاعة، سكنت ولم تتحرك وكذلك هو قبل أن تتمتم شفتاها بخشوع:

- سأفعل.

لم تنفك عقدة جبينه لثوان أخرى قبل أن يتركها، يدير ظهره إليها ويأمرها بخشونة:

- اخرجي.

استجابت بعدما حاوطته بنظرة أشبه بتعويذة حماية أو إخفاء تحجبه عمن ترفضه هي..

تحركت مغادرة وخطواتها متباطئة تنتظر منه نداءً وقد قدمه لها بالفعل، استدارت بلهفة لتجده يأمرها حازمًا قاطعًا يرفض النقاش:

- سديم.. جهزي لها مكتبًا في غرفتك، ستنتقل للعمل معنا.

اتسعت عيناها هلعًا قارب الذعر وانتفض القلب في قلق مخيف، هو يقربها منه.. ومع نظرته التي سببت الشلل المؤقت لذهنها تراجعت دون اعتراض ومضت تخطط أو على الأصح، تعود لخط سيرها القديم.. الصبر!

ففي شريعة المرأة: الصبر مفتاح لكل باب مغلق، حتى لو كان ذاك الباب، هو قلب رجل ماضيه، حاضره ومستقبله حالك كحُلكة ليلة بلا قمر..

***

يجيد الرجل الفصل بين المتعة والعمل، والقليل منهم يجيد دمجهما معًا..

المهم أن تحصل على ما تريد، وقتما تريد.. وبالشكل الذي تريد، أو على الأقل يرضيك، وهو لم يكن ليختلف، بل هو جيد في ذاك الأمر لدرجة مفزعة تخيف نسائه جميعهن دون أن تتفلت من بينهن واحدة..

استقبله شريكه بحنق ظاهر رغم جمود ملامحه، رفع حاجبًا واحدًا بعبث اعتيادي قبل أن يتساءل وهو يلقي جسده على أريكة غرفة المكتب الجلدية العريضة:

- صمت يبشر بعاصفة يا ذا العينين المخيفتين، ماذا الآن؟!

رفع "آمر" رأسه وأعادها للخلف..

دلك عنقه بكفه ولواها في حركة دائرية محاولًا التخلص من ألم طفيف داهمه:

- لا يعجبني اختفائك ومجيئك المتأخر دومًا غيث!

ابتسم الشريك باستفزاز قبل أن يشاغبه:

- ماذا يا رجل!.. هل تظن نفسك زوجتي؟

ارتسمت بسمة مشابهة على شفتيه رغمًا عنه:

- لو كنت زوجتك لكانت الأكياس السوداء تولت المهمة وانتهينا منذ زمن..

انطلقت ضحكته تملأ المكان بحيويته المعتادة وبادله الصارم إياها للحظات قبل أن يعود لجمود وجهه وجديته:

- غيث.. أنا أتحدث بجدية، اهتم بالشركة وبنفسك قليلًا وتوقف عن عبثك.

عاد يرفع حاجبه ساخرًا وربما هاربًا:

- انظروا من يتحدث!.. العابث الأكبر!

ونهض يقترب من المكتب الجالس خلفه صديقه، يستقر فوق المقعد المقابل له، يشعل تبغًا ينفث دخانه بهدوء قارب البرود كأنما يسعى لاستفزازه:

- أنا أوازن أموري آمر.. لا تقلق.

ثم مال إليه بطرف عين حازمة:

- ولا تتدخل.

ونال صمتًا، وعينًا صارمة تجابه حزمه حتى ابتعد هو بنظراته ونهض ثانية يدور في المكان كأنما يفرغ شحنة غضب مكبوت:

- أنا أعلم ما أفعله.. لا داعي لقلقك على العمل.

أتته النبرة القوية باهتمام واضح:

- قلقي عليك أنت.. ما الذي حدث بالأمس!

استدار إليه بغتة وعيناه تبرقان بشراسة تحمل نهيًا حادًا:

- لا تتحدث في هذا الأمر آمر.

نهض "آمر" بحدة مفاجئة:

- أطفئ تبغك.. تعلم أني أكره رائحته!

نظر إليه باستخفاف، زاد عندما تطلع لقهوته التي ازدان بها مكتبه كعادة يومية:

- نعم أعلم.

وابتسم بعبث يداري خلفه غضبه الذي ولد بذكرى يصر صديقه هو الآخر على نبش قبرها، حتى إن كان يدرك تغييره للحديث لأجله وفقط:

- يقولون أن القهوة شِيَة العمق والثقافة، لكن التبغ يا عزيزي؛ سمة الغموض..

وغمزه بوقاحة وشفاهه ملتوية بتهكم:

- والنساء؛ لهن في الغموض حياة..

ثم أوضح كحكيم يلقي درسًا قيمًا على تلميذ مجتهد:

- يعشقن ما يثير فضولهن، ويعشقنك أنت من خلف غيمة دخانية تحجب دواخلك عن أعينهن اللامعة بترقب وانتظار متلهف لخطوتك القادمة..

ثم توجه نحو النافذة الضخمة، وفي طريقه أطفأ التبغ بأنامله في مرمدة فضية فوق طاولة جانبية، تطلع خارجها باهتمام، بإدعاء، بتكذيب لنفسه التي انفتح جرحها والسبب حمقاء مدعية:

- وعن نفسي.. فأنا أعشق إثارة ذلك الفضول.

أدرك صديقه محاولته لتغيير الموضوع كما غيره من قبل، يفهمه بوضوح كظاهر كفه أمام عينيه، كنفسه في مرآة، وكشقيق حظي به دون صلة دم.. اقترب منه، ربت على كتفه والربتة تعني مواساة أو تثبت فقط حضور، همس له باهتمام لا يتخلل نبرته الخشنة سوى معه:

- تعلم أنني هنا دومًا.

التفت إليه برأسه، مد يده يربت على الكف المستقرة فوق كتفه وتمتم عائدًا لشروده:

- أعلم.

وكزه "آمر" بنزرٍ من قوة تأوه لها عاقدًا حاجبيه في غضب أجاد افتعاله:

- هيا للعمل إذًا يا كازانوفا.

وضحك بمرح لا يختص برسمه داخل نفسه سوى شريكه، صديقه وأخيه الأكبر.. الغامض الكتوم "آمر"..

***

سلطة حامل المنجل لا توازيها سلطة ولا تعلوها أخرى..

أن تنتزع بيدك الروح؛ قوة..

أن تفلعها بدم بارد ودون أن يطرف جفناك؛ فتلك الاحترافية التي استلزمت خبرة تعادل ما يقرب من خمسة عشر عامًا.. مملوءة بنكهة الدم..

طعم السيطرة وامتلاك السطوة حتى الرمق الأخير ومنازعة سكرات موت، وعلى يديه!

جلس في ضوء خافت، موسيقى سيمفونية "موزارت" الخامسة والعشرون تترجم الصمت من حوله بمعزوفة تردد صداها مرعبًا، عيناه تبرقان بنشوة ويداه تعملان بخبرة وسرعة..

سلاح من طراز "بيريتا ٩٢" نصف آلي إيطالي الصنع، خزانة عامرة تمتلىء بخمسة عشر رصاصة لن يستخدم ربعها كعادته، رصاصات عيار ٩ مللي قادرة على عبور مسافة لا تقل عن خمسين مترًا بفاعلية تامة.. جذبة صمام لتعميره وضغطة زناد لتطلق الموت في وجه هدفه..

وتلذُذ يناله كحاصد أرواح يطوف فوق رأس العباد..

هو يدمن كونه ملاك الموت.. أو بالأحرى: شيطانه!!

(٥)

القتلة لا يبحثون عن فلسفة، بل يبحثون عن أجورهم

"شيشرون"

****

البعض لا يجيدون امتلاك القوة ولا يلائمهم رداء الشجاعة؛ حيث تبدو محاولة تلبسه حين التظاهر بها خرقاء شبه مضحكة كطفل يرتدي ملابس والده تشبهًا به، أو صغيرة تقلد أمها بكعب عالٍ فتتعثر لتنال سقوطًا مخجلًا وحسب..

ولأن الفئران هم دومًا أول من يغادر السفينة الغارقة فهي رأته فأرًا. بعد هروب شائن من لحظات قضاها تحت سفح نظرات رئيسها المتفحصة. طفلًا أخرقًا.. وجبانًا رعديدًا لم تكترث لتهديده بشيء، بل في الصباح التالي تحدته بخروج وخطوات واثقة أمام محل تجارته الصغير، خطوات راعت فيها التمهل والقوة.. تضرب الأرض بقدميها لتخبره وتجبره على الانزواء والإنصات لأمر صامت بعدم التعرض منقوش فوق وجهها الصارم رغم رهافته الجلية، شفتيها المزمومتين وأنفها الشامخ بكبرياء..

وأيضًا لأن الفأر يظل فأرًا؛ يتعلق الجبان بأذيال بأس وشكيمة مُدعاة فلابد من تهديد ومحاولة فرض سيطرة لم تكن لتقبلها أو تمررها مرور الكرام..

وجدته يعترض طريقها بجسده الضخم وملامحه الجافة التي تثير معدتها في كل مرة وعيناه ترسلان الشرر جواروقاحة يتعمدها معها:

- إلى أين يا ابنة عمي؟!

وتوقفت، تعقد النية على إعطائه درسًا أخيرًا فربما يرتجع أو يشعر بشيء من خجل:

- إلى عملي حسان.

وانتفخ الغضنفر بخنوع توهمه من نبرة خافتة ونظرة هادئة، تحداها باقتراب لم تبتعد فيه بل صمدت بعناد وحسم، برقت نظراته بفرض سُلطة يظن نفسه يملك أحقيتها:

- وماذا عن قراري بالأمس سديم!!.. لن تذهبي لعملك اليوم ولا في أي وقت لاحق.

شمخت برأسها تطالعه بنظرة محتقرة تغافَل عنها:

- أنت لا تملك من أمري شيئًا حسان لتملي عليَّ أوامرك.

وتنفست بغضب مكبوت تزفر حرارته تهدئ من نيران عجزها:

- لذا احتفظ بها لنفسك يا ابن عمي؛ وإلا علمتك كيف يكون الرجال!

توسعت مقلتاه في استنكار ذاهل، تلك الضئيلة تأمره، تهدده، لا تهابه، لا تطيعه.. والأدهى والأمَّر أنها تتحداه ببسالة لا ينبغي لمن في مثل هوان موقفها امتلاكها.. طحن أسنانه وسخطه يعلن عن ظهوره:

- سأعلمك أنا معنى الطاعة سديم عندما أجرجرك من شعرك ذاك وأعيدك لمنزل خالتك حتى أتمم عقد قراني عليك.

والذهول من نصيبها هذا المرة، لم تعُدّ كم سبة ألقتها عليه في عقلها لكنها كادت تصرخ بعجز يائس وهو يقطع عليها الطريق فعليًا بينما وجهه ينذر بويل يستضعف موقفها فيه..

"حسان!!"

أتاه النداء مقاطعًا معركة على وشك البدء، بصوت رجولي ظهر من نبرته كطوق نجاة، رفع كلاهما بصره ليطالع القادم الجديد، شاب متوسط الطول ودود المحيا ببسمة هادئة، شارب منمق وعوينات أنيقة تثبت حسن ذوقه، يدنو بتسارع واضح، يمد يده بمصافحة وجذبة:

- ماذا حسان؟!.. لا تقل أنك نسيتني!

وربما لانشغاله عنها فائدة عرفت أنها متعمدة من نظرة الآخر خُفية إليها والتي حملت توسلًا يطالبها خلاله بالرحيل دون أن تدري لمَ تلك المساعدة أو النجدة بلا سابق معرفة!!.. شعرت بامتنان ودت لو عبرت عنه بشكر، ترددت لثوان صاحبت صوت ابن عمها المرحب:

- وكيف أنساك مهدي؟!.. متى عدت من سفرك يا رجل؟

ثم قبل أن يجيبه استدار خلفه يكمل تأنيبها:

- انتظر لحظة وسأصبح معك...

وبتر كلماته اختفائها من أمام عينيه كطيف لم يوجد إلا في خياله المريض بها لا غير!

***

واستقبلتها مفاجأة لدى وصولها لمقر العمل الذي تحدث لأجله ذاك الأحمق..

لقد تم نقلها!!..

مكتب خاص، حاسوب حديث للغاية لم تتخيل أن تلمس لوحة مفاتيحه، وغرفة واسعة أنيقة ضمت إلى جوارها مكتبين أحدهما لتلك الفاتنة التي قابلتها المرة الفائتة عندما أمرها رئيسها بالذهاب خلفه.. فاتنة تنظر إليها بشرارات سوداء تشعر بها قاتلة رغم زرقة عينيها الساحرتين، وخلف تلك الشرارات تلمح استخفافًا لم تفهمه وتعجُبًا لا تدري له سببًا!!

جلست بصمت، رغمًا عنها اكتنف جسدها انكماشًا طفيفًا فظهرت كطفلة فوق المقعد الضخم المريح، شرد عقلها فيما حدث قبل وقت قصير.. ذاك الرجل الذي تدخل مانعًا عنها تعدي ابن عمها، تدخل عامدًا وهي تدرك، فنظرته التي منحها إياها قبل أن تهرول هاربة لا تعنى سوى شيئًا واحدًا..

"غادري الآن"

وبأمر رقيق لم تفهم معناه!!

ابتسمت بضعف، فذلك الآخر تربط بينه وبين "حسان" صداقة من نوع ما، وهذا غير مطمئنٍ بالمرة!

"انظروا من لدينا هنا؟!"

علامات التعجب تجاور الاستفهام في عقله.. رفعت رأسها عندما انتزعتها العبارة من دوامة تيهها، وقابلتها العينان السوداوان بعبث متأمل وبسمة ماكرة:

- المنمنمة صعدت طابقًا آخر!

ارتعشت ولم تجد ما ترد به خاصة مع اللقب الذي أطلقه عليها، اكتفت بصمت حائر ونظرة لا مغزى لها قبل أن يقترب من مكان جلوسها، ينحني ليستند فوقه بكفيه ويميل أكثر:

- مرحبًا بك سديم.

ونقر فوق المكتب بسبابته:

- هنا..

ومنح باب شريكه المغلق نظرة غامضة:

- في مكتب الرئيس.

تمتمت بعبارة شكر مبهمة جعلته يعود للبسمة الخبيثة ويخجلها أكثر:

- لو كنت أعلم، لأحضرت معي بعض الزهور لأجلك.

قاطعت حواره ذا الجانب الواحد تلك المغتاظة من خلفه:

- أنت أيضًا تعرفها سيد غيث!!

التفت للغيور والتوت شفتاه قبل أن يغمز المنكمشة بمرح:

- وهل يخفى السديم!!

هربت بعينيها تنظر نحو كفيها المنعقدين فوق ساقيها بتوتر، تفركهما مرتبكة وتبتعد بأفكارها عن سبب وجودها في هذا المكان والذي يحثها عقلها على القبول به والتصديق عليه ثم الفرار بأقصى ما أمكنها من طاقة. ثم تتراجع لتتحدى نفسها، تجابه بعناد وتأمرها بالتروي والصبر.. وإحسان الظن، فمن هي بين العمالقة!!

سمعت جملته الأخيرة قبل أن يتجه لمكتب شريكه:

- أسعدني وجودك هنا سديم، سنتقابل كثيرًا.

رمقتها الحانقة بسخط بيِّن تستنكر فيه تعامله المتباسط معها، وتضعها في خانة الشك والخوف والغيرة.. والغضب.

***

لم يعتد أن ينكر شيئًا يمر به، لم يفكر في مرة بالكذب على نفسه أو الإدعاء أمامها بعدم الاهتمام، والسعي نحو هدفه كان دومًا من شيمه الأصيلة حتى نيله كما يريد دون نقصان..

لذلك أعلنها داخله صريحة دون مواربة أو تشتت، هو يريدها.. ولأنه يريدها سينالها، مهما بلغ الثمن!.. لكنه قبل كل شيء خبير، والخبرة تستلزم دراسة وافية واقتراب مناسب يلائمها كما اعتاد مع طرائده..

بنظرة واحدة قيمها، وبتبادل نظرة أصبح يرغبها، تلك النظرة التي أخضعته سابقًا وروضت فيه شيطانًا كامنًا ولو للحظات.. لحظات أثارت غضبه بعد رحيلها وغيابها عن ناظريه..

فالضواري.. لا تروض!!

تراجع مسترخيًا في مقعده، يفكر بتلك الجنية الصغيرة المرتبكة والمتظاهرة بالقوة، أو ربما هي تملكها بالفعل،لكن معه!..

ابتسم بنشوة.. قد يكون هو من يخيفها!!.. وتلك في حد ذاتها متعة، متعة لا يوازيها شيء إلا لذة تملكها حتى تمام الارتواء.

نقرة واحدة على باب مكتبه وانفتح ثم دخل الإعصار العاصف برفعة حاجب لائمة ولئيمة، أغلقه خلفه ودنا بتباطؤ دمدم معه بعبث:

- حسنًا!!

اعتدل "آمر" في جلسته، يعلم مقصده ولا ضرر من بعض تلاعب:

- حسنًا ماذا؟!

جلس على المقعد المقابل كعادته، وضع ساقًا فوق ساق، وعانده بتبغ مشتعل:

- المنمنمة بالخارج يا رئيس!

راقب دخانه المتصاعد في صمت، كشّر عن ابتسامة تورية ورفع هو حاجبه هذه المرة:

- منمنمة!!

ولا يعلم لمَ أغاظته الكلمة والوصف والانتباه وحتى اهتمام شريكه!!.. مال "غيث" برأسه جانبًا وكشف الأوراق ببساطة:

- الموظفة الجديدة.. سديم.

استرخى "آمر" في مجلسه ثانيةً دون رد، وصمته أثار حنق الآخر ولو كان محمودًا مما دفعه لقليل من العناد:

- هل تريدها؟!

قالها صريحة فانعقد جبين الصديق واعتدل مجددًا ينهره بحدة:

- غيث!

لكنه لم يتوقف بل استمر يواجهه بحقيقة يراه ينكرها وربما يستنكرها:

- لن تنالها بتلك البساطة كما تظن، هي مختلفة..

استمر انعقاد حاجبيه واسودت عيناه بظلمة لم ترهب المواجه له خاصة عندما انحنى بجذعه نحو المكتب الفاصل بينهما:

- وتحتاج لخطة مختلفة.

زفر بضيق، وكأنه لا يفهم ذلك أو يراه بوضوح!!.. لم يناقش من قبل حياته الخاصة مع أحد، حتى "غيث" لا يدري عن نسائه سوى القليل، وقربه منها أو بمعنى أدق تقريبها منه كما فعل كشف شيئًا عن دواخله لم يظهره أبدًا فيما

مضى، نهض يقف قبالة نافذته العريضة، يطالع الشمس البعيدة من خلفها بتفكير عميق غير الموضوع بعده دون اهتمام:

- لدينا اجتماع غدًا مع شركة القادسية.. سنقابل الشريكة الثالثة، لا تتأخر.

ابتسم الجالس وراءه بسخرية، يدرك أنه اقتحم منطقة لا تخصه، خاض فيما لا ينبغي له أن يخوض فيه، وهي رغبة دومًا احترمها كما احترم صديقه ما رغب هو في التعتيم عليه بحياته!!.. لكنه يكاد يقسم أن هذه الفتاة تعني شيئًا جديدًا تلتمع له النظرات الرمادية بتملك لم يره سابقًا رغم نزعته التملكية المعروفة عنه!..

ثم قرر أنه سيكون حاضرًا في المقاعد الأمامية ليستمتع بالنزال بينهما، وابتسم بتلذذ..

نهض يغادر إلى عرينه الخاص بتمتمة باهتة:

- لن أفعل..

وفي عقله قد يرحل بصحبة "جوان" بعد ذلك اللقاء الممل، هو يحتاج بالفعل لبعض الغياب عن الوعي، أو ربما التيه لأن النسيان لم يعد متاحًا بعد زيارة الماضي واقتحامه لحاضره محاولًا هدم جدار التناسي الذي اختبأ خلفه لسنوات طوال.

***

الكثيرون يحبون المفاجآت والبعض وهم قلة يكرهونها، وهي تقر أنها ليست مجرد مفاجأة بل تراها صدمة لن تمر بسلام أبدًا لكن ما باليد حيلة.. سبق السيف العذل وانتهى الأمر..

على يقين أن ظنه السيء سيودي به إلى اعتقاد مدبر.. أن العمل والشراكة ما هي إلا وسيلة كما أهانها في أول لقاء.. لكنه لا يدري عنها شيئًا وهذه نقطة لصالحها، يمكنها السيطرة على الموقف وإنهائه بجدية عملية كما اعتادت وكما علمها والدها..

فقط لو تدري ما ذلك السر الذي يعلمه أبيها ولا يخبرها به!!..

سألته وسألت أمها وكل ما تناله من جواب هو الصمت المقترن بالخجل، ونبرة الألم التي صكت مسامعها في المقابلة السابقة لا تكاد تنمحي من أذنيها..

لكنها لا تستطيع التصديق أن كائنًا من كان يمكنه أن يرفض بر أهله مهما فعلوا معه، في البداية والنهاية هم دمه، من ابتدأ معهم وينبغي أن ينتهي إليهم..

وهي أمه، ظلمة رحمها حملته حتى نما، ودفء ضمتها أحاطه حتى اشتد عوده.. وفي الختام لخطأ ما مهما بلغ عِظمه نفاها ثم محاها من حياته، حاكمًا عليها بالموت في خياله..

هو قاس، مخيف.. أرهبها وهي القوية التي لا تهاب تحديًا، ربما لجرأته، وقاحته، ملامسته لها وهي من لم يقترب منها رجل لهذه الدرجة من قبل.. لكن من يحاكمه خاصة عندما يظن أن الحق معه!!

دلفت لغرفة الاجتماعات الواسعة بثقة، تتبع شريكها خاصة "باسل" الذي التفت إليها ببسمة مطمئنة وغمزة شقية قبل الهمسة التي لم تصل لأذني سواها:

- حانت لحظة الصفر شريكتي.

بادلته البسمة بأخرى ظاهرها القوة وباطنها الارتباك، تكاد تتخيل رد فعله أو لو قام بفضيحة لكنها صامدة حتى النهاية. رفعت رأسها ببطء تطالع ذلك الذي نهض بوجه جاد مرحبًا والآخر يوليها ظهره لكن هيئته لا تنسى:

- مرحبًا سيدة جوان..

ومد يده بمصافحة، تبعها "باسل".. وأخيرًا هي، تفحصها بنظرة سريعة كأنما يسبر أغوارها بدقة وحسم قبل أن يبتسم بهدوء:

- وشريكتنا الغامضة.. الآنسة كارما الليثي!!

انعقد حاجبا "غيث" لثانية وحدس ما يطرق عقله بعنف، حدس صدق عندما استدار ليجدها أمامه، ببهائها الذي دقق في تفاصيله سابقًا، بعينيها المتحديتين واحتشامها الذي بات يكرهه، وبسمة خافتة منحت ملامحها انفراجة ناعمة وهي ترحب بشريكه بهزة رأس..

صافحه باسل" و"جوان" وقدمتها هي إليه:

- كارما.. شريكتنا وصديقة العائلة سيد غيث..

استقام يشد قامته، يومئ بتحية صامتة وحاجبيه يكادان يلتصقان ببعضهما البعض.. ذاك السكون، الوجوم وبقايا صدمة لحظتها عين صديقه أثارت اندهاشه لكنه احتفظ به داخله وهو يبدأ اجتماع العمل بجديته المعتادة..

ساعة ونصف، لم يبعد عينيه عنها في حين تشاغلت عيناها بأي شيء سواه، لم يلتفت إلا لحديث وُجِّه إليه مباشرة ولم ينطق إلا ردًا على سؤال، نظرة من امرأته بارتياب، ونظرة شك من "باسل" الذي ادعى بعض المرح بهتاف:

- غيث.. لست معنا، إلى أين شردت!

ورمقها هي الأخرى بينما تتظاهر بالحديث الجاد مع "آمر" في العقد المبرم بينهم وشروطه وما يتبعه من صفقات، ابتسامة "غيث" بدت قاسية وهو يتجه بعينيه إليه بسؤال بدلًا من جواب:

- أين كانت الآنسة كارما حين توقيع العقد باسل؟

وضغط أحرف كلمة "آنسة" ونطقها بسخرية لم يلحظها إلَّاها فانعقد حاجباها، هل سيبدأ اللعب الآن!!.. لكن شريكها لم يعجبه ذاك الاهتمام فانزوى برد مقتضب:

- كانت تتابع العمل بفرعنا في الأسكندرية.. أخبرناكم وقتها.

ونظر إليها بضيق:

- هل بينكما سابق معرفة؟

تحولت بسمته للشراسة قبل أن يلتفت نحوه محررًا إياها من أسر نظراته:

- لا.. ولو أنني أتمنى أن تكون بيننا كل معرفة ممكنة!!

ونال نظرة صارمة من شريكه وثانية مغتاظة من "جوان" ويكاد يجزم أنها نظرة غيور من أخيها الذي بادله البسمة بحنق وليد وتجاهلته هي تمامًا:

- ما بيننا هو العمل وذاك أهم..

ناظره باستخفاف لثانية قبل أن يوافقه، يسترخي في مقعده بتكاسل ويمد ساقيه أسفل طاولة الاجتماعات:

- بالتأكيد باسل.

وكادت تتنفس الصعداء رغم قلق ما تسرب إلى نفسها، هو احتفظ بالمعركة سرية بينهما ولم يجعلها علنية، كل حرف وكلمة ونبرة من صوته كانت تحمل تهديدًا خفيًا بحرب لن تكون قدرها.. صمته عن علاقة أخرى أسرية تجمعهما كانت تتمناه حتى لو لا تزال تخشاه بذات الوقت!!..

انتهى الاجتماع وانتهى تماسك أعصابها معه، نهضت تتظاهر بهدوء لا تملكه وتحركت مغادرة بصحبة شريكها الحامي وشريكتها المتشككة، لكنها لم تفلت من همسة لم تمر إلا على أذنيها لتزعزع ثقتها وتُشيد بداخلها خوفًا لا حد له من مجهول:

- سنلتقي قريبًا.. يا آنسة!

تماسكت بصلابة ولفت وجهها نحوه لترى التواء شفتيه الهازئ بوقاحة، رفع لها حاجبًا واحدًا وأدار رأسه نصف دورة كأنما يتوعدها، وما أراده هو ما حدث..

انتفض قلبها بانقباضة رهبة، وتسارعت خطواتها تهرب من محيطه، تفكر: كيف ستتعامل معه لاحقًا!!.. هو أثبت أن العمل لن يكون سهلًا فما بال خطتها التي تسعى فيها لإعادته لأمه!!..

اقتربت منه "جوان" بتملك تظنه حقها:

- لا أفهمك!!

استدار إليها باصطناع تساؤل:

- هل تعجبك؟!

وكان سؤالها توضيحًا جاوبه هو بجرأة تقارب الصفاقة:

- ليست نوعي المفضل جوان.. وأنتِ تعلمين.

لكنها شمخت برأسها ترفض تصديق ما تظنه إدعاءً واهيًا:

- لم تُبعد عيناك عنها!

ازدادت قتامة مقلتيه بنظرة آمرة:

- لا تنسي اتفاقنا جوان.. ولا تتأخري في الرحيل عنهما، لا نريد إثارة الشكوك حول علاقتنا.

زمت شفتيها فبدت مغوية، مد يده خلسة يلمس طرفهما بإبهامه:

- حافظي عليهما لأجلي.. لا تكوني عنيفة معهما هكذا حلوتي.

وغمزها بمضمون تفهمه، لانت ملامحها قليلًا قبل أن ترحل متظاهرة بالغضب:

- لن تكسب ودي بالغزل يا وسيمي.

ضحك بخفوت وودعها بنظراته في شرود، تحرك نحو النافذة الزجاجية التي تحتل جدارًا كاملًا، وقف أمامها يتأمل السماء وغيومها الرمادية بشبه ضياع!!.. انضمت قبضتاه داخل جيبي بنطاله واعتصر عينيه بإغماضة قوية للحظة قبل أن يعيد فتحهما وتطير أفكاره تتصارع فيما بينها داخل نفسه المحملة والمثقلة بالهموم أسفل قشرة اكتشف أنها ضعيفة، واهية للغاية بعد ثاني لقاء مع تلك الكاذبة..

وضع لفافة تبغٍ بين شفتيه وتأخر في إشعالها لثوان قبل أن تغيم عيناه بألم سرعان ما ابتلعه، أخفاه كعادته وأشعلها يحرق مع دخانها كل فكرة تجول في عقله..

تربيتة على كتفه أبعدته عن غيابه فالتفت لصاحب اليد ولم يغادر الشرود نظراته، طالعه "آمر" بتمعن وقلق ما يولد:

- أنت تعرفها بالفعل!

هرب ببصره للخارج ثانية ولم يجبه، لكن الآخر استمر:

- أخبرني غيث.

عادت قبضته اليسرى تتشدد والثانية تكاد تعتصر التبغ بين أنامله وهو ينفث سحابة دخانه بشبه لهاث:

- لا..

ودارت حرب قصيرة بين أعين الشريكين، تحديًا لم ينجح فيه أحد ولم يخسر كذلك، فبين واحدة رافضة وأخرى آمرة.. أضحت النتيجة: صفر.

***

هذه المرة كانت معزوفته هي الصمت، لم تتردد موسيقاه الكلاسيكية كعادته في دُجنته التي تسبق أو توازي مهمته، اكتفى بهدوء الكون من حوله يتخلل أذنيه فيريحه كما يريد..

هذه المرة المهمة خارج حدود العاصمة، على طريق سفر سريع، والمعلومات أمامه تخبره أن الهدف سيقابله بعد قليل وفقًا للسرعة التي يقود بها..

وهذه المرة أيضًا وبغرابة اختفى القمر الوليد من السماء خلف سحب سوداء مهيبة كأنما تشاركه لحظات متعته وتمنحه إحساس الهيمنة الذي يدمنه بخلفية خاصة تثير الرهبة في النفوس..

ضغط دواسة الوقود بقوة، حرك ذراع السرعة وانطلق.. كطلقة تشبه رصاصاته متجاوزًا كل قوانين المرور على ظهر الأرض، تخطت سرعته المائتي كيلو متر بعشرين على الأقل كأنما هو في سباق مع الزمن، أو أن شهوة الخطر تنتشي لها عروقه فتفقده زمام السيطرة حينها..

رأى أمامه السيار المنشودة، طالعها باهتمام وتباطأ حتى أصبحت المسافة بينهما منضبطة، دقق جيدًا وتابعها قليلًا قبل أن يلمح رأسًا أخرى فوق المقعد المجاور للسائق، انعقد حاجباه في غضب، المعلومات لديه تؤكد أنه وحده، والنمر لديه مهمة لن يتراجع عنها أبدًا.. فمن معه إذًا!!

قرر تخطيه والتأكد، تحرك دون إثارة شك، وازاه وبنظرة جانبية سريعة التقط كامل الصورة قبل أن يتجاوزه ويطلق العنان لسيارته بصحبة نيران تتأجج داخله بشراسة مرعبة..

هدفه ليس وحيدًا!!..

هدفه بصحبة امرأة.. والمرأة تحمل على يدها رضيعًا في لفافته تبتسم له بحنان!!..

بسمة اخترقته كلهب حارق قبل أن يوقف السيارة أقصى يمين الطريق المظلم ويطفئ أنوارها جميعها، يفتح حقيبته، يلتقط مسدسه ويلحق به كاتم الصوت الخاص.. يترجل منها ويجاور بابها المفتوح لثوان قبل أن يغلقه ويخطو نحو بابها الآخر، يرتكن لسور أسمنتي عريض وينتظر..

ما هي إلا لحظات ومرت عربة الهدف، عربة تحمل زوجته وطفلته اللتين تضمنهما ملف معلوماته، اعتدل بصلابة، وقسوة جافة ترتسم ما بين جفنيه، مد يده بجمود وصوب نحو رأس السائق، لم تطرف أهدابه، لم يغمض إحدى عينيه لدقة أكبر بل فتحهما على اتساعهما، وثانية جديدة نالت من عقله بتفكير..

بعدها أطلق النار!!

(٦)

الحب مصيدة؛ فعندما يظهر لا نرى إلا نوره وتغيب عنا ظلاله..

"باولو كويلو"

***

في أعماق المرأة دومًا هناك نزاع، صراع، حرب صغيرة.. تعاظم في مشاعر تنفلت من عقال السيطرة فلا تخضع لقانون ولا تخشع لعقل أو تسلم لمنطق!

عندما تعشق الأنثى؛ تمسي عمياء بدرجة حُمق وشهادة تغابي وتجاهل لكل ثوابت الكون وقواعد السلامة العامة وسلامة القلب الغافل..

هي امرأة برتبة أفعى، تصلح لجميع المهام المستعصية.. لكنها لم تفلت من بين أنياب العشق، وعشقها أسود، غرامها مدلهم كليل طويل بلا نهاية، والحب في حياتها معجزة لن تتحقق!!..

لم تظن أنه قد يفعلها، قشعريرة جليدية تمكنت من كل كيانها، أعصابها وحتى أفكارها.. تعلم عن قسوته وتدرك قوته والظلام القاطن بداخله والمتمكن منه، لكن أن يصل الأمر لتلك القتامة!..

فهذه رهبة تملكت من قلبها الذي يذوب فيه فأوجفته وكادت توقفه..

وحينما تعود لمنطقة وسطى تحلل فيها الموقف تجده الخيار الأنسب لرجل مثله الليل هو مسكنه ومأواه، ودُجنته هي متعته الخاصة بكل ما فيها من مهابة، سكون.. وقوة خفية لا يأنس بها سواه!!

فقط أصبحت تخشاه أكثر، التظاهر بتجاهل تلك القشعريرة التي تشبه صقيعًا قطبيًا مسيطرة على خلاياها لا يجدي، وإدعاء امتلاك شجاعة ما محض هراء فساقيها فعليًا ترتجفان وتهتزان أسفل ثقل جسدها وهي تعود لمقر الشركة لتجده بمكتبه، قابعًا في مقعده الضخم يطالع السماء الحالكة دون ضوئها الفضي المعتاد بسكون قاتل أشبه كثيرًا به هو..

دلفت للغرفة بتوتر وصله عبر خطواتها المترددة بوضوح، تغضن جبينه فوحدته هي ما يريده في هاته اللحظة، وقفت خلفه ومدت كفًا مرتعشةً تلمس بها كتفه وهمستها أتت مختلجة غير مصدقة رغم واقع تعلمه بإدراك ويقين:

- كنت أعلم أنني سأجدك هنا.. لقد فعلتها!

لم يكن سؤالها بحاجة لجواب أو علامة تعجب، لكن رده هو ما يعوز الاستنكار حتى لو أظهرته بضعف دافعه خوفها ورهبتها التي تتملك من نابضها:

- ألم تكن تلك مهمتي الليلة؟

هزت رأسها، التفَّت حوله لتواجهه، انحنت أمامه تجلس القرفصاء وتستند بكفيها لساقيه تلاقي عينيه اللامعتين ببريق جمد الدم في عروقها:

- كانت معه زوجته وطفلته!

مال إليها بجذعه ولمعان مقلتيه يزداد:

- خطأ في المعلومات..

ارتعشت وشعر برعشتها، فتحت فاهها بشبه لهاث تقطعت معه أنفاسها الضعيفة:

- طفلة آمر.. كيف استطعت؟

جذب مرفقيها ليوقفها ويقف يواجهها بقسوة تملأ نظراته، تحجب خلفها كل ضعف ممكن أو غير ممكن أو حتى مستساغ:

- الباردوس لا يتراجع عن مهماته ربما.. بل ينفذها في الوقت المحدد وأنتِ تعلمين.

ونفضها مبتعدًا، توجه نحو أريكة مكتبه العريضة، جلس فوقها وراقبها أمام النافذة التي تداعب ستائرها نسمات هواء رقيقة لا تناسب مزاجه، بل تخطتها لتداعب خصلاتها البنية الغجرية بفتنة وهي تطالعه عبر الغرفة دون أن تراه بوضوح بعدما ابتعد عن مصدر الضوء الوحيد بالغرفة.. الشارع!..

اقتربت تجاوره فوق الأريكة، هي تعشقه وتهابه، مغرمة به ويتيه قلبها في دوامة رعب منه.. مزيج مخيف لا يصلها سوى معه، ورغم ذلك.. ورغم كونها ساعده الأيمن في كل شيء، في عمل النهار والليل؛ لكنها دومًا تكتشف جديدًا يخصه..

والجديد هذه المرة ضاعف من شراسة تلك القبضة الغليظة التي تعتصر روحها بينما تتأمل تقاطيعه التي خطها الزمن بقساوة، عينيه الجامدتين كأنما لم يقتل قبل ساعات وبدم بارد!!..

همست بضعف ترجوه أن يقول شيئًا فقط ليطمئنها:

- أنت لم ترهما صحيح!!

ودون أن يرمش أو حتى تتغير نبرته:

- بلى.. رأيتهما.

لهثت ثانية ترفض التصديق:

- وكيف استطعت أن..

قاطعها بحسم يخبرها به أنها تمادت وطال الحديث عما لا يرغب:

- أنا لم ألمس الطفلة.

علت لهجتها المتهمة بسخرية مريرة:

- أنت أطلقت النار على رأس والدها أثناء قيادته، ماذا كنت تتوقع!!.. انقلبت السيارة ومات كل من فيها..

لا تعلم هل جذبها إليه!.. لم تدقق أكان هو من اقترب!..

لكنها وجدت نفسها بين ذراعيه ويده تفكك بعبث جنوني أزرار قميصها بينما الأخرى تتحكم بخصرها والقبضة قاسية كما صوته وكلماته:

- كانت لديَّ مهمة.. وتمت.

وحجب كل اعتراضاتها خلف شفتيه عقب دمدمة أخيرة:

- لا مزيد من الحديث في هذا الأمر ربما.

وما عليها إلا الطاعة.. أو ربما ما الذي تملكه سواها؟!..

أوامر قلب ضعيف امتلأ حتى فاض بحب مروع لا يكمن وراءه إلا كل وجع، طريق اختارت السير فيه منذ أول لقاء بينهما، طريق لم تِحد عنه ولو للحظة.. عشقًا، أو حتى خوفًا!

***

للبراءة لذة لا يستشعرها سوى الضواري!

ولا ينالها إلا ذوو الجرأة وأصحاب الخطوة الأولى، فبين إقدام يتبعه امتلاك وتأنٍ يتطلبه عقل؛ رسم خطة وقرر السير على دربها حتى تمام الوصول..

رقيقة هي بدرجة فتنة شرقية دافئة، بريئة برتبة فخ مموه يوشك على الانطباق حوله.. وللغرابة أو الدهشة وربما مدعاة القلق؛ هو لا يرفض أن ينحبس بداخله أبدًا!!

وموافقته لحبس مؤقت لا تعني خضوعًا أو استسلامًا، هو فقط تلذذ بمذاق جديد فريد ومميز يليق بالمنمنمة والتي ينطبق عليها الوصف بشدة، مذاق يتيه فيه قليلًا ويتناسى الجارح الذي يتخذ من جلده ستارًا..

أسبوعان وقت، كافٍ أو لا!!.. لا يبالي، فهي في مكتبه، تجاوره والفارق جدار، والخطة تحاك بدقة كما اعتاد، البداية دراسة عن قرب، تمهل ودنو باحتراس فالنمر لا ينقض دون أن ينال طريدته كاملة، وتلك لن تفلت من بين أنيابه مهما حاولت، وهذه عن يقين ستكون النهاية..

طلبها لتأتي إليه، بشموخها الذي يعجبه، خصلاتها المموجة بطبيعية معقوصة بجمود لم يمنعها من فوضى محببة، عيناها الواسعتان المحيرتان، فلا هما احتفظتا بلون العسل خالصًا رائقًا ولا تلبستا رداء الزيتون الصافي، بسمتها الرسمية كأنما هي واجب اجتماعي ملتصق بوجهها، وذقنها المشقوق بحسن يود لو نالته شفتاه، وأخيرًا جسدها الدقيق المختفي خلف بذلة أنيقة حجبته بالكامل عن تفحصه اليومي هذا النهار..

وجدته يقف مواجهًا لنافذته وقد تخلص من سترته بل ورابطة عنقه وزرين من قميصه لتظهر سمرة بشرته عبر قُبته المفتوحة، كفيه في جيبي بنطاله والوقفة متصلبة كأنما هو جندي قيد انتظار أوامر قائده، تنحنحت بخفوت تحاول تناسي تلك النظرة التي ودعتها بها "ريما" قبل أن تغلق بابه خلفها كما يأمرها دومًا، الفاتنة التي لا تحادثها إلا بأقل القليل من الكلمات ورغم ذلك نظراتها التي تحيط برئيسها تفضحها.. هي له عاشقة وهو كما تراه؛ لا يكترث مثقال ذرة!

"ما معنى اسمكِ سديم!"

رفعت رأسها فجأة تخرج من دائرة شرودها اللحظية، تنظر إليه وقد التفت إليها يتأملها ولم تفهم قصد عينيه العاصفتين، ردها كان تلقائيًا بتمتمة:

- مشهور بأنه الضباب الخفيف.

ولم تذكر المعنى الآخر، التوت زاوية فمه بشبه بسمة:

- رمادية!

لهجته بها استمتاع لا سبب له، هزت كتفيها ولم تجِبه، اكتفت بفرار يائس من نظرته المتفحصة تعد نقوش سجادة باهظة أسفل قدميها، وتوالت خطواته المقتربة بتحفز يشبه انقضاضة متمهلة:

- تهربين بعينيك!

انتصر التحدي داخلها وقوة بات يراها فيها:

- لم أفعل.

المسافة بينهما قصيرة للغاية ولم ترمش، لم تهتز أو تبتعد، مجابهة بعناد أشبه بطفولية ابتسم لها بل كاد يقهقه، تحرك نحو مكتبه والتقط من فوقه ملفًا:

- أعيدي إدخال قواعد بيانات العاملين بالشركة على حاسوبك بعد التعديل اللازم..

ناولها إياه، وأتبعه بآخر أصغر حجمًا:

- أريد ثلاث نسخ مطبوعة من هذا العقد بعد إعادة كتابته بالشروط الجديدة المكتوبة فوقه بخط اليد، أرسلي واحدًا لمكتب السيد غيث والأخريان أعيديهما إليّ.

أومأت بطاعة ومقلتاها تحيدان إلى كل موطئ قدم متاح متنائيةً عن عينيه، همس باسمها والنبرة أرسلت رجفة غير مبررة في جسدها، نظرت إليه مجبرة:

- لا تتأخري، أريد هذه العقود اليوم.

عادت تهز رأسها بحركة خاطفة فتبسم ضاحكًا وتغيرت تعابيره للحظة:

- اذهبي إذًا.

تجمدت قليلًا كأنما لم تعِ أمره قبل أن تتحرك بعد استيعاب بطيء لما قال، قبيل الباب ناداها ثانية، توقفت دون استدارة ولم يكن هو يريدها.. بل فقط قرب لحد غير مسموح وانحناءة ولمسة من أنفاسه خلف أذنها تداعب خصلة تائهة قبل الهمسة:

- يعجبني اسمك.

وبالمعنى الحرفي لكل ما تعنيه كلمة "هربت" كانت تفر، تغادر المكان بخطوات مرتبكة عكس خطوات دخولها إليه، ارتباك لاحظته القابعة بالخارج بقلب منقبض ونظرات قاتمة حاقدة لا تملك إلَّاها.. وأسعده هو..

فما أجمل من بشائر نجاح خطة رسمتَها بدقة، ونفذتَها بحرفية!!

***

قيود الانتظار مؤلمة قدر ما هي مخيفة ومثيرة للرهبة في النفس التي فقدت اطمئنانها بل وتزعزعت ثقتها في قوة لطالما آمنت بامتلاكها يومًا لتتناثر في

لحظات فقط إثر نظرة نالتها منه قبل رحيلها في آخر مرة، نظرة تخبرها أنها لن تهرب.. وأن اللعبة قد بدأت وهي لها لذتها الخاصة.

أسبوعان مرا، لم يظهر في شركتها، لم يتواصل معها بأي شكل كان رغم معرفتها بتواصله الدائم مع شريكها بخصوص العمل، ولم يحاول حتى اتهامها بما توقعته منه!

أما عنه؛ فهو ماهر في فهم خرائط المرأة، بل ربما يمكنه الآن أن يرسمها بنفسه.. يخطط لها الطريق ويمهده لتصل إلى حيث يرغب دون جهد يذكر!

لكن عندما تتعقد الأمور، تنقلب الخطوط وتنفلت من عقال أصابعه الخبيرة؛ يحتاج لتغيير في تكنيك لعبته كلاعب شطرنج ماهر حتى لا تفقد لذتها أو رونقها.. وحتى يكون الفوز حليفه كما اعتاد، يدير الرقعة بمهارة، يتوقع حركات الخصم، ينقض في التوقيت الملائم تمامًا..

ثم النهاية "كش ملك" لصالحه هو!

وتلك البريئة باقتدار مدعَى لا تليق بها الخرائط التقليدية؛ لا الطرق الملتوية تجدي ولا تلبس دور الحليف ينفع، لذا فالرسم عالي الدقة في هذه الحالة لأنه على خلاف ماضيه سيتخذ من الخط المستقيم مسلكًا، حيث اللعب بتعرية كل الأوراق له متعة خاصة سيجربها دون قيد أو شرط، بعد فترة انتظار لا بأس بها تتم تسويتها خلالها حتى تمام النضج..

ألم يقولوا قديمًا:

"وقوع البلاء أفضل من انتظاره!"

هو ليس بلاءً لكن ما سيفعله بها؛ بالتأكيد سيكون..

أول خطوة كانت تسليم ملف العقد الجديد، ليس من مهماته بالطبع كما أنه لن يسلَم ليدها هي، لكن لا ضرر إن كانت النية توافق هواه، طرق بابها بخفة وفتحه دون أن تمنحه إذنًا ممعنًا في استفزازها..

دلف للغرفة ورفعت هي عينيها إليه من خلف عوينات طبية مؤطرة بسواد بدت فاتنة فوق مقلتيها الذهبيتين وأنفها المستقيم، رفع حاجبًا واقترب وعقدت هي حاجبيها تراقبه بتساؤل:

- مساء الخير.

لم ترد تحيته بل كانت جافة كما تكهن:

- ما الذي تفعله هنا؟

أغلق الباب من خلفه ببطء، عاد يلتفت نحوها وبعينيه تفحصها مدققًا:

- عمل شريكتي.. أم نسيتِ؟

لم تنفك عقدة جبينها تنتظر منه توضيحًا تباطأ فيه قدر ما أمكنه، بل تمهل في خطواته المقتربة بتوازن، جلس فوق مقعد مقابل لمكتبها، وضع ساقًا فوق ساق وأشعل تبغه دون أن يبعد نظراته عنها، ثم ابتسم فارتجفت نفسها من قسوة رأتها أو ربما توهمتها لا تعلم!!.. قسوة تخللت تلك البسمة الشيطانية الكامنة خلف لمعة سواد مقلتيه:

- شُقرة طبيعية أم اصطناعية!

ارتدت للخلف برأسها:

- ماذا؟!

نهض من مكانه ينفث دخانه في وجهها، يمد أنامله بجرأة ويمسك بشيء ما يجاور عينها اليمنى:

- خصلة ذهبية غادرت الأسر.

انتزعت نفسها بعيدًا عنه بسعال مفاجئ وحدة تلبست صوتها المعنف:

- أخبرتك من قبل ألا تحاول لمسي!

ضحك باستخفاف:

- نعم.. وإلا قطعتِ يدي، أذكر ذلك جيدًا.

وقفت باعتدال خلف مكتبها تتخذ منه حاجز أمان بينهما، تزيح خصلتها خلف حجابها بعناية ترمقه بغضب هو وغيمته الرمادية التي حبست لها أنفاسها:

- ما العمل الذي أتيت بشأنه؟

اعتدل هو الآخر والتمعت عيناه بتأمل:

- أنتِ.

لم ترد، هي تدرك ألاعيب أمثاله جيدًا ولا يهمها ما يظنه أو يفعله، لكن قبل أن تفتح فمها تأمره بالخروج قست نبرته فجأة:

- أكانت الشراكة حجة للاقتراب؟!.. أم الاقتراب غرضه شراكة وفقط!

كادت تسخر.. أو بالفعل سخرت من الموقف برمته:

- حياتي الشخصية لا دخل لها بعملي سيد غيث.

رفع حاجبًا ماكرًا، هذا الرجل تتغير ملامحه في الثانية الواحدة عدة مرات بطريقة تثير الفزع في نفسها:

- سيد!!..

ودار حول المكتب لتتراجع هي بابتعاد جعله يضحك بخبث:

- لا داعي للرسميات كارما، فبعد كل شيء بيننا علاقة خاصة هنا.

شدت قامتها وتوقفت، لن تخضع لخوف ما يتسلل بلؤم داخلها ولن تسلم لمائة تحذير يضيء عقلها ويأمرها بالهروب من أمامه:

- أية علاقة هذه!!

كان سؤالها مستنكرًا ورده باردًا:

- أنت تعرفين السيدة سوزان، صحيح!

تنفست وعدت لعشر، قبضت كفيها واستدارت بوجهها تنظر خارج النافذة لثوان حتى عاد هو يقتحم خلوة أفكارها بسؤال:

- لم تجيبي سؤالي!

نظرت إليه بدهشة فغمزها:

- شقرة طبيعية!!

سحبت دفقة من الهواء تبرد بها أعصابها الثائرة، تلبست رداء الهدوء ولو كان مفتعلًا وجاوبته بعملية رسمية التوت شفتاه لها:

- سيد غيث، إن كنت قد أتيت لعمل من الأفضل أن نتحدث فيه، غير ذلك.. غادر.

وللغرابة لم يغضب، هي تطرده ببساطة وببساطة أكبر يرغب هو في استفزازها، خطوتين سريعتين جعلتاه أقرب وقبل أن يزداد اقترابًا انفتح الباب ودخل "باسل" بسؤال شاب لهجته خلاله مرح لم يبتلعه:

- كارما.. هل راجعتِ ملف شركة...

تقطعت أحرفه واتسعت عيناه بتساؤل ترجمه لسانه سريعًا:

- غيث!!.. ماذا تفعل هنا؟

نبرته المهتمة والمتهمة بل والغيور استفزت الآخر رغم إدعاء براءة ذئبية لم يفهمها سواها:

- أتيت لأسلم الآنسة كارما العقد الجديد بعد التعديلات الأخيرة.

نقل بصره بينهما بارتياب:

- كان من المفترض أن أتسلمه أنا منك!

مط "غيث" شفتيه لا مباليًا:

- حقًا!!.. لم يخبرني أحد.

ومد يده نحو الملف الذي رماه سابقًا فوق مكتبها، التقطه وناوله إياه كأنما يصرفه بوقاحة:

- تفضل إذًا.

والنظرة معناها "ارحل" لكن عيناها هي كانتا جامدتين دون تفسير محدد، ولم يتحرك.. وبين بسمة واثقة شبه ساخرة ارتسمت على شفتي العابث، وتطلُع غاضب حانق لم يلتقط معناه سواه كانت الهمسة الأخيرة قبل الرحيل:

- الفتى يغار.. لنا لقاء آخر يا جميلة.

وودعها بتوعد ارتجفت له رغم روح العناد التي تحثها على صفعه في كل مرة يلتقيان فيها، فإن كان ينذرها بمقدمة نيته الدهماء.. فستكسر هي أنفه وتحطم ثقته العبثية بنفسه، والنصر لها شاء أم أبى!

***

للمرأة حين تعشق معاملة متفردة، ولها وقتما تغار دلال خاص..

هو لا يدلل، لا يهتم، بل ويمنعها ما تظنه حقها، وبشكل مبسط أكثر، هي مجرد متعة فراش وساعد أيمن ينجز أعماله المكتبية ويقنن مهماته الدموية..

كاتمة سر، مساعدة برتبة عشيقة والدوام كامل!!.. لا يهم، فقط ما يرغبه الرئيس هو ما يحدث رغمًا عن إرادتها، وتلك الفتاة ضئيلة الحجم التي أحضرها لمكتبه مجرد لعبة أخرى اشتهاها، توقفها عندها سيلفت انتباهه لها أكثر

والاختلاف الذي تشعر به داخله سيتحقق لو أمعنت في نبشه أو الاهتمام به والتساؤل عنه.

لذلك ابتعدت عن ذكرها، تجاهلت تلك النظرة التي تعلو عينيه في حضورها، حتى لو لمحت فيها جانبًا وحشيًا هو جزء منه لا غير، هي تقلقها.. لكنها تغض الطرف عنها مجبرة، بفكر امرأة تفهم بخبرة معنى نظرة رجل، وبقلبها الذي يخشى ضياع من تحب حتى لو لم تمتلكه من الأساس.

بقصره الذي اختار تصميمه بنفسه، داكن الألوان خشنًا يشبهه وبدقة، فخم بامتياز أنيق وبارد لا حياة فيه رغم وجودها.. خرجت من الحمام بغلالة كاشفة لا تكاد تخفي من مفاتنها شيئًا، تأمل تحركها نحوه بغنج وضيق المسافة بين جفنيه بتطلع عابث وبسمة خافتة ماكرة، لم يتحرك لاستقبالها بل هي من بادرته تراقب شاشة حاسوبه الموضوع على ساقيه الممددتين فوق الفراش بهمس مغوٍ:

- ألم تنتهِ من عملك!

حرك أصابعه بمهارة ينقر الأزرار بتتابع سريع:

- ليس بعد.

جاورته تريح رأسها فوق كتفه:

- مازال أمامك الكثير؟

توقفت أنامله فجأة عن النقر، مد يده يرفع وجهها نحوه ويغوص في سماء مقلتيها الشفافتين:

- ماذا بك؟

علت ملامحها دهشة شعر بها مفتعلة فتحولت نظراته لصرامة آمرة بطاعة:

- لا شيء، فقط أصبحت تنشغل عني كثيرًا مؤخرًا.

وفي بالها كانت ترسم خطة تشغله بها هي، تجذبه إليها وتقربه منها، تبعده عن تلك السمراء التي تجذب أنظاره بل وشريكه العابث أيضًا، لثم شفتيها برفق متجاهلًا ما يفهمه جيدًا فلا مزاج لديه لكيد النساء أو ثرثرتهن الفارغة:

- عملي ريما.

تذمرت تحاول الدلال وتتمنى منه استجابة:

- لم يكن من عادتك اصطحابه للمنزل.

رمقها بحزم فكَّر بعده بعض الشيء:

- بل هي عادتي.. أنتِ من لم تعتد المبيت في القصر.

ابتعدت قليلًا بجرحٍ نفذ لقلبها، كادت تنهض تاركة إياه لما يقوم به لكن عنادها حرك إصرارها، مدت كفها تدير وجهه نحوها، تلمس زاوية فمه بإبهامها وتقترب توشم فكه الخشن بقبلة ناعمة:

- أشتاقك.

أطال النظر إليها لثوان، في النهاية زفر ببقايا ضيق ورحب بانشغال يزيح أخرى عن عقله حتى لو كان ذاك الغياب.. بدوام مؤقت!

***

بقوة وعنف ظل يحرك ذراعيه عبر مسبحه، يغوص في العمق ثم يصعد للسطح، يلتقط بضع أنفاس لا تسمن ولا تغني من جوع أو حاجة رئتيه لها ثم يعود أسفل الماء ثانية، يطيل الوقت قدر استطاعته ويجوبه ذهابًا وإيابًا محاولًا التخلص من غليان لا يدرك سببه بداخله.. أو ربما هو يدركه لكنه يتناساه ويدعي عدم وجوده!

بعد ما يقرب من خمس وأربعون دقيقة آلمته خلالها ذراعاه ونال من جسده الإرهاق تعلق بطرف الحوض، أشعل لفافة تبغ واستدار يستند بظهره للجدار يفرد جسده ويتركه للماء يحمله كيفما شاء..

في كل لقاء بينهما يمتلئ بغضب لا نهاية له، لذكرى تحملها، لتحدٍ لا يستسيغه، لأنوثة تغوي رجولته رغم احتشام مفتعل.. ونعم هو مفتعل مادامت تربطها بالفاضلة أمه علاقة ما أيًا كان نوعها..

ما الذي قد يشكل فارقًا بين اثنتين من النساء الرابط الوحيد بينهما هو رجل!!..

هو الابن لواحدة والمطمع للثانية، مهما أنكرت أو ادعت وتظاهرت ببراءة هي مجرد قناع حتى تحصل على ما تريد!..

عاهرة لا تخضع لقانون إلا الثمن البخس لجسد منحته الطبيعة فتنة لا تستحقها، غانية ترسم دور قديسة لا يليق بها، وتخترع الأسباب لتصل إليه وتحصل عليه..

وهو سيتركها تفعل!!

فالوصول أصبح الهدف في النهاية، سينالها لكن عندما يحدد هو الزمان والمكان المناسبين، بعد أن تطمئن للنصر في معركة كان هو أيضًا من اختار أرضها وبيادقها وحدد خطة هجومها!!

علا رنين هاتفه النقال بنغمة مميزة رسمت على شفتيه بسمة، استدار يتناوله قبل أن يرد بعبث:

- مرحبًا.

صوتها المغناج يطالبه بالحضور دون حتى تصريح:

- أين أنت؟

رد دون التفاف:

- في منزلي.

عاتبته بدلال تذكره بما نسيه.. وللدقة تناساه:

- لم تأتِ الليلة!

نعم هو لم يفعل، والصراحة في هذه الحالة واجبة لا محالة:

- أردت البقاء بمفردي قليلًا.

نبرتها الحانية لم يفهمها ولم يبالِ بالاهتمام الذي غمرها:

- هل يضايقك شيء ما؟

رفع أحد حاجبيه، أكسب لهجته صرامة تمنعها افتعال عاطفة لا يريدها بل يرفضها وبشدة:

- أنا بخير.

أتاه سكون للحظات قصيرة علم فيها أن الرسالة وصلتها بوضوح، وعلى عكس نسائه الأخريات لم تظهر اهتمامًا أكبر أو حتى تدعي غضبًا من طريقته، بل ردت بنبرة عملية غادرها إغواؤها الفطري:

- جيد.. اعتنِ بنفسك.

وألقت تحية مساء تبغي بها إنهاء المكالمة، لكن هو لا يقبل أن تكون الكلمة الأخيرة لامرأة أبدًا، لاحقها بهمسه لاسمها بشغف:

- جوان.

وتلك الهمسة أوقفتها دون إرادة ليتمم هو ما أراد قوله:

- نلتقي في حلمك!

علم أنها تبتسم مع ردها:

- سأنتظرك.

ابتسم في المقابل وأغلق الخط..

عاد لشروده تاركًا أفكاره تطفو بعيدًا عاليًا في سماء عقله كما يحمل الماء جسده بحرية لا صراع فيها ولا حروب، فكما امتلك "جوان" دون أن يمنحها الفرصة لرسمية تحكمت بلهجتها لثانية فـ"كارما" هي الغنيمة التالية.. حتى لو تظاهرت ببراءة الدنيا..

وللتأكيد.. الذئاب لا تنخدع بمظهر والشياطين لا تعميها هالة نور؛ مكذوبة!

(٧)

المخادع: دومًا ما سيجد هؤلاء الذين يسمحون لأنفسهم بأن يُخدعوا!

"نيكولو مكافيللي"

***

هل يمكن الاعتراف بأن أقوى سلاح ردع هو.. الحب؟!

وهل يمكن القول أنه في حالة الأنثى يتحول ذاك السلاح لأداة عجز!!.. كما تعجز أم عن تلبية طلب صغيرها بحلوى تفوق قدرة ميزانيتها.. فقط لأنه يرغبها!

هي تدرك أنه يرغبها، وبشدة..

تلك النظرة التي تملأ عينيه عندما يتأملها ولو لثوان، بل طواف مقلتيه في محرابها، تقربه الحثيث لكن البطيء منها، يريد تملكها ويسعى لذلك بحرص لا يلحظه سواها..

ما يميزها!!!..

لا شيء، أوربما هو أمر واحد يجذب وحشًا مثله كما تشتهي الذئاب رائحة الدماء وتستثارها النمور..

براءتها!..

وهي لن تنكرها عليها، الفتاة صغيرة، منطوية تحيط نفسها بدرع غير مرئية من قوة مصطنعة تحمي بها كيانها الهش أو تتظاهر بذلك، عيناها دومًا في حالة شرود..

وهناك ضعف ما يستشعره أي رجل يجعله يبادر بعرض خدماته..

والغرض حماية..

أما عند ضارية مثل معشوقها، فالغرض يتسع ويشمل الكثير، يشملها هي بالكلية حتى تمام النفاذ، كما أُستنفِذت هي بالضبط، قلبها، روحها، عقلها، جسدها.. وعلاقة امتدت لأكثر من اثني عشر عامًا منحته فيها كل ما أمكنها وتفضل هو فيها عليها بفتات متناثر من نفسه.

اعترفت لعقلها المكدود بأفكار تذبحها كما تقبض خافقها..

هو يريدها!!

وهي لا تملك حق الاعتراض، أما عن المانع؛ فيكون الحب الممتزج بخوف يسكنها نحوه ولا سبيل للخلاص منه!

تحبه وستمنحه لعبته التي يطالب بها بصمت، حتى الشبع، حتى الاكتفاء وحد الملل.. حينها سيتخلص هو منها، وتبقى هي متوجة على عرش ظلامه رغم كل شيء وبعد كل شيء، فهي كانت البداية وهي ما تلي كل نهاية حتى لو تألمت في المنتصف..

ظلت تتأملها للحظات، ربما البراءة ليست كافية لدرجة جذبه!.. فارق جلي بين فتنتها الصريحة وجمال تلك المتواضع، العادي.. الذي ألفته العين في كل جحر وشارعٍ ومفترق طرق وعند كل ناصية!!

نهضت تدعي الهدوء، الغرض الظاهر عمل والمبطن ثأر.. ليلة أمس والتي ظنتها مختلفة؛ لقد ترك عمله لأجلها، لأجل أن يكون معها، انتهى منها وأمرها بالمغادرة، ولا تكاد تصدق للآن حتى أنها احتدت عليه وقتها وهي من المرات القليلة التي فعلتها.. وبادلها الحدة بشراسة كعادته..

وكعادتها؛ خضعت بالرحيل..

واليوم يأتي متأنقًا بعطر مثير وذقن مشذبة بخشونة محببة، عيناه وآه منهما تلمعان بقرار ما، ونصف ابتسامة تخص النمر تزين شفتيه.. نصف ابتسامة لم تكن لها، بل لتلك اللعبة التي يتشبث بها..

اقتربت من مكتبها المنكفئة فوقه تضرب أصابعها لوحة المفاتيح بسرعة وإتقان، شدت قامتها بعزم وادعت العملية في لهجتها:

- هل انتهيتِ من العقود التي سلمها لكِ السيد آمر بالأمس؟!

رفعت "سديم" رأسها في دهشة.. فهذا السؤال لا يجوز أن يُطرح من الأساس:

- بالطبع لا!.. لقد سلمها لي قبل نهاية الدوام بأقل من نصف ساعة، لكن ها أنا ذا أعمل عليها.

ولأنها تعلم الجواب فقد لاحقتها بغضب متعالٍ:

- ماذا؟.. كيف لم تنهِها إلى الآن؟.. هذه العقود سيحتاجها السيد آمر في اجتماع اليوم..

ونظرت في ساعتها بدقة قبل أن تكتسب نبرتها تحقيرًا متعمدًا:

- والذي بالمناسبة لم يتبقَ عليه سوى ساعتين.

ازدردت "سديم" لعابها بصعوبة، لا تدرك أي لعبة هذه أو انتقام أحمق من امرأة عاشقة تظن أن عشقها موضع تهديد!:

- سأنهيها قبله بإذن الله.

وقبل أن تسبها أو تكمل افتعال الشجار والتناحر ظهر المنقذ العابث:

- لمَ تتشاكس هرتيّ الرئيس!

التفتت إليه "ريما" وعيناها تبرقان كهرة بالفعل فتراجع خطوة ورفع كفيه أمام وجهه بتمثيل:

- يا إلهي.. القطة غاضبة للغاية.

وتوجه بنظره نحو الساكنة خلف مكتبها:

- ماذا فعلتِ سديم لتثيري حفيظتها إلى هذه الدرجة؟

ثم زوى المسافة بين حاجبيه وتحرك مقتربًا، ولسان الجالسة عالق بحلقها دون حراك.. لكن الشرسة فتحت فاهها لتوبخ الماكر الذي كان بمواجهتها، تخطاها.. مال بهمس شبه آمر في أذنها:

- اتركيها لحالها ريما.

ولم تصمت بل بادلته الهمس بحدة:

- ماذا؟.. تعجبك أنت أيضًا؟

انعقد حاجباه لكنها أكملت بحماقة:

- ربما يمكنك تناول بقاياها عندما ينتهي منها.. الرئيس.

ازداد انعقاد الجبين، وامتدت قبضته القاسية تحيط بمرفقها تضغطه بغلظة دون أن يغادر موقعه أو حتى يواجه عينيها، فقط انحنائته زادت حتى وازت شفتيه أذنها، تشعر بسخونة أنفاسه، بذبذبات نبرته الغاضبة وحروفه المشتعلة رغم غلاف البرود:

- تخطيتِ حدودكِ ريما.

ومال أكثر فأصبحت ملامسة شفتيه لأذنها فعلا حقيقيًا لا وهمًا بخيالها:

- لو كنتُ أهتم بالبقايا؛ لكنتِ أنتِ على رأس القائمة.

آلمها مرفقها فأنَّت بخفوت، ابتعدت بوجهها ترمقه بنظرة جريحة جعلته يلوي شفتيه هازئًا، يميل برأسه ويحررها من قبضته.. يأمرها بصرامة أثارت رجفة في جسدها:

- احذري فحسب.

وتحرك نحو الأخرى التي تراقب ذاك القرب دون فهم، بل بقلق، عيناها تبعثان بنظرة شفقة نحو المستأسدة عليها فابتسم وعلامة استفهام ترتسم بداخله قبل أن يخبره عقله:

"هذه الصغيرة لا تنتمي إلى هذا المكان"

وقف أمامها بملامح شقية ولهجة عابثة كسا بها كلماته:

- كوني بخيريا.. منمنمة.

ورحل حيث شريكه، تاركًا خلفه قلبين ينبضان بتسارع، أحدهما مذبوح والآخر.. خائف!

***

طقوس اصطياد الأنثى في عالم الرجال متنوعة لكن مهما تباينت فيما بينها يظل الحب هو أول الخيط وكذلك آخره، طرف ما إن شددته انجذب وإن أرخيته شدته هي حتى اقتربت..

هو يقدم الحب لينالها، وهي تمنح نفسها لتنال الحب!

أما في عالم الضواري فللطريدة قانون واحد؛ مطاردة لا تنتهي إلا لحظة القنص مهما طالت..

لكن ماذا إن كان الضارية رجلًا جمع بين قوانين العالمين، هل تصبح هنا متعة الصيد أكثر جذبًا وأشد إرعابا!!..

والجواب نعم..

نعم بقوة، خاصة عندما تكون تلك الطريدة أوضح براءة من غزال وأرق من ورقة شجر أسقطها الخريف بضعف، عندما تهرب الفريسة بظن منها أن الهروب ممكنًا ويدرك النمر أنه محال!!

أغمض عينيه بهدوء شاردًا بأفكاره في ذكرى مهما حاول طمسها تعود للظهور، تنبئه بمدى دُجنة الظلام الذي يعشش بروحه، يبني بداخله أسوارًا عالية لا يتخطاها أحد ولا يجرؤ على الاقتراب منها إنسان..

يخبره بيقين أن الأنثى وسيلة متعة في وقت فراغ.. فلا يُخلق لها ذاك الوقت بقصد، ولا تناله بأحقية!!..

وسيلة في كل الأحوال ولن تكون أبدًا.. غاية مهما أرادها ومهما أنكر أو استنكر تلك الرغبة غير المفهومة بشكل كلي أو وافٍ!

دقة سريعة أخرجته من حبكة خطته التي بذهنه تجاور عبث ماضٍ بحاضر يتشبث به طاردًا تلك الأشباح التي تحوم حول عقله ساعية لتشتيته خارج المعادلة، رفع عينيه للباب بنصف بسمة والآخر يطل برأسه مشاغبًا:

- هل أدخل يا شريكي؟

أشار له بيده فتحرك مغلقًا الباب من ورائه، اتجه إليه وهز رأسه مشيرًا نحو الخارج:

- أخبرني بآخر الأخبار؟

تجاهل ما أشار إليه واتخذ اتجاه العمل دون حياد عنه:

- اجتماع اليوم تم التحضير إليه، العقود يتم طباعتها الآن وفي أقل من ساعتين سنستولي على الشركتين.. يا شريكي.

جلس بأريحية فوق الأريكة العريضة، وضع ساقًا فوق ساق وفرد ذراعيه فوق ظهرها متخابثًا:

- تغير الموضوع وتلتف حوله..

ثم اعتدل فجأة يستند بمرفقيه لركبتيه باقتراح يعلم أنه يؤجج النار:

- لا تناسبك آمر.. الفتاة لطيفة للغاية لتكون مع الغامض المخيف..

ضيق "آمر" عينيه بنظرة لا ملامح لها بينما "غيث" ينهض، يتوجه نحوه، يستند فوق المكتب مائلًا نحوه وغامزًا بملاعبة:

- هي مني.. وأنا منها، نليق ببعضنا أكثر.

تحولت النظرة لباردة تبعث على القشعريرة، ولم يأبه لها العابث:

- هي الغيم وأنا المطر.. ما رأيك؟

قابله صديقه بنهوض، ميل مواز ولقاء أعين في حالة حرب أو للدقة مناوشة ما قبل المعركة:

- هل تأخذ رأيي فيما يخصي غيث؟

وفي نظرته الجامدة تصميم يثير الرهبة، فقط الشريك رفع حاجبًا حين صمت، تأمل المقابل له لثوان، يسبر غور تلك النظرة.. النبرة.. العناد والإصرار الغريب،

يبحث عن سبب أو ربما اختلاف!.. ثم تراجع بهدوء، أشعل تبغه بتحدٍ كأنما يخبره أنها ستكون "الحرب"..

و"آمر" ساكن جامد.. لم يرمش، يتحرك أو حتى يبدو للناظر أنه يتنفس، على ذات الوضع المستند للمكتب، لم يرفع عينيه بعيدًا عن "غيث" والثاني لم يبعد نظراته، ثم ابتسم بشقاوة وهز كتفيه بتسليم:

- حسنًا.. هي لك.

لكن الآخر غضب.. وغضبه بارد كمعظم الوقت، عندها اكتفى بطلب صيغته آمرة:

- لا تفعلها ثانية..

وكان يقصد تلك المناوشة التي تخص ما أراد، وهو فهم، وتراجع بتكنيك:

- تعلم أنني لن أفعل، أنا فقط..

ثم عاد يميل ويغمز ويبتسم:

- أحرك المياه الراكدة.

ارتد "آمر" للخلف، بادله البسمة بيأس فهو يفطن لصديقه جيدًا، لكن هناك منطقة، حدودًا وهمية رسمها لنفسه ولممتلكاته..

حدودًا لا يتخطاها أحد إلا وكانت حياته هي الثمن!

***

أنفاس عميقة بطيئة متتابعة، قامة مشدودة وقبضة مزمومة بتوتر.. أما القبضة الثانية فهي تمسك بالملفات التي أنهت طباعتها قبل ثوان بعدها تحركت نحو بابه تحت أنظار القابعة خلف مكتبها بلا حراك، بسكون تعلم أن سببه ذلك الهمس الذي تبادلته مع رئيسها الآخر فغادر هو بتجاهل وأغمضت هي عينيها بألم، طرقته وانتظرت لحظة، ثم فتحته ودلفت للداخل بهدوء..

وقفت تنظر إليه بينما يوليها ظهره، بنيته القوية وهيئته التي تشعرها بالضآلة حرفيًا، تعبث أنامله بمشغل اسطوانات حديث بعدها انطلقت في الغرفة موسيقى شهيرة تعرفها، أو للدقة تربت على سماعها بين حين وآخر..

ابتسمت وعادت للماضي، لذكرى طفلة صغيرة بخصلات ليلية تشبه الموج الغاضب، حذاء منمنم يناسب قدمها وحركات تقلد بها هؤلاء الراقصين على شاشة تلفاز بلا ألوان كانت أقصى ما سمح به مرتب الأب الضئيل..

جميلات، رشيقات تدُرن حول أنفسهن وتكاد تطِرن بحرية، والحبيب يتلقف إحداهن ويدور بها أيضًا، والثوب واسع منتفش بكت لأجل واحد مثله دون جدوى..

خلال سباحتها في عالم ذكرياتها كان قد استدار، وقف بصمت يتأمل ملامحها الغائبة وتلك الشفاه التي وُلدت وماتت عليهما بسمة حزينة، عقد ذراعيه أمام صدره وخمن:

- تستعيدين معها ذكرى؟

انتبهت إليه بانتفاضة خافتة، توترت كما هي في حضوره دومًا، وبارتباك جاوبت:

- نعم.

زوى ما بين حاجبيه باهتمام:

- تعرفينها إذًا!

أومأت بهمس رقيق داعب أذنيه:

- بحيرة البجع.

وأكمل وعقله يغيب مع الموسيقى:

- تشايكوفسكي.

هزت كتفيها فأردف بتساؤل:

- لا تحبين الموسيقى الكلاسيكية!!

وخجلت أن تعترف لكنه أصر على الرد بانتظار هادئ فرضخت:

- للأسف لا.

تحرك نحوها خطوتين:

- لمن تستمعين إذًا؟

بتلقائية كان ردها الذي ابتسم له:

- فيروز.. وأعشق صوت نجاة.

مط شفتيه بعد البسمة:

- ذوق أنيق رغم كل شيء.

واقترب أكثر يدور حولها بتلكؤ، يتمعن بقميصها الرمادي وتنورتها السوداء الطويلة دون بهجة لافتة للنظر، موجات شعرها المعقوصة في ربطة رسمية ورأسها المنحني لأسفل برعشة يعلم أنه يثيرها بداخلها:

- أنا أفضل الموسيقى الكلاسيكية، تمنحني سلامًا نفسيًا لا يرقى لمستواه شيء آخر، تشعرني بالتناغم مع ذاتي، يزداد تركيزي معها فتصبح كل النقاط كأنها في خط مستقيم أتنقل بينها بسلاسة وهدوء.

عندما أنهى جملته كان يواجهها، اضطرت لرفع عينيها نحوه فغاص في أعماقهما بسؤال جديد:

- لكنك تعرفين هذه، كيف!

حاولت الفرار بمقلتيها ولم تستطع، كأنما أسرها بتلك العواصف المثيرة للرهبة التي تسكن بين جفنيه، وجدت همستها تخرج ببساطة من فمها كأنها تحت تأثير تعويذة ما:

- لطالما أردتُ في طفولتي أن أصبح راقصة باليه، كنت أشاهد العرض دومًا على التلفاز.

وهذا رد لم يكن يتوقعه بالفعل، ارتفع حاجباه وانطلقت منه ضحكة خافتة عفوية:

- حقًا!!

أخيرًا تحررت من قيد نظرته فعانقت الأرض بكل جوارحها هروبًا وابتسامة رقيقة خجول تتسلل لشفتيها تصاحب إيماءة بنعم من رأسها، أتتها نبرته محملة بعمق ارتجف له قلبها:

- مليئة أنتِ بالمفاجآت.. سديم.

ثم مد يده نحوها بصمت، تأملتها بحيرة جعلته يضحك ثانية:

- العقود!

ارتبكت بشدة، ناولته إياها بسرعة، تلامست الأنامل دون قصد.. وتلك اللمسة أطلقت شرارة شعر بها كلاهما.. فلم يعد هناك بعدها جدوى من أي إنكار متاح فقد أصبح كله.. غير مباح!

***

وكما للنمور طقوس في الصيد، فللضباع طريقة خاصة لنصب الفخاخ، تعتمد قبل أي شيء على لَيّ عنق الأمور حتى تمام نيل الفريسة..

أكثر من أسبوعين مرا على آخر لقاء تعرض لها فيه بعنف مانعًا إياها من الذهاب لعملها، عنفَّها وتعامل معها بقسوة وغلظة لا تليق بها، بل حتى لا تليق برغبته فيها.. فهي تتباعد أكثر والامتلاك الذي يطمح إليه يتطلب خطة مختلفة ومنهاجًا مغايرًا يتعامل معها به..

نهج وضعه قيد التنفيذ بعد غياب طال لعدة أيام قبل أن يتابعها بعدها بعينيه في هدوء صامت، يحرص على أن تراه، فيبتسم لها بودٍ حانٍ، تبتعد بنظراتها

لكنه يدرك أنه يترك بصمة ما في أعماقها، وتلك البصمة ستتعاظم كل يوم حتى تتملك منها يتبعها تملكه هو..

بعد قليل ستعود من عملها، وهذه المرة سيعترض طريقها بلين، يهتم بها ويتخذ من طقس الرقة والتفهم طريقًا يسير به نحوها، لمح خطواتها أول الشارع فنهض متعجلًا، وقف إلى جوار باب منزلها وارتكن إليه، يرسم نظرة مهتمة وابتسامة عطوف، لمحته وتباطأت حتى وصلت قربه، لم يعترض المدخل فقط همس بضعف:

- كيف حالك يا ابنة عمي؟

شمخت برأسها كعادتها في مواجهته:

- ماذا تريد حسان؟

هز كتفيه وقلب كفيه باستسلام:

- لاشيء.. الاطمئنان عليك فحسب.

ولم يقاوم خطوة نحوها:

- تعلمين أنني أهتم لأمرك!

عقدت حاجبيها تبحث عن ثغرة فيما يقوم به، مضمون يستهدفه ولأجله غير التكنيك المتبع، قررت مجاراته حتى يرحل:

- أنا بخير.. شكرًا لك.

وتحركت نحو الباب تطلب الرحيل لكنه أوقفها بتتمة حديث:

- اعتني بنفسك سديم.. وطمئنيني عليكِ باستمرار.

استدارت بعينيها إليه في دهشة فتوسعت بسمته وأومأ:

- لو احتجتِ لأي شيء، فقط اطلبيه دون تردد.. في النهاية نحن أبناء عمومة ودمنا واحد.

شعرت بارتباك غريب وتساؤل يملأ نفسها:

"من هذا!!"..

لكنها اكتفت بموافقته وغادرته بعجالة، تحرك نحو محل تجارته بتمهل وبسمة صياد تعانق شفتيه.. فهو ألقى بسهم، وأوشك على إصابة الهدف..

يحتاج بعد لنثرات من الصبر وذرة بسيطة من اهتمام..

***

هل يجوز لأنثى الشرود في غير الممكن!!.. تمني ما لا يجوز الوصول إليه حتى لو كان مجرد حلم ينتهي لدى فتح عينيها على صباح واقع لا مناص منه!!

به شيء غريب بلا تفسير، يجذب اهتمام عقلها في لحظة، وفي أخرى يرهب القلب فيتراجع منكمشًا رافضًا حتى نمطية الفكرة..

يجمع بين الكثير من المتناقضات، صرامته التي تعلمها، نظرته المثيرة للخوف، يحترمه الجميع لكنه ذاك الخضوع المنكه برهبة لها مذاق ذعر واضح لا تخطئه

عين، وبين القيل والقال أدركت أن من يحبه حقًا هما اثنان أما البقية فيرتعبون منه.. صديقه ومساعدته!

والآن لا تفهم لمَ يشغل بالها!!..

بهيئته الراقية الأنيقة، رمادية عينيه المشابهة لعاصفة رعدية لا هوادة فيها، خصلاته البنية الداكنة حتى تكاد تقارب السواد، فقط وجوده يشعرها بضيق المكان فعليًا لا مجازًا رغم حجمها الضئيل إلى جواره.. أو كما يسميها شريكه "المنمنمة"..

ابتسمت بهدوء وهي تغير ملابسها، ما الذي جعلها تفكر فيه؟!.. اهتمامه غير المبرر بها!.. بما تحب أو تكره أو تهتم!.. بجانب لم تعلم بوجوده داخله، موسيقاه المفضلة وذاك الوصف المعبر لها وحتى ضحكته الخافتة التي أخجلتها، تعانق جفناها كأنما يقف أمامها يُحيي ذكرى الخجل..

تحركت نحو غرفة خالتها بتمتمة توقف بها أفكارها المرفوضة منها:

- ما يهمكِ من غموضه أو حتى هو نفسه!!.. توقفي.. بل تعقلي سديم.

دخلت للمرأة الساكنة في فراشها ببسمة واسعة مرحة:

- الجميلة ماذا تفعل؟

بادلتها الخالة بسمتها بحنو، مدت يدها إليها فتمسكت بها وجاورتها برفق:

- لا شيء صغيرتي.. كنت أنتظرك لأمر هام أريد محادثتك بشأنه.

شعرت بقلق مبهم انتزع من نبرتها مرحها:

- ماذا هناك حبيبتي؟

ربتت على وجنتها بحنان أمومي:

- لا تقلقي طفلتي.. هو هام ويحتاج منك الإنصات وحسب، وأريد قبله وعدًا ألا ترفضي على الفور!

انعقد حاجباها وحل الشك محل القلق في بالها:

- أخبريني خالتي؟

ضغطت السيدة بلين فوق كفها المستكين بين راحتيها:

- لقد تقدم لك خاطب.

هبت واقفة بحدة مفاجئة:

- ماذا!!

مدت يدها نحوها تعيدها إلى جوارها:

- اهدئي سديم.. استمعي إليّ أولًا ثم حكمي عقلك قبل أي شيء.

صمتت، صمتها ليس دليل موافقة على تقبل الموقف لكنها تريح خالتها وكفى، هي ترفض الفكرة والمبدأ وحتى مجرد الخوض في الأمر لذا فلا ضرر من إسعادها ومنحها أذنين:

- هو رجل جيد للغاية، أتتني جارتنا السيدة شريفة اليوم وكلمتني في الأمر، هي تعرف أمه وأمه تعرف أمك رحمها الله.. كانتا صديقتين قبل أن تتزوج كلتاهما،

وتشغلهما أمور الحياة.. أنجبت ولدًا وحيدًا وعندما أتم عامه السادس عشر اصطحبها زوجها وغادر لأحد الدول لأجل العمل..

ولهثت قليلًا فربتت "سديم" فوق ساقها بعطف:

- ارتاحي.. لا داعي لتقصي عليَّ التفاصيل كاملة.

ابتسمت المرأة بتأنيب:

- بل هناك كل داع.. كبر الولد وأصبح رجلًا يعتمد عليه، أنهى دراسته وعمل مع والده، ادخر لحياته وزواجه ثم عادوا جميعًا قبل شهر، ورآكِ الفتى!

وتحول التأنيب لحنو فخور:

- شيء ما جذبه إليكِ، جعله يسارع لأبويه ويخبرهما برغبته في التعرف عليكِ بطريقة رسمية.. ولو تم القبول يتحول الأمر لخطبة وزواج.

وأعادت خصلة شاردة للفتاة خلف أذنها قبل أن تحيطها بعينيها:

- أنا أعرفهم أيضًا يا ابنتي، وأعرف الشاب قبل رحيلهم وقبل أن يقعدني ذلك الحادث..

وعاد التوتر يملأها بما تعرفه عن ابنة أختها العنيدة:

- ما رأيك لو قابلتِه!

تظاهرت "سديم" بالتفكير لثوان، فالرد حاضر وواضح ووحيد منذ زمن:

- لا.

والخالة امتلأت بالحزن والغضب معًا:

- ولمَ؟

أدارت وجهها هاربة:

- لا أريد الزواج خالتي وأنتِ تعلمين.

أمسكت بذقنها تجبرها على مواجهتها:

- هذه سنة الكون منذ خُلق سديم.. أنا أعرف سبب رفضك، لكني أؤكد لك، الشاب رجل ناجح يعتمد عليه، لا تخشي عليّ سأكون بخير، وهو سيكون معك.. إلى جوارك.

هزت الفتاة رأسها برفض وشفتيها تتابعان التمتمة لكن خالتها منعتها بكلمة أخيرة:

- لن ترهبني في محراب العناية بي سديم.

ضعفٌ ما ملأ مقلتيها، لمعة دامعة ظهرت في أفق عينيها، فخفق قلب المرأة بحنو:

- طفلتي الغالية.. لا تحزني، أنا وأنت سنكون بخير، فقط أسعديني وعديني بالتفكير في الأمر.

رمقتها بنظرة واهنة دعمتها هي ببسمة مطمئنة، هزت رأسها بعدها بموافقة أكثر وهنًا:

- حسنًا خالتي.. سأقابله.

والخالة كادت تقفز فرحًا إنما منعتها الاستطرادة الحاسمة من الفتاة:

- لكن ليس الآن.. أمهليني بعض الوقت لأكون مستعدة لذلك اللقاء.. نفسيًا على الأقل.

سألتها بلهفة:

- هل يكفيكِ أسبوع؟!

وابتسمت "سديم" لفرحة خالتها التي تلمسها لأول مرة منذ وقت طويل:

- اجعليهما أسبوعين وبيننا اتفاق.

تراجعت خالتها بإحباط لكنها أكملت ببسمة مفتعلة:

- لا تحزني، لقد وعدتك باللقاء، وهذا كافٍ الآن.

أومأت لها بقبول مستسلم، فيكفيها أن ابنتها قد استجابت حتى لو كان لأجلها، نهضت "سديم" تغادر الغرفة بغرض تحضير العشاء لكنها نادتها باهتمام معاتب:

- أنت حتى لم تسألي عن اسمه!

وتوبخها كأنما تخبرها أن موافقتها مدَّعاة، مجرد تظاهر بتلبية طلبها وبعدها لا تضمن رد الفعل، استدارت إليها وشاكستها:

- حسنًا ما اسمه؟

ترسم ضحكة علَّها تريح قلب أكثر من تحب في هذه الدنيا، لكن الجواب فاجأها وأعاد لعقلها الذكرى الخاطفة التي لم تفارق خيالها بعد:

- مهدي!

والفارس الآن يمنحها شرف القرب، أو يطمع هو فيما انتزعه من بين أنياب الضبع..

(٨)

قد يودي بنا الحب إلى النار أو الجنة، لكنه يودي بنا حتماً إلى مكان ما

"باولو كويلو"

***

الأنثى دومًا ما تمنح حياتها لرجل: أيًا كان دورها في حياته هو.. أم، زوجة أو حتى عشيقة في ظل يحجبها عن الأعين، حين وقت فراغ أو حتى لوقت مستقطع خاص لا يهم، ما يهم أنها تمنحه كل شيء برضى ودون مقابل يذكر!

ولأن ما يُمنح بثمن بخس تقل قيمته تبعًا لأبسط قوانين السوق، يحل محل الاشتياق اعتياد، ويصبح الاطمئنان لامتلاكه أمر مسلم به، حتى لو ما أصبحت عليه هو محض بقايا..

الكلمة طعنتها في صميم قلبها، طعنتها لأنها استشعرتها كأنها هي بالفعل، ذبحت ما تبقى لها من كبرياء، وأهالت على غرور الأنثى بداخلها التراب، ثم دهستها أقدام الانكسار غير المصدق؛ أن هذا هو ما وصلت إليه في النهاية!!

تنهدت بعمق وخرجت الأنفاس من صدرها بعدها حارة متقطعة متوجعة تشُجه بقسوة، دمعات متوالية خائنة أهانت كل تماسكها بهطول لم تستطع منعه،

تستعيد وصفه، غضبه، الحقد الذي ملأ نبرته وقتها والشراسة التي لم تعتدها معه!

وكل هذا لأجل نكرة لا محل لها من الإعراب ولا عامل جذب يحيط بها فيظهرها للعين الراغبة، فتاة ضحلة لا تعني شيئًا ولا تملأ كيان رجل كحبيبها أو حتى شريكه العابث.. لكنهما رأيا فيها ما لم تره بعين أنوثتها الغيور، وقرر الحبيب أن يحوز عليها والبداية كانت قرب..

ويأتي حاميها المدافع ليجرحها هي، ويعلمها بما ظلت تتجاهله وتتناساه، هي فقط ستعدل عليه قليلًا، ليست بقايا.. بل وجودها ليس محل نقاش.. وقتما ذهب وغادر ورحل أو غاب بعدها سيعود، لتكون هنا بالانتظار.. هو يعلم وكذلك هي والصفقة منتهية وموقعة برضى الطرفين.

لذا فمهما حدث، مهما تباعد أو سخط أو تجاهل ستبقى هي معه وما عداها راحل حتى تلك الضئيلة التي تراها تهديدًا مختلفًا تخشاه وتخشى توابعه..

انتهى الدوام والكل ذهب إلا هو وهي.. مسحت دمعاتها بضعف وتطلعت لبابه المغلق لبضع ثوان، نهضت وتوجهت إليه تفتحه دون طرق، كان ممددًا على أريكته العريضة وفي الخلفية موسيقاه الهادئة تنتشر بنعومة داخل المكان، بدا متحررًا من رسمية العمل بقميصه المفتوحة نصف أزراره، ساقاه الطويلتان إحداهما فوق مسند الأريكة الجانبي والأخرى منثنية تستند للأرض وساعده الذى غطى عينيه..

أغلقت الباب خلفها وتحركت مقتربة برباط جاذب خفي يظل يسحبها نحوه دون أدنى مقاومة حتى لو تجاهل هو وجودها.. وقفت قبالته فأبعد ذراعه ينظر إليها بتساؤل فتحت فمها تريد الحديث لكن كل الكلمات تحشرجت وهو ينهض بسرعة، يواجهها بتفحص:

- ما بك؟

غرقت في تلك الغيوم التي تظل تكبلها إليه دون جدوى أو مهرب:

- لا شيء.

لكن نبرتها الخائنة قالت الكثير.. قالت أن هناك كل شيء، أثر الدموع الجاف والأخرى التي بدأت في التوالد ثانية يدلل على أن ذلك الشيء أيضًا ليس بالهين:

- كنتِ تبكين!

تبًا لذلك الضعف الذي يتمكن منها عند مواجهته، تسارعت نبضاتها بلا سبب محدد وهو يقترب ويمد إبهامه يلتقط به دمعة وليدة قبل أن تغادر مكمنها بين أهدابها:

- لمَ تبكين؟

جفاف صوته لم يشعرها باهتمام كافٍ، وهي رضخت لنداءات القلب أكثر مما ينبغي حتى أصبح الوجع محطمًا لروحها:

- ليس لشيءٍ هام.

تهربت ولأول مرة ترفض الدلال أو حتى مبالاته بما يحزنها، لكن يبدو أن ذلك أغضبه، أعاد يده إلى جواره، رمقها بصرامة حازمة.. وتلبس لهجته الجمود غير المكترث:

- حسنًا.. لا تظهري أمامي إذًا بآثار الدموع.

وعقد حاجبيه:

- لا مزاج لدي لألاعيب النساء تلك.

ويمنح لنفسه سببًا ليتباعد مجددًا، بل يسوغ لعقله فهمها وتحليلها ثم يضع العلاج في كلمات باردة صارمة تزيد من آلامها.. همست بهزة رأس نافية:

- أنا لا..

وقاطعها بنَهي لم يخلُ من ضيق:

- لا تبرري ريما.

ولم تبرر، بل انهار سد التماسك في مواجهة سيل الدموع صامتًا خاشعًا لذل عين تخضع لأوامر عينيه.. زفر حينها وضيقه يزداد قبل أن تنقلب لهجته لقسوة:

- توقفي.

ورغم النبرة المقبضة للروح بأمر يمنع البكاء فقد كانت الأنامل تحنو ماحية السيل بهدوء، ولمبادرته شبه الحانية أو التي أقنعت نفسها أنها كذلك خاطرت:

- آمر.. أنا أعلم أنك تريدها.

عاد حاجبيه للانعقاد كأنما ينبئها أنها تخوض فيما لا ينبغي لها الخوض فيه:

- يمكنني أن أذلل لك العقبات.

وكانت بالفعل مخاطرة غير محسوبة:

- وكيف ذلك ريما!!

لم يحمل صوته تساؤلًا رغم الصيغة لكنها كانت من الحماقة بمكان لتكمل وتجيب:

- للأنثى طرقها الخاصة.

واقتربت تضع يديها فوق صدره تتأمله بغرام مذبوح:

- فقط عد إليّ بعدما تنتهي منها.

أحنى رأسه والغموض يملأ مقلتيه، لحظات طالت وخلالها تسارعت نبضات خافقها في رعب تدرك أنها ربما أثارت سخطه.. مد يديه يقبض على كفيها بعنف جعلها تئن:

- تذللين لي العقبات!!.. ماذا ستفعلين يا أنثى؛ تعرف طريقها؟

وكان شبه ساخر بعدها مال بأنفاس هادرة في وجهها:

- ستعطينها شرابًا لأنال منها ما أريد على سبيل المثال!!.. أم ستخدعينها بوالدتي المريضة التي تريد التعرف إليها وتسحبينها لمنزلي!!

اتسعت نظراتها ذعرًا وهلعًا:

- لا آمر.. أنا فقط..

لكن كل فرص الرد المتاحة أو التبرير الممكنة محاها في ثانية وهو ينفضها بعيدًا عنه:

- أنتِ فقط لا دخل لكِ بالأمر.. هل تفهمين!

نيران مستعرة كجحيم ملأت أحرف كلماته، غضب مجهول غير مسبب بما يكفي لتفهمه لكنها أومأت بطاعة والهمسة الأخيرة نطقتها بحشرجة:

- أنا آسفة.

ضم قبضتيه بقوة إلى جوار جسده كأنما يمنعهما عن الإحاطة بعنقها وخنقها حتى تنتهي أنفاسها:

- اخرجي.. غادري الشركة كلها أنا لن أعود معك.

توترت محاولة النطق وحجبت كل الأحرف داخل حلقها نظرته المخيفة التي اشتعلت بعينيه، التفتت لتذهب كما أمر، قبيل الباب توقفت وهي تشعر برصاص يخترق ظهرها من تطلعه إليها، عادت تناظره بأمل وتغير موضوع الحديث:

- لديك مهمة جديدة.. سأطبع لك الملف المؤمن.

وتفاجأت برده الحاسم:

- لا.. أجليها.

ذهول اعتراها غير مصدقة!

النمر لم يتأخر في تنفيذ مهمة من قبل، لم يؤجل أو يتراجع مهما كانت الظروف أو الحواجز التي تمنعه عنها.. فماذا حدث!!

دون وعي انزلقت الكلمات فوق لسانها الأرعن:

- لكنك لم تؤجل مهماتك من...

والمقاطعة كانت أكثر صرامة، بل مغلفة بغلظة مثيرة للحرج وهو يشير بأصابعه نحو بابه:

- ليس من شأنك.. اذهبي.

انكسار أكبر، عذاب أكثر، وعشق ليس سوى شوكة في خاصرتها لا مفر منها ولا خضوع إلا إليها.. بارحت الغرفة بخطوات تعاند ساقيها لتنفيذها لأن "السيد" قد أمر!

***

دومًا البدايات لها مذاق خاص، قدرية لا تنقاد لأهوائنا، ولا تذعن لاختياراتنا.. بل نحن من نلبي ندائها ونتبعها حتى المنتهى شئنا أم أبينا..

وبدايتها معه هي ما أوصلتها لذلك الطريق، من جرتها عنوة لتسير فيه، تنصت لصوت القلب، وتقتفي أثره لتسقط بين يديه في كل مرة..

بدايتها معه كانت بنكهة زمن الفرسان وبطولة فطرية تسكنه حتى لو محاها والدها بعد ذلك واستبدلها بشراسة بذرتها وُلدت بداخله ولا تنكر، حوله لذلك

الوحش الذي لا يأبه لشيء، لشيطان تغلب عليه وتخطاه ليصبح الأقوى، الأقسى والأعنف.. حوله لنمر!

استكانت في فراشها تدور أفكارها في فلكه، في مدار حب أحمق غبي، رهبة تسكنها تجاهه، وتمرد فتاة مدللة كانتها يومًا حتى تملكها هو فكسرها..

انطوت على نفسها في وضع جنين وشردت عائدة لماضٍ قديم ولحظة لقاء انتهى بجثة، عندما أنهت يومًا مميزًا مع الصديقات وعادت لمرآب المركز التجاري الشهير حيث قبعت سيارتها في وقت متأخر.. وهناك وجدته بانتظارها، من ظنته وهمًا هو الحبيب؛ لينال منها ما يريد ثم يتركها بعدها دون سبب محدد، ومن هي لتهتم به أو حتى تسأله لمَ بكبرياء مراهقة عنيدة لم يعلمها والدها التذلل لأحد!!

وجدته يرتكن لمقدمة السيارة فتوقفت على بعد عدة خطوات:

- ماذا تفعل هنا مهاب؟!

لوى شفتيه ببسمة هازئة تمازج بها المكر، خطا نحوها ونبرته تستنكر سؤالها:

- أبحث عنكِ فتاتي.

تشبثت بحقيبتها غاضبة بعناد:

- لم يعد بيننا شيئًا، لذلك لا تدعني أرك مجددًا.

وقف قبالتها وتحولت عيناه لراغبتين وهي تدرك تلك النظرة جيدًا، مد يده يحيط بها وجنتها متمتمًا بصوت هامس لطالما أغرقها بكلمات الحب حتى الثمالة:

- بل بيننا كل شيء ريما.. لا يمكنك أن تنسيني بهذه البساطة ولا يفترض أن يكون وداعنا بهذه الطريقة!

عقدت حاجبيها بينما تبعد وجهها عن مرمى كفه:

- ماذا تعني؟.. وعن أي طريقة تتحدث؟!

جذب حقيبتها برفق:

- افتحي سيارتك وسنتفاهم.. كما تفاهمنا من قبل حبيبتي.

شدتها منه وابتعدت خطوتين:

- لا تتحدث فيما مضى مهاب، ارحل ويكفيني ما فعلته، لم أعد أريد رؤيتك.

حاصرها بينه وبين السيارة رغم حدة لهجتها:

- تكذبين كما هي عادتك حلوتي.. لكن لا، أنتِ لي والرفض له حل سهل.

والحل كان قبلة تحكمت بشفتيها، ذراعين أحاطتا بخصرها وجسد كأنما يطوقها بضخامته من كل جهة، انحبست أنفاسها، تزوم برفض، تدفعه بكلتا قبضتيها دون فائدة حتى شعرت به يفتح السيارة ولا تعلم كيف!!.. ظلت تضربه وتبعده دون جدوى، تحاول الصراخ فيحرر فمها من شفتيه فقط ليحكم قبضته عليه، أسقطها على المقعد الخلفي ورمى بنفسه فوقها وصرخاتها تبدأ في العلو..

ثوان كدهر ومقاومتها كأنما هي صفر في مواجهته، حين شارفت على الاستسلام وفقدان الوعي شعرت به يرتفع بعيدًا عنها لكن قسرًا، تصطدم رأسه بإطار الباب ثم يندفع للخارج على الأرض كخرقة بالية رغم بنيانه القوي..

سمعته يسب بفظاظة، نهضت تستر ما انكشف من عريها، تنظر برعب نحو الخارج لترى أحدهم يوليها ظهره، يقف أمامه بوضع قتال شرس وعلى استعداد لانقضاضة حتمية، استقام "مهاب" ليواجه ذلك الدخيل، يصرخ في وجهه بعنف ويستل من حزامه مُدية فردها بلحظة وهدده بها، لكن النبرة العميقة الخشنة التي ثقبت أذنيها كانت أكثر إثارة للهلع من السلاح:

- لا تلعب بأشياء الكباريا صغير.. فربما تنكسر أظافرك.

وكان سبابًا من نوع مختلف أثار هياج حبيبها السابق فانقض على مهاجمه بثورة أفقدته تركيزه، توالت اللكمات والركلات وهي تخفي وجهها بكفيها، لا تجرؤ حتى على النظر أو التنفس براحة..

خرجت من السيارة تراقب، وذاك الذي لا تعرف ملامحه يعتلي جسد "مهاب" يسدد قبضتيه في وجهه وما ظهر من جسده بتتابع متلاحق دون أن يتوقف ولو ثانية ليملأ صدره بالهواء، سمعت صوت تحطم عظام، سمعت أنين وسمعت توسلات..

حتى أتت اللحظة التي خفتت فيها كل الأصوات ثم انعدمت..

حينها توقف منقذها، يلهث بشدة ويراقب وجه الراقد أسفل منه بجمود دون أن تبدر عنه حركة واحدة، استجمعت شجاعتها للحظة وخرجت نبرتها مهتزة مذعورة:

- هل مات؟!

لا تدري هل تخشاه أيضًا أم تشكره!..

لكنه في هذه اللحظة بملامحه القاسية الممتلئة بشراسة برية، قبضتيه المخضبتين بالدماء ولهاثه العالي كأنما خاض معركة أصر على الخروج منها منتصرًا بدا لعينيها مرعبًا مهولًا وشبه غائب عن الوعي..

استدارته نحوها بنظرته العاصفة أجفلتها فلم تملك سوى خطوتين تراجعتهما قبل أن يلتصق ظهرها بعمود عريض في وسط المكان، لكنه لم يتحرك نحوها بل ارتفع صدره محاولًا التنفس بعمق، رده خدش سمعها ببرود جامد حد الاشتعال ولا تدري كيف!:

- نعم.

شهقت وهي تتأمل وجهه للمرة الأولى، الضوء الخافت والسكون أضفيا عليه توحشًا أخافها رغم أنه أنقذها، شعرت بالارتباك والقلق فتوترت:

- يا إلهي، أنت.. أنت سوف.. ماذا أفعل!.. يا إلهي..

نهض ببطء بعدما مسح يديه في قميص المسجى أرضًا محطم الوجه والصدر والعنق:

- لا تقلقي.. قتل الحشرات هوايتي منذ الصغر.

امتلأت نفسها بالدهشة جوار الحيرة، لو وضعت أخرى مكانها لماتت هلعًا ثم ركضت هاربة تصرخ مولولة كحمقاء، لكنها تختلف..

هي تدرك معنى الموت، تفهم سر انتزاع الروح وبتلك السهولة كأنما ذلك مجرد هواية يومية معتادة، لمحت الدم الذي يغرق جانب قميصه الفاتح فانتبهت بقلق:

- هل آذاك!

رمق جرحه بلامبالاة:

- قليلًا.

تحركت نحوه ماحية ترددها:

- رباه!.. كان هذا بسببي.

وجذبت يده تجره خلفها تجاه سيارتها:

- تعال معي.

لم يتحرك من مكانه، سحب كفه من بين أناملها الناعمة، نظراته الغامضة إليها بددت السكون الذي عاشته للحظة مما جعلها تتساءل بحيرة:

- ماذا حدث!

ظل جامدًا كعينيه وملامحه:

- إلى أين؟

هزت كتفيها بما بدا لها بديهيًا:

- إلى منزلي.

اتسعت عيناه بعض الشيء بدهشة:

- ماذا!!

بررت موضحة قدر استطاعتها، هي تريد الرحيل بسرعة والباقي سهل:

- سأعرفك بأبي.. هو سيتصرف، فقط أسرع من فضلك.

رفض بحزم:

- لا.

وتسائلت مستنكرة:

- لا!!

أشار بيده بلا اهتمام، أمرها كأنما يملك ذلك الحق بالفطرة:

- ارحلي، أنا سأعالج الأمر.. من يهتم عندما تدهسين حشرة!

وتبًا هو لا يفهم ولا يعلم من ذاك الذي مات بين يديه!:

- لا.. هو ليس حشرة، سيجدونك وحينها سيكون القتل أهون الأمور.. هيا معي.

وعادت تتشبث بيده، تجره بحسم وتقرر هي البداية التي فرضها عليها القدر بلحظة إنقاذ..

فاءت لواقعها تستعيد صورته اليوم، حينها كان صغير السن ولكن ذاك لم يشكل أدنى فارق، عشرون عامًا من العمر ليسوا بالكثير على النمر ليقتل ولمرة ثانية.. فقد علمت بعدها أنها ليست المرة الأولى!!..

لهذا استهان بها.. بنزع الروح، بسيل الدماء!

ورغم ملامح لم تتغير إلا ليخُط عليها الزمان معالمه وتزيدها القسوة شراسة وغموضًا، يظل هو بطلها.. من عشقته في دور الفارس وانقبض قلبها من ثوب القاتل عندما يرتديه، حتى لو عاونته في ماضيها على ارتدائه!

***

في الهوامش دومًا حروف منسية، ذكرى خطها القلم وقت شرود، وربما خطوط تائهة رسمتها الأنامل دون وعي.. نقش حمل دواخل نفس ترفض الاعتراف وتعانده ولا جدوى..

وفي تيهها الذي تعانيه مؤخرًا انشغلت به، ليس من حقها وتعاند نفسها لذلك؛ من هي!!.. والأدهى من هو؟!..

حوله هالة من رهبة غامضة تثير فيها الكثير لكن ابتسامته التي يمنحها إياها بين حين وآخر، تغلغله في خبايا نفسها حتى تقص عليه ذكرى طفولة ربما لم تخبر بها أحدًا من قبل، كأنه ينتزع الكلام من بين شفتيها انتزاعًا، عيناه الرماديتان العميقتان ونبرته الرجولية الخشنة..

عطره الذي يعلق بها، بذاكرتها حتى تعود لمنزلها..

هي لم تعد هي وذلك يربكها لأنه أعلى مما يمكن الوصول إليه، وبوضوح صارخ هناك صلة ما تربطه بمساعدته الخاصة لا تظن في الإمكان فهمها أو حتى قطعها..

الخاطب الذي تقدم لها قبل يومين لا غبار عليه كما يقولون، ولو رفضته بحجة الخالة القعيدة فالخالة نفسها حينها ستعاند وتغضب، نعم ذلك اللقاء الصامت القصير بينهما كان فيه منقذًا، لكن ما الذي يجذبه لفتاة مثلها لا تملك من مقومات المرأة في عين الرجل شيئًا!!..

ظلت أفكارها تتطاير في كل اتجاه بين ثنايا عقلها حتى استدعاها رئيسها فكورت الورقة بين يديها وألقتها في القمامة بعدما شطبت اسمه الذي تكرر فيها، في خطواتها المتباطئة عن الذهاب إليه لمحت رأس "ريما" المنكس، لم تتابعها بعينيها كما كان يحدث في كل مرة، ويبدو أن الأمر جلل لأنها لم تتناحر معها ككل يوم بخصوص توافه الأمور.

رفع إليها عينيه باهتمام قاطعًا انشغاله بعدة أوراق فوق مكتبه، عاجلها بتساؤل:

- هل أنهيت طباعة ملف المناقصة الجديدة!!

ناولته إياه بإيماءة موافقة صامتة، تناوله منها وتصفحه بدقة، بقيت واقفة في صمت متململ تنتظر منه أن يصرفها لكنه لم يفعل، عاد يغوص برأسه في

الملف الذي سلمته له، يقلب فيه بتفحص مدقق وهي تتأمله بحرية سمحت بها انحنائته..

خصلاته البنية الداكنة مصففة بعناية، وذلك العطر المميز الذي لولا عالميته لظننت أنه يحمل اسمه.. أنامله الطويلة التي تتعامل مع الأوراق وتقلب الصفحات، وعيناه اللتان تجريان فوق السطور بتمعن.. تنهدت بخفوت فرفعهما نحوها بغتة لتلتقي النظرات.. وقرأ في مقلتيها ما جعله يبتسم وداخله تعلو طبول الانتصار:

- ماذا؟!.. تشعرين بالملل!

شعرت بالحرج فنفت بتلقائية:

- عفوًا سيدي.

رفع أحد حاجبيه والتوى طرف شفتيه:

- مراجعة سريعة فقط حتى أطمئن لعدم وجود أخطاء.

لم ترد وصمتها جعله يطرق الحديد حال اشتعاله:

- رغم أنني أعلم عن يقين أن لا أخطاء هنالك.

ومنحها بسمة خافتة طفت باللون الوردي لوجنتيها، تعلقت عيناه بها لثوان قبل أن ينعقد جبينه بشبه ضيق لم يفهمه سواه، يعود ليدفن نظراته في الملف بين يديه يكمل قراءته مشيرًا إليها:

- اجلسي لبعض الوقت.

استجابت بهدوء وعاد لانشغاله.. دقائق ثم مد يده به إليها آمرًا بنبرة جافة:

- جيد سديم.. اطبعي منه ثلاث نسخ كالمعتاد.

نهضت بعجالة تتناوله وتحركت منصرفة، لكنه استوقفها فاستدارت تنظر إليه بترقب قلق، تغير نبرته أخافها.. اعتقدت أن بنَسخها أخطاء لكنه أمر بطباعته، فلمَ أصبح جامدًا هكذا!!

عسير هو على الفهم وهي من اعتادت قراءة عقول الرجال من حولها بدقة عبر نظرة واحدة:

- لدينا غذاء عمل بعد يومين.. ستأتين معي.

ونهض من خلف مكتبه مقتربًا منها:

- قد يمتد الوقت حتى العشاء، فجهزي حالك بشكل مناسب.

وألقى بنظرة متمعنة نحو بنطالها الكلاسيكي الرسمي للغاية وقميصها الرقيق العملي، تتبعت نظرته بضيق خجول شعر به فدنا منها أكثر وانحنى يهمس:

- ليس لأنه لا تبدين جميلة هكذا.. لكن الليل له طقوسه.

والتقت النظرات من جديد واحدة تحول ضيقها لدهشة ولم يذهب الحياء بعيدًا..

"هل يغازلها!"..

والثانية تجابه آمرة بقبول التحدي، ورغم قربه الشديد فقد قبلته وتحضرت للرد، تمتمت باعتذار:

- للأسف لن أستطيع سيدي.. لا يمكنني الغياب عن المنزل طوال اليوم.

اعتدل واقفًا وأخبرها بعملية:

- يمكنني أن أرسل من يعتني بخالتك.. العمل عمل سديم.

وهنا لابد أن تتعاظم دهشتها لتمتزج بتساؤل لم تجرؤ على طرحه وهو أجابه بنفسه:

- أعرف عنكِ كل شيء.

تجددت الأسئلة في مقلتيها لكنه اكتفى من الإيضاح، وفخ اليوم انطبق عليها بالفعل لذلك كان يتوقف عند أمر الذهاب مؤكدًا:

-بعد يومين سديم.. سنرحل من هنا معًا.

والمسافة بينهما تقصر، هو يرسم خطته بخبرة وهي تسير على هداها بحماقة.. والنتيجة فريسة جديدة للنمر.. وبكامل رضاها، رغم تغير اعتراه للحظة لكنه تحكم به وسيطر عليه في التالية!

***

طعنة جديدة سددها لروحها..

دعا طريدته لغذاء العمل وأهملها هي، بدأت تشعر بالخطر فعليًا، مهما عاندته فرائسه من قبل لم يكن يتنازل لإحداهن، كن كلهن نزوات مؤقتة يعود عقبها لأحضانها..

تشعر هذه المرة باختلاف جلل، لا تدري كيف تتعامل معه؟!.. تلفت نظره إليه؟.. أو حتى توقفه عن الاندفاع خلف تلك الطريدة حتى لا يسقط هو في فخها المعد لاستقباله!

يومين مرا لم يذهب لمنزلها أو يدعوها لقصره، يومين كانا الأطول والأشد قساوة على نفسها حتى أن الكوابيس زارتها.. كوابيس التخلي، الفراق، الرحيل الدائم الذي لا عودة بعده..

يومين قررت فيهما التعاطي مع مشكلة فتاته كما اعتادت حتى يمل هو، لكنها في كل مرة تتخذ ذلك القرار لا تمتلك القدرة على تنفيذه، ربما لأنه يبدو على خلاف عادته، وربما لأنها تراها مصدر خطر لا يدركه رجلها.. مصدر يغير فيه دون أن يلاحظ ودون أن تحظى بجرأة كافية لتنبيهه!!

أنهت طباعة ملفٍ ممتلئٍ وتوجهت نحو مكتبه، لقد رحل الجميع ولم يتبقَ سواهما والليلة ستمنحه معلومات مهمته الجديدة ولن يتهرب، وضعته على مكتبه بصمت بعدما أغلقت الباب خلفها بإحكام وجلست أمامه ساكنة، راقبها لحظة بعدها فتحه ليطالع محتواه..

في ثوان تحول فعليًا للنمر، تأمل عدة تفاصيل قبل أن يطرح كل الأمور العالقة بذهنه لركن قصي محكم قفله، تنقلب نبرته للجمود العملي البارد بسؤال حازم:

- الفريسة هذه المرة!!

ردها كان بصوت ناعم ذا بحة مغوية تميزه:

- الزوجة.

رفع عينيه بنصف نظرة نحوها:

- السبب!!

هزة كتف وجواب تقليدي دون شعور:

- بوليصة تأمين على الحياة.

ابتسم كنمر حقيقي يكشر عن أنيابه وعادت إليه أفكاره التي تبحث عن لذة السيطرة في قوة وسلطة وقسوة نزع الأرواح:

- المعتاد.

وبادلته البسمة رغمًا عنها فها هو قد عاد ولو بشكل مؤقت:

- نعم.

تساءل بلهجة بدت أشبه بتقرير:

- وبالطبع لابد وأن يبدو الأمر كحادث!

أومأت تعدد على أصابعها وعيناها تتأملانه بلمعة مبهمة:

- لا قتل.. لا انتحار..

عاد للملف، تصفحه بدقة أكبر ثم التقط من صفحته الأخيرة صورة الهدف، امرأة ثلاثينية فاتنة، مط شفتيه بتحسر مفتعل ومزاجه يتحسن بالفعل:

- خسارة.

عقدت حاجبيها بغيرة لتعود هي الأخرى "ريما" التي لم يصل غيرها لهذه المكانة عنده:

- ماذا!!.. تعجبك؟!

ألقى إليها بالصورة مستفزًا ساخرًا:

- انظري إليها.

لم تفعل واستمرت بحديثها الحانق:

- رأيتها، ليست جميلة إلى هذه الدرجة.

قهقه باستمتاع:

- النساء.

نهرته بحدة مغناج:

- آمر.

لوح بكفيه معلنًا استسلامه فالأمر ليس أنه يمتلك حس دعابة بالفعل!:

- حسنًا.. حسنًا.

ومال فوق المكتب بجدية حقيقية هذه المرة:

- أيًا كان ما سيدفعه؛ ضعي صفرًا زائدًا على اليمين.

اتسعت عيناها بصدمة:

- لكن هذا سيكون...

قاطعها بصرامة:

- كثيرًا!!

تراجع بمقعده دون اكتراث فهو يفهم هذا النوع من الخطط جيدًا:

- سيحصل على ما هو أكثر، وصدقيني.. سيوافق.

تأملته بتقدير، تعلم أنه على حق.. الرجل سيوافق وسيحصل على ما يريد..

منحها بسمة غامضة ملاحظًا شرودها حين النظر إليه.. إحدى نظراتها الهائمة التي أظهرت "ريما" القديمة بخلاف تلك النسخة الباهتة التي كانت خارج مكتبه خلال اليومين الماضيين، ابتسامة حالمة أنثوية للغاية، هي تعشقه رغم كل شيء وهو يعلم.. ولا يهتم؛ مادامت تحصل منه على ما يمنحه بصمت، مادامت تجذب الحبل حين يرخيه، وترخيه حين يشده هو!

لمحت بسمته التي تزيده وسامة، ملامحه الموحية بالخطر والتي تذوب فيها منذ زمن، عيناه العاصفتان الآمرتان بعدم الاقتراب، نظراته الشرسة والتي تخضعها دومًا أسيرة له.. مقلتاه الغامضتان كأنهما تخفيان أسرار الكون.. تنهدت بصوت

مسموع، نهضت تغادر الغرفة بسؤال تاركة كرامة ادعتها جانبًا، فهي تشتاقه بالفعل:

- سأراك الليلة؟!

نفى بغروروااثق:

- لا.. لست في مزاج رائق.

توجهت إليه، وقفت خلف مقعده تمسد كتفيه بيديها الصغيرتين:

- أفتقدك.

استكان للمساتها مريحًا رأسه للخلف:

- أعلم.

وتنهد براحة:

- افتقديني أكثر.

يدرك أنها تغار، وفي قاموسه لكل فعل رد فعل، هي لم تتجاوز حد القيام بأفعال لكن الفكرة تكفي!.. مطت شفتيها بنعومة:

- أنت قاس.

ابتسم بمكرساخر، أغمض عينيه وزفر:

- تعشقين قسوتي.

تعلم أنه صادق ويفهمها أكثر منها، لكن ما لا يدركه أنها تعشق كل ما فيه، حد المرض والألم والموت!

ضغط زر جهاز تحكم في يده فتعالى صوت إحدى سيمفونيات "موزارت" يمنح نفسه بها بعض الهدوء.. خرجت من المكان وفي البال فكرة جديدة تولد..

لن توجد امرأة على وجه الأرض تعلم ما تعلمه هي عنه.. أو ترضى بما ترضاه!!..

لذلك استكانت لطمأنة تقنع بها قلبها الوجل، فهو مهما ابتعد؛ سيعود.

أم عنه فقد فتح عينيه بعدما وصله صوت إغلاق الباب، التقط صورة الهدف، دقق فيها للحظات قبل أن يتمتم بلهجة هازئة:

- أحمق، لكن العميل دائمًا على حق.

***

يقال أن: المرأة كتاب مفكك الأوراق، غلافه خير منه.. فلا عجب إذا فضّل الرجل قراءته ليلاً!!

ونعم هو يفضل قراءتها والتمعن في تفاصيلها بعيدًا عن كل عين، وحدهما في خلوة يكشف بها كل أوراقها التي تختفي خلفها مدعيةً الفضيلة بل العملية الرسمية الجافة.. والتي لا تليق بها.

ظل يراقبها طوال الحفل، تجلس بهدوء تتجاذب أطراف الحديث مع شريكه بينما هو يراقص شريكتها، حتى التقت عيناه بنظرات "آمر" الذي تأمله لحظة قبل أن يعتذر منها وينهض مبتعدًا، وتلتفت هي لتجد تأمله منصبًا عليها..

بوقاحة، زمت شفتيها غاضبة وتحركت تغادر المكان ملقية التحية على من يمر بطريقها من رواد الحفل الهام.

"لستَ معي غيث!"

أخفض عينيه إليها بابتسامة عابثة:

- على العكس جوان، أنا معك بكل جوارحي.. لكن فقط لا أريد لفت الأنظار!

تأملته بمكر متسائل كأنها نسخة عنه فأردف بميل طفيف نحو أذنها هامسًا بأنفاس حارة:

- أنني أكاد آكلك بعيني، ولا أطيق صبرًا حتى نعود لمنزلك.

ابتسمت تدعي الغرور:

- تجيد الغزل.. لكن...

واقتربت من أذنه:

- لا تجيد الكذب.

أنقذه من جواب مفتعل انتهاء الرقصة، فحياها برسمية ظاهرة وابتسمت هي، اختلطت مع باقي الحضور أما هو فكان هدفه محدد وواضح، تبع من تركت المكان بمن فيه وبخطوات متعجلة سعيًا للحاق بها..

عندما لمحت نظرته التي تتأملها بجرأة امتزج بها شيء مبهم، فضول ربما أو ضيق قبع مختفيًا خلف الواضح في عينيه؛ هو يعريها وبثبات كأنها معه في غرفة نومه..

هزت رأسها وقشعريرة تتخلل جسدها، تمتمت لنفسها بحنق:

- ياله من..

"من ماذا!!"

تحركت ملتفة بسرعة حتى كادت تصطدم به حين قاطعها بفضول شبه ساخر، تراجعت عدة خطوات تقدم هو نصفها بجرأته التلقائية:

- كنت تفكرين بي.. صحيح!

شمخت برأسها، عنوان النظرة كبرياء والنبرة تقليل شأن:

- ومن أنت بالتحديد لتشغل أفكاري؟

تأملها كما فعل بالداخل فاشتعل غضبها وتأجج خجلها:

- غيث.

رفعت حاجبًا هازئًا فقد قالها كأنما اسمه يكفي:

- لم هربتِ؟

لم تجبه، تجاهلت سؤاله وبادرت هي بسؤال:

- لمَ أتيت أنت إلى هنا؟!

مط شفتيه بلؤم عابث مجيبًا بصراحة:

- أتيت خلفك.

وهنا عقدت الحاجبين وزمت الشفاه وارتسم السُخط سافرًا على وجهها:

- ماذا تريد مني بالضبط؟!

تفحصها بتقدير قبل أن ينثني قليلًا ونبرته تكتسب عمقًا حارًا:

- ما الذي قد يريده أي رجل من امرأة؟

وقست عيناه للحظة:

- امرأة هي من عرضت نفسها عليه!

تبًا له!!..

تود لو تصفعه، لكنها لن تحاول ليمسك بها كما فعل سابقًا، سحبت نفسًا قويًا جذب نظراته إلى شفتيها المكتنزتين قبل أن تشير بإصبعها في وجهه بحدة:

- اسمع يا سيد..

قاطعها ليثير غيظها فكادت تصيح في كمد:

- غيث.

ضمت قبضة والأخرى إصبعها مشهر أمامها كسلاح.. تزفر وتتماسك قدر استطاعتها لكنه مستفز لأقصى درجة:

- اسمع.. أنت تريد الظن أنني أسعى إليك كرجل، حسنًا هذا من حق غرورك المنتفخ إن كان يرضيك..

ابتسم متفكهًا:

- منتفخ!!

أكملت بلا اعتبار لتعليقه الساخر:

- يمكن لعقلك أن يفكر كما يشاء.. فقط لا تجعلني أتعثر بك في كل خطوة مادمت لا تريد الإنصات لما لا ترغبه.. هل بيننا اتفاق ما هنا؟!

أمال رأسه ناحية اليسار وإعجاب طفيف يظهر على بسمته:

- وما هو هذا الذي أرفض الإنصات إليه؟

واجهته بقوة وصلابة ونبرة لم تهتز هذه المرة أو ترتبك:

- الحديث عن والدتك.

تراقصت شياطينه أمام عينيه ولمحتها هي بتوتر في نظرته فتراجعت خطوة لاحقها فيها، لكنه قبل مرحلة لمسها توقف.. فكر لثانية قبل أن يعود لتأملها، يخبرها بجمود كأنه لم يغير قوانينه الخاصة للتو:

- حسنًا.. يمكنني أن أنصت إليك على دعوة للعشاء في الغد.. ما رأيك؟

وقدمها لن تنزلق لفخه بهذه السهولة:

- لا.. يمكننا الحديث وقتما تريد في الشركة، لا خلاف ذلك.

دقيقة كاملة مرت لم يبتعد، يتحرك أو يطرف جفنيه تقريبًا سوى مرتين، وهي تعانده بالمثل وتصارع قوته بقوة مماثلة:

- تجيدين التفاوض وعرض السلعة.. كارما.

كادت تسبه، فهو لايزال يطلق عليها لفظة "سلعة" لكنه كان قد رحل..

تركها تتخبط في هدف أحرزته، وثمن تخشاه رغم أنه لم يطُف بأقصى خيالاتها جموحًا!!

(٩)

يمكنك إغلاق عينيك كي لا ترى ما لا تود مشاهدته، لكن لا يمكنك إغلاق قلبك أمام ما لا تريد الشعور به..

"جوني ديب"

***

دومًا ما رددوا "كل شيء مباح في الحب.. والحرب"..

والإباحة تعني مشروعية اتخاذ كل السبل المطروقة أو غير المطروقة، اعتماد الوسائل الموصلة لغايات محددة ومستهدفة حتى لو كانت تلك الوسائل ملتوية تدور حول نقطة بعيدة وفي منتصفها الهدف..

قد يمكن للرجل التذاكي على امرأته كما يريد، لكن المرأة الذكية هي من تكشف محاولته، تجاريه، وفي ختام الأمر تصل معه لغايته فتعرفها، ولا تظهر أمام ذلك أي شعور محدد..

وعند لحظة الكشف يمكنها حينها؛ أن تخوض الحرب معه..

لكن ليس كل رجل يصلح لممارسة تلك اللعبة، فمن البداية هناك اتفاق، قواعد موضوعة لعلاقة مخطط لها دون تخطي، وخلف أداة التحكم يكمن هو وأمامها شروط سبق ووافقت عليها بل وطرحتها معه على مائدة التفاوض..

أما عنه فهو اعتاد السيطرة على حيثيات الموقف برمته، ولأن المعركة الأولى من الحرب لم يكن زمامها بيده، والثانية حملت له مفاجأة.. فالجديد سيمتلك فيه الأرض والجنود.. ويقود كفاتح فخور حتى تمام النصر..

وعندما تبدأ حربه غير المعلنة سيكون الحاصد لجُل غنيمة، وأُولاها.. صاحبة العيون والخصلات الذهبية وزي الاحتشام، المدعية التي تتقن دور المرأة الفاضلة في عالم لا توجد به واحدة.. فجميعهن لهن ثمن وعليك فقط أن تدرك المناسب لكل منهن!

وكما أن لكل حرب بداية ونهاية وخط سير بل وحتى ضحايا، فالخطوة المبدئية تصبح جمع المعلومات عن العدو، دراسته وتحييد دفاعاته حتى يمكن تحجيمها بشكل كلي يسطر بعده خاتمة المعارك بفوزه هو والضحية الأسيرة هي..

"أنت لم تعد معي إلى المنزل لتشرد عني!"

انتبه إليها من خلف سحب دخانه الرمادية، بسمته العابثة المميزة غزت شفتيه وهو يميل مقتربًا:

- بالطبع لا جوان، فقط فكرة ما دارت بخلدي.

مطت شفتيها بإغراء متعمد ولمعت عيناها بتساؤل جوابه هو البداية:

- أخيك!

تغضن جبينها بمفاجأة، فالرد لم يكن متوقعًا:

- ماذا عنه؟

رده كان سؤالًا ألقاه مباشرًا بنبرة حيادية بينما يطفئ تبغه في مرمدة كريستالية فوق طاولة مجاورة:

- ما به وشريكتك!

مالت برأسها قليلًا تتأمله، أدرك أنها تشك في نواياه، وأدركت هي أن خلف واجهة الصمت وتباعد النظرات هناك ما يدور دون علم أحد، لكنه لن ينبس عنه بحرف معها وهي تعلم فاتخذت من الصراحة مسلكًا:

- يحبها.

ملامحه الجامدة بغموضها لم تعبر عن شيء، لم يتفاجأ بالفعل، فنظرات شقيقها تشي بالكثير، اكتفى برفعة حاجب شبه ساخرة وبسمة وليدة موازية:

- حقًا!!.. وماذا عنها؟

نعم هو مهتم.. وبصديقتها، شيء ما نبض بداخلها لكنها أخرسته تظهر لامبالاة في الغالب مفتعلة:

- لا تحبه.

وأمام بوادر دهشة ارتسمت على وجهه أكملت هي وفي نيتها ستمنحه ما يريد معرفته وبعدها تسأل عن السبب:

- كارما فتاة حالمة غيث، تبحث عن الحب ولن ترضى بأي رجل يعرض عليها مشاعره.

ندت عنه حركة موحية باستخفاف، فالعنيدة الصارخة وقاموسها من السباب لا تشبه الحالمية أو حتى الفتيات في شيء:

- وما به أخيك!

هزت كتفيها بلا هدف، تحاول فهم السؤال بل ومغزى الحديث كله، بدا لها كرجل غيور.. يبحث خلف أنثاه التي يسعى إليها آخر:

- لا يعيبه شيء، هو فقط من وجهة نظرها ليس برجل يصلح لها.

وهنا تحرك فضوله بجدية بدت بوضوح في نظرته والتواء شفتيه:

- لمَ!!

جاوبته ببديهية بدت غائبة عن حياته التي اعتادها وعقله الذي لا يستوعب ذلك النوع من المشاعر:

- في الحب لا تبحث عن أسباب غيث.. هي لم تحبه وكفى.

ابتلع لعابه بتفكير لثوان، اقترب يحيطها بذراعه يضمها لصدره، رفع رأسها ليحتوي مقلتيها خلف قضبان عينيه مغيرًا الموضوع برمته ومثيرًا توترها وعدم فهمها له أكثر:

- وماذا عنكِ أنتِ؟.. هل أحببتِ زوجك؟

هنا أدركت أنه اكتفى من استجوابه عن شريكتها فلم تلاحقه بما ودت اكتشافه، أو ربما هو يخطط ببطء حتى لا تنكشف اللعبة!!.. فقد بدا لها للحظة كأنما يهتم

بامرأة غيرها شغلت حيزًا هامًا من عقله، غزا شفتيها بسمة حزينة وشردت في ذكرى:

- لم أفعل لكنه عشقني.. لم أستطع مبادلته مشاعره رغم حنوه وطيبة قلبه، كان يعلم ويقدر وفوق ذلك لم يطالبني بما لم أستطع منحه إياه رغم حياتنا غير الطويلة معًا.

ثم اعتدلت تواجه نظرته المتفحصة:

- في الحب لا تبحث عن دوافع أو تفتش عن مبررات غيث، ففي النهاية..

وانزلقت بكفها تربت فوق خافقه:

- لن تمنح قلبك طواعيةً أبدًا.

وتحولت البسمة لمرح تخرج به عنوة من بقايا ماضيها المترسب بشجن في أعماقها وتسحبه معها من الحفر خلف ما تحاول تناسيه:

- حسنًا.. هذه المرة، ماذا عنك أنت؟

رفع حاجبيه فأردفت:

- ماذا عندما تعشق!!

وكاد يضحك، هي كأي أنثى تملك الجانب الحالم وقت الحاجة، لكنها لا تجيد استخدامه مع الرجل الصحيح، ورغمًا عن ذلك جاوبها وبصراحة تقطع عليها كل طريق:

- عندما أعشق سأكون أنا آخر، وسأنسى نفسي فيها..

وصمت لثوان بتأمل:

- وهذا ما لن يحدث أبدًا، لأنني لن أسمح بضياعي في امرأة.

نعم..

هو متمرد على واقع القلوب، لا يخشى العشق؛ بل العشق يخشاه.. والسقوط في براثنه غير متاح، كما لا يدع هو إحداهن تسقط في ذلك الفخ معه بل قبل تلك المرحلة يغادر السفينة ويصبح أول الناجين!!

لهذا نهض يجذبها إليه، يحيط خصرها بذراعه والأخرى تقترب من وجهها، ضمها وداعب وجنتها الناعمة بإبهامه ينهي كل حديث يرفض الضياع في متاهاته وأفكار قد تولد بعقلها يخشاها هو:

- والآن.. انظروا من يتحدث!!

مالت تتطلع إليه بتساؤل وبعينيها نظرة مغوية فانحنى إلى شفتيها مكملًا قبل عناق القبلة:

- امرأة ليست للحب!

ولم تستطع الابتسام فقد حجب كل أفكارها خلف عاطفة يشعلها بها، عاطفة ربما تخطت هذه المرة الحاجز المرسوم لها.. وتعدت حدودًا سبق ووضعتها هي لأجل قلب..

قلب لم يكن من ضمن الصفقة المبرمة بينهما أبدًا!

***

يقال أن الرجل يعشق بعينيه، في حين تهوى المرأة بأذنيها.. لذلك تتجمل هي ويطلق هو لسانه بمعسول الكلام مغازلًا، تيمة مكررة اعتيادية تصل حد الروتين..

تخضع لها كل أنثى ولا تتفاداها خطة أي ذكر..

والجمال ليس بالضرورة حمرة وشفاه ممتلئة لامعة أو حتى أهداب مسبلة دون عفوية، ففتنة الجالسة إلى جواره منكمشة تجاه باب السيارة، تكمن في شيء آخر، أكثر عمقًا وجذبًا لشيطان مثله يدرك ما هي أعماق الجحيم الفعلية!

بذلتها الكلاسيكية الداكنة وأمواج الليل الساكنة أعلى رأسها بعقصة محكمة تعتبر جريمة في حقها، كفيها المتعانقين فوق ساقيها بارتباك، شق ذقنها المغوي دون جهد.. وحتى شامتها التي تختبئ بخبث عند طرف شفتها السفلَى، عيناها المحيرتان تنظران إليه بتأمل واعية إلى عدم انتباهه..

لا تدرك طريدته أنه يراها بعين ثالثة تكمن في لا وعيه حتى لو كان رأسه منحنيًا فوق أوراق يطالعها باهتمام قبل الوصول لموعد الغذاء المفترض، يرصد حركاتها، وارتباك مقلتيها، توترها بل وذلك العرق النابض بوضوحٍ يمين جبينها، رمشاتها وابتلاعها لريقها كل دقيقة بلا داع..

رفع عينيه فجأة ليقتنص نظرتها نحوه، وابتسم لترتبك أكثر ووازت ابتسامته نبرته العميقة:

- أنتِ تحملقين فيّ!

النمر يجيد الصيد، واللحظة مناسبة والاستغلال على أوجه لأن الفريسة تخطو إلى الفخ كأنما هو قدر أو مصير:

- في الواقع.. كنت شاردة وحسب، لم أكن أنظر لشيء محدد.

هذه هي الغيمة التي يعرفها، تدعي القوة وتتظاهر بالصلابة، تختفي خلف قناع لن ينزعه عنها سواه، لذلك بعد القنص تحين لحظة إرخاء الحبل، أقفل الملف وناوله لها ببساطة:

- احتفظي به حتى لحظة التوقيع..

وتراجع باسترخاء في مقعده:

- لو حصلنا على الصفقة سيكون هناك حفل عشاء بسيط على شرفها.. وأنتِ ستحضرينه.

التقطته منه بهدوء، أكسبت لهجتها حزمًا دارت به كل ذلك التوتر الذي يملأها:

- لن أستطيع التأخر، لابد أن...

قاطعها بإشارة حاسمة وازت صرامة نبرته هذه المرة:

- قدمتُ لكِ عرضًا لأجل العناية بخالتك وأنتِ رفضتِ.. وكما قلت سابقًا..

وتحرك بميل خفيف نحوها جعل عيناها تتشبثان بعينيه ولا فكاك:

- العمل.. عمل سديم.

نعم.. العمل عمل، تمت الصفقة بنجاح ووُقع العقد، والمفاجأة كانت بانتظارها، جناح فاخر في فندق يحمل من النجوم خمس، به غرفتي نوم واستقبال أنيق يحوي أيضًا حجرة معيشة وطاولة طعام.. ولأنها هي من عاندت وحضرت إلى الموعد دون زي ملائم فقد تكفل هو بالباقي..

كان ذلك عندما باغتها بأمر حازم لا يقبل معه نقاش أمام مكتب استعلامات الفندق:

- لقد حجزت لنا جناحًا هنا، يمكنك تغيير ثيابك بما يناسب العشاء، وكذلك أنا..

وهي خطوة من ضمن خطة طويلة، يستكشف بها ردود أفعالها بتمهل كما اعتاد معها، ورد فعلها طابق توقعه، رفض قاطع مصاحب لدهشة مستنكرة شبه غاضبة:

- ماذا!!.. جناح؟.. معك!

ولأنها تخطت حدًا رسمه بحرفية فقد تحولت عيناه، امتلأتا بنظرة مخيفة بعثت في قلبها قشعريرة، ولهجته سالت منها الجدية حتى أنها سخرت من نفسها بعدها:

- ماذا تعنين بمعي؟.. هذا عمل سديم وليس...

ولم يكمل جملته.. ترك لها التخمينات وكل المعادلات الصعبة العالقة بينهما بل كذلك خبث المغزى والمدلول، تناظره برهبة امتزج بها نكران التصديق، بقايا قوة

وتحدٍ.. وصراع ما يتأجج بنفسها، عناد يستصرخها واستهانة بمكانتها تجبرها حتى رضخت بسؤال شابه اعتذار:

- لم أقصد.. أعني أنه، ماذا سأرتدي؟.. أنا كنت سأعود لمنزلي بعد انتهاء توقيع العقود.

رمقها بجمود ونصف نظرة تسبر أغوارها، شيطانه يبتسم بنشوة بينما هي تتحرك مُسيرة نحو فخه وفوق عينيها عصابة من ثقة، ضعف، وعناد بريء يشبهها:

- هنا بالأعلى ثوب مناسب..

عادت لوجهها الدهشة فأكمل دون أن تنفرج ملامحه:

- أتمنى أن أكون قد وفقتُ في اختيار القياس الصحيح.

تعانق جفناها تحبس تنهيدة صبر، وتأملها هو لثوان قبل أن يجذب مرفقها لتتبعه، وبكيانها صراخ حاد ينبئها أنها أخطأت.. أين قوتها التي تستدعيها وقت الحاجة حينما تجابه الطامعين من حولها؟.. أين صمودها، عنفوانها.. بل ورفضها المعاند دومًا؟..

فتح الباب وتراجع مفسحًا لها الطريق، ترددت ثانيةً ولم يعلق، عندما خطت نحو الداخل ولد بنفسها شعور أنها تخطو نحو مصيدة لن تحبس سواها، وبعدها لن تخرج أو تعود كما أتت!!

وجدته يلتقط حقيبة بذلة متروكة على أحد المقاعد بعناية، توجه نحو غرفة جانبية ولم يعِرها أدنى اهتمام.. فقط قبل أن يختفي أشار لباب مواجه:

- ثوبك هناك.. كوني على راحتك.

ترددت نظراتها.. تارة نحو مدخل الجناح، وأخرى نحو مدخل الغرفة التي وجهها نحوها.. تفكر بهروب، أو حل عملي تثبت به قوة تظن أنها تمتلكها.. خطوة متقدمة وتالية تتأخر، صدرها يعلو ويهبط بتسارع قوي أوجعها لكن قلبها تدخل ورجح الكفة.. لصالحه.

زفرت بأنفاس متضايقة والسؤال يؤنب عقلها:

"منذ متى أصبح للقلب رأي؟.. متى تدخل وما الذي يعتقد أنه سيصل إليه؟"

وبإدراك واعٍ تعلم أن العقل على حق، لكنه هو.. ذلك الذي اختفى قبل قليل، تحكم بجزء منها ليس بالهين أبدًا، يجيد الطرق على نقاط قوتها وضعفها بالمثل.. ونال استجابة.

أغلقت الباب خلفها بإحكام وظلت تناظره للحظات قبل أن تتوجه نحو الفراش، تحمل الثوب الأسود الأنيق، تتلمس خامته الحريرية الناعمة وتتحسس أعلاه المصنوع من قماش مخرم مكون من وردات متلاصقة، تجذبه ببديهية أنثى لتضعه فوق جسدها قبالة مرآة طاولة الزينة، تأملته بإعجاب وابتسمت..

ما عليها من أن تصبح أميرة لليلة واحدة، أو حتى بضع ساعات كسندريلا؟..

وكفتاة حُرمت الحلم قررت الخوض في أحدهم دون أن تدرك حقيقة واقعة.. فقد عادت العربة الفخمة لحالتها الأصلية مجرد ثمرة يقطين فاسدة، وتحول الحوذي لجُرذ مجددًا عند الدقة الثانية العشرة..

في حكايا الخيال وجد الأمير حبه الحقيقي بحذاء وانتهى الأمر بقبلة أو ربما بدأ، لكن في دنيا الواقع.. لن تتركه هي خلفها، ورئيسها المخيف؛ ليس بأمير يبحث عن زوجة لأن أبيه يدفعه دفعًا للحصول على أحفاد!!

انكسرت بسمتها لتمتلئ بالشجن وهي ترتدي الثوب، مقاس يطابقها كأنما صمم لأجلها، احتواء أنيق لحناياها.. لا يظهر الكثير باحتشام راق، لكن خامته تترك ما هو أكثر للناظر ليتيه فيه، رفعت خصلاتها بعشوائية ولم تغير من زينتها البسيطة.. وجدت حذاءً يتوافق مع ما ترتديه، كعب عالٍ زاد في طولها بمقدار جيد..

نظرة أخيرة لحالها ولتلك التي لم تعد تعرفها عبر السطح العاكس قبل أن تغادر الغرفة وكلها أمل بأن يكون كل ذلك مجرد كابوس، لأن الأحلام لا ترتفع بدقات خوفها برعونة كما هي الآن..

مع الصوت الخافت للباب وخطواتها الهادئة المترددة التفت نحوها بينما يعقد رابطة عنقه، تباطأت أنامله وسطا على جوارحها بعمق عينيه فسقطت بنظراتها أرضًا تهمس بحشرجة:

- لقد انتهيت.

بموازاة صمته لم تجد مفرًا من النظر إليه ثانية لتجده كما هو لم يتحرك، فقط يداه أنهتا العقدة وجاورتا جسده، يراقبها بتمعن أخجلها وكذبت ما تراه.. لقد شعرت أنه يحبس أنفاسه فصدره بدا لعينيها جامدًا دون حراك..

ابتسم فنفضت عنها خجلها بشكر:

- الثوب يلائمني تمامًا.. شكرًا لك سيدي.

رفع رأسه ببريق وحشي خيم على غيومه ولم تدرك مغزاه:

- ينقصه شيء أخير.

نظرت إليه بتساؤل فأشار نحو مرآة طولية عبر الغرفة، جذب من أحد الأدراج علبة مخملية وأمرها:

- هيا..

تطلعت للعلبة في شك تمازج به ضيق واضح تجاهله، خطت بطاعة يتبعها بتمهل، توقفت تتأمل نفسها بينما يمد يده حول عنقها بقلادة ماسية راقية بمنتصفها ألماسة سوداء تتماشى مع ثوبها تمامًا.. تمسكت بها قبل أن يغلقها حولها من الخلف ولهجتها يكسوها رداء الغضب:

- لا..

استدارت تواجهه ببرية عينيها المحيرتين واللتين زادت فيهما لمعة العسل في هاته اللحظة فغاص بهما صامتًا مرغمًا:

- يكفي الثوب.. يمكنني تحمل ثمنه من راتبي، لكن هدية ماسية.. لا!

وكأن اعتراضاتها محض هواء، أمرها بنبرة باردة:

- استديري سديم.. هذه ليست هدية.

ولم تصدق:

- ماذا تعني؟

ابتسم ولمعت مقلتاه بين تلك المسافة الضيقة خلف جفنيه شبه المنغلقين، مد ذراعيه يحيط عنقها من الأمام كأنما يكبلها إليه بهمس خافت ويداه تقفلان القلادة بدقة أسفل خصلاتها الحرة:

- لأجل حفل العشاء.. بعدها يمكنك إعادته لي، إن شئتِ.

تيبست في مواجهته، صراع محتدم يكاد يبعثرها لشظايا، هي لا تفهمه.. لا تعلم أيًا من مقاصده، لكن حدس الأنثى بداخلها يخبرها وبتأكيد أن نيته ليست جيدة.. وأنها تسقط دون وعي..

ينطق بالكلمة لا يلقي لها بالًا لتقع فوق كيانها الهش رغم القشرة الصلدة التي تتباهى بها وتظن فيها حماية..

"إن شئتِ!!"..

هل تظن فيه سوء نية أم تفترض حسنها وتمرر الليلة بخير!

رغم كل المحاذير وإشارات التنبيه بعقلها استجابت بلا خيار كأنها لم تعد تملك من أمرها شيئًا، بصحبته، إلى جواره، حوله ومعه.. تفقد من تركيزها قدرًا ليس باليسير؛ وهذا مخيف.

انتهى حفل العشاء بهدوء.. تابعت هي العمل وابتسمت في وجوه الشركاء الجدد، وكان هو يتابعها بين حين وآخر دون أن يلمح تتبعه لها سواه، في ختام الليلة والذي حرص أن تكون قصيرة حتى تعود لمنزلها باكرًا منحها عرضًا أخيرًا متأكدًا قبله أنه غرس بذرة ثقة لا محدودة وبعثر مشاعر وليدة بتربة قلبها العذراء:

- هيا لأعيدك لمنزلك.

توترت ثانية، لقد ظلت ترفض أوامره طيلة الأيام الماضية، ورفضها دون جدوى.. لكن لا ضرر من محاولة جديدة تحفظ بها ماء وجهها العنيد:

- لا سيدي.. يمكنني العودة وحدي.

عقد حاجبيه كأنما يخبرها أن القرار لا رجعة فيه وبصمت دون الكثير من الجدل، تنهدت مستسلمة والتنهيدة رسمت بسمة غامضة على شفتيه..

صرف السائق ليقود السيارة بنفسه متوجهًا نحو عنوانها الذي يعرفه تمام المعرفة.. صمت شملهما لدقائق قبل أن يرمقها بجانب عينيه، جلستها المتباعدة، هزة ساقها وفرك كفيها اللانهائي، تلاعب بنبرته بعض عبث وهو يثير المزيد من خجلها ويطرق على لهيب مشاعرها التي يعلم عن يقين أنه أمسك بلجامها الليلة:

- أنتِ لا تنطقين اسمي مطلقًا!!

وكان هذا خطأً، لأنها ارتبكت بحلاوتها التي تروض الوحش الكامن فيه، احمرت وجنتاها فأخضعتا نظراته بجفنين نصف متعانقين وتأمل شارد موزع دون

عدل بينها وبين الطريق، وتلعثمت حروفها لتخرج نبرتها متقطعة وأنفاسها بطيئة:

- هل أفعل؟!

وخطأ النمر لا يمر بسلام، بل له توابع استحضرها ذهنه اليقظ:

- تنادينني دومًا.. بـ"سيدي".

والطريدة لا يمكنها الصمود أمامه فباتت هاربة مع سبق إصرار، تناظر الموجودات خارج النافذة وحركتها السريعة وتدعي عدم انتباه كاذب كما يراه:

- لم أقصد.

أوقف السيارة جانبًا بشكل مباغت، وهي حجبت تساؤلها عن السبب فرارًا.. لكنه نقر بخفة فوق كفها المستكينة في أحضان مثيلتها بفرك خفيف متوتر فعادت تنظر إليه مندهشة ليبتسم ابتسامته غير الكاملة:

- تعجبني سيدي.. لكن ماذا عن سيد آمر؟!.. هيا جربيها.

تعلقت عيناها به، تجمد الهواء داخل صدرها، لا يزفره ولا يستنشقه، لم يرمش وكذلك هي، تاهت في غيومه التي اكتسبت دجنة في ضوء الشارع الخافت المتسلل عبر زجاج سيارته، وتمتمت مسلوبة الإرادة:

- سيد آمر.

نعم.. تأكد الآن من خطأه بتمامه، فالنبرة والهمسة وأحرفه الثلاث؛ لم تكن هكذا من قبل أبدًا، رددتها كأنها تلقي عليه بسحر قديم خرج من كتاب أساطير ممزق الأوراق..

وبينما ظلت هي أسيرة عينيه، بات هو سجين شفتيها!

***

هل تدركون معنى القبلة!!

أثر القبلة!!

ذكرى القبلة.. وفوضى مشاعر تخلفها من ورائها كقبس من جحيم مستعر!!

كل أنثى تحمل نحوها فكرة، ترى فيها توقعًا، وكل ذكر لا يطمح بعدها سوى لهدف، ببراءة وحالمية فتاة تنظر إليها هي كرمز مقدس.. وبخشونة بدائية ورغبة فطرية يوقن هو أنها بداية خيط نهايته امتلاك..

والقبلة لها أنواع كثيرة اختار أحدها بإتقان..

منحها إياها فأشعرها بالفعل أن تلك الليلة كانت من دنيا الأساطير الخيالية، هي ملكة وهو سلطانها، غرَّر بحلم ساذج مرَّ بمراهقتها، وفترة أدمنت فيها عالم الروايات فتحيا وتتنفس وتتحرك وتموت لأجل رجل تظنه بطلها كما تراه على الورق، ثم أدركت حين كبُرت على واقعها القاسي الذي حرمها الكثير أنها محض عبث يقوض عزيمتها نحو بناء نفسها وحدها دون احتياج لأحد..

فهمت حينما شبت عن الطوق أن الفقيرة لا تأتيها حورية بجناحين تدعي أنها أمها الروحية وتحولها بحركة من عصاها السحرية لأميرة..

تيقنت أن المساعِدة البسيطة لن ينظر إليها صاحب المال والعمل ويسقط في غرامها من أول نظرة، ثم يجاهد ويحارب قوانين مجتمعه وأهله الرافضين لذاك الرباط حتى ينالها في النهاية..

علمت أن نظرة الرجل تختلف!!

فهو لا يحب من أول نظرة، لكن يمكن أن يرغب من أول نظرة، يتأمل ويتفحص مدققًا.. بل ويعري بعينيه من أول نظرة!!.. وهذه هي طبيعته حتى لو رأتها قاسية لا تشبه سحابتها الوردية في شيء.. ولأنها لا تفهمه فقد اختبأت خلف درع وهمي لم يحمِها طويلاً في مواجهتها معه..

هي وللمرة الأولى تتذوق قبلة حتى وإن لم تمس شفتيها..

أنفاس دافئة، شفاه ضاغطة متطلبة وذقن نامية بأناقة احتكت بظاهر كفها بعد وصولها لأول شارعها ليلتها.. رفضت أن يتقدم أكثر واستجاب على غير عادته وكان الوداع الذي لا يشبهها هي الفتاة البسيطة.. مد يده يفكك إحدى كفيها من الأخرى، رفعها نحو شفتيه وحاصرها بنظرة رمادية قاتمة امتلأت حد الفيض بالغموض.. ثم همس بنبرة أبحة لم تسمعها قبلًا:

- ليلة سعيدة.. سديم.

نسيت أن يدها لا تزال حبيسة أنامله، تجاهلت أنها تسقط نحو حفرة لا قرار لها داخل مقلتيه، ولم تفهم سر تلك النبضة الغادرة التي أعلنت العصيان على

قلبها لتنقص عدد دقاته، تتفلت من صدرها وتعلن الهروب المستحيل.. وتكاد تقسم بيمين مغلظ أنه يفهم!!

ابتسامته لا معنى لها سوى ذلك، نظرته التي التمعت بشيء لم تفطن إليه، وهمسته الأجشة بصوت يغالب مشاعرًا مجهولة:

- كانت من أكثر الليالي متعة.

سحبت يدها متأخرة، ابتسمت بخجل وتمتمت بحروف غير واضحة، مدت أصابعها خلف عنقها تريد إعادة الهدية لكنه أوقفها بإشارة:

- اتركيها معك.. للغد على الأقل.

وأطاعت بسكون.. منذ متى كانت لينة العريكة هكذا!!..

استعادت في اللحظة التالية ذكرى عناق عينيه لشفتيها وقتما تلفظت بأحرف اسمه في رهبة تحت تأثير تعويذة ألقاها عليها.. عناق أجج خجلها للحد الأقصى ودفع بكل دمائها نحو وجنتيها ولحسن حظها كان الظلام يحيط بها فلم يرَ بوضوح..

هربت من تأمله، من نظرة مبهمة ملأت مقلتيه، وملامح لا توحي بشيء تلبسها في لحظة قبل أن يعود لقيادة السيارة يكلله الصمت ويجبرها عليه..

زفرت، بل تنهدت، والضيق عنوان الأنفاس.. لقد ذكرها بقبلة صغيرة بماضٍ حالم تركته وراءها منذ زمن عائدة حيث لكل شيء ثلاثة أبعاد وملمس وحقيقة يمكن النظر إليها، ماضٍ لا يجوز التفكير فيه الآن وهي على بعد دقائق معدودة

من لقاء خاطبها المفترض.. تنتظر نداء خالتها لتقدم له ولوالدته المشروب البارد..

دلفت للغرفة بخطوات تدعي فيها الثبات، تعنف قلبها البائس ويشاركها عقلها.. تأمره بأن يفيق..

فهنا أرض الواقع حيث الخيال هو حلم يداعب اللاوعي وفقط..

جلست في مواجهته، تطرف بأهدابها، تهرب من تفحصه وبسمة ارتسمت فوق شفتيه، وبين أمه وخالتها وهو حديث دائر لم تلتقط منه حرفًا.. ثوان، دقائق وأصبحا وحدهما..

كان يدرك ماهية الموقف بوضوح، ولأنه يسعى إليها فسيختصر سالكًا الطريق المستقيم بينها وبينه، غير مقعده يقترب من جلستها فنال نظرة مرتابة قابلها بنبرة مطمئنة:

- لا أريد أن أصرخ عبر الغرفة وأنا أقص عليك مؤهلاتي كعريس مفترض.

ابتسمت بعفوية فأردف بمرح:

- حسنًا.. هذه البسمة؛ هدف لي.

يبدو مريحًا، وجهه يبعث على السكينة، عويناته الأنيقة تمنحه مظهرًا وقورًا لا يليق بسنه الذي تعرفه.. لكن خلف هذه الواجهة شابًا قد يكون حلم لكل فتاة، انتزعها من شرودها بنداء خافت، رفعت رأسها إليه، لمح حيرةً وتوترًا.. ربما رفضًا وخوفًا ما سارع لمحوه بلهجة هادئة:

- أنا أعلم أنكِ لا تعرفين عني أي شيء، لذلك ها أنا أمامك، يمكنك سؤالي عما ترغبين!

تمتمت تبحث عن جواب:

- هو سؤال واحد كبداية، والإجابة تهمني للغاية.

لمحت على وجهه تشجيعًا فأكملت:

- لماذا أنا؟

عادت له بسمته ممتزجة بحنان رأته غريبًا:

- ولماذا غيرك؟

تقوس حاجباها بعناد بدا له محببًا:

- لا تجب عن سؤالي بسؤال.

سحب نفسًا عميقًا، فبعد ما عرفه عنها، عن حكايتها مع صديق مراهقته، عن صمودها ويتمها والخالة الوحيدة التي تبقت لها من الدنيا أدرك مع من سيتعامل، وعلم كيف سيصل!:

- ليس سؤالًا سديم.. أنت تبحثين عن مبرر، وأنا أرفض ذلك.

امتلأ عسل عينيها بحيرة فاستطرد موضحًا ببساطة:

- لن أتحدث عن حب.. لكن اختيار القلب لا رادَّ له.

تغضنت ملامحها وهزت رأسها برفض:

- لا تذكر الحب أنت لم ترني سوى..

قاطعها بلطف:

- كل يوم طيلة الشهر الماضي، وأنا لم أذكر الحب.. فقط أعلنت أن قلبي اختارك.

توترت تتمعن في حديثه فمال يستند بمرفقيه إلى ركبتيه:

- أنتِ غرستِ بذرة هناك.. يمكنك أن ترويها لتزهر، أو تهمليها لتموت عطشًا.

ابتلعت لعابًا لا وجود له، تشعر بجفاف حلقها، وذكرى ليلة مرت بها لا تفارق خيالها، وواقع بين يديها على طبق من فضة.. تقارن، تفند وترفض بل وتعاند.. يجابه القلب بضعف والعقل يكممه بتسلط، اخترق هو حاجز أفكارها الصامتة:

- دعينا نجرب سديم.

نظرتها المشتتة نحوه أشعرته بالعطف فابتسم حانيًا:

- خطبة قصيرة.. بعدها لك حرية القرار النهائي.

وتراجع في مقعده ثانية:

- إما أن تكملي معي حياتي كشريكة وزوجة لها مكانتها.. أو ترفضيني وحينها سأتمنى لكِ كل سعادة!

ظلت على حيرتها وشرودها.. هل تخدع نفسها وتمنحها أملًا زائفًا بمغازلة رئيسها الذي يود سماع اسمه من بين شفتيها؟!.. أم تسلم لمقادير هي أقصى ما يمكن أن تطمح إليها فتاة في مثل موقعها!!

عاد ينتشلها من دائرة ضياع تدور فيها دون هدف بمرح ونبرة لطيفة:

- اعتبريها فرقة استطلاعية لمهمة انتحارية تسمى.. الزواج.

ندت عن شفتيها ابتسامة لم تقاومها هذه المرة فهلل بحنو:

- وهذه أخرى.. لي.

عاد يميل دانيًا منها، يهدهد خوفها علَّه يمحوه.. ويسأل بتوجس مصطنع حصل به على البسمة الثالثة:

- هل نقرأ الفاتحة!!

ولأن دنيا الأحلام لا تطالها الأنامل إلا عبثًا، فقد سلمت لواقع ربما فيه الخير و.. الأمل!

***

أحيانًا تلقي بنفسك في وادي التهلكة عن جهل.. وربما أنت تعلم مدى الخطر لكنك لاتزال تتشبث بأمنية أنك تستطيع تحقيق الحلم، تسديد الدين.. وملء فراغ مشاعر لدى من تحب.

باتفاق مسبق وقعت عهدًا مع الشيطان العابث، منحته صكًا يجيز له اللقاء، وتوقن أنه سيستغل ذلك كأسوأ ما يكون..

هي لا تخافه، يمكنها مواجهته، الصمود أمامه.. لكنها فقط لا تملك الضمانات الكافية أنه سيحارب بشرف!!

ظلت تتوقعه طيلة الأيام الماضية، ترقُب ملأها.. قرب وصول للهدف تتمناه لكنها لاتزال تخشى حقيقة غائبة عنها والكل يرفض إطلاعها عليها كأنها طفلة لا تفقه من أمور الحياة شيئًا.

خطت لمكتبها بعجالة، بعض العمل لن يضر، قد يشغل ذهنها ويمرر وقت الانتظار.. لم تفكر أنها قد تجده هناك، يجلس في مقعدها بصفاقة، يتطلع خارج نافذة مقابلة وعلى شفتيه بسمة عابثة رحبت بها قبل تحيته:

- صباح الخير.. تأخرتِ!

ضمت قبضتيها بقوة، تود لو تلكمه.. لو كبله أحدهم حتى تصفعه، تركله وربما تكسر زجاجة أو اثنتين تشوه بهما وجهه الوسيم هذا، ألقت بحقيبتها فوق المكتب وواجهته بحدة:

- ماذا تفعل هنا؟

نهض بهدوء متجهًا إليها:

- بيننا موعد.. هل نسيتِ؟

ودارت هي في الاتجاه المعاكس لتجلس خلف مكتبها تصنع به حاجزًا بينهما:

- أنت لم تحدد موعدًا سيد غيث.

أوضح ببساطة وعيناه تتجولان فوقها بحميمية أثارت حنقها:

- كان اتفاقًا مفتوحًا وافقتِ عليه.

زفرت بضيق، أدارت وجهها تعد للعشر.. للعشرون وحتى ثلاثون وهو يراقب باستمتاع ماكر، توجه نحو مقعد مواجه وجلس بأريحية فعادت تنظر إليه، أكسبت لهجتها عملية باردة كاظمة غيظها.. فهي من اختارت الطريق وسارت فيه بإرادتها:

- حسنًا سيد غيث.. هل تشرب شيئًا ما؟

مط شفتيه دونما اهتمام فعلي:

- هل ستفعلين أنتِ؟

تنهدت تستدعي الصبر:

- نعم.. شاي الصباح اليومي.

جعَّد أنفه واستهان برأسها وجرعة الكافيين المخففة:

- لا أحب الشاي، لكن.. هل يمكنني إشعال تبغي؟

صمتها قابله بعدها هزت رأسها بنعم، ومن هو ليمرر الأمر دون تعليق يستفز فيها روح المحاربة، أطفأ قداحته عقب نفث دخانه ببطء:

- تحبين رائحته إذًا؟

ونفت دون حديث أيضًا، فأكمل بخبث:

- تقدمين التنازلات كارما!!.. هذه خطوة جيدة.

عقدت حاجبيها بضيق لاحقه هو بسؤال فج:

- ترى لأي درجة يمكنك تقديمها؟

وفاض الكيل موازيًا لحدة نبرتها، عيناها اللتان التهبتا كذهب يحترق بشغف النيران، وكفها التي لطمت مكتبها في غضب:

- ليس لدرجة يمكن أن تمر بأفكارك القذرة.

ضحك بشدة حتى أنها تطلعت إليه باستنكار، وعندما قطع ضحكته وتغيرت ملامحه لتلذذ جليّ بإثارة كل السخط داخلها همس بصراحة تقارب البذاءة:

- لا يمكن لأقصى أفكارك جموحًا أن تعلم ما في أبخس أفكاري أنا قدرًا.

احمرت وجنتاها واستعذب هو طول النظر، لن تهزمه في أرض معركة الوقاحة، ولجام السيطرة يضيع من يدها في نزال ليست أهلًا له.. غيرت مجرى الحديث دون عناء علَّها تنتهي منه ويرحل:

- هل سنتحدث فيما جئتَ لأجله؟

ارتكن لمكتبها فجأة بنظرة جادة ولمحة صرامة باغتتها:

- كيف تعرفين السيدة سوزان؟

سكنت تفكر..

هل تكشف كل الأوراق؟..

هي تريد أن تفعل وما موافقتها على ذلك اللقاء إلا لتمهد الطريق بينهما فيعود إلى والدته:

- هي زوجة أبي.

ارتفع حاجباه دهشة قاربت الذهول.. ذهول تحول لاستنكار ثم غضب أسود تلبس ملامحه، لمعة شيطانية مرت بمقلتيه قبل أن يفاجئها ببسمة عابثة غطت على نبرته الهائجة:

- وكيف تزوجها؟.. كيف اطمئن لها.. عليكِ؟

شعرت بحيرة شديدة، هي رغم كل شيء، ورغم قربها من أمه؛ لا تعلم عن ماضيها ما يجعل ابنها يقاطعها كل هذا العمر!!.. وأسئلته أضافت المزيد والمزيد لحيرتها لكنه جذبها قبل الغرق بسؤال:

- أنتِ لم تسأليها عن السبب!!

ترددت، ولأول مرة يلمح ارتباكًا في عينيها القويتين:

- سألت.

ترقب متوجسًا:

- والجواب!!

لم تجبه.. والصمت دليل جهل، عاد لروح العابث بسخرية من وحل غاصت فيه ولا تعلم أن أعماقه لا منتهى لها سوى الغرق:

- تخطين داخل وجار الذئب دون تخطيط لطريقة الخروج كارما.. هذا خطأ!

وكأنه يوبخ طفلة شقية!!..

تغضن جبينها وعرق غضبها ينبض فوقه بعنف ظاهر.. عاجلها قبل الرد عائدًا لما أتى إليه منذ البداية:

- حسنا تحدثنا عما أردتِ، واستمعتُ لما لا أرغب، دوري الآن..

استغربت ما قال فأردف موضحًا:

- ماذا عن دعوة العشاء تلك؟!

والجواب أتاه باترًا حادًا:

- لا.

همس بمكر خبيث جعل نبرته أكثر جاذبية:

- ترفضين ثانية!!

وانتوت إنهاء لعبة لم تعد مسلية:

- المشكلة سيد غيث أنك تسعى لإثبات وجهة نظر مسبقة كونتها في ذهنك عني..

قاطعها ببراءة مصطنعة:

- من قال أنني أفعل!

لم تهتم بالمقاطعة أو التبرير والتساؤل:

- أنا لا أكترث لها في الحقيقة، رفضي لا يعني أنني أسعى بشكل مضاد لتفنيدها أو تغييرها، لكن هذه هي أنا.. ببساطة ودون رتوش.

ابتسم ساخرًا وهذا خط هجوم أخير:

- كل هذا لأجل دعوة عشاء!!.. أنتِ تضخمين الأمور.

نقرت بأناملها فوق المكتب بشبه عصبية:

- بل أضعها في نصابها الصحيح.. وربما عليك فعل المثل.

تأملها قليلًا، دور البريئة لا يناسبها.. لمعة العينين، الثقة والعنفوان، العناد والصمود أمام كل أسلحته.. هذه الفتاة تجيد التمثيل حقًا:

- تلعبين دور صعبة المنال!

قالها بتقرير، واجهته والعصبية تتسلل لصوتها.. ذلك الرجل يفقدها صوابها، يثير جنونها وبالكاد تتماسك أمامه حتى لا تقذفه بأقرب مزهرية لتشج رأسه بها:

- وأنت تلعب دور العابث باقتدار.

ابتسم ساخرًا، تلاعب بلفافة تبغه قبل أن يطفئها بأنامله ببرود جعل عينيها تتسعان، ألا يشعر بألم النار!!.. وكان درسًا تلقته، هذا الشيطان المختبئ خلف رداء العبث يملك من القسوة ما يكفي.. ويجيد استخدامها حين الحاجة، نهض متأكدًا من فهمها لرسالته:

- أنا لا أؤدي أية أدواركارما.. ما ترينه أمامك هو ما ستجدينه في كل مرة.

بتنهيدة حارة أنهت حديثها، هو مرهِق.. التعامل معه مضني ومنهك بحق:

- ولديَّ أيضًا.

تحولت البسمة لشقاوة ماكرة والنبرة امتلأت بوقاحة سافرة والعين تعود لتجوال وتفحص يثير فيها الخجل:

- جيد.. هو تعادل إذًا.

رمقته بدهشة رفع لها حاجبًا، وبين حيرة تملكت منها، وعدم فهم لذلك الواقف بمواجهتها؛ ارتسمت على شفتيها ابتسامة تعلن بها استسلامًا.. كأنما تفوض أمرها فيه إلى من يقدر عليه..

وابتسامتها اليائسة وازت شعاع شمس دافئ سقط على وجهه بذات اللحظة..

ملأ عينيه بصورتها ونظرته مبهمة قبل أن يحييها ويرحل بعدما نقش حروفه على جدران عقلها.. وحرك في نفسها كل الفضول!

(١٠)

إن المرأة إذا تعلقت بالرجل؛ كانت أسبق منه إلى التصديق، وكان خداعه إياها أسهل من خداعها إياه..

"عباس محمود العقاد"

***

على أرض الواقع إما أنك طيب.. شرير، أو الأسوأ غبي..

كمن رقص على السلم فلا هو قائد الطيبين ولا هو صديق الأشرار.. بل عدو الفئة الأولى، ومثار سخرية الثانية!

والوقوع في منطقة وسطى تتلون بالرمادي ليس من السهل على الكل إجادته خاصة عندما تخطط للوصول لأمر ما وتعاندك الخطط ليتفلت من بين أصابعك كالماء لا تستطيع القبض عليه..

وبكل هياج سب نفسه على فكرة ظن أنها الأفضل!.. يمكن أن تأخذ بيده نحو ما يريد وبطريقة أسهل!..

فالصيد لا يشعر بثعبان يقترب حتى لحظة الانقضاض لكن دنو الذئاب شرس نتيجته هروب.. وهي هربت بما يكفي ليقرر هو تغيير تكنيك الاقتراب، فباغته القدر بآخر..

آخر يعرفه، بل كان بينهما شبه صداقة قديمة، رآها وفي خطوة تقدم لطلب يدها، لكنها وهو مخطئان لو ظنا أنه سيحتفظ بصمته ويتركها تتسرب من بين يديه..

هي له، مهما عاندت، أو تمسكت بوسيلة فرارلن تغنيها من الأمر شيئًا!!

ولأنه تساهل معها كثيرًا فقد حان وقت بعض الشدة، خطة أكثر حسمًا ومباشرة.. قطع طريق أو إرهاب لا يهمه المسمى، ما يبالي به في هذه اللحظة أن يوقف هذه المهزلة وسيبدأ بها..

انتظرها عند مدخل منزلها، ومع أولى خطواتها كان يجذب ذراعها، يلصقها بالجدار بموازاة شهقتها المذعورة، يحاصرها ويأمر بما لا يملك الحق به:

- هل حقًا وافقتِ على خطبة ذلك الغبي!!

انتزعت يدها من قبضته بعنف، التمعت عيناها بشراسة.. وودت لو أطبقت بكفيها الصغيرتين حول عنقه تهديه آخر الأنفاس:

- هل فقدت عقلك حسان!!.. كيف تمسك بي وتجرني هكذا؟..

وزجرته بحدة آمرة ساخطة:

- ابتعد عني.

وتظل الحمقاء حمقاء بريئة لا تفهم ما يفعله، هي له حتى لو نالها أولًا قبل أية أوراق تثبت تلك الملكية.. حاوطها بذراعيه مستندًا إلى الجدار خلفها، ومال بوجهه حتى استشعرت حرارة زفيره الناقم، تراجعت هي وهلع ما يعتصر قلبها:

- هذا هو ما يهمك!!.. أجيبيني سديم؟.. هل وافقتِ على خطبته؟

هي لن تلمسه.. خاطبت عقلها الهائج بجنون داخل رأسها.. لن تدفعه، ستصرخ بوجهه وربما تصرخ مستنجدة لا تعلم:

- قلت لك: ابتعد عني.

من بين أسنانها نطقتها فحرك عينيه بسخرية:

- حقًا.. تأمرينني؟.. وماذا عن جواب سؤالي!

ودنا بجسده لحد زائد حتى شعرت أنها ستفقد وعيها خوفًا وتقززًا:

- أنتِ لي أنا سديم.. لن تفارق عصفورتي مصيدتي مهما حاولت.

وما الحل سوى صراخ!!.. تتبعه فضيحة ربما؟..

رباه، هذا لم يكن بالحسبان، لم تنتبه لتغير لهجته.. نبرته التي اكتسبت رغبة سافرة تعلن عن وجودها لسمعها، أنفاسه التي بدأت في العلو وهمسه يزداد خشونة:

- إن كنتِ تريدين رجلًا حبيبتي..

وازدرد لعابه بحشرجة:

- فالأقربون أولى بالمعروف.

وأخيرًا استجاب جسدها لأوامر عقلها الذي يصرخ فيها لتفعل أي شيء!!.. دفعته بأقصى قوة تملكها في جسدها الضئيل حتى أنه تفاجأ وكاد يسقط على ظهره:

- ابتعد عن طريقي حسان.. إياك..

وبرقت عيناها بكره حاقد:

- أتفهم!!.. إياك أن تقترب مني ثانيةً.

ومن يأبه لتهديد أنثى وحيدة صغيرة لو أمسك بها لنال منها ما تمنى في لحظة دون أن يردعه عنها أحد!!.. وتفتق ذهنه عن خطوة غير عقلانية نهايتها خضوعها.. عاد إليها واتسعت عيناها وقلبها ينبض والجبين يتعرق والعقل يتساءل عن كَنه تصرفه الآن!!..

مد كفه الضخمة يقبض على ذراعها، يقربها منه وانحنى بوجهه إلى شفتيها وليكن ما يكون.. انحشرت صرخة في حلقها قبل أن تأتيها نجدة وأحدهم يفتح باب المنزل الخارجي بانزعاج:

- من الأحمق الذي أغلق هذا الباب!!

تجمد في مكانه لكنها لم تفعل، تراجعت تبتعد.. تهرب، بل تكاد تركض وهي توجه حديثها للسيدة العجوز بينما يتوارى هو كأي جبان وآخر ما سمعته منه:

- أنا لم أنتهِ بعد فتاتي.. ولي حديث مع صديقي القديم.

تجاهلته لأن كل ما تملكه هو التجاهل بينما تحادث السيدة:

- عفوًا سيدة أمينة.. أغلقته دون شعور.

وابتسمت المرأة في وجهها بحنو أمومي:

- مادمتِ أنتِ سديم؛ سأسامحك.

وكادت تتعلق بيدها وهي تصعد معها الدرج، تلهث برعب.. تشكر الخالق على نجاة قبل أن يلوثها ذلك الأرعن بلمسة ليست من حقه.. وتبتهل أن يكون اختيارها إلى جانب الصواب.

***

الطريق إلى الجحيم مفروش بالنوايا الطيبة، والطيبون يخضعون لمبادئ تحثهم على أفعال ربما ليست من الحكمة في شيء.. لكنها إرادة النفس التي لم تخسر فطرتها بمواجهة واقع هو الحقيقة الوحيدة الملموسة..

ولأنها اصطدمت بذلك الواقع في اللقاء الأول وتأكدت منه في الثاني حتى اعتادته فيما تلا ذلك فقد قررت أن تفهم!.. كما أخبرها ذلك الفاسد، هي تخطو نحو هاوية دون أن تعلم أين تضع قدمها لتتفادى السقوط..

وكل ما تملكه في هذه اللحظة سؤال وأمنية بجواب صريح تشك في حصولها عليه لكنها ستكتفي بشرف المحاولة ولو بشكل مؤقت..

توجهت نحو غرفة والدتها، طرقتها بهدوء وهي تعلم أن والدها ليس بالداخل.. عندما وصل لأذنها إذن السماح فتحت الباب ودخلت ثم أغلقته خلفها بابتسامة واسعة:

- صباح الخير على السيدة الجميلة..

مدت "سوزان" يدها نحوها بحب:

- أسعد الله صباحك يا ابنتي.

تناولت كفها بين راحتيها وجاورتها فوق الفراش، ترددت والتردد البادي على ملامحها جعل المرأة تفهم أنها تود قول شيء تخشى من سماع الرد عليه:

- هل تريدين قول شيءٍ ما صغيرتي؟

رفعت إليها عينين مرتبكتين، الخشية ليست وحدها ما يسكنها في هذه اللحظة.. لا ليست حتى خشية رفض الجواب، ولكنه الخوف من الجواب نفسه، جواب لن تحتمل سماعه..

كل تلك القطيعة، هذه السنوات.. نظراته التي تنقلب لقسوة شرسة لحظة ذكرها!!.. نبرته الهازئة يتخفى فيها الألم خلف سخرية يبتز بها غضبها.. وإنهائه للحديث في كل مرة دون إشباع، ربتت على كفها برفق وألقت ما بجعبتها دون تأخير لأنها لو فعلت فلن تتحدث:

- لقد زارني في الشركة بالأمس.

واللهفة المرتسمة على وجه أمه أوجعتها:

- غيث!

أومأت بنعم صامتة، لمعت عينا "سوزان" باشتياق واضح:

- كيف هو!!

هزت كتفيها، تستنكر ذلك القلق على عابث لا يهمه من الدنيا سوى إيقاع النساء في حبائله:

- بخير.. لا تقلقي.

وعادت للتردد والأم تنظر بتساؤل حسمته بجواب تبتُر به أفكارها المضطرمة:

- أريد أن أعرف أمي.

انقبض قلبها..

هو لم يخبرها!.. أما هي فبالطبع لن تفعل..

كيف تجاهر بذنب بعد أن تابت عنه وسترها الله رغم إثمه الذي يثقل كاهلها!!..

أغمضت عينيها، تتجاهل كل غريزة تنبئها أنها تترك ابنتها التي تربت على يديها لابنها الذي تعلم كم هو قاسٍ حتى لو كان السبب هي، تهجرها في طريقه الوعر، والنهاية لن تكون أبدًا في صالحها.. عادت تتأملها بحنو:

- لا يهم صغيرتي.

وابتسمت بشجن أغرق حناياها:

- لا تنكأي الجروح القديمة يا ابنتي.. الراحل لن يعود مهما حاولتِ.

فتحت فمها لتعارض، تؤكد على عزمها لاستعادته، قوتها في مواجهته، سعيها الحثيث والذي لن تتوقف عنه لكن السيدة قاطعتها والنبرة هذه المرة غادرها الحزن أو ربما توارى خلف حزم مصطنع تمازج به أنين قلبها:

- ابتعدي عنه كارما.. لا أريد أن أتسبب لك في أذىً!

هزت "كارما" رأسها تعاند.. ترفض.. تثبت أنها تمتلك القدرة والسيطرة:

- لكن...

وأخرستها أمها بأناملها فوق شفتيها:

- لا لكن حبيبتي.. اتركي هذا الأمر للوقت.. يعالجه، أو ينهيه.

انحسرت نظرتها عنها بهروب.. ونفسها تجابه: التحدي والعزم لن يتراجع أمام رغبة قلب كسير، هي تعرف أنها يمكنها الوصول.. وستصل!

***

قالوا أن: المرأة التي تهز المهد بيسارها تهز العالم بيمينها..

لكن تلك المرأة لن تهز قلبه، تقتنص منه مشاعرًا لم تنلها أخرى حتى لو اختلفت هي!!..

ونعم هي مختلفة مهما أقنع نفسه بالعكس، مهما تمادى في السخرية منها، استفزازها أو حتى وقاحته معها.. هي متفردة بذهب عينيها الرائق، وتلك النظرة الحانقة التي تحوله لحمرة الشفق، خصلتها التي تمردت على وشاحها لتكشف له عن ذهب من نوع آخر يختبئ بعيدًا عن نظراته..

وجهها الحازم طوال الوقت، ولسانها الطويل الذي يود لو اقتصه حتى تتوقف عن تحديه بالكلمات، ذلك العناد.. تحولها في مواجهته لنِد صامد قوي لا يفوز معه في حرب أبدًا..

وهذا ليس عادلًا البتة لمن اعتاد النصر!

في المرة السابقة ادعى جهله بعلاقتها بالفاضلة والدته، لم يفضل أن تعلم أنه يبحث خلفها، يتقصى عنها حتى من صديقتها.. هو نفسه يجهل السبب!..

فلو قلنا أنها اقتحمت حياته وخربَّت سلامه النفسي بماضٍ ظل يتجاهله حتى الأمس القريب؛ فقد كان بإمكانه غضّ الطرف عنها، تجاوز ما فعلته وإخراجها من رأسه ثم المضي قدمًا كما هو دون تغيير..

لكنها قدَّت لنفسها جزءً غير هين من عقله وبذلك تستحق عقابه، والعقاب بالنسبة لعابث يتمثل في القليل والكثير على اختلافهما وهو سينالهما معاً!..

الهجوم هو الوسيلة الأفضل دومًا للدفاع.. مبدأ عادل ومنطقي!

مبادرة تفاجئ بها الخصم على غير توقع، فتسقطه أنت قبل أن تسقط.. ولأنها تظهر بصورة تخالف معتقداته، فقد رفض التصديق بعنف، واتخذ لنفسه منفذًا دفاعيًا طبقه عليها كما على كل واحدة مرت بحياته..

لكنه الآن.. لا يعلم ما الذي يفعله هنا؟.. هو فقط أراد رؤيتها، استفزازها كعادته، ونيل متعة حمرة وجنتين أو حتى بسمة يائسة كما في آخر مرة.. طرق بابها وفتحه دون منح إذن، وجدته أمامها بهيئة عابثة.. بسمة مبهمة تلتوي بها

شفتاه، لمعة مقلتين تتمعن في وجهها دون هدف، وبنطال بسيط من الجينز الأسود وقميص قطني رمادي قصير الأكمام..

مد يده بأحد جيوبه وتقدم متمهلًا يمنحها حق تفحصه بالمقابل..

صمتها أثار فضوله فاقترب ليواجه مكتبها:

- مرحبًا..

ودون مماطلة بدأت المعركة:

- ماذا تريد؟!

بصراحة كان رده وهو يحجم اندفاعها خلف جرأة نظرة:

- أريدكِ أنتِ!

ولأن الأنثى تظل أنثى مهما تظاهرت بالقوة فقد احمرت وجنتاها، خجلًا أو غضبًا لا يهم، المهم أنه حصل على متعته ويرغب في المزيد:

- لمَ لا تتوقف عن عبثك قليلًا وتتحدث بجدية!!

دار حول المكتب فنهضت تبتعد وضحك ليؤجج من غضبها حد الجنون:

- طفلة خائفة تتظاهر بالشجاعة ولا تمتلك منها ما يكفي للصمود في مواجهتي!.. صحيح كارما؟

تراجعت واقترب أكثر وأرادت شتمه، ضربه، طرده.. أي رد فعل عنيف مناسب لكنها لم تستطع وبلا سبب محدد فاحتقن وجهها بحمرة قانية:

-أنت.. أنت...

توقف فتوقفت، رفع حاجبًا وتساءل بنبرة ماكرة:

- أنا ماذا؟!.. يعجبني أنكِ تعجزين عن الحديث أمامي.

لكنها حانقة وهذا يكفيها:

-أنا فقط لا أجد سبَّة مناسبة تتوافق مع وقاحتك.

وعاد يضحك بصوتٍ عالٍ:

- أراهن أن تلك الوقاحة تعجبك!

توسعت عيناها ذهولًا من صفاقته بينما يردف:

- ماهو إلا دلال أنثوي مفتعل بعده ستسقطين بين ذراعي.

هل رأيتم امرأة من قبل على وشك الخبال!!.. حسنًا لنلقِ نظرة على ملامحها التي تمازجت فيها الشراسة بالغيظ وإحساس العجز:

- اخرج.

وببرود واقتراب من جديد:

- ماذا!.. هل صراحتي مخجلة!!.. أم مخيفة؟.. أو ربما هو تمنُع يدل على رغبة كما هو حالكن معشر النساء.

الآن تحول العجز لقهر وضعف ثم انقلب لكمد حبيس صدرها:

- إن كان يمكن أن ترغب في شيطان!

وعاندت بتوقف، ترمقه بنظرة متوعدة محذرة أن يدنو بمزيد، وهو يتجاهل حد خطوتين، فخطوة ومواجهة حاسمة قبل أن يعلو نبرته شغف:

- للشياطين جاذبيتها الخاصة يا ذهبية وإن كانت وحشية مثيرة للرعب..

وبرقت دُجنة عينيه كأنما التمعت فيها نجوم السماء:

- ذاك الخوف، تلك الرعشة، البرودة التي يقشعر لها جسدك، فضول ومغامرة تتوسلك الخوض في جنونها..

تجمدت تمامًا قبالة تفسيره الرجولي البحت ورغم ذلك المنطقي ولو بوقاحة مغزاه:

- أدرينالين يملأ دمك فلا تملكين أمامه إلا قبول التجربة.

ومال برأسه يهمس أمام وجهها بيقين:

- والتجربة لن تكون سوى معي أنا.. يا ذهبية!

وكأنها سبَّة ما، عاد يُسعِر انفعالها.. بثقته، جرأته، عبثه وقربه غير المحتمل:

- لا تناديني هكذا!

مط شفتيه باستخفاف فقد سمع شريكها عفوًا يلقبها به وكم هو صادق:

- ماذا!!.. لقب خاص بالسيد باسل المبجل!!

ورفع حاجبيه بهزة رأس مؤكدة:

- لكنه يناسبك تمامًا.. الأحمق يمكنه تقدير مميزات ما يراه.

"يكفي"

كادت تصرخ بها لكنها استبدلتها بلهجة آمرة لامرأة ساخطة حد الخنق والطعن وإطلاق الرصاص:

- ارحل من هنا.

وأخيرًا استجاب، خرج بخطوات بطيئة ليعكر مزاجها لدرجة قاتلة، وبينما أغلق الباب من ورائه عادت خلف مكتبها تمسك بكوب الشاي الذي أصبح مثلجًا وهي تصب فوق رأسه لعنات الكون كله، لكنها أسقطته دون قصد فتحطم بدوي تعالى له الغيظ بين جنبيها، انحنت تلملم شظايا الزجاج أسفل قدميها لتسمع صوته يقتحم جنون أفكارها:

- هل أنت بخير؟!

بل هل تصدق أذنيها أن بنبرته قلق ؟!..

لا، غير ممكن.. رفعت رأسها باندفاع لتصدمها بطرف المكتب وتتأوه، وكاد يتجه نحوها ليطمئن لولا سؤالها الحاد:

- لماذا عدت!!

وارتبك!!.. حقًا لماذا عاد؟.. لم يجد مبررًا مقنعًا فانقلبت حيرته لغضب:

- هو خطئي.. ظننت أنكِ ألقيتِ بنفسك من النافذة.

زمت شفتيها والضيق غلف ملامحها الحانقة ونال احمرارجديد من وجنتيها:

- وها أنا بخير أمامك.. غادر.

ولأول مرة معها تطغى على نبرته حدة دون سيطرة:

- فلتقطعي شراايينك بهذا الزجاج حتى.. من يهتم!

وكذبته نفسه وعقله حتى ساقيه المغادرتين..

"أنت تهتم!"

***

لا.. هو لا يهتم أو يبالي!..

هل حقًا لا يفعل؟!

مجيئه كان خطأً وعودته بعد الرحيل لمجرد صوت تحطم زجاج خطأ أكبر، أي قلق ذاك الذي تسلل بلؤم لقلبه ليدفعه نحوها مجددًا، يقتحم المكان ويدور بعينيه بحثًا عنها وعن اطمئنان!!..

ماله حتى لو رمت بنفسها من النافذة كما أخبرها!!

ظل واقفًا خلف بابها لثوان يضم قبضتيه، ملامحه متجهمة، وتوتر غريب يخبره أن هناك ما تغير، ولأن التغيير في حالته مستحيل فلابد من حل آخر ينزعها به عن ذهنه المتأجج بجحيم لا مفر من لهيبه في هذه اللحظة..

فكر، اتخذ القراروآن أوان التنفيذ دون قيد أو شرط..

بخطوات متسارعة غير اتجاهه نحو مكتب امرأته، وجد بابه مفتوحًا فدخل ببساطة هادئة، رفعت عينيها إليه بدهشة حائرة وترحيب حذِر:

- سيد غيث!.. مرحبًا بك.

أومأ ببسمة وتحية خافتة.. من نظرته شعرت أنه يريد الانفراد بها!..

وهبته نظرة متعجلة ثم أخفضت عينيها ثانية تنتبه لما بيديها، تتساءل عن سبب وجوده هنا في هذه اللحظة!.. وقوفه الصامت خلف بابها!.. تأمله المبهم لها!.. ونظراته المليئة بغموض قاتم لا تعي مغزاه!..

مدت يدها بالأوراق لمساعدتها التي مرت بجواره لتخرج، ومن خلفها أغلق الباب بإحكام.. استدار إليها ولمح البسمة المندهشة التي غزت شفتيها، انفراجتهما الصغيرة استعدادًا لسؤال يعلمه لكن جوابه يغضبه ويثير حيرته ولابد من مدخل آخريتحايل به على تلك الحيرة علَّه ينساها أويتناساها..

تحرك مقتربًا وسؤالها ينطلق بنعومتها التلقائية:

- ماذا هناك؟.. وماذا تفعل هنا؟

ولأنه حضَّر الرد مسبقًا فقد عاجلها به مبادرًا، التف حول مكتبها، جذب يدها ليوقفها دون حرف، أحاط خصرها بذراع وبكف الأخرى لف عنقها قبل أن يحبس كل أفكاره بسجن شفتيها.. بشغف غريب.. بحرارة تقطعت لها أنفاسها وأثارت الوهن في جسدها لتتشبث بقميصه برد فعل عفوي وهي تجاهد لدفقة هواء تئن حاجة إليها..

ولأجل عوز صدره للأنفاس ابتعد عنها عدة سنتيمترات قدر أصابع اليد الواحدة، استند بجبينه لجبينها لاهثًا وهمس بنبرة أبحة بها حشرجة فرَّقت أحرفها قسرًا:

- أريدك.

نظرتها المستغربة لم تحرك به شعرة.. حتى لهجتها العاتبة رغم نبرة الدلال:

- ما بك غيث؟.. نحن في العمل؛ تعقل.

ولو أنها خاطبت حجرًا أصمًا لاستمع، كرر بحزم أكبر دافعه احتياج وربما خوف مجهول لا موجب له:

- أريدك جوان.

ارتفع حاجباها دهشة.. تساءلت في نفسها عمَ به دون جواب!.. لكن هناك حدودًا لا يمكن تخطيها في علاقتهما، رسمها هو من البداية ووافقتها عليه بلا اعتراض:

- لا يمكنني غيث.. لدي ما أقوم به.

تغضن جبينه وللمرة الثالثة كرر بأمر صريح لا يحتمل سوى الطاعة:

- قلت: أريدك.

توتر جسدها بين ذراعيه، لم تسأله عما به!!.. بغريزة أنثى استشعرت احتياجه.. وبقلب امرأة أرادت ضمه، تهدئته.. ومنحه ما يريد لكن العوائق كثيرة، خرجت من طوقه المحيط بها ببطء:

- لن يمكننا أن نخرج من هنا سويًا.. هذا مثير للشك.

وعلى ذكر العوائق، فلتذكره بما حُدد مسبقًا بعهد غير منطوق وبجدية امرأة تعلم الوقت المناسب لكل شيء حتى لو ضد إرادتها:

- كما أن لدي الكثير من العمل.. نلتقي بعده!

ثم بيدها أمسكت محرمة ورقية تمسح شفتيه وما حولهما بعناية رقيقة، رمقها بنظرة غامضة واستكان للمساتها:

- ماذا تفعلين؟!

تطلعت إليه في مكر وابتسمت بغنج فطري:

- لقد لطخت شفتيك بالحمرة يا متهور!

وعادت للجلوس بمقعدها، فتحت أحد الأدراج لتخرج منه مرآة صغيرة، تأملت وجهها للحظة ثم أصلحت زينتها بسرعة ودقة.. تأملها هو قليلًا قبل أن يميل بجذعه نصف ميل.. يهمس قرب أذنها آمرًا يرفض الجدال:

- نصف ساعة واتبعيني إلى منزلك جوان.. لا تتأخري.

لم يكرر نحوها النظرة، لم يلتفت.. لم يأبه إن كانت ستعترض أم لا فالنتيجة معلومة لديه مقدمًا، خرج بهدوء وأغلق الباب خلفه لتحتفظ عيناها بصورته دون أن تفارق طيفه الراحل..

دقات قلبها تتعالى بلا هدف، شفتاها تبتسمان، تعلنان الشوق واللهفة، وهمستها الشاردة اكتسبت حالمية تمر بنبرتها للمرة الأولى:

- مجنون أيها الوسيم العابث.

ومدت أناملها تتحسس أثر قبلته، يتعانق جفناها فوق لمعة سعادة سكنت مقلتيها، ورغم محاذير بديهية نبتت بخبث داخل عقلها.. فقد تغاضت عنها، أهملتها بل ونبذت كل فكرة محرضة على البعد..

هي الآن جُل ما تخشاه أنها.. على وشك الغرق في حالة عشق!

***

هل يمكن للشوق حقًا أن يقتل!!

هي تملك الجواب وبطريقة عملية للغاية.. أكثر من أسبوعين لم يذهب إليها أو يطالبها بالذهاب إليه، تقضي لياليها وحيدة تناجيه بأحلامها، وفي النهار جموده الذي يوجع قلبها.

تعلم أنه قاسٍ لحد مخيف، لكنه تجاوز هذا الحد ولا يفعل ذلك سوى معها هي، تلك التي على يقين أنه يتملكها حتى النخاع ودون إرادة أو مهرب..

وقع أوراقه وناولها الملف بهدوء، التقطته منه ثم وضعته على المكتب، دارت حوله تقترب والنظرة في عينيها تعلن الحنين وفي عينيه تحذر من مغبة اندفاع غبي للهفة امرأة تشتاق..

انحنت تحيط عنقه بذراعيها وهو في مكانه، تعاتبه بصمت وبجموده آلمها أكثر:

- لم أعهدك قاسيًا هكذا آمر!

فكك ذراعيها ونهض يبتعد بحسم:

- ربما لأنكِ لم تتخطِ حدودك من قبل ريما.

تنهدت وصدرها يختنق بالكثير، فقط تفتقد التعبير عنه، تبعته تضمه وتريح وجنتها لظهره وهو يطالع الغيوم من خلف نافذته:

- نداء قلبي آمر.. وأحكام القلب نافذة دون سطوة مني.

انعقد حاجباه، ربما العتاب ليس من شيمه، سيفتح العديد من الأبواب المغلقة، لذلك فلنغلق بابه قبل أن يُفتح بحمق، استدار بين ذراعيها ولم يبعدها عنه واستبشرت هي:

- لا تعيديها ريما.. لا تتدخلي بأموري أكثر مما أسمح لكِ به، هل تفهمينني؟

أومأت برأسها كطفلة تفتقد حضن أبيها الغائب، ونالت بسمة امتزج بها وقاحة برية لا يتقنها سواه:

- عودي لمكتبك إذًا.. والليلة نتفاهم..

ثم منح وجنتها قبلة متملكة، وهمس في أذنها بنبرة عميقة وكلمة واحدة أذابتها:

- سأعوضك.

ويا لها من غبية!!..

ديدن المرأة في عالم الرجال، سقوط في العشق.. غرق دون نجاة، وألم بلا نهاية!

***

الخجل في حضوره أمر حتمي.. وفي غيابه يظهر حنينًا دون معنى وخوفًا، هل يمكن أن يفكر فيها؟!.. هل تستطيع أن تملأ حيزًا ضيقًا من عقله المنشغل على الدوام!!..

وإن لم تفعل!!

فما بال نظراته التي تحيط بها في غدوها ورواحها؟!.. انتقالها للعمل تحت إمرته المباشرة.. يقربها منه وبينها وبينه بون المجرات كأنما كتب عليها الاحتراق بنار الشمس دون اقتراب..

قبلة ناعمة لا مدلول لها، نظرة احتوتها فجذبتها نحو عمق مهلك، وغرق بلا طوق نجاة!!.. الكثير على فتاة تدعي القوة وتظن بنفسها امتلاكها، لقد رفضت "حسان" ووافقت على "مهدي" والفارق بينهما جلل.. لكن العقل الشارد، والقلب قليل الحيلة يتناسيان الواقع ويحلقان نحو آخر لا طائل من التفكير به..

تنهدت بصوت مسموع، جهزت ورقتها بيدها وانتظرت خروج "ريما" من مكتبه، ما إن لمحتها حتى نهضت تعدل من ثيابها، ترفض الخنوع لضعف أنثى لا تملك رفاهية لاستسلامها له، طرقة على بابه ثم دخلت وأغلقته خلفها..

كان منشغلًا بعمل ما لكنه ما إن سمع خطواتها الخافتة المميزة لأذنيه حتى رفع رأسه يتأملها.. هي تخفي شيئًا وذلك الارتباك لا يريحه، اكتفى بالصمت وهي تمد يدها الصغيرة نحوه بورقة وهمسة متوترة:

- هل يمكنني طلب أجازة لمدة ثلاثة أيام سيدي؟

تناول منها ورقتها وانعقد جبينه، لا يحب المفاجآت.. بل يكرهها، وهذه خطوة غير محسوبة لم تكن ضمن خطته، نظر لطلب أجازتها بتمعن ليسمع تمتمتها:

- أعلم أنني جديدة بالعمل، لكنني مضطرة.

تجاهلها، وذلك التجاهل أخافها.. بعدها بثوان وجدته يوقع بحسم ويعيدها إليها دون كلمة واحدة، مدت يدها تتناولها منه لكنه تمسك بها، وبين محاولة لإظهار لامبالاة وكيان جائع ينهشه فضول لمعرفة السبب علق ذهنه، أحاطها بأسر عينيه وباغتها:

- لمَ هذه الأجازة سديم؟

علقت الورقة بين أيديهما، تعالت أنفاسها بموازاة دقات قلبها، تنظر إليه بضعف لم يفهمه لكنه حركه لينهض متجهًا إليه محتفظًا بأجازتها في قبضته.. كرر سؤاله بصرامة حين أتاه جوابها الهامس الذي لم يتوقعه:

- ستتم خطبتي خلال يومين، وأحتاج لبعض التحضيرات قبلها.

لم تتغير ملامحه البتة، فقط خيل إليها أن لمعة شرسة مرت بعاصفتيه الداكنتين للحظة، وسكون طويل رضخت هي خلاله بلا وعي..

لم تعد تفهم ما به، بل منذ متى هي تفهمه!!.. صمته طال حتى أنها تململت وهو لم يكترث، أخضعها لسلطان نظرة مبهمة قبل أن يمزق الورقة بين يديه ببرود، وأخيرًا تحركت بدهشة:

- سيدي!!

وما كان خياليًا، وهميًا لم يجُل بالأحلام إلا ورفضته، بل أمنية راودتها فاستعصت على التصديق هو ما نطق به دون مقدمات ليوقف أو بالأحرى يجمد كيانها كله أمامه:

- تزوجيني سديم.

هل جُن!!

امتزج السؤال داخل عقله وعقلها!!.. لكنه شعر بفقدان لحظي للسيطرة أشعل غضبه حارقًا كقطعة من قلب الجحيم، وأكسبها هي دوارًا، تشعر معه أنها تعانق السماء بين يديها..

لم يتوقف كثيرًا ليعيد التفكير، بل اقترب واقترب واقترب، مد يده ليمسك بيمناها، يطالع الحلقة الذهبية الملتمعة بها والتي وقعت عيناه عليها للتو:

- أعيدي له حلقته.. وسآتي لخطبتك من خالتك الليلة.

نظرت إلى حيث ينظر، وتيبست تمامًا، هذا بالفعل جنون لكنه ضغط معصمها بين أصابعه كأنما يفيقها من غيبوبة تسحبها نحوه بلا جدوى، همست بضعف:

- تتزوجني!

ونبرته أصحبت عميقة بطيئة تخدرها بتمهل حد الامتلاك:

- أريدك.

تاهت بالفعل، سقطت أو ربما ارتفعت في الهواء، هي تطفو بلا هوية أو هدف، ابتلعت ريقها وفمها الجاف لم يساعد، عادت تنظر ليدها سجينة قبضته بتيه:

- هذا خاتم أمي.. لكنه واسع قليلًا، يلتف حول إصبعي.

فتح كفها ليطالعه ما اختفى، ابتسم بانتصار:

- جيد.. أنتِ لي منذ البدء إذًا.

وكلا هي لا تصدق، هل عرض عليها الزواج بالفعل!..

بصدمة مفاجئة أخلت بتوازنها!..

لم تسحب يدها أو تبتعد رغم قربه الذى تخطي حدودها الخاصة:

- تريد الزواج مني!!.. لمَ؟

توسعت بسمته وهو يرَكيف تبدو حائرة تائهة تتخبط كفريسة انطبق عليها فخ لم تعلم بوجوده أو تتحضرله:

- قلتها لكِ قبل ثوان.

وانحنى يكمل بهمس دافئ في مواجهة عينيها:

- أريدك.

وارتعشت.. هل "أريدك" هي اللفظة المقابلة للحب عند هذا المخيف!!

لكنه يرفض أن يمنح عقلها الفرصة لتفنيد الأمر أو حتى البحث فيه بمنطقية:

- هل فاجأتك؟!

أومأت بموافقة صامتة خانعة وتأثير سحره يتملك منها أكثر:

- جيد.. أحب امتلاك عنصر المفاجأة.

وبرقت عيناه بتملك:

- وزمام الأمور.

وهربت!

تحركت قدماها فجأة برد فعل عكسي كاد ينتزع من بين شفتيه ضحكة بينما يناديها لتتوقف خلف الباب توليه ظهرها، واقترب هو بخفة نمر نحو طريدة في حالة انتظار أخير:

- حددي لي موعدًا مع خالتك.

ونفس يحرك خصلاتها باشتعال:

- في أقرب وقت..

ولأن الأنامل أصبحت تتمسك الآن بأمنية هاربة من عالم الحلم؛ فقد خضعت ولخضوعها لذة لا يستشعرها سواه!

(١١)

نحن البشر، نعاني مشكلتين كبيرتين: الأولى؛ أن نعرف متى نبدأ!..

والثانية؛ أن نعرف متى نتوقف!..

"باولو كويلو"

***

تحب المرأة بعينيها أولًا بعدها يتدخل القلب وفي آخر الخط يدلي العقل بدلوه..

حقيقةً ربما ذكرها شكسبير، واقعًا دومًا ما تعثرت به كل أنثى لتفقد الكثير قبل أن تتحكم وتستعيد السيطرة على لجام حياتها التي تتحول لزوبعة جنونية.. بعد أن تسقط في الحب!

في مواجهة كارثية مع نفسها اعترفت..

بعدما انزاح حاجز الخوف ودخلت الأمنية لمجال تطاله الأنامل.. بل طالته وها هي تتشبث به دون وعي كامل.. أقرت أن النابض الصغير الذي تلاهت عنه بتذكرة قاسية في كل لحظة -أنت تتخطى حدودك، بل حدود خيالك ومعجزات لم تعد تتحقق- صدَّقت أنه ورغم محاولات مستميتة، رافضة؛ خضع!

سلَّم نفسه بنفسه لآخر يتملكه، ومع أول إشارة أعلن له النصر ورفع الرايات ليتقبل هزيمته بصدر رحب.. أو ربما سعادة.

هي تورطت!!

تورطت في تلك الغيوم التي يداريها خلف جفنيه ونظرة ضيقة بقصد، ماكرة تشعل فيها الخجل بل وتداعب أنوثة كانت مهملة بتعمد لأجله هو ولو سهوًا.. وتلك الورطة أجبرتها على استسلام لذيذ فوق سحابة حلم لم يعد متاحًا منه الفرار أو حتى مجرد محاولة!

ولأن قانون البشرية الأول.. نحن نعمل بشكل أفضل عندما يزداد الضغط؛ فتعميمه سهل، نعمل أفضل توازي نسقط أسرع.. نتناسى الواقع ونتمسك بحلم قارب المستحيل..

وما أعظم من طلبِ زواج، أو للدقة.. أمرٍ به!!

ورقة ضغط رابحة لم تظن أن القلب قد يتراقص لها كما حدث معه، جدية وعرض لا تستطيع رفضه، وهروب ماتع له، مخيف لها ونبضة تتفلت وراءها أخريات تعلنه معشوقًا..

والجديد.. مشروعية يصرح بها عشق!

التنهيدات تغادر صدرها بحرارة تكاد تؤلم، نظرات تائهة لا تجد لها سكنًا يريحها، وحيرة تلبستها لأن كل الظروف خانتها وتلاحمت ضدها معه..

رغم غضب الخالة، ضيقها هي.. وحزن على رجل طيب كل ما أراده هو قربها برقته التي لم تنسها بعد، لكنها لا تملك أمام اختيار خافقها إلا أن تأتمر بأمره وقد اتخذ بأريحية القرار عنها وكل ما عليها أن تذعن له..

فرْكُ كفين متعرقتين، حمرة طفيفة تغازل الوجنتين.. وتردد واضح، كلها علامات مقلقة خاصة عندما تتحاشى النظر نحوه وهي من استدعته، انتقل توترها إليه، هو يريدها وقد اتخذ الدرب القويم الوحيد الذي يعرفه للوصول، وهي وافقت سابقًا..

إذًا!!

هناك ما جد، وهذه العلامات لا تعني سوى شيئًا واحدًا:

- يبدو أنكِ أعدتِ التفكير في طلبي سديم!

والتقطت الضيق بنبرته.. هو على حق لكن من يملك العناد قبالة حلم قد تحقق متحديًا حتى إيمانها التام باستحالته!!.. ومنحته لقاء أعين رقيق خجول، خجل من موقفها، منه.. ومن شهامة أثبتها قبلًا فطوق بها عنقها:

- مهدي أنا لا أقلل منك مطلقًا، فقط...

والبداية متوقعة حد أن ينهيها هو:

- هناك آخر!

صيغة تأرجحت بين سؤال لا يريد جوابًا عنه، وإقرارٍ بحقيقة يكاد يلمسها واقعة.. والارتباك الحائر فوق ملامحها كان الرد حتى مع هدوء إدعته ولم تكن جيدة فيه:

- الأمر لا يتعلق بك صدقني.. أنت تستحق من هي...

ولابد من مقاطعة أخيرة يحفظ بها ماء وجهه وغضب يعانده، ينسَّلُ إلى نفسه:

- دعينا من هذا الحديث المكرر.. من أستحقها أردتها وهي رفضت، انتهى الأمر.

تعلقت عيناها بأصابعها المتعانقة فوق ساقيها تهرب من حزن مقلتيه:

- مهدي صدقني أنا لم..

والمقاطعة باتت الحاسمة، نهض واستعد للرحيل بتتمة حديث شاب نبرته بؤس:

- لا عليكِ سديم، أرجو أن تكوني قد أجدتِ الاختيار.

وقفت تواجهه بنظرة شردت فيما قال دون إرادة:

- أتمنى لكِ السعادة.. أنتِ تستحقين كل خير.

وتابعت رحيله بعين وجلة، تتذكر آخر ما نطق، كأنما رسخه بذهنها..

ترى هل الواقع بجمال حلم كان بعيد المنال؟.. أم أن تجسده بين يديها سيمحو عنه فتنة الوهم!

***

في دنيا الرجال النتيجة هي الأهم، ابذل جهدًا، ارسم الخطط.. اسعَ ثم حقق الهدف، وإن وصلت للنهاية المرجوة فأنت فائز!

فقط في حالة واحدة..

تملُك زمام الأمور، كل الأمور..

وهو للحظة واحدة فقد السيطرة وبتلك اللحظة أقدم على أكبر حماقة قد يقع فيها رجل، فماذا عن نمر فطرته وغريزة بقائه هي الصيد!!

خطوة غير محسوبة، حفرة تعثر بها وللمرة الأولى يتعثر، خروج عن الخط المرسوم وبعنف ليس من السهل إعادته إلى المسار.. أو حتى التخلي عنه لأنه حينها الفريسة ستنجو من الفخ، ومن فخ النمر لا مهرب..

تعلمه بخطبة مفاجئة، ويتحرك بشراسة لامتلاك أبدي..

أكانت شراسة!!.. أو هو نداء قلب؟!

انعقد حاجباه عند تلك النقطة، وسأله عقله بذهول غير واعٍ:

"أي قلب!"

ابتسم ساخرًا حد بداية ضحكة خرجت خافتة من بين شفتيه بينما هو قابع في ركنه المظلم عقب دوامة امرأة أخرى حاول إيقاف أفكاره في دفء أحضانها، لكنه فشل وهي لم تكن كافية ليتيه معها..

تبًا لكل النساء، ولعنة خاصة بالمنمنمة.. ولعنة أكبر له، طريدة ضعيفة تطبق عليه الفخ!!.. كأنما حفزته ليركض خلفها وتخطت هي التعثر ليسقط هو..

وانتبه لذلة فكر..

امتلاك أبدي!!.. حقًا هو لم يفكر بذلك، هي مرة واحدة يتذوق فيها ما اشتهته نفسه وبعدها يعلم ما سيفعله حتى لو كانت زوجته!

زوجته!!

كررها.. واللفظة والمغزى أصاباه بغضب، الحمقاء الصغيرة خالفت خطته فخالف لأجلها القواعد..

والثمن لن يدفعه سواها.. وبات التكرار سمة تغزو الأفق وأمامها الغد مطموس الملامح..

هل فقد النمر معالم نهاية امتلك مفاتيح بدايتها؟..

خطط للخطوة الأولى والقدر سحب من أسفل قدميه بساط الاختيار، بساط الخطوة الأخيرة!!

ربما نعم.. وإن كان التدخل في منتصف الطريق دون إرادته، فسيعود لختام قرره منذ البدء حتى لو اختلف مذاقه قليلًا وتغيرت ألوانه!

أغمض عينيه وتنهد، وعودة لفراش بصحبة نوم قلِق حتى اليوم التالي وموعده مع خالتها كما طلب منها وكما وافقت هي..

البريئة سقطت في فخ العشق والطعم وهم اصطنعه قلب، والصيد أصبح له لذة أخرى..

"مرحبًا بك بني"

غادر شروده بجذبة ونبرة حانية وكلمة لم يسمعها من قبل..

"بني!!"

تجاهل غربة روح مر بها للحظة قبل أن يرسم بسمة أنيقة جذابة فوق شفتيه ويرد بلباقة:

- شكرًا لك سيدتي.

بادلته البسمة برفق، ونظرتها المتفحصة أدرك الغرض منها بوضوح، هي تبدو حائرة وسؤال صريح يطوف بمقلتيها، التقطه ثم ترك لها راحة طرحه وهي لم تتأخر:

- يسعدني أنك اخترت ابنتي الصغيرة لتكون زوجة لك..

حافظ على البسمة وأرخى ملامحه بهدوء:

- لكن!

هو ذكي ويدرك أنها لن تتقبله بطرفة عين، تنهدت ولاحظ ميلاد ضيق أو ربما خوف:

- لماذا هي؟.. أَنْظُر لحالك ولحالها وأتساءل عن السبب!

ومالت بمقعدها المتحرك لتكتسب النبرة جدية والعينين حزمًا بدا حمائيًا:

- أنا لا أقلل من شأن صغيرتي البتة، لكن التوافق مطلوب بني.

صمت قليلًا يفكر، خطة الصيد السابقة لم تتضمن تدخلًا وجِلًا من راعٍ يشعر بمسئولية، والتعديل ربما ارتجله لأجل ظرف دون تدقيق:

- هل ستصدقين أنني نفسي لا أعلم لمَ؟

انطلق رده وامتلأ وجهها بدهشتها لكنه أردف بصراحة علِم أنها الأنسب:

- عندما أتتني تطلب إجازة وأخبرتني بأمر الخطبة لم أستطع إلا الرفض، وجدتني أنطقها.. أطلب منها الزواج مني، ودون سابق إنذار أو تخطيط.

ولمعة عينيها أكدت له صدق ظنونه، بحالمية أنثى اعتادها، وامرأة بعذرية قلب، يعلم عن وحدتها وافتقادها للكثير.. وانطلت الخدعة وانجذبت للجهة التي أرادها، ابتسمت بحنان ملحوظ وهي ترمقه بأمومة عقد لها حاجبيه لا إراديًا:

- أنا أصدقك..

ودنت بمقعدها من مكان جلوسه:

- لمحت في عينيك ما احترت فيه أنت!

وهو بالفعل حائر في مغزى كلماتها!!.. لكن أيًا كان ما هترت به فذاك لصالحه، ربتت على كفه المستقرة فوق مسند مقعده:

- فقط عِدني: ستحافظ عليها، لن يكون لها من بعدي سواك.. لذلك اعتنِ بجوهرتي ولا تخذل ثقتي بك.

فكر.. ومنح وعد الأمان وابتسم شيطانه بتهكم..

وهل للشيطان وعود!

وخرجت أنثى وظهرت من خلفها أخرى، بلذة ارتباك، حلاوة حمرة.. ومتعة خصلات حرة انقبضت أنامله قيد قبضة تحبسها عن الامتزاج بها، تأملها بنظرة داكنة زادت من توترها وهي تختار أبعد مقعد لتستقر فوقه وابتسم دون أن تلحظ!

وامتلكت المبادرة باندفاع لا مقدمة له تلاه تراجعًا وهروب نظرات:

- لماذا أنا؟!

بدت كأنها فقط تكرر السؤال، لكن هي تلك الحيرة التي تشتت تركيزها، نظراته التي تخضعها لسيطرة غامضة لم تمر بما يشابهها قبلًا، حتى بسمته الماكرة التي ارتسمت على شفتيه في هاته اللحظة وهو يميل برأسه جانبًا بتأكيد:

- لأنني.. أريدك أنت.

ولم يكن هذا جوابًا، بل كان غرورًا أغاظها.. شتان بين رد حصلت عليه قبل أيام وهذا الرد المتغطرس.. كأنما رغباته أوامر، وعاندت ربما للمرة الأولى معه:

- هذا ليس جوابًا.. لماذا تريدني أنا بالتحديد؟!

وتحولت البسمة لاستمتاع وعيناه تتفحصان ملامحها بتملك ظاهر..

"هذه الأنثى شهية بحق في كل حالاتها.. حتى لو تمردت ببراءة أو تذمرت بطفولية"

وهكذا كانت أفكاره التي ترجمها لجملة قصيرة لم تثِر فيها سوى الخجل:

- الآن.. هذه تفاصيل لا يجوز البوح بها في الوقت الحالي.

ثم نظرة عميقة بمقلتيه تخبرها بوقاحة توازي نبرته العابثة:

- على الأقل حتى الغد..

وتراجع باسترخاء في مقعده يُعلِمها.. يقرر عنها.. ويسطو على كامل ذرات كيانها:

- بعد عقد قراننا..

وعادت البسمة الخبيثة تزين شفتيه:

- حينها سأخبرك بكل التفاصيل المتاحة.

تفجر الدم بوجنتيها قانيًا والخافق بين أضلعها نبضاته تتعالى لحد موجع.. غاصت بعينيها تفر بلا مقصد أو نجاة..

وتيقن هو..

أنه أصاب قلب الهدف..

أو للدقة: امتلكه!

***

"ستتزوجها!!"

كانت بصيغة سؤال، حمل من الاستنكار ما يكفي ويفيض..

المرأة هي بذرة كينونة الرجل..

مهما تهرب، رفض أو استخف بتهاون مستهجن، أمه تحمله، تربيه، تشكل ملامحه وشخصيته.. الحبيبة تمتلك قلبه.. والزوجة تكمل معه حياته وتهبه حياتها وزينة الدنيا..

البعض يرضخ لتلك الفطرة، والآخرون يجاهرون بعناد شرس عنيف كأنما يقاومون الغرق ولا يملكون إلا الغوص في الأعماق أكثر فما باليد حيلة!

وهو تمازجت بداخله مشاعر فوضوية بعثرت تماسكه الذي عُرِف عنه، حتى بأشد لحظاته قسوة كان يعلم ما يفعله، والآن هناك ضعف ما شطره لنصفين، نصف يسب ويلعن الصديق، والثاني تائه حائر في أخرى لا يدري ما دخلها به الآن!!

ولأن الرد أتاه بشبه إغماضة ونبرة باردة:

- نعم.

فقد أعلن العصيان على الموقف برمته:

- لابد أنك قد فقدتَ عقلك!!

هل تجاوز حدًا غير مصرح به؟.. ربما، لكنها قواعد استنها لحماية من يحب، وذلك الأرعن سيضيع نفسه بوثيقة رسمية مع من ستقصف حياته بشرارة البرق وتهزمها بالرعود وتحولها لجحيم لا فكاك من مخالب نيرانه:

- غيث!!

وكانت زعقة!.. نعم، لكن من يبالي؟.. للخوف مشروعية تبيح كل ما هو محظور:

- أكررها آمر.. أنت فقدت عقلك.

وهذه المرة بتقرير، بعده صدح بوقاحة:

- ألم تجد طريقة أخرى تجرها بها إلى فراشك!

ونهض الصديق بعنف زاجر:

- توقف.

لكن حين الغضب؛ فقدان السيطرة هو من يتصدر الصورة..

وعندما يطاردنا شبح رجمناه بجمرات النسيان؛ تنهض عاطفة مجهولة من رمادها بعد الاحتراق..

أشعل تبغًا يكوي به صدره واستقام يدور في الحجرة بلا هدف كذئب شرس حبيس رهبةٍ ما:

- لن أفعل، ليس إلى هذه الدرجة. لا تلقي بنفسك في سعير امرأة آمر.

يُقدِّر!.. بلى، تخطى كل مباح!.. أجل، ينشد دعمه وتفهمه!.. بالتأكيد، لكن ذعره المبرر يحتاج لقيد وربما علاج:

- لسنَ سواءً غيث.

يفسر له أمسًا اختلط بحاضرٍ في ذهنه، وصرخ بها حادة معاندة:

- بلى.

اتجه إليه يمسك بمرفقه، يواجه عينيه بنظرة مهيمنة تجبره على الخضوع لفحواها، يتحدى ذكرى تنخر في روحِ خليلٍ أدمن طول عشرته:

- لا.

وارتجفت الشفاه تحيا ماضيًا، وانطحنت اللفافة بباطن القبضة بشعلتها اللاهبة دون تأوه، وتعانقت الجفون فوق نظرة زائغة بغرق في ألم يرسم تفاصيله لمرة أولى منذ أكثر من عقدٍ من عمر الزمن:

- لا تأمن لها.

فتح "آمر" كفه المنغلقة بقوة، التقط منها ما انسحق وألقاه جانبًا، لاحظ العلامة الحمراء إثر حرق طفيف وشتمه بعقدة جبين:

- أنت أحمق.

ثم تلاقت الأعين وتعالى هدير القلبين، واحد بوفاء ومجاور له برعب استحوذ على خلاياه، نبضاته وجُل غرفاته فانقبض متواريًا بين أضلع هشة.. وتمتمة أخيرة تنهي مناظرة الرفض:

- هي مختلفة غيث.

وابتسم يمنحه طمأنة يعلم بها عن يقين قدر يقينه بأصابع يده حين تضغط الزناد:

- لذلك.. تختلف طريقة الصيد.

لكن المصاب برهاب أنثاه الأولى؛ من غرست بذرة كينونته وشوهتها دون إرواء.. كانت على لسانه كلمة الختام:

- احذرفحسب آمر.. فالفخ الذي تنصبه لها؛ قد ينطبق عليك أنت.

وشرد فيما قال!

الرفيق القلق، الرجل ذو التعقيدات المحتقن بالغضب، وبارحة لا يمكن مقارنتها باليوم فباتت الأمور تخرج عن طوع بنانه..

انتهاءً بجهل لحقيقة نمريتقن مهامه دون ترك أثر!

واستتر الشيطان بحجب ظلامه، يخبره بحتمية وقرارنافذ بعد نيل الغاية..

***

قلب المرأة مساحة شاسعة عامرة بالكثير، أن تحبك فأنت ملكت العرش وارتديت التاج، أن تخافك فقد كسرت جوهرته، وأن تتعلق بك حد الجنون..

فقد ملكت مفتاح كسرها هي!

لا يوجد أشد خنوعًا من أنثى تسلم نفسها لجنون العشق، تغيب فيه وتنسى عالمها إلا من تعشق، ذلك الخنوع أساسه ضعف، هوان، استسلام.. وهزيمة تلو أخرى، وحطام تخرج به خاسرة من المعركة وربما الحرب..

في ثقافة المرأة هي تربت على العطاء حد جفاف النبع، وفي تكوين الرجل هو تربى على الأخذ دون ارتواء.. وبلفظة أقل تعقيدًا وأكثر قربًا لمفهوم الواقع المر الذي تحياه..

"لا يملأ عينه سوى التراب"..

زواج!!

هذا هو ما خرجت به من طول علاقتها معه، زواج!!

وليس منها، بل من واحدة غيرها لم يجد لها فخًا مناسبًا فبذل آخر جهد واحترق معه بصك امتلاك لا ينتهي، يصبح لها بالكلية.. وتسقط هي من عقله كورقة شجر صفراء ذابلة أطاح بها خريف أتى أبكرَ من موعده..

استقبلها بقصره ببرود متعمد، كانت تجاهد نفسها كي لا تصرخ بوجهه.. تبكي، تسبه، تلعنه وتلعن قلبها الغبي الذي لايزال متيمًا في دنيا غرامه.. أو حتى تخرج سلاحها الذي منحها إياه يومًا وتفرغ بجسده..

لا.. بل بقلبه لو كان له قلب؛ كل طلقاته، حينها قد يطيب جرحها ويُخفف الخناق الذي يعتصر فؤادها حد الموت.

تبعته لغرفته تراقبه بصمت يبدل ملابسه في الظلام كعادته، لقد عاد للتو عقب لقائه بصديقه الهائج بغضبه، الملتحف بذعره كأنه لا يستطيع حماية حاله فنصب نفسه حاميًا له، ارتدى منامته والتفت إليها..

لحظات طويلة مرت والمسافة بينهما غشيتها مشاعر شتى أسفل ضوء فضي خافت ألقى به القمر عبر زجاج النافذة على استحياء..

لوم.. حزن.. حقد.. كره.. غضب.. ضعف.. انكسار!

وفي النهاية أمر بعدم الاشتباك معه لأنه الآن في حالة حرب مع ذاته ولا ينقصه غيرة أنثى تظنه ملكيتها الخاصة!

والأمر غير مطاع هذه المرة، بل مقابله سخط لا يمكنها كبته بينما تهتف بحشرجة وجع:

- طلبتَ يدها!

لم يرد.. وهي لم تكترث، اقتربت تقف في مواجهته، ترفع عينيها إليه بنظرة امتلأت بجنون أقلقه:

- ستتزوجها هي؟!

وخلف الجنون كمَنَ ألم لمحه وتجاهله:

- هل انطبق الفخ الذي نصبته لها عليك أنت؟.. أم صنعت لك هي واحدًا آخرًا!

مع صمتها نظر إليها بتدقيق،سؤالها بمحله لكنه لا يبالي، على الأقل في هذا التوقيت..

أيًا كان ما سيخطو إليه فهو قد بدأ وإلى النهاية سيكمل المصير، ابتسم بغموضه المعتاد دون تعقيب فأثار حنقها لتزعق بلا تصديق:

- إذًا أحببتها!!

لا يدري كيف تفكر وعن ماذا تتحدث!!..

من هو لتذكر هذين الحرفين أمامه وتتهمه بوقوعه في شركهما وهي تعلم عنه ما يكفي بل وأكثر!.. غاص في زرقة مقلتيها وامتلك ذراعها يسحبها نحوه بمفاجأة يتجاهل ما تلفظت به:

- هل أسمع نبرة اعتراض ما؟!

لكنها لا تعترض بل تتألم، حد انشطار قلبها، حد تفتته لشتات مبعثر، هباء منثور عانق ذرات الهواء وارتحل معها كلٌ في اتجاه يخالف جاره:

- وماذا ستفعل إزاء ذلك الحب؟!

تركها في لحظة أفقدتها اتزانها، ككل الإناث مهما امتلأت روحها بالقتامة وتدفق بحياتها لون الدماء؛ تبقى الوردية علَّة العلل، وسبب كل خطوة.. أي حب ذاك الذي تتهمه به!!.. والجواب لم يكن قاسيًا بل كان مخيفًا لينهي حديثًا لا يريده:

- سأمتلكها لمرة.. بعدها أقتلها.

ويالها من خطة تآمر معه شيطانه ليخرج بها، توسعت النظرة برعب لطالما سكنها نحوه رغم سواد العشق، تدرك أن ما يقوله يشبه بالنسبة إليه طرقعة أصابع.. طرفة عين:

- أنت.. أنت..

واحتارت الأحرف في وصف وعجز اللسان، دنا ببطء شلَّ جسدها، أحاط بالخصر والعنق وتملك النظرة بأسر صلب أرسل قشعريرة مرت بخلاياها:

- قاس!!.. ميت القلب؟!

هزت رأسها دون معنى فنال من الشفتين وحبس الأنفاس للحظات، همس بعدها في أذنها بنبرة لم تتخطَ حاجز الجمود:

- إليكِ هذا النبأ..

وتراجع بعينين اشتدت دُجنة غيومهما فأنذرت بإعصار هي ضحيته الأولى والأخيرة:

- أنا لا قلب لي!

ومال بها إلى فراشه.. فأخرس حينها كل صوت وأعدم كل رفض حتى تاهت الأفكار في دوامة أنستها لدقائق أو حتى ساعات أنها لن تتنازل عنه لأخرى مهما كان الثمن.

***

تقول الأسطورة أن المثَّال جسَّد منحوتته بدقة ساحرة حتى أنها فتنته بعدها..

وهكذا سقط بجماليون في غرام تمثاله الخاص!

وهي صنعته..

غيَّرته..

شكلته ثم وقعت في متاهة عشق تدور تروسها حول قلبها هي دون خلل، أو بالأحرى هي فقط قدمت يد المساعدة لأن الصانع الأصلي هو والدها!..

نقرت بأناملها فوق مقود سيارتها تتذكر تلك اللحظة التي دخلت به إلى منزلها قبل سنوات طويلة، تسحبه خلفها دون أن تلمسه.. وبإحدى غرف الاستقبال تركته بأمر ألا يتحرك واستجاب بصمت، عندها ذهبت لأبيها وبدأ كل شيء..

بمظهر يشبه القراصنة، رقعة جلدية سوداء تغطي إحدى عينيه، خصلات فحمية شابها بياض تناثر دون ترتيب، شفاه رفيعة وشارب منمق، قميص أنيق وبنطال كلاسيكي مع غليون جعله أقرب لأحد بكوات العهد البائد!

نظراته الثاقبة أثارت بها توترًا حاولت مداراته وهي تهمس بارتباك:

- أبي.. مهاب!

عقد حاجبيه وخرجت نبرته جافة خشنة بها بحة مميزة:

- ما به ذلك الأحمق؟

ضمت قبضتيها إلى جوارها، تبحث عن أحرف تجمع بها كلمة وحيدة لكنها كلها تكالبت لتخرج مختنقة بعد جهد:

- مات.

ضاقت عينه الواحدة بتساؤل مندهش، ولم تجد بدًا من توضيح، شرحت موقفها باختصار لم يُخِل بتفاصيل، حتى أنهت بجملة تجمد لها:

- لقد أحضرته معي..

لم يعقب مفكرًا فظننت به غضبًا أرادت علاجه بمزيد من التفسير:

- لقد أنقذني أبي.. لم أستطع تركه ليقتلوه قصاصًا لذلك الحقير.

نهض بهدوء وتحرك خارج خلوته الخاصة وتبعته هي بوجوم، وقف خلف ذلك الشاب الذي أتت به ابنته "جالبة المصائب" كما يحلو له تسميتها، تأمله والآخر التفت يجابه عينيه بتحدٍ سافر، قامة طويلة وجسد قوي بدا عليه شقاء الزمن، ليس رياضيًا بقدر ما تكونت صلابته من ألم، هو يعلم ذلك من نظرة.. عينان قاسيتان، غامضتان، بهما برود أعجبه..

كأنما لم يقتل قبل دقائق!!

صمته في مواجهة تفحُص طال جعله يبتسم، يرفع رأسه ويسأله باهتمام:

- ما اسمك!!

نقل نظراته بينه وبين الابنة التي هزت كتفيها بتشجيع.. ورد باقتضاب:

- آمر.

أشار له بدعوة ليقترب:

- حسنًا آمر.. دعنا نهتم بجرحك.

وكانت البداية التي لم تنتهِ إلى الآن..

والدها رجل العدالة السابق الذي تآمرت عليه ظروفه، فأقعدته من عمله كقناص رسمي إصابة قاتلة بعينه اليسرى، لم يستطع تقبل إحالته للتقاعد ولم يمرر الأمر واستمر بالقنص، لكن هذه المرة..

لمن يدفع!

ونعم هي تعرف عنه كل حقيقة ممكنة، هو لم يخفِ عنها شيئًا خاصة عندما بدأ تحوله، كان يبثها آلامه، شكواه وهي مجرد طفلة، وكبرت وكبر هو بينما تغوص في جحيم عالمه أكثر..

وصنع والدها تمثاله لتفتتن به..

حوله من مجرد فتىً أكل عليه الدهر وشرب رغم سنوات عمره القليلة، إلى خليفة وربما ابنًا لم يمنحه له القدر، وأصبح هو الأفضل.. رصاصاته لا تخطئ هدفها، وخططه يرسمها بحرفية لا تقل خبرة عن أبيها الذي علمه كل ما يعرفه دون أن يبخل بتفصيلة صغيرة..

يومها وبعدة اتصالات تحصَّل على شريط كاميرات المراقبة الخاصة بمرآب ذلك المركز التجاري، وانمحى أثر فتاها من الوجود، وقيدت القضية ضد مجهول والقاتل هرب..

في اليوم التالي وبعدما اطمأنت على راحة فارسها ذهبت لأبيها ووجدته يشاهد بتمعن ذلك المشهد الذي لن ينمحي من ذاكرتها، منقذها يجثم فوق جسد "مهاب" يكيل له اللكمات دون توقف، دون تشتيت حتى أجهز عليه بقبضتيه العاريتين..

ومع تأمل الأب همست:

- أخافني للوهلة الأولى!

التفت إليها بإدراك:

- لابد أن تخافيه طفلتي.. لقد قتله بدم حار، بل مشتعل.. عيناه كانتا كجمرتين من نار، ووعيه لم يكن هناك، بل كان في مكان وربما زمان آخر.

مد يده لتجلس إلى جواره وأطاعت تستمع بتركيز لاستطرادته المهمة:

- لكنه قاس، شرس.. وهذا ما أريده بالتحديد!

وهكذا ولد "آمر صفوان".. النمر، الذي منحه والدها لقب "الباردوس"..

النمر..

بل اختار نمر الأناضول النادر للغاية، وهي تجزم أنه لا يوجد منه اثنان بالفعل..

بأفكاره راجت حرفة الموت، وانتشى برائحة الدم أكثر فأكثر حتى أتقنه واستلذ بتلك السطوة التي يمنحه إياها اجتثاث الأرواح وخنق آخر الأنفاس..

ببطء مدروس ظهر رجل الأعمال الناجح بسوق التجارة، والقاتل المحترف بسوقها الأسود فيما تحت السطح الراقي!

زفرت ولهيب حارق أوجع صدرها، والآن وبعد كل ما حدث، هو على وشك الزواج من أخرى، وليتها تستطيع منعه..

لا تنكر أنها حاولت!!

أحد معارفها القدامى واتفاق وقتل بمظهر حادث وكانت ستخرج تلك الضئيلة من حياته وحياتها.. يعود إليها، بل تعود الأمور جميعها لنصابها الصحيح، لكنها لم تقدر..

في اللحظة الأخيرة تراجعت، تسلل لنفسها خوف أن المنع يشغل الذهن أكثر، الحرمان يثير الرغبة ويحركها لا يكبتها.. وموتها، سيؤجج ناره فينطلق بحثًا عن سبب وشكٌ ما سيولد بداخله يوجه أصابعه إليها.. وحينها ستكون النهاية بحق..

"إلى أين سينتهي مصيري معك آمر!"

تمتمت لنفسها باختناق، حينها أجفلها صوت اصطدام عنيف قبل أن يحميها حزام أمانها من ارتطام رأسها بمقود سيارتها.. توقفت تلملم شتاتها الذي تبعثر ذعرًا بعدها ألقت نظرة عبر زجاجها الأمامي لترى تلك السيارة التي صدمتها حال شرودها..

صاحبها يغادرها بهدوء بدا لها غريبًا وهاتفه عند أذنه ينصت لأحدهم باهتمام، يتأمل التحام مقدمتها بخلفيته، يرفع عينيه إليها بنظرة لم تفهمها بينما تترجل هي الأخرى بوجل، حاولت الابتسام لكن شفتاها التوتا فقط بشبه بسمة مذبوحة:

- عفوًا.. لم أقصد، كنت شاردة.. سأعوضك عما تحطم بسيارتك.

رمقها بغموض أثار بنفسها رهبة قبل أن ينهي مكالمته:

- جيد راضي.. فقط أجل معاينة موقع الجريمة للتاسعة، ظرف طارئ أعاقني.

انقبض قلبها بتساؤل متوتر عندما أعاد الهاتف لجيبه وواجهها:

- الأمر بسيط، لا تقلقي..

لاحقته بعجالة تسعى لرحيل ربما، منحته بطاقة أنيقة:

- في الواقع أنا أصر على تحمل تكاليف الإصلاح.. وأعتذر مرة أخرى.

تناولها منها وتأملها، لفظ اسمها بصوتٍ عالٍ ونبرة عميقة داعبت مسامعها:

- ريما!

ومد يده يصافحها بهدوء:

- تشرفت بمعرفتك ريما.. رافد سليمان!

قدم نفسه فبادلته مصافحته ببطء ومن ورائه عيناها وقعتا على تلك الشارة المعروفة ملتصقة بزجاج سيارته الخلفي..

بهاته اللحظة سقط قلبها بين قدميها ولم تمتلك حتى حق الخوف!!

(١٢)

المرأة لغز.. مفتاحه كلمة واحدة؛ هي الحب!

"نيتشة"

****

يقال أن العيون مرآة الروح!

تعكس خباياها، تقلباتها.. فطرتها وتغيرات طرأت عليها بفعل عوامل الزمن.. تعكس أحزانها، انكسارها، آلامها.. وجنونها!.. تعكس تيهها، ضياعها.. وعودة قد تحدث في الغد البعيد أو لا تحدث.. لا فارق!

لكن ماذا لو!

لو امتلأت تلك المرآة بالشروخ!.. تراصت متجاورة، متقاطعة.. حادة، قاسية أو مهملة، مستقيمة أو مُعوَّجة بها ارتفاعات أمل وانخفاضات ألم!

هل ستنعكس الصورة بوضوح؟!.. أم تستتر أسفل رداء الغموض فتراها مبهمة!.. يصعب النظر إليها، قرائتها أو حتى استقرائها.. يستحيل فهمها والتعاطي مع ما يظهر منها!

وعيناها بمواجهة عينيه قالتا فيضًا بصمت، في لحظة أو لحظتين قرأ الكثير وأراد أن يعرف أكثر..

فمن بين جمود هو نديمه، عملية هي خط سيره الذي لا يخالفه؛ رأى خلف انعكاس صورته في بؤبؤيها هزيمة!

هذه امرأة مهزومة..

خاسرة في معركة ظنت النصر فيها هو الغاية الوحيدة، وأتت الطعنة دون توقع تناقض الحسبان.. رأى حطامًا.. ضعفًا.. إخفاقًا، وقوةً تعافر للظهور، تصارع لنيل الغلبة..

لمح بين كل تلك الفوضى؛ احتياجًا!

وجعًا وأنينًا لامس قلبه ببياته الشتوي الذي اعتاده حد الألفة..

لذلك ومع تكرار عرضها بإصرار على تحمل تكاليف إصلاح سيارته، أبى بحزم مهذب، عرَّفها بنفسه وانتوى انتهاز فرصة صغيرة لتأخير دون إرادته:

- لا يمكنني أن أقبل تعويضًا من امرأة!

وتساءلت: هل هو جاد!.. ومع انجذاب نظراتها القهري نحو شارته سمعت استطرادته:

- حتى لو كانت بمثل فتنتك.

والكلمات اختطفت عينيها إليه، هو يغازل برزانة بدت غريبة على مسامعها، والأنثى تدرك متى تكون محل إعجاب ذكر!.. هي بالذات تدرك.. خاصة بعد ابتسامة مطمئنة، تبعتها غمازة بإحدى وجنتيه ونبرة هادئة تلعب على وتر حنان:

- لا تهتمي.. لم تتأذَ سيارتي كثيرًا.

كادت تتنهد لكنه أردف ببساطة أكبر يخفف بها من حدة الموقف أوربما يستغله:

- سأتغاضى عن ذلك الحادث المأساوي مقابل كوب من القهوة في ذاك المقهى هناك..

وأشار لمكان أنيق عبر الشارع، ثم أمال رأسه يكمل بنبرة شابها شيء من مرح:

- على حسابك!

ترددت بارتباك تجاهله، عاد يبتسم بدماثة وهذه المرة أسرها، ضاعت أنفاسها.. لنبرته الشفوق، نظرته التي منحتها سكينة، ويده التي مدها نحوها بتؤدة يدعو نفسه ويدعوها معه في الاتجاه الذي عزم عليه..

ورحبت بقليل من المسكن حتى لو كان مفعوله قصير المدى، لكن وقتها ومع انقباض خافقها بتوتر لاحقته قبل خطوة لا رجعة فيها:

- لا أريد أن أؤخرك عن عملك.

هو فضولها ربما، أو رغبة بالاطمئنان!.. حافظ على ابتسامة ثغره، بل تعدى الأمر لمزاح أجفلها محتواه:

- لا تقلقي.. مسرح الجريمة لن يهرب، وبفضل حادثنا الصغير أمامي أكثر من ساعة للوصول.

ثم هز رأسه برفعة حاجب ونبرة مشاغبة:

- لا تخافيني.. لست القاتل!

ولم تملك إلا تراجعًا حادًا، مزاح حد الخطر في حياتها بينما هو لا يعلم!..

رفع كفيه جوار وجهه في استسلام ضاحكًا بخفوت عقب رد فعلها المنطقي من زاوية نظره:

- آسف.. كلمة قاسية!.. دعيني أعرفك بنفسي من جديد.

ومد كفه يتمسك بكفها الناعمة دون أن تبادر:

- رافد سليمان.. رئيس نيابة الهرم.

وعادت حدقتاها تتعلقان بشعار "الهيئة القضائية" من خلف ظهره، ودقات القلب تتعالى حد هلع، حد خوف.. حد ذعر!

عقلها يطالب بهروب، قلبها يرتجف بلا هدف، ساقاها تعاندان.. وعيناها تأمرانها بالذهاب معه، فربما تكون هذه..

بداية أخرى!

ليست جديدة.. لكنها بمذاق مختلف..

***

الماضي أبدًا لا يموت.. بل يبقى حيًا مادامت الذاكرة تتوسله الرحيل، وهو يأبى الانصياع!.. يتمرد على السلوان، ويعاند بحشر نفسه في يوم وغد لا يختلفان عنه في الكثير!

الماضي شبح يسكن أرواحنا.. لا يمضي إلا عندما تغادرنا هي لحياة أخرى لا تعني سوى.. موتنا!..

الماضي قد يدفن أسفل رُكام من محاولات فاشلة لتناسيه، لكن كلها تنفجر بوجهك فور إشعال الفتيل المناسب!

وأي فتيل أفضل من زواج صديق العمر!!

الأحمق، الأرعن.. فاقد العقل حد الخبال، سيتزوج!

حتى لو كان من "منمنمة".. ضئيلة رقيقة تشع ببراءة تلائمها، حتى لو ظن فيها قبلًا اختلافًا أو تفردًا، حتى لو دافع عنها بحمائية فطرية في لحظة كادت تنهشها فيها أفعى..

أفعى عاشقة!!

وابتسم بسخرية، ترى ما رد فعلها وهو من خان هذه المرة لا هي؟!

خلال ساعات معدودة يقترن اسم رفيقه الوحيد بامرأة.. امرأة تحمل من جينات الأنوثة ما يكفي لتتحول بفعلها لأخرى تشبهها، تشبه من صنعته، أتراها سعيدة الآن بصنيعة يديها!

خلال ساعات سيصبح زوجًا، وحينها توثق الخيانة بأوراق رسمية حين الحاجة، فكلهن خائنات، كلهن خرجن من رحم حواء الأولى.. وتربطهن ببعضهن صلة دم لا تنمحي!

ظل يدور بسيارته تائهًا، رفض الذهاب معه، رفض أن يوقع بيده، يشهد على عقد بيع روح صديقه لشيطان تلبس جسد أنثى أخضعته فسقط في الفخ فقط.. ليمتلكها!..

وبشروده قادته يداه دون شعور أمام مقر عملها، أوقف السيارة أسفل المبنى الراقي، وتطلع نحو نافذة بعينها يعرفها جيدًا.. راقب لدقائق، بعدها ذهب إليها، يؤذيها أو يؤذي نفسه لا يعلم!!.. هو فقط بحاجة للفهم وليتها تساعده..

بمكتبها مكث ثابتًا يتمعن في ملامحها، اختلاف ما لمحه، حمرة وجنة بدت غريبة فهو لم يتحدث بعد!.. لكنها سابقت كلماته بحدتها المعتادة وعيناها تتحولان لزجرباتِر:

- ماذا تفعل هنا الآن!!.. ألن ننتهي من هذا؟

وكانت تشير بذراعيها يائسة، غاضبة.. شهية!

ضم قبضتيه ولم يرحمها من تأمله غير المفهوم، غامض هو بصمته، وحائرة هي بجمال فرار لا تملك ناصيته في مواجهة ذئب اختار فريسته للتو:

- أنت صامتٌ على غير العادة!

ولم يسخر، يضحك أو حتى تلتوي شفتاه بابتسامة باتت تحفظها، ابتسامة تجاور نبرة عابثة ونظرة وقحة جريئة.. كل هذا تلاشى، وذاك الآن.. يخيفها!

لقد أضحت وقاحته مألوفة، تجد الرد المناسب أو لا تجد فتسبه وتطرده.. ونهاية أكثر اعتيادًا، لكن بحالته هذه.. ارتبكت، وأمام ارتباكها المغاير لكل سالف لقاء خضعت مقلتاه رغم تيهه:

- لماذا تنظر إليّ بهذه الطريقة؟

نبرتها متوترة.. هل بعينيه اختلاف!

خطا نحوها خطوتين وبعد الثالثة توقف، يسأل بهزة رأس مستغربة، مستنكرة.. ساخطة:

- ما الذي يميز الواحدة منكن لتجذب الرجل؟

ونال منها افتراق جفنين في غباء، لم تفهمه وربما أبدًا لن تفعل:

- تخضعه لإرادتها!

وانعقد حاجبيها تلك المرة بتفكير:

- يبذل الغالي في سبيل تملكها!

بدا وكأنه لا يخاطبها هي بالتحديد، بدا وكأنه يحتاج لتفريغ عقله من ثقل يعوقه عن العمل، بدا وكأنه يبحث عن جواب يدرك أنها لا تملكه لكنه فقط يسأل:

- من منكن تستحق أن يصبح الرجل لأجلها شخصًا آخرَ لا يعرفه؟

اتقدت بمقلتيه نيران مفاجئة، ارتدت للخلف بمقعدها حينها:

- ولا واحدة!

وتغيرت النبرة لحادة، شبه زاعقة.. قاسية:

- كلكن رخيصات.. فقط على الرجل منا أن يجد الثمن المناسب.. وبما لا يتخطى تلك الحدود التي رسمها لنفسه منذ البداية.

واكتفت من الصمت، نهضت تتحرك نحوه، تواجهه بغضب:

- ما الذي تهذي به؟

دار حولها ولم تكترث، بل بادلته تأمله، تسبر أغوار عابث غامض.. حائر:

- أهذي!!

ثم توقف خلفها، ينحني بهمس اشتعل هائجًا كأنما أصابته لوثة:

- أنا أهذي بما يثير جنوني.. ما الذي يميزكن كي نصبح نحن أسرى خلف قضبان سجنكن؟

انتفضت مبتعدة، لقد بات قربه غير مسموح، هو يتجاوز كل مباح، وفي كل مرة يأخذ خطوة أقرب.. وهي!

هي باتت تخشاه!

وبرد فعل دفاعي لا إرادي نهرته:

- لابد أنك قد جننت.. أنا لا أفهمك!

- ولن تفعلي أبدًا.

جملة ختامية سريعة أنهى بها حوارًا خاضه من جانب واحد، حتى متلقيه لم يُلِم بكامل بجوانبه، وهو لا يأبه.. كان يبحث عن جواب، ومعها هي بالذات..

فقده!

حين اندفاعه خارجًا قابل امرأته التي أوقفته بتعجب، تنظر خلفه لذلك الباب الذي غادره للتو، وتبتسم بتشتت.. ونبضة قلب تهرب منها توازي قلقًا مما تخشاه حتى لو كانت تتوقعه:

- غيث.. ماذا كنت تفعل هنا؟

رمقها بنظرة جامدة لا توحي بشيء، وبلهجة أكثر جمودًا أتاها رده الباهت:

- لا شيء..

ورحل، وتضادت خطواتها مع عينيها اللتين تابعتا خطوات رحيله وهي تتجه نحو مكتب شريكتها، هي تريد أن تفهم، وستفعل!

"هل كان السيد غيث هنا عزيزتي كارما؟"

رفعت رأسها تواجه صديقتها، لايزال بملامحها بقايا ارتباك، شرود.. وشيء من حيرة:

- نعم.

ولاحظت "جوان" كل هرج المشاعر ذاك، أخفت هي قلقها ببراعة تناظر المبتدئة:

- ما به!!.. بدا مستاءً من شيء ما!

تتذكر نبرته وهذره وألمه غير المفسر، لا تملك توضيحًا فألقت بأول خاطر:

- لا أعلم جوان.. كان حديثًا بشأن العمل ورحل دون أن نكمله.

وحينها لأول مرة تفكر..

أمها رفضت أن تخبرها.. قسوته وجنونه اللحظي عند ذكرها.. ذلك التيه بل الهذيان الذي تلحف به قبل قليل.. عبثه المرتبط دومًا في حياة الرجل بأنثاه الأولى..

كلها علامات أذىً بيِّن، حوله لذلك المسخ الذي يطفئ غضبه من النساء بين أحضانهن، ليترك واحدة تليها أخرى وأخرى.. حد الضياع!

ترى ما الذي فعلته به حقا؟

وجاور سخطها الدائم عليه.. شفقة!

وفاتها الوعي والإدراك.. أن تلك هي بداية السقوط.

***

الحلم لدى الأنثى؛ عالم، غاية وأمنية.. وفي مفهوم الذكر؛ خطوة!

الحلم تتمنى المرأة أن تعيش فيه، ويرغب الرجل بتحقيقه والانتقال لما يليه!

عندها نهاية.. وعنده درجة في سُلم لا ينتهي من الطموحات!

والحلم في مفهومها خاتمة وردية.. ثوب منفوش مزين بوردات رقيقة كما تحب، قبلة ربما يسدل بعدها الستار، وفارس يحملها ليخطو معها عتبات بيت اقترنا ليبنياه معًا..

الحلم في قلب المرأة.. مرادف آخر للحب..

وفي الحب عندها.. تحدث المعجزات!

وأي معجزة أكبر وأكثر إبهاجًا لنفسها وهي تودع آخر الحضور المحدود عقب عقد قرانها!!..

تشكر خالقها على غياب ابن العم في سفر ما تجهل أسبابه، وتشكر العم "عياد" الجار الطيب وأبًا لم ينجبها.. بل هو يشبه الأب لشارعها بأكلمه!.. تبتسم له بود ويشد هو على يد الزوج بعدما أوصاه بها، وزوَّجها إليه بنفسه!..

ثم تنتفض بخجل تشد وشاحها الأنيق فوق كتفيها العاريتين بعد زمة شفاه حانقة.. فهو أيضًا من اختار الثوب!.. أرجواني بطلة ناعمة تشبهها، وكأنه يعلم ذوقها جيدًا!

وبارتباك خطوات عادت إليه، تمنح الخالة بسمة وتربت هي على يدها بسعادة، تباركها وتبارك لها، وتحثها على التشبث بالحلم!.. واستجابت..

خاضعة جلست على مقعد يجاوره هذه المرة، عيناها ترفضان لقاء عينيه، لكن هو كان لديه متعة أخرى..

متعة امتلاك تخصه هو وفقط!

"ألن تنظري إلي؟"

تعانقت أصابعها فوق ساقيها بلذة، قضمت شفتها السفلى فعقد حاجبيه وود لو نهاها لتقاطع أفكاره باندفاعها الشهي كعادتها كأنما تواري خجلها خلف باب الهجوم:

- هذا الثوب يكشف الكثير.. كيف اخترته؟

تمعن فيها ولم يرَ شيئًا!.. شيئًا يكفيه هو على الأقل، مد يده بغتة وجذب الوشاح، وانكشف خمر بشرتها ليسكره أكثر حين دمدم:

- يكشف لي أنا..

وانتفضت برهبة تاركة مكانها تجذبه من يده فأبعده عنها بتمتمة عابثة:

- زوجك سديم.

هزت رأسها ومرت أمامه تسعى للوصول إلى ذراعه الذي يمتد بعيدًا بوشاحها:

- آمر.. يا إلهي، لا تفعل ذلك.

بثانية واحدة وجدت نفسها فوق ساقيه، يحيط خصرها بقبضة متملكة وهمس شغوف:

- أعيديه.

وأنَّى لها الاستسلام، لقد فقد عقله، أول تقارب جسدي بينهما يفعل ما لم تتوقعه!.. بل يتعدى جميع الخطوط الحمراء!.. وانفجرت وجنتاها بدمائها كلها، دفعته في صدره لا تعلم أين تخفي عيناها عن توحش نظراته!:

- رباه.. لا، أنت تجاوزت حدودك.

أمسك بوجهها الذي يلتفت لجميع الاتجاهات عدا مواجهته، بحزم يكبل عينيها ولا فرار متجاهلًا لكل اعتراضاتها:

- أعيديه سديم.

في مقلتيه عواصف، غيوم.. برق ونار واستعار، وهي تتوه.. بل تاهت بالفعل بتمتمة مسحورة متسائلة أو ذاهلة:

- أعيد ماذا؟

وحانت لحظة العبث، البداية التي قدم لأجلها الكثير:

- نطق اسمي.

هو حبسها في دمية فودو وأحكم رباط التحكم، أو ربما سحر أسود.. أو حتى خلع قلبها من مكانه وتملكه، فما يمليه عليه ينفذه بلا تأخير:

- آمر.

وهنا زمجر يزجرها فظهرت حيرتها:

- حسنًا.. لا تعيديه، لا تنطقيه، ليس أبدًا بهذه الطريقة!

وتجاهل ضياع نظراتها، التباس الأمور بعقلها، مد يده نحو شعرها يحرره من عقاله الذي يكرهه وإن كان أنيقًا راقيًا، يغوص فيه بأنامله كأنما أتت تلك اللحظة أخيرًا:

- هذه الخصلات أسرها.. إثم!

وجذب واحدة يتشممها باستمتاع، يكمل والنبرة عابثة:

- هل رأيتِ أحدهم يكبل موجات البحر في عمق الليل!!

ودون رد تحسس وجنتيها الناعمتين، أسكرها بكلماته، بعينيه، بنبرته فنسيت وضعها قابعة بين أحضانه:

- أحب وجنتاكِ عندما تحمران خجلًا.

وتنقل بتأمله لذقنها، شقها الفاتن الذي اعتاد انجذاب بصره إليه، داعبه بإبهامه قليلًا قبل أن تنال منه أول قبلة.. لا؛ بل هو ما نالها حينما طبع شفتيه فوقه بتوق، يتعانق جفناه هربًا من صورة، ويتناسى لثانية عن ذاته وكيانه!

وعندما عادت الذاكرة الغائبة وأفاق من وهم رجل لا يعرفه، ابتعد..

هل حقًا قبَّل طابع حسنها؟

أول قبلة كانت له؟

ولأن طباع الضواري تنعكس على سرعة رد الفعل خاصة حين الغضب، فقد غير اتجاهه هذه المرة متناسيًا خجلها الذي غرقت فيه وأسر شفتيها، أنفاسها، خصرها، بل وحتى أفكارها!

وسقط معها في الأسر!

أفاقته بدفعة واهنة وصوت الخالة يخترق حُجُب أذنيها باهتًا ضعيفًا، تشبثت بكتفيه تبحث عن توازن لتجده استعاد هدوءه بلحظة والسؤال: كيف؟!.. خرجت إليها لتتناولها كوبَ عصيرٍ طازجٍ وتخبرها عن قرب انتهاء إعداد العشاء.

عادت إليه، لمحت مقعده الفارغ لكنه كان في ظهرها، وتفلت الكوب من بين أصابعها ارتباكًا فتلقفه بيده بحركة خاطفة، شهقت شبه مذعورة وهو يضعه على طاولة قريبة، يعود إليها.. يتملك منها، من كل جوارحها، خلجاتها، حركاتها وسكناتها، بهسيس حميمي دافئ بينما يخفض رأسه نحوها:

- أريد أن أجرب كيف أنحني لأنال شفتي امرأتي، امرأتي أنا!

هل كان بلهجته دهشة!.. لهفة!.. فضول!

تلاحقت أنفاسها، وهو لا يبارحها.. كادت تفقد وعيها فعليًا لنقص الهواء، شعورها برجل لأول مرة، بقربه، بشغفه، بهمسة تمتم بها بين شفتيها ونبرته كانت توازي حيرة:

- أريدك.

وأخيرًا حررها، يلهث بانتظام كأنما يحدد لصدره حجم الأكسجين الذي يدخله، يتأملها مضيقًا عينيه، بهما لغز لا حل له، متاهة لا مخرج منها.. أحجية تنقصها قطعة وبها لن تكتمل!

عاد نداء خالتها يتردد فركضت من حصاريديه، تركها.. تابع رحيل طيفها وغامت برأسه أفكاره في صراعٍ مميت.. ثوان والتقط من جيبه علبة مخملية صغيرة، وضعها فوق الطاولة وبصحبتها بطاقة أنيقة فارغة..

أخرج قلمًا وخط عليها بضع كلمات متعجلة، ورحل!

عندما عادت تأكدت من غيابه التام هذه المرة، اعتلى نفسها غضب وقلبها ضيق وحينها رأت هديته، تناولت البطاقة تقرأ ما فيها:

"أول هدية لغيمتي بعد أن أصبحت ملكي.. اعذريني ظرف طارئ بالعمل"

وانمحت مشاعرها السابقة، ليحتلها حزن!

أي عمل ذاك الذي استدعى ذهابه دون وداع وبتوقيت كهذا!!

نعم هي سعيدة، هي أخيرًا ستترك لأحلامها اللجام لتنطلق بحرية، لكنها تخشى بعدها السقوط..

سقوط: لا يعني سوى انكسار ليس من ورائه قائمة!

***

صوت الحب عند المرأة.. أقوى من صوت الضمير!

"جان جاك روسو"

هل تساءلتم يومًا لمَ يسمونه "الوقوع في الحب"؟!.. لماذا نقع؟.. وكيف وإلى أي حد!

هل الوقوع مؤلم؟.. نكسر به القواعد ونتمرد معه على العقل ومبادئ السلامة التي يعتنقها!

هل الوقوع اختيار!!.. أم قرار؟!.. منح أم سلب!.. قسرًا أو طواعية!

هل هو حيرة!.. أم كنف آمن نستظل به؟!..

هل هو وردي اللون؟.. أم قاتم يتلبس ضوء الفضة اللامع!

لا دعونا ننظر من زاوية أخرى..

ففي الحب لا قوانين، لا شروط، لا أسباب..

في الحب لا دوافع أو مبررات..

وفي الحب نتناسى، نتجاهل، نعدو بجنون ونمد الأنامل نحو الحلم، تتعانق معه فنحلق فوق غيومه، نطفو على سطح نهره الجاري..

نغفل عن كوننا.. في الحب نسقط، وماذا بعد السقوط.. سوى حطام!

وهل بعد السقوط.. قيام!

حائرة تفكر وهي في طريقها إليه، لقد عاد من عند عروسه وقبل أن يجف حبر توقيعه على وثيقة زواجها دعاها لتأتيه!

ضائعة لا تجد السبيل، فإن كانت قد منحته حياتها وقلبها وجسدها نتيجة عشق..

فهو بفعلته قد سحب من رصيده ما يكفي لمنحها عذر الرحيل..

لكن: هل الفراق في حالتها مسموح؟!.. أم قبلها سيدفنها حيث هي فترحل عن الحياة محملة بأسراره وقلبها المكلوم في ظلمة غرامه!!

وهل قبل الفراق يمكنها أن تواجه، تعدد له مساوئه، غلظته في معاملته لها، قهره لقلبها!

وصلت بعد تردد، قادت سيارتها في أطول وقت متاح، وهناك نظرت إليه بضعف، واهنة هي في مواجهته، تائهة في لغز تجهل بدايته، ولا تمتلك مفاتيح نهايته..

"تزوجتها!"

همست بها مكسورة، متوجعة بأنين فعلي تملَّك من نبرتها:

- نعم.

جواب مقتضب، قصير وأكثر من كاف:

- وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة آمر!

نظرة مخيفة ملأت مقلتيه، ورده أتى مبهمًا فلم تدرك مغزاه:

- أنا لا أغتصب النساء ريما.

ما العلاقة!!.. تاهت وتجاهلت وصرخت بعجز علَّها تقتلع جذوره من تربة روحها:

- فاشتريتها؟!

غضب ملامحه أثار بنفسها هلعًا لكنها رفضت الارتباك، أبت التراجع.. قررت الخوض عكس تيار خنوعها السابق:

- نعم آمر.. اشتريتها، ويطلقون على الثمن المدفوع: مهر!

وسخر منها فهي حقًا لا تعلم من ثمنه بخس هنا!:

- كنتِ تفضلين أن يكون مهركِ أنتِ عزيزتي؟

وشرخ جديد أضافه لروحها حينما همست بانهزام:

- ولمَ لا؟

أبعد وجهه يتذكر ماضيًا يصعب نسيانه بل يستحيل، لكنها بادرت باقتراب، تعيده إليها.. تحاول أسر عينيه بسماء عينيها، تتمتم بقلب نابض:

- آمر.. أنا...

أخرسها، منعها نطق حرف زائد، جذب مرفقيها بشراسة، وأمام ناظريها أمر بغضب مستعر كأنه من قلب الجحيم وقد أدرك ما ستنطق به:

- إياكِ أن تنطقيها.. لا تلوثي الكلمة بما هو حاصل بيننا.

- ألوثها!

وعلامة تعجب واحدة تكفي، لأن البقية علامات انكسار، توجع.. وروح أصبحت رمادًا..

- نعم.

وتراجع بها للخلف مدمدمًا من بين أسنانه المنضغطة:

- هذا هو ما بيننا.. وهذا هو ما طلبتك لأجله.

ودفعها فوق الفراش قبل أن ينقض عليها فصرخت بخفوت خائف استسلمت بعده لغزوه كما هي عادتها..

جارية بين يديه!

وانتهى ولم يكتفِ!

وابتعد تعلو وجهه نظرة شيطانية، ورغم غضبها السابق فقد انمحى عندما تاهت معه في فورة عاطفة لا تجدها سوى بحصاره، وعندما فتحت عينيها كانتا لامعتين، تتأملانه من وراء أهداب نصف مغلقة، تلامس كتفه بأناملها، وتستشعر أملًا في اختلافه معها:

- ما بك آمر؟.. لست كعادتك رغم شغفك الزائد الليلة.. ألم تكفِك الصغيرة؟

كانت نبرتها مستهزئة، وكانت نبرته جامدة عندما أمرها:

- ارحلي.

استنكار ملأ نفسها، تخطت حاجز الألم لغضب، وحدة غلفت صوتها وسخط أحاط بلهجتها:

- ماذا!!.. هل طلبتني لأجل...

ويقاطعها بمنطقه الذي يناسبه هو:

- نعم.

ونظرة رغم الظلام المحيط بهما لمحت فيها استخفاف، قلق.. وبرود:

- ومن لم تكفِ؛ هي أنتِ.. اذهبي الآن ربما.

كسرها وترك شظاياها تلملمها بنفسها، جروح عدة تكالبت على كيانها الهش، فلم تَجِد سوى الطاعة، ولم تُجِد سوى الخضوع!

وللمرة الأولى لم تكن فاتنته كافية، للمرة الأولى نفسه تتوق لأخرى حد هوس سيطر عليه، ولمرة أولى.. تتقاتل أفكاره وتتقافز داخل رأسه وهو يرى أنه يفقد سطوته على ذاته..

لأجل منمنمة!

***

أحد الحيل النفسية الشهيرة للهروب من مخاوفنا هو إعادة توجيهها..

الأسوياء نحو هدف جاد، ومعطوبو النفس نحو متنفس متاح، تتلبس عندهم قشرة غلظة وقساوة.. تتمازج مع عنف ولو كان طفيفًا، وحالة واضحة من الضياع ينكرونها!

وهي بحس أنثوي غريزي بحت شعرت باحتياجه، ما لم تدركه أنها في سابقة من نوعها تقابل وجهه الشيطاني المخيف حتى وإن أشار به من قبل أو نوه عن وجوده..

وقفت بحمامها الخاص تغلق مئزرها الحريري فوق جسدها، تلامس كتفها بعدما كشفت عنه، تتطلع لحمرة توشمه بألم، مررت أناملها فوقها وأنَّت بخفوت تتذكر اندفاعه المثير للدهشة إليها..

دون موعد محدد، دون اتفاق، فقط مكالمة يتأكد بها من وحدتها قبل أن تجده أمامها ومن على بابها أعلن عن نواياه..

زفرت بضيق، هذا تعدى كل عهد بينهما، هي ليست حقيبة اللكم خاصته ليفرغ عن غضبه بوجهها.. نعم تشعر به منقبضًا، لكن هناك حدودًا رسماها سويًا؛ بل هو من حددها منذ البدء..

عادت إليه بخطوات متمهلة وعقلها يدور في دوامة خلَّفها فوق مشاعرها، وجدته واقفًا يزرر قميصه فتغضن جبينها غيظًا، بلهجة باردة أوقفته:

- سترحل!

- نعم.

جواب مقتضب أكثر برودة، وحنقها ارتفعت ألسنة لهبه:

- أتعني أنك أتيت فقط لأجل...

- بلى.

وقاطعها هذه المرة بحزم صارم، واضطرمت شعلة جنونها لتهاجمه بحدة:

- غيث.. لا تعاملني كأنني عا..

التفاتته أوقفت سيل أحرفها، دنا منها وتحكم بذراعها:

- ماذا!.. أعاملك كأنكِ ماذا جوان؟

وأشاح بيده في حركة عنيفة يشير للفراش جوارها:

- أليس هذا هو اتفاقنا بالفعل!.. أم تراكِ تتناسين؟

جذبت نفسها بعيدًا عن قبضته، نظرت له بجرح كبرياء قابله بقسوة، وأبعدت وجهها تأمره بهمس ملأت نبرته بحزم قدر استطاعتها:

- اذهب.

رمقها بصمت وصدره يعلو ويهبط بتسارع مفزع، لم يهتم أن تكون تتمة الكلام لها هذه المرة، بل تناول سترته ورماها فوق كتفيه، ودون كلمة أخرى أو نظرة زائدة غادر..

ومن خلفه تطلعت للباب الذي عبره بلا اكتراث، وتحررت من سجن جفنيها دمعة..

دمعة تعلن صراحةً.. عن ميلاد عشق!

(١٣)

لكل قديس ماضٍ ولكل مذنب مستقبل!

"أوسكاروايلد"

***

ضعف الأنثى له جاذبيته الخاصة!

فبضعفها تستأثر على قوتك.. تجذب خشونتك.. وتنال من غلظتك لتتحول معها وأمامها لآخر لا تعرفه، وبقدر ما تكره ضعفها، فهو قد تملك منها للحظة بعد رحيله وهي تقر لنفسها أنها بكل سفاهة مجرد امرأة أخرى، عادية، تقليدية.. تفتقد للشعور بأنوثتها، بأهميتها.. قدر اهتمامها لكيانها المستقل الذي بنته على مدار سنوات..

بحماقة حواء، تريد جنة آدم..

تمنحه الثمرة الآثمة، فيتذوق، ينهل، يشبع.. وتبرح هي الجنة بصحبته ظنًا منها أن جنته هي الوطن!

وتنهار التوقعات، وتغوص هي بأعماق مظلمة توهمت أنها تمتلك منها طوق نجاة بل قدرة على الطفو، الصعود إلى السطح والهروب حين الشعور بالخطر..

ويالغبائها!!

فهي لم تستشعر مقدار المخاطرة التي خاضتها إلا بعد أن توغلت فيها لحد لا رجوع بعده ولا شفاء منه، غاصت في أوحال مستنقع لطالما كان بالنسبة إليها أمرًا غير قابل للحدوث، أصبح طريق العودة مبهمًا حالكًا معالمه انطمست خلف.. رغبة قلب!

قلب سقط في بحار العشق.. للمرة الأولى!

قلب بتول، لم يستعمره من قبل بشر، ولم يرِد أبوابه رجل.. حتى ولو بوثيقة شرعية تملكها هي بها بالكلية، إلا ذلك الخافق الصغير الباحث في خبث لم تدرِ به عن.. الحب!

تكررت الكلمة بذهنها عالية لحد منع طرقات شقيقها من الوصول لأذنيها، لم تنتبه إلا وهو يقف مقابلها، يشيح بيده في مواجهة عينيها:

- يا إلهي.. أنتِ لستِ هنا بالفعل!!

اكتنفها حنق، حنق دافعه الوحيد هو، بسببه وموجه إليه، وللدقة أيضًا إلى نفسها!

ذلك الأحمق الذي سقطت معه في هوة لا قرار لها، ويائسة تعلم أن السلامة منها شبه مستحيلة، أشاحت بناظريها تحاول التماسك وتدعيه، تمنح نبرتها شيء من قوة تاهت منها:

- ماذا هناك باسل؟.. لستُ في مزاج رائق لمرحك الآن.

وانعقد حاجباه بقلق، هي أخته الكبرى نعم، لكنه رجلها المسئول عنها، وما يراه في الآونة الأخيرة يحرك خوفه عليها، ويثير بنفسه شتاتًا لأجلها!!

لف حول مكتبها وجذبها لتقف، أطاعته بسكون استغربه!..

تحرك يسحبها خلفه ليجاورها فوق أريكة عريضة بأحد الأركان، نظر في عمق عينيها وأمرها:

- أخبريني ما بك!

ازدردت لعابًا لا وجود له، استدارت تنظر للأفق عبر نافذة ضخمة تحتل نصف جدار مقابل:

- لا شيء باسل، لا تشغل بالك.. كلها أمور العمل فقط.

لهجتها لم تكن مقنعة، توترها وحركاتها المرتبكة التائهة على غير عادتها!.. وانتابه شك حد اليقين، شك كان يراوده منذ فترة وحان وقت التأكد منه:

- جوان.. أجيبي بصراحة..

تلاقت الأعين وتساءلت بصمت قطعه لسانه بحسم:

- ما الذي بينك وبين غيث الألفي؟!

ولم تندهش!.. رغم احتفاظها بخصوصيتها لنفسها ورسم حدود حولها تمنع الكل من تخطيها حتى الأخ الأصغر؛ فهو قد لاحظ..

تعلم أنه لا يلم بكل الخيوط، لكن استشعاره أن ما بها الآن له علاقة برجلها بالذات، بل ربطه به هو خاصة!!.. فذاك أجبرها على اتخاذ مسار الحقيقة:

- أحبه.

كلمة ونقطة فاصلة، وما بعدها غير هام!..

منحنى الصراحة صادم بجميع الأحوال، وهو لم يرَ ذلك قادمًا، لكنه ادعى الثبات وأظهر التماسك بعد زفرة:

- حقا!

تعلقت عيناها به للحظة في ضعف، ضعف تمر به للمرة الأولى وهو يدرك.. أثارت نظرتها شفقته فسأل بتردد:

- لكن.. ماذا عن فارق العمر بينكما جوان!

هربت بنظراتها، تلك مشكلة أخرى لم يحن وقت طرحها بعد:

- من يهتم لذلك باسل؟

واجهها بحقيقة تنكرها، تتناساها وتتغاضى عنها:

- مجتمعنا بأكمله لا يمرر هذا الأمر بسهولة.

وأصابت نبرتها حدة وضياع:

- ذاك فكر عقيم، مجرد أربعة أعوام لا يشكلون الكثير!

ألقتها بتقرير امتزج به حيرة كأنها تسأله رأيه!.. أو تطالبه بمشورة لم تحتجها يومًا:

- حسنًا.. ماذا عنه هو!!

تعاظم التوتر فوق ملامحها، ازداد بها الارتباك.. وشجن ما اختفى خلف تهرُبٍ من جواب، أوربما كان هو الجواب الوحيد الذي تملكه:

- لا أدري باسل.. لا أدري!

ربت على وجنتها برفق، وشرد سابحًا في أفكاره..

متى كانت أخته ضعيفة!!.. لا يذكر أنه مر بضعفها في مرة، لا يتخيل أن تلك القوية التي رفضت الكثيرين، بل وحتى حب زوجها الأول تسقط..

ومع من؟!

مع شاب عابث يماثله عمرًا، ويفوق بسمعته "شهريار" بزمانه!!

***

بهوامش الورق أحرف تائهة، نقشتها قبلًا، كورتها وأهملتها وتناستها بل وألقتها فعليًا في قمامة الذكرى، ثم رفضت الحلم لأن الواقع أقسى وأكثر شراسة كي يتركها تلامسه..

وبذات الهوامش، في دفتر جديد خطَّت حلمًا آخر، امتلكته بين أيديها، معجزة تحققت ومشاعر فوضوية تصول بحربها الخاصة بعمق كيانها المشوش للآن به وله!

يقولون أن الأنثى تصبح أكثر سحرًا وفتنة عندما تحب.. وتنال الحب، لكن هل قالوا أنها تحلق في السماء، تمسك بالنجمات وتحتوي دفء الشمس!

هل قالوا أنها تتيه، تضيع.. تتلاشى فيه، تذوب وتفكر وتحنو وتشتاق!

هل أخبروها أن العشاق ضعفاء؟.. وأن لذاك الضعف مذاق فريد مميز شهي يتوجها على عرش مملكته ويمنحه هو صك الأبدية!

وهل نبهوها.. أن الهوى يستنفذ طاقة القلب حتى النضوب!

ربما نعم، وربما لا.. لكنها الآن، وبعد يومين من عقد قرانها عليه لاتزال تعيشه وهمًا بعيد المنال، وفي كل مرة ومع كل لمسة واقتراب.. تصدق، ثم تعود للخوف..

واللعنة على نفس ضعيفة أمام مخاوف مشروعة فرضها واقعها بنكهة اعتياد!

وبينما هي شاردة فيه وفي غدٍ معه؛ كانت في مقابلها أخرى تنعيه دون أن ترفع عينيها نحوها.. ورغم تساؤلات تملأ عقلها لحد مقلق فهي لم تجرؤ على البوح بها للآن ولا تدري لمَ!

أنهت طباعة الملف بيدها، جمعته بتنسيق ونهضت إليه..

الحجة عمل، والغاية رؤية.. والدافع شوق ولو لم يطُل الغياب!

تناوله منها بعملية مبدئية، راجعه ببطء يمنحها الوقت لتأمله، الشبع منه قبل أن يحاصرها بعينيه فتفر منه كعادتها، أغلقه وتركه في مكانه، نهض يلتف حول مكتبه، يرتكن لطرفه ويمد يده إليها:

- تعاليّ.

ونالت من وجنتيها حمرتها التي باتت متعة خاصة، رأى استدارة رأسها نحو الباب بارتباك فالتوى جانب فمه ببسمة خبيثة:

- تخشين أن يمسك بك أحدهم بالجرم المشهود كما يقولون!

لم تجد ردًا، وبالأحرى خجلت من واحدٍ لا تستطيع التعبير عنه، وقاطع هو كل حيرتها وتوترها بميل خفيف تملك به من معصمها، وتراجع لتنجذب نحوه بتلقائية، ببساطة أحاط خصرها، وبعفوية حط بشفتيه على فكها.. وأمام ثغرها اللاهث قلقًا همس:

-أنتِ هنا في عريني.. لا يدخله أحد دون إذني غيمتي.

ودفعته!

دفعة طفيفة داعيها حياء، وانعقد حاجباه في حين تحاول هي التملص من حصاره برقة لا تملك سواها معه، أحقًا أبعدته عنها!!

"سديم"

نبرته جمدتها للحظة، هل بها غضب؟!

بتردد وتمهل حد بداية خوف نظرت إليه، وفي عينيه رأت أمرًا ترجمه بصيغة حادة.. جادة:

- لا تبعديني عنكِ ثانية.. أبدًا.

نعم.. لقد أغضبته، توقفت عن الحركة وملأها ذنب.. وتمتمت بخجلها الذي يروض كل وحشيته دون إرادة:

- أنا فقط...

ولم يمنح شفتيها حرية نطق اعتذار، ضاعت معه وتخاذلت ساقيها في دعمها، وكان الداعم ذراعيه يحتويانها بتملك وجسده يساندها حتى تراجع برأسه وترك لعينيها هذه المرة حرية الفرار..

"كانت أجازة طويلة، لا داعي لها"

همسة حارة في أذنها تثبت شوقًا لا يجاهر به صراحةً، ولم يطلق سراحها فاستكانت بصمت، أزاحت خصلة شاردة للخلف:

- أنت منحتني إياها.

- حماقة!

وسبَّ نفسه أمامها بلا وعي، وابتسمت بحيائها الفطري، لمح ترددًا جديدًا يخط طرقاته فوق ملامحها الهاربة من نظرته، حرك يده يديروجهها إليه:

- ماذا هناك؟

بدا أنه من وضعها لا خلاص فلم تحاول الابتعاد مجددًا، احتارت هل تواجه!!.. هل سيظنها غيرة؟.. هل سيتقبل أم يرفض ويعود لغضبه الذي أثار ذعرها بغتة!..

لم يحثها هو الآخر بل ترك لها الوقت لتتخذ القرار وتتمعن بعاصفته الرمادية المتسائلة مدعية الثبات:

- أريد أن أسألك عن شيء ما!

- ما هو؟

شعر برعشة جسدها وتغضن جبينه:

- ربما!

لم تتغير نبرته ولو لثانية، وجوابه كان سريعًا كأنما لم تثر به شيئًا:

- ماذا عنها؟

والرجفة نالت من شفتيها لتبدد تركيزه للحظة قبل أن تفاجئه:

- هي تحبك.

نطقتها بل ألقتها بتقرير عجول تريد بها صدمة:

- ليس هذا من شأني.

وتحولت الرجفة لتشمل كامل جسدها من جديد وتوسعت عيناها ذهولًا تمازج ببعض استنكار لتكون الصدمة من نصيبها هي:

- إذًا أنت تعلم!

والرد هزة كتف لا معنى لها، وفرصة الاعتراض التالية أضاعها بأمر آخر حازم، لكنه عابث شغوف النبرة:

- لا تفكري في غيري وأنتِ بين ذراعي حلوتي.

تاهت بغيوم مقلتيه ورددت بحيرتها اللامنتهية وكان الجواب شاردًا:

- أنا لا أستطيع التفكير بأي شيء مطلقًا وأنت حولي..

وعض شفته السفلى بمكر ورفع حاجبًا لئيمًا فوق نظرة وقحة:

- حسنًا.. حسنًا.. ماذا قلتِ الآن؟

أعادت تلك الخصلة التي تفتأ تغازل وجنتها إلى ما وراء أذنها، وتملصت منه ثانية ببطء خجول:

- هل يمكن أن تحررني الآن؟

- لا.

ونبرتها موبخة، لائمة، لطيفة وماتعة لنمر يستمتع بفريسته داخل فخه قبل الالتهام:

- آمر.

- خطأ..

وحبس أنفاسها وبين زفير وشهيق ألقى بالسبب:

- أخبرتكِ ألا تنطقي اسمي.. ليس هكذا أبدًا!

وعندما ابتعد كان لديه فضوله هو أيضًا، هي وحدها تحرك به كل غريب، كل ما لم يألفه يومًا أو يدُر بخلده ساعة، وبموازاة محاولتها للملمة شتاتها واستعادة انتظام دخول الهواء إلى صدرها وصلها سؤاله.. يدَّعي عدم اهتمام، ونبرته فاضحة لغيرة دغدغت أنوثتها فحملتها لعالم أحلامها:

- هذا الذي تقدم لخطبتك.. من هو؟

ابتسمت تريد تلاعبًا، دلالًا وربما نظرة تخبرها بما يرفض لسانه الإفصاح عنه وتصدح به جهرًا جُل جوارحه:

- لِمَ تسأل؟

وحصلت على نظرة غير تلك التي أرادت أو بالأحرى تمنت!.. كانت شبه صارمة، محذرة آمرة ولهجته جامدة لامبالية:

- لا لشيء محدد.. من باب الفضول.

أذعنت بنعومة كأنها لن تصل معه إلا لما يريد وقتما يريد:

- أحد معارفنا.. كان شخصًا جيدًا.

تشددت ذراعه حول خصرها فتأوهت بخفوت، وحالما نظرت تعاتب عينيه وجدت شيئًا من قسوة يسكنهما فارتبكت:

- لا تمدحي رجلًا آخر أمامي..

وقطع حديثه بفكرة:

- ولا حتى من ورائي سديم.

حائرة هي في أمره، لا تفهمه!

بلحظة هو العابث الذي يدللها كأميرته، وفي التالية تتوحش نظرته فتخيفها، وتسيطر النبرة الآمرة على صوته.. ببساطة يصبح "سي السيد" وينتظر منها أن تكون "أمينة" خاصته.. وبلا حول لها ولا قوة، تلبي هي رغبته!

ويالبساطة الفكرة!!

تحركت أنامله فوق ملامحها الرقيقة تعيدها من شرودها معه، استقرت عند ذقنها فاحتواها بين سبابته وإبهامه يرفع وجهها إليه:

- أنتِ رفضتِه لأجلي.

تلاحم جفناها خجلًا.. ظنت أنه سيطالبها باعتراف ما وأقسمت ألا تفعل قبل أن يبوح بها هو أولًا، لكنه باغتها كعادته:

- لو كنتُ مكانه؛ لقتلتُ من اختطفكِ مني!

انتفاضتها لم تكن لتصريحه الغزلي بالدرجة الأولى.. بل لتلك الجدية التي ملأت لهجته، غلفتها حتى النخاع ولم تترك مجالًا لهزل، وخوفها أجبرها على القبول بتسمية "مزحة ثقيلة" والحمرة تعود لوجنتيها:

- اتركني.

أخيرًا لاحظ أن حصاره طال فابتسم يحررها ببطء:

- لا أحب صيغة الأمر.. لكن..

ابتعدت خطوة للوراء، تتنهد بشعور خلاص وتخبئ تيه مقلتيها عنه:

- كما تأمر غيمتي.

ويضيف لاسم تدليلها ملكيته الخاصة، وينطقه بتسلط يخبرها أنها له هو وحسب، وحينها لا تملك إلا التسليم بتلاقٍ أخيرٍ لأعين تشتاق اللقيا وتهرب منها..

واحتلت عيناها الأفق في مواجهة عينيه فغاب بأعماقهما حد الثمالة!

ودون أن يجاهد لنجاة!

***

في فطرة المرأة؛ الخيانة نهاية..

وفي قاموس الرجل.. الخيانة نزوة، ولحظات متعة مسروقة من بين أنياب الروتين والملل..

أما في فلسفة مجتمع لطيف مُعاث فيه الفساد!

أن تخون امرأة؛ تستحق الموت..

أن يخون الرجل؛ يستحق فرصة ثانية..

وتغيير جذري كلي وشامل مصاحبٍ لغلالة فاضحة ودلال وربما رقصة وليال حمراء متكررة تلعب فيها المُخانة دور الغانية باقتدار..

وهذا ما تقوم به بالفعل، هو خانها ولا مسمى آخر لفعلته..

تزوج!!.. نعم، عشقته وذبح قلبها بلا مبالاة!!.. بلى، أدخل أخرى لحياته بينما منحته هي كل حياتها وروحها وكيانها حتى أنفاسها تدخل وتخرج لخاطره!!.. أجل..

والنتيجة أصبحت علاقته في النور تحت غطاء شرعي بامرأة غيرها، بينما لا تزال هي في الظل، غانيته الخاصة.. حتى يمل!

تأملت بابه المغلق بعين تائهة، لقد رحل الجميع حتى العروس الصغيرة بصحبة سائقه، وهي من تخلفت عنهم.. لأجله هو، بحثًا عن تغيير ما ينقصها.. تغيير تعيده به لمحيط يخصها وافتقد وجوده!.. ذهبت إليه ومع جمود وجهه حال رؤيتها أصابتها غصة فتحشرج صوتها:

- ألن تغادر!

ترك مقعده والتقط سترته من فوق المشجب، ارتداها سريعًا بتعليق مقتضب:

- سأفعل.

توجهت نحوه ومدت يدها بتلقائية تعدل من رابطة عنقه:

- هل آتي معك؟

أمهلها حتى انتهت وإمهاله منحها الأمل لكن حروفه الجافة قتلته في مهده حال نطقها:

- لا ربما.

- أشتاقك.

نطقتها بعد كلمتين إحداهما رفض قاطع لا تملك جدالًا حوله، فقط مرضها به دفعها لإحاطة عنقه بذراعيها وإلقائها بوجهه.. جمد على وضعه لثوان، يناظرها من علو، وتخطت هي حدها المرسوم بيأس امرأة خاسرة:

- ما الذي يميزها عني آمر حتى تستحوذ عليك بهذا الشكل؟

زم شفتيه واضطرمت مقلتاه بغضب اقشعر له بدنها، ففك ذراعيها بقساوة ومال نحوها محتفظًا بيديها الصغيرتين داخل قبضتيه:

- لا يمكن لامرأة أن تستحوذ عليّ ريما.. وإلا كنتِ فعلتِها أنتِ طيلة اثنتي عشر عامًا مضت.

تألمت لضغطة أصابعه حول كفيها، واعتصار كلماته لخافقها المتيم به:

- هي فعلتها آمر.. فعلتها وبأقل من شهرين.

ولم يأبه لتأكيدها الذي ينكره، تحرك بيديه يتملك من مرفقيها، لم يخفف من ضغطه عليهما عندما مال يهسهس ببطء أثار بنفسها رهبة جمدتها:

- أتعلمين فيمَ هي مختلفة!!

ولمعت عيناه عند ذكرها ولاحظت هي.. ولم يلاحظ:

- هي امرأة صعبة ريما.. توقظ فيَّ أقوى غريزة.

ازدردت ريقها لكن حلقها الجاف آلمها كما عينيها اللتين أنذرتا بسيل حارق ترفض أن يراه، هل ما فهمته صحيح!!.. يريدها هي أكثر منها ولهذه الدرجة؟.. تحرك رجولته وهي الفاتنة لم تعد تفعل!

ضيق أصابعه أكثر حول يدها فعادت تنظر إليه، بسخرية مستخفة تأملها وفهم أفكارها الصامتة، هز رأسه باستهانة:

- غريزة الصيد عزيزتي!

وعندما بدت تائهة، لا تستوعب ما يقول تركها يحرك ذراعه بشرحٍ قبالة ضياع نظراتها:

- أخطط.. أبذل الجهد وأنصب الفخاخ لأنالها..

ثم تراجع خطوة وغيومه تلتمع بانتصار:

- وعند لحظة القنص الأخيرة..

وله بدا الأمر مشوقًا واللمعة تتحول للذة خالصة.. برية، وحشية.. شرسة:

- ستكون تلك متعة لا تضاهى.. ولحظة لا تنسى!

ورحل عن المكان بأكمله، تركها وحدها تحاول الفهم، وتجتر الذكرى وكل ما علق بذهنها هي كلمة وحيدة لم ينطقها وإن دلل عليها شرحه المستفيض عن غريمتها..

"رخيصة"

هي مَن قدمت له نفسها على طبق بثمن بخس.. هو مَن عارض وهي مَن تدللت، منحت، أغوت، أصرت.. وعندما نال؛ ابتعد حتى رحل والدها فعاد!

وانهارت على مقعد مقابل مكتبه، من بين جفونها المنغلقة تهطل العبرات المالحة، تذوب بين شفتيها وتطعن بمرارتها روحها، قلبها.. نفسها التي سقطت أسيرة هواه، وتجبر هو كملك جائر في أرض توجته بيدها عليها ودون جهد أو أحقية امتلاك!

ليلة واحدة، واحدة فقط..

كان قد مر عام على وجوده بمنزل أبيها، تدريباته شاقة مستمرة لا تنتهي، ليلًا أو نهارًا.. يتقدم فيها بسرعة مثيرة للرعب، وتقع هي بحبه كل يوم عن سابقه لمسافة أكبر..

وفي تلك الليلة حدثت السقطة الأعنف حيث تملك منها كل شيء، ولم يمنحها بالمقابل أقل شيء!

تسللت لغرفته، أمام بابها وقفت مترددة، هل تدخل إليه؟.. ماذا ستخبره!..

هي حمقاء، مجرد فتاة مدللة اعتادت الحصول على ما تريد، ونعم هي تريده.. ذاك اعتراف لا مهرب منه، لكن هل هو يريدها؟.. هل سيهبها نفسه فتكتمل سعادتها!

ثوان طالت لدقيقة واثنتين فخمس..

وعندما بلغ توترها أوجه وعزمت على الرحيل سمعت همهمات متقطعة تحمل صوته المكتوم، كأنه يحارب شبحًا ما، لحظات وتحولت الهمهمات لأنين متوجع، وصرخات خفيفة تحمل نهيًا، أمرًا.. بداية بكاء!

بكاء!

هل يبكي في نومه؟

دون تردد فتحت بابه وأغلقته من خلفها..

بمساعدة ضوء خافت عبر النافذة لمحت جسده ينتفض بالفراش، يركل عدوًا وهميًا ويلكم بقضتيه اللاشيء، يتشنج بعنف ولا يرتخي ليرتاح، تقدمت خطوة وقبل الثانية كان يهب جالسًا بتأوه عال أفزعها..

ارتباك لاحق نبرتها وهي تناديه، وانعقد حاجبيه وجسده يغمره عرق، صدره تتلاحق به أنفاسه لحد الألم وصرخته الهائجة أثارت رعبها رغم حرصه على خفوت صوته بانتباه يحسد عليه:

- ماذا تفعلين هنا؟

احتارت في رد!.. أسعفها عقلها بكذبة مقنعة لم تخلُ من واقعية:

- كنتُ أمر من أمام غرفتك وسمعت أنينك ثم صراخك، ماذا حدث؟

وبادرت هي بسؤال قبله تنقذ نفسها، لكن جوابه الخشن صدمها:

- ليس هذا من شأنك.. اخرجي.

ويطردها أيضًا!!..

ترددت، هو يحتفظ بنبرته خفيضة فوالدها ليس ببعيد وهذا لصالحها، اقتربت بدفعة من قلبها وعلى ضوء شاحب باهت لا تكاد ترى من خلاله تفاصيله مدت يدها إلى كتفه:

- آمر..

- اخرجي من غرفتي.. اللعنة ريما.

صاح بها زاجرًا، بحيرته وعدم فهمه لما تفعله بهذا المكان في هذا التوقيت!..

مد يده قبل أن تلمسه يقبض على كفها بعنف أوجعها، فحيحه المشتعل بلهيب غضب مبهم بعث بقلبها انقباضة شفقة، فهي رغم ما يفعله تشعر به..

"خائفًا!!"

تركت له تلك اليد، وجاورته فوق فراشه، مدت أنامل يدها الأخرى تلامس وجهه دون أن تراه بوضوح:

- أنت تتألم.. أخبرني ما بك، لِمَ تقصيني عنك آمر؟.. أريد أن أكون إلى جوارك.

وتبًا لها.. هي فقط بلهاء لا تفهم شيئًا، زفر ساخطًا يدير عينيه متنائيًا عنها:

- أنتِ لا تريدين شيئًا من هذا، أنتِ فقط طفلة لاهية لا تعلم ما تزج بنفسها فيه.

وعنادها كان طفوليًا بالفعل:

- أنا لست طفلة آمر.. عامين فقط فارق بيننا.

وبجدية ساخرة عنَّفها:

- عامين هما أكثر مما يمكنك تخيله، فقط.. ابتعدي عني.

لكنها تعاند أكثر.. باقتراب وهمس دافئ وقلب نابض:

- لا.. أريد أن..

- ماذا!.. تريدين ماذا؟

وقاطع حماقتها بقسوة أصابعه حول ذقنها، وجذبة خشنة أنَّت لها، وباندفاع أرعن لم يلاحقه هذه المرة خرجت الكلمات من فمها بغباء لا نظير له:

- أريدك أنت.

وارتبكت.. هل ما سمعته بصوتها صحيح؟.. هل نطقتها بجرأة هكذا!..

لم يلاحظ ارتباكها، ظل ممسكًا بوجهها ولم يخفف من ضغطه عليه، يتأملها دون رؤية جيدة.. وبلحظة هي الأضعف، الأكثر احتياجًا وخوفٌ من ماضٍ ينهش روحه المغتربة في عالم مجهول ورغم مقاومة فرضها على نفسه.. سقط بدمدمة مكتومة:

- اللعنة ربما.. أنتِ ليس لديك أدنى فكرة عما تفعلينه!

ونال من شفتيها، وبلهفة لم يتوقعها ولم تفكر هي بها بادلته القبلة كأنها فقط كانت بانتظار خطوته.. وبعد تيه طال وغياب احتاجه بين ذراعيها واجتاحها في أحضانه، وهبة حاتمية الكرم لم تبخل بها عليه.. أصبحت ملكه!

دقائق تفكير غاص فيها قبل أن يتمتم:

- هل كان واحدًا أم أكثر!

فهمت سؤاله، ورأسها مستريح فوق كتفه.. ردت بتمتمة مشابهة وإن خالطها حنق:

- واحدًا فقط.. لستُ عاهرة آمر.

لم يأبه لاستنكارها بل أكمل تحقيقه المفصل ببرود:

- من هو؟!

طافت عيناها بظلام الغرفة حائرة.. مترددة، خائفة قبل أن تقرر الجواب:

- ذاك الذي قتلته عندما التقينا لأول مرة..

انعقد حاجباه وهدر صدره بغضب ظاهر، أبعدها عنه يناظرها بسخط، وبكفها أراحت صدره بتربيتة لم يبالِ بها:

- ولماذا أنا الآن!!

ودت لو رأت انفعال عينيه اللتين تعشقهما، بلحظات الهدوء والجنون والعواصف.. لحظات التركيز والقسوة والعنف.. ولحظات الشرود والتيه والبعد:

- ألا تشعر بي؟.. ألا يبدو هذا واضحًا!

انعقد حاجباه بينما هي تكمل بهمس بان فيه العشق جليًا:

- أنا أحـ...

- لا تنطقيها ريما.. بل لا تحاولي.. أبدًا.

ووضع كفه بأكملها فوق شفتيها ولهجته كانت عنيفة..

وكما أخرسها يومها، أخرسها في كل مرة تالية حاولت نطقها، وتوالت السنون.. ورغم ابتعاده عنها بعد تلك الليلة حتى وفاة أبيها إثر أزمة قلبية مفاجئة وتوليها هي لشئون الترتيب مع عملاء النمر؛ فقد احتفظت بتلك المشاعر.. بل هي نمت، تعاظمت بداخلها حتى امتلكت عليها كيانها كله..

والخلاص منها لم يعد له من سبيل، إلا واحدًا.. الموت!

سحبها من ذكرياتها رنين هاتفها برسالة، ابتسمت شاردة عندما لمحت اسم المرسل، فتحتها بعد تنهيدة حارة مسحت معها أثر دموعها الجافة فوق وجنتيها:

"مذاق القهوة أصبح مختلفًا.. لا يشبه تلك التي تناولتها معكِ، أطمع في دعوة أخرى.. على حسابي هذه المرة.. أوربما نجعلها عشاءً؟"

وعلامة استفهام كان ردها عليها مقتضبًا، وهي تجد فيه مهربًا من جنون أفكارها:

"نعم.. سأنتظرك في الثامنة.. تعرف العنوان"

لكن..

ما جدوى مخدر لن يدوم مفعوله إلا بضع سويعات يهاجمها بعدها عذابها من جديد!

***

لكل شيطان جانب مظلم.. لا يمسسه نور!

لا يطأ عتباته إنسي، ولا يخطو بأدغاله إلا يائس بائس خاسر..

اثنتان أوقعهما ذاك الحظ العاثر في طريقه، واحدة تثبت وجهة نظر وأخرى تنفيها وبعنف يجعله يحارب بجنون قارب الهوس ليفند دلائلها ويصل منها لمبتغاه!

وثالثة لا تخصه لكنها تمكنت ممن ظنه الأقوى، أخضعته حتى لو رفض الاعتراف، واستسلم لملكيتها مهما أنكر أو إدعى هو التسلط والسيطرة..

وبلحظة ضعف خانقة لم يعتد المرور بها ذهب إليها، أفضى بمكنون ظل حبيس صدره لسنوات، بهذيان ملأ عينيها بنظرة لن ينساها.. ولن يحبها أبدًا، نظرة شفقة!

وها هو قد عاد، عاد كما كان.. وربما أقسى!

خطا إلى مكتبها وعطر Guilty Black يسبقه ليداعب حواسها، يشعرها بحضور رجل لا يظهر فقط الخطورة بل هو يمتلكها..

يخبرها -بينما هو واقف بنظرة غامضة لم ترها يتأملها- أنه لا يأبه لأي شيء، ليس لديه ما يخسره بل يسعى خلف كل مكسب ولو غير متاح..

هو يضع حياته على الحافة ولا ينتظر التالي!

بعوينات شمسية سوداء داكنة تخفي نصف ملامحه، وملابس توازي قتامتها: يرتكن لجدار مجاور لباب مكتبها باسترخاء لامبالي، نظرت إليه صامتة لثوان لا ترى ما خلف الزجاج المعتم:

- كنتُ أتساءل متى ستظهر ثانية!

وبادرت بغير المتوقع، وكاد يسخر.. بل لمَ كاد!.. سيفعلها:

- اشتقتِ إليّ يا ذهبية؟

بتساؤل يهزأ منها وبجدية لن تتركه يخرجها عن طورها:

- لا ترتفع بسقف طموحاتك سيد غيث.

تحرك مقتربًا، أزاح منظاره فوق خصلاته الداكنة ولمعت عيناه بوقاحته المعتادة:

- طموحاتي ليس لها سقف عزيزتي.. بل تتخطى براءة أفكارك الطفولية بالكثير.

وتجول فوق جسدها رغم الرداء المحتشم بتأمل فاضح، واللعنة ستفقد تماسكها وهي من أرادت حديثًا جديًا:

- توقف عن نرجسيتك قليلًا، وانتبه للأمور الهامة.

- نرجسية!!

برفعة حاجب ساخرة تثبت عليها جهلًا ربما:

- لا كارما، أنا لستُ نرجسيًا على الإطلاق..

لوت شفتيها ببداية سخط، ستواجه وليكن ما يكون رغم جرأته التي تصدها وتكممها في كل مرة:

- حقًا!.. وماذا عن سمعتك كدون جوان!!.. كثرة النساء من حولك كقمصان تغيرها بعد أن تمل لونها..

وضحك!!

لقد ضحك بالفعل، قهقهة رجولية خشنة لم تسمعها من قبل، لم تمر على أذنيها..

ولم تدرِ هل اندهاشها كان لتلك الدغدغة التي شعرت بها كأنها تريد مبادلته الضحكة ببلاهة، أو لأنه يضحك دون سبب فعلي!

اقترب خطوة، جمدت في مكانها بصلابة وافتعال قوة، وتحولت القهقهة لبسمة ماكرة، وانطلق يشرح موضحًا بتبسيط كأنما هي طالبة غبية لدى أستاذ عبقري:

- أنا حتى لا أشبه دون جوان في شيء صغيرتي..

ثم مال برأسه غامزًا بعبث لا يليق بسواه:

- لكن يمكنك أن تشبهيني بكازانوفا..

ومط شفتيه بغرور مستحق:

- رغم وسامتي الواضحة.

- وما الفارق؟.. كلكم تتلاعبون بالنساء كالدمى لأجل أغراض...

ولهثت بحمرة خجل وسكوت وانحناء رأس.. هربت من عينيه فأحاطها بنظراته رغمًا عنه:

- من فضلك.. لا تقولي أغراض دنيئة!!

ساخطة هي ولن ترد، وعاد هو يضحك منها.. بعدها خطوة أخرى أقرب وتحكم بنبرته تلذذ:

- دون جوان عزيزتي كارما يهجر امرأته عندما يصل لمبتغاه، لا يهمه العدد ولا حتى الخيانة..

عقدت حاجبيها ودار هو حولها:

- أما كازانوفا.. فهو يهجر في حالة واحدة فقط، قبلها هو مخلص ووديع للغاية!

نطقها ببراءة، وعندما واجهها كانت بعينيها نظرة مستفهمة مستنكرة تمخض لها ثغره عن بسمة ذئبية:

- أن تسقط غانيته في حبه!

وارتعشت لقسوة لهجته وتلك الخشونة التي نطق بها أحرفه رغم الابتسامة، بل غلظة جافة، ولتتلاهى عن تلك القبضة التي أطاحت بثباتها سخرت منه:

- أتظن نفسك مثاليًا سيد غيث!

- بلى ونعم وأجل كارما..

جوابه كان أكثر سخرية حتى لو أظهر إقتناعه به، فالتفتت بعيدًا تنبش الذكرى بعبثية لا تملك كل خيوطها:

- والمثالي يقاطع أمه حتى تكاد تموت كمدًا!!

وعادت تحيي الشياطين من بين الرماد الذي لم ينطفئ بعد، اندفع نحوها فتراجعت بشهقة:

- هذا اللقب كثير عليها، لا تتدخلي فيما تجهلينه بغباء..

وانتقل إليها غضبه، ذلك الفاسد يتظاهر بما ليس فيه، ويتكلم عن من لا يرقى إليها:

- انظروا من يتشدق بالحديث عن المثالية!!.. القديس.

وأمام هجومها صمت واستمرت هي:

- حتى لو أخطأت، لاتزال أمك.. لاتزال تستحق وجودك، وتحتاجه، لاتزال تدين لها بذلك الوجود من الأساس، هي من...

- بلا بلا بلا.. سخافات!

مقاطعة حادة لاذعة شبه مهتاجة، تنطلق من نظراته شرارات مستعرة، وهو يفقد آخر ثبات انفعالي يملكه:

- تريدين أن تعرفي ما الذي فعلته لتستحق بُغضي!!

والكلمة كانت قاسية قدر انفعال عينيه الداكنتين بظلمة تثير في نفسها الرهبة، مال إليها بدنو طفيف ومن بين أسنانه همس بلهيب وصلتها حرارته سافرة عبر أحرفه:

- هي خائنة!

تفرق جفناها حتى حدقتاها ملأتا بؤبؤيها بانشداه، الذعر تمكن من ملامحها وجانب فمه يلتوي بسخرية قاتمة وتلك الحلقة الذهبية بمقلتيها تعاند بسرقة نظراته:

- وليست مرة.. بل مرات ومرات..

وتحول انفعاله لبداية جنون، علت نبرته وتهدجت للحظة قبل تماسُك يجيده بحرفية:

- حتى وقعت عيناي على خيانتها..

ثم اقترب أكثروتيبس جسدها بل وكيانها كله أمام انحناءته عند أذنها:

- في فراش أبي.

وهذه المرة تحركت، تراجعت عدة خطوات بعدها اصطدمت بجدار بارد استندت إليه واهنة، تكمم شفتيها المرتجفتين بكفها وعيناها ترفضان، تستنكران، تعارضان وتسبانه بأقذع سباب لا يمكن للسانها نطقه، رأسها تهتز دون تصديق ونشيج تسلل يحمل صوتها المتحشرج الخفيض:

- أنت تكذب!

وكانت تعلم أنه لا يفعل!..

هذا الألم بنبرته، القسوة، الكراهية، والغضب.. لكنها تبرر لنفسها وفقط!

ابتسم هازئًا، مد يده في جيب سترته الجلدية وأخرج لفافة تبغ أشعلها ببطء يحرق أعصابها خلاله قبل أن ينفث دخانه ويؤكد ما تشعر به كأنما ينظر داخلها:

- تعلمين أنني لا أفعل..

وقست نظرته ثانية كما لهجته ليقترح:

- يمكنك سؤالها بنفسك.. ولن تملك القدرة على الكذب!

وبقدر ما أرادت الاستجابة لاقتراحه، بقدر ما رغبت في الفرار من المكان، الاختباء وحيدة.. والاستسلام لنوبة ذعر طفولية ودمعات أحرقت جفنيها دون أن تستطيع تحريرها في مواجهة تفحص عينيه!

لقد حطم ذلك الشيطان ببساطة، بكلمة، بعنف شرس..

مثال قدوتها الذي تتطلع إليه بكل حب واحترام.

***

نغمات هادئة لمعزوفة أنيقة لا يمل من تكرارها أبدًا، تنهل منها أذناه وحده عبر سماعات دقيقة، وكما هي "سوناتا ضوء القمر" لبيتهوفن.. كان القمر يلقي فوقه بضياء خجول يتمم شاعرية الصورة!

شاعرية اقتحمها بلمسته الخاصة وإن كان يبغضها، من موقعه فوق مبنىً ما يقابل منزل هدفه الجديد!!

وببندقية بعيدة المدى لا يتعامل معها إلا بأضيق الحدود، ثبتها في موقع مناسب.. أضاف لها كاتم الصوت الخاص والمنظار المقرب..

تحرك بالفوهة باحثًا عن النافذة المطلوبة..

سدد بإحكام..

سحب دفقة من هواء بارد وسجنها بصدره..

أغمض إحدى عينيه وركزت الثانية على النائم بفراشه وسط ظلام اخترقته أشعة الرؤية تحت الحمراء..

وبصمت ودقة تبلغ حد الإتقان ضغطت سبابته الزناد..

انتفاضة طفيفة لمحها مرت بجسد الهدف قبل أن يخمد تمامًا، وابتسم بشراسة..

لملم معداته، وبينما يغادر كانت نفسه ترحب بإلهاء ممتع يبث في روحه القوة.. يستعيد به السيطرة..

ويملك السُلطة الوحيدة التي لا يوازي اشتهائها بنفسه أخرى..

سُلطة شيطان الموت!

(١٤)

الماضي غرف مغلقة على حرائق بالية

"عبده خال"

***

البشر غارقون في المتناقضات بطبيعتهم..

يكيلون جُل الأمور بمكيالين، أحدهما حينما يوافق الأمر هواهم، والآخر عندما يخالفه!.. ولكل موقف منظور محدد لا يخرجون عنه، ولا يرون إلا من خلاله.. مفهوم يخص كل منهم، ويميز طريقته في معالجة الأمور والتعاطي مع مرارة الحياة اليومية..

والذكر خلاياه متناقضة..

أفكاره متنافرة..

ورغباته موزعة؛ فقط ربما ليس بتساوٍ.. بين ما يريد حقيقة، وما يجب فعله واقعًا!

الرجل عندما يخاف.. يرفض، يعاند، بل أحيانًا ينكر ويستنكر ببدايات سخرية!..

وإن كان شجاعًا يواجه.. لكن لو كان مصدر خوفه هو صور ماضية تتكرر في الذاكرة رغمًا عنه حد الوجع!!.. فهو يغضب..

والتعامل مع غضب رجل خائف!!.. مثير للرعب.. فحينها قد ينقلب على عقبيه هاربًا..

هو لا يمتلك ضميرًا تيقظ في اللحظة الأخيرة ليؤنبه.. بل هو يستدعي آخر صورة لها من خياله وحسب، نظرتها، زمة شفتيها، ضيقها وسخطها.. ويتوقف!

ما بينهما ليس له علاقة بكل تلك الألاعيب النفسية التي لا يفقه عنها شيئًا، هو يستغل أنوثتها وهي تستمتع برجولته.. وانتهى؛ ذاك كان الاتفاق.. وأصبح العقد غير المعلن، وعلاقة في الظل لا يعلم عنها أحد!

وبحيرة تثير المزيد من نيران قلبه؛ تعتصره أفكاره.. لم يعتد أن يكون مع اثنتين بذات الوقت!.. بل لا يحب، لا يريد.. يأبى وبعنف، وفي هاته اللحظة يبغي تيهًا وضياعًا لن يجده سوى بين أحضان امرأة تشغل باله عن امرأة أخرى..

ويالها من مفارقة!

فبين ذراعي أنثى.. يولد الرجل ويموت..

لكن "هو" له منظوره الخاص كما لها "هي" حتى وإن تضادت وجهتا النظر، هي ترى نفسها اكتماله، لا ملجأ ولا مُذكر يمتلكه إلا دفئها.. تظن وبغباء جيناتها؛ أنه يؤمن بما تؤمن به!

وعندما يفاجئها واقعها بخطأ الاعتقاد.. تدخل في مرحلة صدمة، يليها كسر، وتتتابع بقية المراحل بترتيب متفاوت من واحدة لتالية لكنها نفس النهاية.. فقدان إحساس الأمان.

أما هو.. فبضيق أفق واتساع هوة شهوات.. يراها أمًا تلبي ضعف نفسه لحنانها، زوجة تشبع فراشه، وحبيبة –قد تكون هي الزوجة- تملأه حد الاكتفاء الذاتي بنظرته لنفسه أنه لا قبله ولا بعده في دنياها.. أوربما على وجه البسيطة ككل!

وخارج إطارالأنثى التقليدي بحياة كل ذكر، بعيدًا عن تلك الدائرة الأزلية.. توجد الصديقة!

في لحظة ما قرر أن يضعها بها، مرتبة لم تحُز عليها امرأة في حياته من قبل، صديقة بمواصفات فريدة، لن يفرغ معها أو فيها غضبه فقط.. بل ربما يركن لصدرها فيغوص في دفئه برأسه ويغمض عينيه.. يشكو بصمت عن أنين بسجن القلب ولا حرية له..

يستعيد ذكرى لم يمحُها عقد من حساب الزمن، ولم يجبُرها ما تلاها من ألم!

فرق جفنيه بصعوبة على مداعبة أناملها لخصلاته بحنو رغم حاجته إليه إلا أنه منح نفسه ضيقًا.. يخشى أن تخل ببنود اتفاقهما، فتجبره على التراجع، الخروج والابتعاد وهو في أمس الحاجة لوجودها..

هل تخبره نفسه أنه ليس من السهل استبدالها!!

هل هي في حياته.. استثنائية!!

ربما نعم، وربما لا.. لكنه يجد معها راحته، وخارج حدود هذه اللحظة لن يفكر، ولن يترك عقله في خضم صراع مرهق لا طائل من ورائه..

تحرك بهدوء يرفع وجهه إليها، قابلته بسمتها:

- لأول مرة تنام هنا.. وبين ذراعي.

كان تنبيهًا لما جد بينهما، ولم يكترث!..

ما به أقوى من فراق لأنها غيرت قوانين اللعبة، أو هو غيرها معها، اندس قربها أكثر، أحاطها بذراعه الطليق حتى أنَّت بخفوت، وحبس أنفاسه يود حتى لو التحم بها.. لا، غادر الدنيا ليكون جزءً منها وما بعد ذلك سيكون هي.. ويتلاشى هو!

أحاديث فكره المشتتة تعاظم لها ذلك الإنهاك الذي يتسلل لخلاياه فعاد يبتعد، يرى في عينيها دهشة غلبها بقبلة وكفه يحيط بوجهها يجبرها على الثبات أمامه:

- كنتُ مرهقًا..

ولوى شفتيه عابثًا، حتى لو المبرر مكذوب.. عائدًا لمن فقده قبل ساعات، بعد مواجهة لم يُرِدها، على الأقل بهذا التوقيت:

- لكن السؤال.. لمَ أيقظتني؟!

لمعة العطف بمقلتيها أخبرته أنها لم تتعمد، حتى البسمة الرقيقة التي علت ثغرها:

- لم أقصد ذلك، كنت أداعب شعرك فحسب.

اعتدل قليلًا ووازت نظرة المكر بعينيه أنامله بخصلاتها:

- حسنًا.. لكن لفعلتك ضريبة، وإن كانت دون قصد..

وجذبها بين ذراعيه هو هذه المرة!!

هي تُعتبر خمره المسكر ولو لم يدُم تأثيره، هي راحة مؤقتة، وغياب قصير الأمد.. لكن الاحتياج يبرر أي ذريعة يتشبث بها حتى الوصول للمنتهى، لغاية لا يعلل أسبابها ولا وسيلتها سواه..

ورغم غضبها السابق منه، خشونته غير المستساغة أو المقبولة، إهانته التي مررتها برغبتها كحدث لن تدعه يتكرر!.. فهي تنسى نفسها معه..

والدافع الأوحد سرها الخاص الذي لم تخبر به إلا شقيقها، سرًا لا تنوي أن يزداد عدد العالمين به خارج تلك الدائرة الضيقة، هي و"باسل" فقط..

أنها تحبه، وكفى!

***

الهروب ليس دومًا هو أفضل وسيلة..

المواجهة أحيانًا قد تكون الحل الأمثل، حتى لو كنتَ ستواجه نفسك وحسب.. حتى ولو كانت حرب النفس تلك هي الأقسى والأكثر إثارة للفزعِ لكيانك المهزوز كله!

حتى لو ظننت أن جرحك التئم، وما بقي منه هو محض ندبة.. لها أثر؛ لكنها لا تؤلم!

وتباغتك أوجاعك لتلقي بوجهك إثمًا لم تتخلص منه ولن تفعل!

إثمًا حمله خافقك المثقل بكثرة أعبائه حتى ناء بها وانثنى ولا غيرك يرفعها عنه، أو يعينك فيها.. إثمًا لم يكن لك، لكن شاءت الصدفة واختار القدر أن تكون حاضرًا لتشهد بكل جوارحك على اقترافه..

يقولون أن تفاصيل الذكرى تصبح مبهمة بعد حين.. لكن ماذا عن تفاصيل الألم!!

تفاصيل تسحبنا عنوة نحو ماضٍ غادرناه بقسوة، تتجسد في رؤيانا حد واقع ملموس، تفاصيل أعادته لجسد ذلك الفتى الصغير الذي خطا نحو عتبات مراهقته بجموح طائش أشبه به كثيرًا، وكان مدلل أبيه.. وأمه!

فتىً سيبلغ من العمر سبعة عشر عامًا بعد أيام، تركه والديه ليبيت بمنزل عمه مع أولاده فهو وحيد أبويه ويفتقد الصحبة، والدافع المستغَل انشغال الأب بالعمل حتى وقت متأخر وسيليه سفر وعده أنه سيعود منه بهديته التي يتمناها خاصة وقد اقتربت امتحاناته.. ووالده يريده طبيبًا يشار له بالبنان ولأجله رضخ..

وللقدر مشيئة مختلفة، تعاندنا بمصادمات فوق الاحتمال مهما ادعينا القوة أو حتى ظننا أننا نمتلكها.. لذلك فلأجل غرض ينقصه من منزله عاد..

والعودة حملت له مفاجأة تخطت حد التوقع أو حتى الفكر!

بعد عدة خطوات، ومع علمه بوجود والده في عمله وصلته أصوات غامضة.. ربما ليست غامضة إلى درجة الجهل لكن الصدمة شلت عقله، ومع اقترابه من غرفة نوم والديه أصبحت أكثر وضوحًا، ميز أحدها لوالدته، والثاني...!

تجمد خلف الباب لدقائق، تواترت لأذنيه كلمات لم يعِ معظمها.. لكنه في النهاية نال وسام الشجاعة مع خوف وليد تحداه حد مد يده للمقبض، إدارته بهدوء بطيء.. وفتحة تسمح برؤية الداخل، أو حتى لقاء نظرات..

بين الفتى الذي تحطمت أسوته قبالة عينيه في لحظة.. وبين الأسوة التي تيبس كيانها كله وهي ترى ابنها يطل عليها بحيرة.. بلا فهم.. ودون إدراك كلي..

بينما تغترف من عشق محرم..

بين ذراعي رجل آخر غير أبيه!

تراجع بسرعة حد تعثره وسقوطه أرضًا بمهانة، حد دمع عاند الأجفان وتحدى المقل، حد انهيار ونشيج صامت لم يعبر حدود الشفاه..

لحد هشَّم القلب وحوله لشظايا بددها الوجع وبعثرها في الأركان..

ولأن الفؤاد المكسور جارح حتى لو جُمِعت أشلاؤه معًا بصورة مشروخة؛ فقد صرخ فيها وهي تقترب.. يأمرها بالتوقف، بالابتعاد.. يتراجع للخلف دون أن ينهض كأنما لمستها طاعون سيقتل ما تبقى منه.. ما بقي في روحه من حياة..

وانهارت وطالبته بتفهم، وكل ما أراده في هذه اللحظة؛ هو القتل!

بتشتت نهض، بتيه هرب.. والقرار كان اللاعودة غاضًا البصر عن الثمن..

لكن أسفل منزله لم يستطع الرحيل، مكث على سور أسمنتي عبر الشارع، دموع ساخنة تحرق عينيه، صامتة تلهب وجنتيه.. والخافق الذي امتلأ بسواد مفاجئ.. باغته خوف!

ماذا لو عاد أبيه!

وذلك الآخر لم يرحل بعد!

بفكر فتىً ليس بالرجل ليفهم أو الطفل ليتغابى تشبع كيانه بهلع، واتخذ من الانتظار سبيلًا، وكل ما يفترس روحه ونفسه هو منع.. لو عاد والده، سيمنعه من الصعود، لا يدري كيف أو بأي وسيلة.. لكنه سيحاول فالهدف أسمى!

وشردت عينه الباكية للحظات، لحظات بعدما أفاق منها وجد الأب على بوابة المنزل يستعد لحتمية قدر كالتي مر بها قبل قليل، وركض إليه..

ثم أوقفه، حاول ردعه، وللمهزلة المضحكة المبكية.. يبعده عنها كأنما يحميها لكن الغاية كانت ذلك الواقف بجواره متسائلًا حائرًا ولا سبب..

وتنوعت الوسائل والتتمة واحدة!

بين شك الأب غير المدرك.. ورعب الابن العالم بما اختفى خلف بابها المغلق تحول المنع للاشيء، وانفتح على مصراعيه ليواجههما معًا!..

هي معه..

والحجة مواساة عقب هروب صغيرها، لاذ ابنها بفرار عندما وقعت عيناه على تلبسها بخطيئة انتهت بعدها الدنيا، دنياها ودنياه.. بل توقف معها العالم،

فسقطت هي بصحبة عشيق يربت ويحنو ويبرر وأعين تناظر بصمت مهيب لا عذر له!

فالأب لم تنل منه ثورة، لم يضطرم به سعير غضب، لم يندفع نحو عنقها يخنق أنفاسها، بل ما أظهره هو انكسار.. مرارة وصلته عبر قبضته المتمسكة بيده، وصوت متحشرج أجبره بصعوبة على الخروج من حنجرته.. بلفظ فراق..

طلاق!

وعاد من حيث أتى مع ابنهما، يصاحبه صراخها، بكائها، انهيارها لكن ما همه في هاته اللحظة كان الوالد الممتهن عرضه وشرفه.. ورجولته.

على عتبة المنزل من الخارج ترنح الأب كأنما أثمله الوجع.. كفه غطي جانب صدره، وقدماه تهاويتا أسفل ثقل جسده..

سبَّه ضميره الصغير وتمسك به بجنون.. لكن النهاية كانت قدرية.. على همسة واهنة باسمه، نظرة تشيعه برحيل أبدي، وحزن انحفر بذراته كان يغمر ملامح الراقد بين ذراعيه فوق أرض الشارع الصلبة بعدما رأى الكارثة..

هل يمكن أن يفقد الرجل حياته لأجل امرأة وقع في غرامها!!.. بسببها؟.. بقهر فؤاد عشقها ولم تكن أهلًا لذاك العشق!

هل يجعل الحب المرء ضعيفًا عرضة للخيبات والإخفاقات المستمرة!

بل هل يترك للمعشوق الحبل على غاربه فيتلاعب بقلبه كيفما شاء ومتى شاء!

أسئلة كثيرة لم يخرج منها بجواب صريح فكرهها وكره من بعثها في كيانه التائه.. من طعنه بسيف الحيرة والنصل ثالم بارد قتله ببطء واحتفظ له بالرمق الأخير يتوجع به..

بعدها.. كما بدأ الأمر فجأة؛ انتهى..

دُفن الأب، وحضرت الأم دون حياء لجنازته، وأبى منها اقتراب.. أقام بمنزل عمه حتى مرت أيام وكانت هناك وصية.. وصية نال بها ميراث أبيه بالكامل، ودفتر مذكرات مهمل سقط سهوًا بين يديه..

وأتت الصدمة الأكبر..

خيانة أمه لم تكن الأولى، بل سبقتها أخرى ونالت عنها عفوًا فوق طاقة البشر..

لقد سامح وغفر ومنح فرصة لم تُجِد استغلالها.. فالمُعوج لا ينصلح حاله إلا بضربة قاصمة.. قصمت ظهره هو قبل أي أحد.. ورمى وطأتها على والديه، نعم.. كلاهما!

المرأة.. أنثاه الأولى.. التي شوهت كل أنثى بعينيه..

والرجل.. الذي خضع لأجل حب لا قيمة له.. فأضحى هو المخادع الذي يرى في المشاعر إثم!

ولأكثر من عامين رفض العودة إليها، حتى مع محاولات عمه الذي لا يدرك أبعاد ما يمر به ابن أخيه؛ رفض لقائها، قطع كل صلة بها رغم أنها لم تيأس، ورغم أن قراره الوحيد كان بناءً على رغبة قلب..

يريدها أن تموت بحسرتها عليه، كما مات والده متحسرًا على.. خائنة!

وحتى الآن لايزال يرتحل في متاهات تلك الدائرة المغلقة التي لا منفذ لها، يجوب طرقاتها بين آلامه، ماضيه، ذكرياته.. وهرب يبدو في كل يوم هو الأحل الأمثل.. والأسهل.

"أحضرت لك شطيرة!"

وتبعتها بتربيتة على كتفه نفضته من عالمه الأسود.. التفت إليها ببسمة أجاد رسمها:

- هذا الدلال قد أعتاد عليه.

منحته بسمتها بالمقابل وقلبها يتعلق به أكثر، ربما تكون غبية ككل أنثى أمام من تعشق؛ لكنها تعلم حدود موقفها المرسومة بدقة وتعارض الخروج عنها:

- يمكنني أن أدللك قليلًا.

ووضعت الطبق فوق سور الشرفة العريض، اندست بين ذراعيه فأحاطها ببساطة:

- ستبقى هنا الليلة حقًا!

رفع حاجبًا ساخرًا يغيظها:

- تريدين مني الرحيل؟

هزت رأسها بنفي، وعيناها تتشبثان بدُجنة عينيه، تتساءل وهو لا يمنح الجواب، حتى وإن كان قد غير تكنيك التعامل معها، فالتفاصيل تخصه هو:

- لم أعد جائعًا للطعام..

وأحنى رأسه يتناول شفتيها بتيه موجبه نسيان ينشده ولا تلامسه أطراف أنامله:

- بل إليك.

ثوان وأبعدته، حاوطته بنظرة عميقة مستفهمة فعقد حاجبيه، لوت فمها وقلبها يخبرها أنه ليس بخير:

- لا أريد أن أسأل بصراحة غيث، أعلم أنك لن تنطق بحرف؛ لكن..

وقاطعها يبحث عن صمت وبالمقاطعة يهبها فرصة لمراجعة ما انتوته:

- لكن ماذا!

أصابعها عادت تغوص في خصلاته برقة، وعقلها ينذرها في اللحظة الأخيرة حين راقبت نظرته؛ عن تدخل ربما ليس من حقها.. فقط ذلك الأحمق بين ضلوعها: تستعر نيران ألمه لأجله:

- لا شيء..

عقد حاجبيه وعلم أن الصورة أضحت كاملة!!

كانت ستخوض في لُجة أفكاره القاتمة وحينها لن تجد سوى الغرق، وتراجعت بآخر لحظة.. وبينما هو على حيرته عادت تجذبه، تبادرهي، وتخبره بدفء:

- يمكنك أن تنهل مني حتى تمام الشبع!

أبعد رأسه لثانية وصدره يهدر أسفل كفها:

- وإن لم أفعل!!.. ما الحل؟

ضحكت بغنج، هزت كتفيها دون تفسير والتفت عائدة لغرفتها تحت مراقبة عينيه..

وأضحى العقل يطالب بتسكين الفكر، والقلب يشجب وجعه المهيمن عليه، وكانت النفس حائرة.. نحو أنثى تثبت صحة معتقداته وتنفيها بذات الوقت!

***

عندما تسقط الأنثى في هوى رجل.. يتحول "هو" لعالم!

حتى وإن كان السقوط مؤلمًا، تتوجس منه لكن النفس لا ترتدع عن هاويته أبدًا..

هاوية لا قرار لها بل فقط تصبح المنتهى والمستقر والخاتمة التي زارت الحلم، ثم تسربت منه للواقع فاستبدلته بدعوى أمنية قابلة للتصديق وإن كانت يومًا ما خلف حُجُب المستحيل..

والتسلل مباح مادامت بعدها ستتمسك به، هي استخدمت حقها المشروع فقبضت عليه بكل قوة لديها، وعاشت معه فرحًا في قلبها..

وتأمَل، تخبر نفسها، وتدلل على شيء ما بداخله يفوق خيالها.. فهو يرفض الاعتراف، وبخجل فطري لن تكون البادئة.. حتى لو برهنت كامل جوارحه على ذاك الأمل نحوها..

وتظل تراقبه في صمت كعادتها كلما جاورته، ويداوم هو على منحها نظرات مبهمة بين كل حين وآخر.. يتمسك بكفها للحظات ثم يتركها ويبتسم..

أوقف السيارة أسفل منزلها، تأمل سكون المكان بعقدة جبين قبل أن تصله تمتمتها:

- أشكرك آمر على هذه الليلة.

استقر بعينيه فوق وجهها، لا يرى ملامحها في الضوء الباهت لكنه يرى ما بأعماقها، تلك الذبذبات المشحون بها ضيق المكان من حولهما تخبره وبوضوح أنها متوترة.. تتوقع ربما شيئًا ما، وابتسم بمكر يخالف توقعاتها:

- الشكر لكِ أنت غيمتي..

وتناول كفها والقبلة هذه المرة بباطنها:

- كانت من أجمل أوقاتي.

سحبتها وابتسمت.. هزت كتفيها بهمس غير مفهوم وغادرت السيارة وتبعها بنظراته حتى اختفت عبر باب المنزل، وانقلبت البسمة لضحكة خافتة متملكة تعلنه سيد الموقف وقتما يريد..

أدار المحرك استعدادًا للرحيل وكانت هديته لها هناك، لقد نسيتها!

وفهم فعلتها.. لقد تركتها ليذهب خلفها وهو لن يخيب ظنها ثانيةً بل سيستمتع بتلبية رغبتها، حملها وتبعها بهدوء منتشٍ، يستخرج من الصورة ما يناسب هواه، ويتصرف حسب معتقداته الخاصة..

وسمعها هي هناك بعد بضع درجات، تعافر ثورًا آدميا يصيح في وجهها:

- تزوجتِ!!.. ودون علمي يا ابنة عمي؟

سحبت ذراعها من تحكمه غير المسبب، بادلته الصياح بحدة واللهجة حانقة عنيفة:

- ومن أنت لآخذ إذنك؟.. لا تظن أن رغبتك السابقة في الزواج مني تمنحك الحق بالتدخل في حياتي كما تريد حسان!

وانعقد حاجباه.. هذا أيضًا كان يريد الزواج منها!

أكل في خطوات ما تبقى من الدرج ليجده يحاصرها قرب باب منزلها بجسده الضخم وإسودَّ الكون أمام ناظريه، بل تغطى بلون الدم وامتلأ صوته بغضب مجنون كأنما هو من قلب الجحيم:

- أبعد يديك عنها.. وإلا لن تستطيع إعادة وصلها بجسدك مرة أخرى!

وانتفض "حسان" كفأر مذعور مبتعدًا، يتأمل الظل القاتم الذي اقتحم الصورة، وعرفه على الفور..

رئيسها، زوجها.. لا يهم، الفارق أنه هنا يدافع عنها، وبنظرته أشهر سلاحًا أشعره أنه على وشك قتله بالفعل، تراجع باستهزاء مرتبك:

- ماذا!!.. ألا أستطيع تهنئة ابنة عمي؟

وكانت هي ترتجف، تعلقت حدقتاها به تناشده أمانه ويالها من نظرة حركت ذاك الجبل الذي يرقد بشموخ مكان خافقه، صعد الدرجات المتبقية.. دمدم من بين أسنانه:

- بلى.. لا تستطيع، ولا يمكنك حتى أن تنظر إليها.

والفأررفع كفيه مذعنًا بحركة لم يرتح لها، فكأنما يهادنه لينقض من زاوية أخرى وهذا ما لن يحدث بوجوده، راقب رحيل خطواته واستدار إليها يتابع لهاثها المتقطع:

- ستنتقلين من هذا المكان.

بأمرحازم، نبرته صارمة ولا جدال فيه:

- ماذا!.. بالطبع لا.. لن أترك منزلي لأجله، أنا لا أخافه.

واحتدمت بعينيه ألسنة النيران، فربما هي لا تخشاه لكنها ضعيفة بمقارنة صغيرة معه، ولو حدث لها شيء لن يكفيه امتصاص دمه قطرة قطرة.. لكنه لن ينتظرحتى يقع ذلك الشيء:

- هذا لا نقاش فيه سديم.. لن أتركك قرب هذا العلقة يومًا آخر.

وابتسمت!

تبًا لها.. ابتسمت فمحت غضبه بلحظة رغم خوف مجهول يخادع قلبه بتسليم يعانده هو بإباء، ورغمًا عنه بادلها البسمة بخفوت وهزة رأس يائسة:

- ماذا.. تبتسمين!!.. أعجبتك علقة؟

أومأت صامتة فتحول الحصار له هو، اقترب وتراجعت حتى اختفى المفر، بين جداروجسده الذي حاوطها فلم تعد ترى سواه من حولها:

- في الواقع تناسبه للغاية.. أما عن البسمة؛ فهي تناسبني أنا.. وهي أيضًا ملكي.

وتملك من شفتيها، بل من خلجاتها بالكلية، سيطر على أفكارها وصراع مشاعرها وقلبها الذي تنهد في شوقٍ أخجلها، وابتعد يتمتع بحمرتها الخجول، لكنه عاد لحديثه:

- في الغد ستنتقلين لمنزل جديد يناسبك.

- آمر!

- تخطئين مجددًا..

وعاد لثغرها باشتياق جديد، ولهثت تدير وجهها حياءً من نظرة غامضة اعتلت عينيه:

- لا تناقشيني سديم.. هذا قرار لا رجعة فيه.

- ماذا؟.. أهو أمر!!

- نعم.

بصلف وتجبر وتصميم أثار حنقها فتمردت:

- لا أوافق..

- يمكنني أن أقبلك حتى توافقين..

لاحقها بها كأنما هي رغبة حياة، وقصده تهديد.. وأخفت عينيها عنه باستنكار شهي أمتعه:

- يا إلهي!.. أنت لن تفعل، وهيا عد لمنزلك.

وركضت بهروب لم يكن متاحًا فقد تملك من مرفقها وأجبرها على استدارة:

- ستفعلين ما أقوله.

تهدل كتفاها بتذمر طفولي اقتنص منه لذة، وتبَسَم وهزت رأسها مذعنة رغم غضب ملامحها فعاد لشفتيها مرغمًا.. وعندما فارقهما ولم يبتعد كثيرًا، تمتمت وأنفاسه تطوقها:

- أنت.. أنت جريء للغاية..

وكانت تقصد وقاحته التي تستأثر بالدماء في وجنتيها، وترتفع بدقات قلبها حد الجنون، بل وقربه الذي أصبحت تتوق له بعناد قلب غرق فيه.. وهو كان يفهم نيتها الخفية فابتسم بمكر أكبر، طبع قبلة مطولة فوق جبينها ورحل!

هو فرض طاعة..

هي استجابت..

وبذلك سن أول قانون ملكية، أو.. الأهم!

***

لكل امرأة قانونها، ويوقن الرجل أن له الحق في تجاوز حدود ذلك القانون..

هي تسنها.. وهو يكسرها..

هي ترى أن من بديهيات حياتها قاعدة لا تسمح للآخرين بالمرور عبرها، والرجل يرى نفسه الاستثناء لها فيمر فوقها ضاربًا بتلك البديهية عرض الحائط..

حتى لو كان الأمر بحسن نية.. وحتى لو استسلمت هي باغتراب وقتي لن يتعدى تلك اللحظات!

دعوة العشاء تكررت.. مرة وثانية وثالثة ثم غداء، ويوم كامل وتوقفت عن العد، هو يتغلغل بتمهل مقنع بين مسامها، ورغم أن القلب مالكه واحد لم ولن يتغير؛ فهي أصبح إحساسها به مميزًا مغايرًا.. يهدهد أوجاع نفسها في وحدةْ وحشَتِها.

تخلل ظلمة أفكارها بلمسة خافتة من أنامله لكفها، نظرت إليه وواجهت تأمل عينيه المتفحص، بكل مرة يراها، يقابلها، يسمع نبرتها ويجالسها حتى لو قصر الوقت؛ يشعر باحتياجها له أكثر..

وبداخل كل ذكر.. أن تحتاجك امرأة، فتوفر لها الأمان؛ تلك نشوة نصر باهظة..

وهو لا يبحث عن النصر، بقدر ما يريد منحها ما تفتقده، والمنح لديه لا يتخذ صفة رسمية أو حتى صفة واقعية، بل هي تعوز وذاك العَوز يكفيه ليهب مما يحوز، ابتسم بهدوئه المعتاد:

- دومًا شاردة.

وبادلته البسمة بشبيهة خافتة يظللها شجن:

- ودومًا تجذبني من دوامتي.

قبض على يدها باحتواء دافئ يخبرها عن جهد يمكنه بذله:

- أود لو أمسك بدوائر تلك الدوامة فأنهيها لأجلك.

تعلقت عيناها بحنو عينيه:

- تريد راحتي!

- هدوء نفسك..

ومال عبر الطاولة بينهما يستند إليها بمرفق ذراعه الحرة:

- أريدك هادئة البال مرتاحة الخاطر..

وابتسمت مقرة بحقيقة رغم أنها لا تشكل معها فارقًا جللًا:

- أنت رجل نادر رافد..

- وأنت امرأة استثنائية ربما.. تحرك فيَّ ما لم تلمسه غيرها.

أخافها ما قال، بل أثار هلع نفسها!..

كلا.. لن تغرق معه في بحر لا شطآن له، ولا طوق نجاة من عواصف أمواجه بينما هي تائهة بالفعل في أعماق يَمٍ آخر، أغرقها وألقى بمرساتها لترتطم بقاعه وتستقر هناك دون عودة!

نهضت بتوتر تبحث عن عذر مقبول أو حتى غير مقبول فهي تسعى لفرار:

- عليَّ الذهاب الآن.. تركت بعض العمل بالمنزل وأحتاج لإنهائه قبل الغد..

تأمل تعجلها المباغت بدهشة أخفاها بمهارة، تبعها بصمت وعند بابها همس مودعًا:

- سأراكِ قريبًا.

وكما في كل مرة.. وعد جديد تنتظر الوفاء به، ثم تعود لقوقعة هروبها..

والتي هي نفسها ذات الحلقة اللانهائية، مكونة من غياب أحدهم، حضور غيره لملء الفراغ.. وضياع تتمسك بأذياله علَّها تنسى..

لكن النسيان كما تعلم؛ درب من دروب المستحيل..

فالشيطان الحبيب غارق في عالمه المستحدث، وسقطت هي من حساباته التي تدرك أنها ربما لم تشملها يومًا، إلا ككسر مركب لم تَرْقَ بمقامه المنزلة ليساوي بسطه!

(١٥)

أول علامات الحب؛ أن يشعر الرجل بالألم كأن المرأة التي أحبها كسرت له ضلعًا، وكل قديم في الحب هو قديم بمعني غير معقول، وكل جديد فيه هو جديد بمعني غير مفهوم..

فغير المعقول وغير المفهوم هو.. "الحب"!..

"الرافعي"

***

هناك مفاجآت تساوي مليون دولار كما يقولون.. وهناك مفاجآت تعادل عمرًا، ذكرى، تعلقًا ومشاعرًا نالها طرف ما باستحقاق.. ليأتي آخر ويهشم تلك الأحقية لألف قطعة ومعها قلبك في الطريق.. بل عقلك، ضميرك.. ومبادئك!

والمفاجآت كذلك ليست بالضرورة جيدة.. خاصة عندما تخالف التوقعات، أو تحيد بها عن خريطة حددنا طرقاتها باختيارنا المطلق.. والحر!

أما عنها فلم يكن الأمر معها محض مفاجأة؛ بل صدمة مباغتة ألجمتها، أجبرت عقلها على الدخول في حالة من الشلل المؤقت الطويل، وطعنت قلبها في العمق..

بقيت جامدة فوق فراشها، تستعيد كلماته حرفًا حرفًا، تحلل نبرته، ترى نظرة عينيه القاتمة المليئة بغلٍ صريح، قسوة حادة.. ووجع اختفى خلف واجهة لم تحجبه بالكامل!

"خائنة"

"مرات ومرات"

"حتى وقعت عيناي على خيانتها"

"في فراش أبي"

والتتمة:

"أنا لا أكذب".. و.. "يمكنك سؤالها!"

سالت من عينيها عبرات مقهورة عاجزة متحسرة، فلا هي تملك الجرأة على السؤال، ولا الفؤاد يتحمل السكوت عنه!.. والحيرة تعتصر روحها بغلظة تكاد بها تنتزعها من جسدها..

تحشرج صوتها بنحيب خافت، وتعانق جفناها هربًا من صورة، صورة تهاجم خيالها عن امرأة كانت هي الأم التي عوضت أخرى تركتها طفلة، امرأة انخدشت صورتها بإثم عظيم ليس من السهل تجاهله أو محوه.. أو حتى تناسيه.

"كارما!!"

بصوت أبيها الحنون وحمدًا لله لم تكن هي، بنبرته قلق استشعرته لكن لم تواتِها الفرصة لتجفيف الدمع الذي انهمر أكثر بوجوده ولا تدري لذلك سببًا:

- صغيرتي.. لماذا تبكين!!

رفعت وجهها إليه، وفي ذهب عينيها رأى طفلة ضائعة، خائفة، منزوية بركن وحيدة تبحث عن أمان، سكينة ولا تجدها!!..

جاورها فوق فراشها ومد إبهاميه يمسح وجهها برفق:

- ماذا بك يا ابنتي؟!.. طمئنيني.

ودت لو فعلت.. لكنها هي من تحتاج لتلك الطمأنينة التي يتوسلها والدها منها، فردت ساقيها ومدت يديها بعبثية عنيفة تجفف وجنتيها، لهاثها ارتفع وصوتها نشج بينما تلقي بسؤال يثقل الكاهل ولا مرد له:

- هل خانت أبيه؟!

وتوسعت حدقتا الرجل ذهولًا مستنكرًا، غاضبًا!!.. ذلك الفاسد الأحمق عديم الحياء والأخلاق.. فضح أمه!

نهض بسرعة يغلق بابها عليهما، عاد للجلوس بموضعه وهذه المرة رفع وجهها ليواجه ناظريها:

- ماذا قال لكِ ذلك الـ..

- لا تسبه أبي.. فقط أخبرني الحقيقة!.. أتوسلك أرح قلبي.

كانت مقاطعة لم يرها قادمة!.. هي تمنعه عن نعت ذلك العابث بما يستحق، هي تأثرت وهو لا يعلم بمَ أخبرها لذلك عليه لملمة جوانب القصة قبل أي شيء..

هو لن يبرر خطيئة..

بل فقط سيسعى لكشف الحقيقة كاملة حتى يخفف وقع الأمر على ابنته التائهة ونظراتها المحبطة..

- أخبريني أولًا.. ماذا قالك لكِ؟

ازدردت ريقها بعُسر، قصت عليه الموقف باختصار، وأغمض عينيه ألمًا.. الفتى لم يكذب، الفتى تعذب وهو خير من يدرك!.. لكن ابنته ليس لها من ذنب سوى؛ نواياها الطيبة!

وهو سحق تلك النوايا، دهسها بكل قسوة ممكنة ودون أن يأبه مقدار شعرة!

سحب نفسًا طويلًا عميقًا متمهلًا بقصد تجميع الفكر.. البداية كانت خيانة وموت أب والخاتمة!!

محاولة انتحار..

فاشلة دون تعمد!

منحنى الصراحة هو الأصدق، الأفضل، والأكثر احتياجًا في تلك الحظة مهما بلغت قسوته، لذا لم يكن من بُدٍ سوى اتخاذه وبكل وضوح ممكن، فالحقيقة انكشفت والستر تعرى، لكن الصورة مشوشة، مغبرة ينقصها شيء من.. تفاصيل!

تفاصيل تحكي قصة فتاة، حديثة عهد بأنوثة طاغية، فتنة لم تجلب لها كبنات جلدتها سوى كل ما هو مثير للألم، فتاة لم تعرف للترف سبيلًا، وعائلة لا تملك

من الدنيا سوى تلك الفتنة لتطفو بها لسطح الدنيا متمسكة بأذيال الثراء لو أمكن..

لكن الجميلة خالفت القواعد، وسقطت..

سقطت في الحب، أطبق فخه على قلبها وعلى الغِنى السلامة!..

فالحبيب شاب لايزال على أول طريق البداية، له أسرة يعولها بجوار دراسته، وعمل واثنان بعد انتهاء محاضرات جامعته.. كانت تصغره بأربعة أعوام، لذلك عندما تخرج هو كانت هي تخطو أولى خطواتها بمدخرات الأسرة البسيطة نحو كلية تناسب دخلهم الضئيل.

وبادر الفتى بطلب يدها، طارت من الفرحة.. بل ارتفعت كثيرًا وأتت السقطة الثانية برفض الأهل، لكن هذه المرة لم يكون السقوط ممتعًا، لم يخفق له القلب أو ترفرف له جناحات الفراشات في الخيال..

ومر عام.. الفاتنة تزداد فتنة، ويزداد خطابها، وهو يعمل ويكد ويتعب لأجل توفير ما يكفيه، ليعود لها من جديد.. حتى أتى آخر خاطب!

الغني، الوسيم، نبيل الأصل وحَسَنَ الخلق!

وهل ذاك يمكن أن ينال رفضًا؟.. قريب أحد أساتذتها ورآها صدفة أو ربما هو اختيار قدر أثناء زيارة لقريبه بكليتها.. وسقط هو هذه المرة صريع هواها، بل عشقها وللعشق ما من دواء..

سمه الزعاف ملأ عروقه، والترياق ألقوه في غياهب النسيان.. تملكته بكل ما فيه، ولم يتملك منها سوى جسد فاتن سلمته له بعقد زواج أرغمها أهلها عليه ولم تستطع إلا السباحة مع التيار لأن المقابل هو الغرق!

وكانت آخر نظرة تلاقت فيها عيناها بأعين الحبيب ليلة زفافها، قبل أن يصلها الخبر بعد أيام..

لقد غادر البلد كلها..

بحثًا عن عمل، أو هروبًا من انكسار قلب، أو حتى تحديًا ليكون الأقوى.. ومرت السنون، عشق الزوج يزداد، وفتورها يوازيه.. لكن منة الله التي خرجت بها من سجن زيجة تسحب طاقتها في كل لحظة..

هي ابنها الوحيد..

لم تنجب غيره، وربما ذاك أيضًا اختيار قدرها الذي حرمها الإنجاب بعده، ورغم مساندة أبيه لها، دعمه وحبه وتفانيه في إسعادها إلا أنها لم تسعد يومًا.. إلا مع صغيرها!

وسنون أخرى وبلغ فتاها الخامسة عشر من عمره، صبيًا يافعًا بالغ الوسامة كوالده لكنه يمتلك دُجنة عينيها وخصلاتها.. والمفاجأة الأخيرة التي ادخرها لها النصيب..

كانت عودة الحبيب!

محملًا بالمال والجاه والسلطان، لكنه لم يعد كما رحل.. لم يعد ذاك الخجول الذي يغرم في صمت، يتألم في صمت، ويهرب في صمت.. بل عاد لها، يطالب بها.. ويخبرها أنه على العهد..

اتهمته بالجنون، طردته، فرت منه كفرارها من مواجهة سبعٍ جائع، ودندن في أذنيها بقصائد عشق لا ينضب، أغواها بمشاعر قلب ظنته جف حد الموت، وحرك فيها السكون..

وكانت السقطة الثالثة..

لكنها هذه المرة بخطيئة، لا تغتفر.. ولا تنمحي!

بعدها ذهبت لزوجها باكية، تعترف بهوس.. بخوف.. برعب.. بجبن، وغباء!.. والعاشق المدله بهواها دون أن تقدر عشقه قدر ما يستحق: توجع، رحل، فارق.. ثم عاد، والدافع قلب أحمق يطالب بالصفح ويسعى للغفران..

قلب يعلم أنه لن ينال منها حبًا فالحبيب سحب كل رصيد متاح، لكن هو لديه فائضًا منه يكفيهما معًا ويفيض..

ومر عام آخر، تجاهلت فيه الحبيب العائد، طالبته بالفراق فيكفي انكسار الوقوع الأول.. بل هي بنفسها سافرت بصحبة ابنها وابتعدت، لكن عندما آن أوان العودة.. كانت الثمرة المحرمة قيد الانتظار!

وللذتها مذاق افتقاد.. والسقطة في هاته اللحظة.. محض اختيار!

تذوقتها، أدمنتها، قضمتها، وأنهتها وتنهل منها وتسأل: هل من مزيد.. ومع المزيد والمزيد أتت النهاية الحاسمة.. بالابن، والأم والعشيق.. وخطيئة بسبق إصرار وترصد!

ولسوء حظها مات الزوج الحنون المحب، مات بين يدي ابنه..

والفاعل والدافع هي!

تركها ابنها بلا رجعة، ومهما حاولت كانت تنال الصدود.. والحبيب ذاته رغم جُرمه في حقها لم يترك جانبها بعدها.. ولأن الضعف دومًا في وقته مبرر فقد خضعت وتزوجته!!

وما هو إلا شهر واحد.. وصدمته سيارة، ليغادر دنياها هو الآخر..

وبرحيله انتهت، فمن بقي لها!..

لا زوج يعشق تراب قدميها وتتفضل عليه بفتات نفسها، ولا ابن هو من أخرجه رحمها إلى الدنيا ولم يخرج غيره.. ولا حتى من هوت نفسها لحظة ميلاد العشق بدنياها!

وإسود الكون بأكمله لتنتهي بانتحار تم إنقاذها منه في آخر لحظة، وإيداعها بعدها لأكثر من عامين بمصحة نفسية كانت هي مكان لقائه بها..

رفعت رأسها المنكس إليه، تحاول هضم كل تلك الوقائع لكن جميع الدوافع ضد من تحب:

- أظن في هذه الفترة كنت قد تركت عملك كطبيب نفسي!

ابتسم وتفهم موقفها والحنو يملأ نبرته:

- كنت في زيارة لصديق، قص علي حالتها في استشارة ودية لأن رسالتي العلمية كانت تختص بما يشابهها، وطلبت رؤيتها.. ومن هناك بدأت قصتي أنا معها.

سألت بعينيها وعاد يسرد..

هو رجل خاض الكثير، تزوج من امرأة تخالف ديانته، لا تمت لموطنه بصلة، وزواجهما لم يدُم سوى عامين ونيف منحه القدر خلالهما ابنته.. وعند قرار الفراق اشترط الحصول عليها، ولم ترفض أمها..

ولأكثر من ستة أعوام رفض الزواج، وكرجل شرقي كان الأمر صعبًا، ومع محاولات أمه لدفعه للحصول على امرأة بحياته، ترتيب الزيجات وفراره المستمر منها قرر السفر وتغيير مهنته.. من طبيب نفسي بارع، إلى رجل أعمال يهتم بالتجارة والسوق مع شريكه والد صديقها ومديرًا لفرع شركة يمتلك منها النصف بدولة مجاورة..

وكبرت الابنة، وعاد بها لأرض الوطن.. فمهما راعاها بالخارج، لا مكان كأرضها التي تنتمي إليها ليؤسسها على طباع الشرق ودينها الذي غرس فيها أصوله منذ طفولتها..

ومع العودة حدث اللقاء.. وتكرر، وانتبهت هي له.. وكان هو فرصتها الثانية، وهي الصغيرة.. نبع الطهارة الذي تشبثت ببرائته.. حبل الله الذي امتد إليها بتوبة فاعتصمت به وآبت إليه تستغفره في كل حين..

ورغم أنه منحها الفرصة، فقد ظلت موضع اختبار لأكثر من عامين قبل أن يعرض عليها الزواج منذ ثماني سنوات هي عمر زواجهما..

وها هي ابنته الآن أتمت عامها الخامس والعشرون.. وزوجته تقترب من الخمسون، ورغم فقدانها لابنها ورفضه لها فهي لاتزال تأمل في عودته، وختم حديثه بطيبة تدركها من خصاله الأصيلة:

- أدرك أن الذنب عظيم طفلتي.. لكن من منا بلا خطيئة!.. من نحن لنعاقب ونحاسب والله القادر يغفر ويجبُر ويعفو!..

وربت على كفها بعطف:

- ألم يقل أن التائب من الذنب؛ كمن لا ذنب له!

واجهته بتيه أكبر، لم تعد تعلم ما الصحيح وما هو الخطأ!..

من تربت في كنفها طيلة سنوات مراهقتها لم تكن تلك القديسة التي ظنتها، فماضيها مليء بالآثام.. آثام عظيمة خارج حدود تحمل البشر!

ومن فكرت فيه أنه العابث الخاطئ؛ له دافعًا ليس بالهين ليصبح وحشًا يقتص من أمه، أول أنثى يتعرف عليها أي رجل.. في كل النساء!

حتى أبيها.. ذاك الطيب الذي حادثها بصدق، تحمل الكثير..

راودها شيطانها.. كيف استأمنها عليكِ؟.. هل رأى فيها ما لم يكن واضحًا لغيره؟.. لابنها؟.. ما الذي يدفعه لتقديم حياته كقربان بين يدي امرأة.. خائنة!

نفضت رأسها بعنف، لعنت ذلك الأرعن الذي زلزل ثباتها وهدم سلامها النفسي بفجوة سوداء واسعة نحو ماضٍ مؤلم تكاد تبتلعها.. وللأسف كانت هي من نبشته..

نهض أبيها يغادرها بكلمات أخيرة:

- أنا لا أبرر لها يا ابنتي.. هي أخطأت، وعوقبت بفقدان الزوج والابن وحتى الحبيب الذي دفعها في طريق الخطيئة.. بل كادت تنهي حياتها بنفسها ثم عادت.. عادت بمشيئة خالقها تحاول التمسك بأمل في التطهر من جريرتها.. تابت وآبت لربها، فمن أنا لأمنعها؟

وتركها تسترجع كل حرف، كل كلمة ونبضة وفكرة وشرود ضائع، تغادر غرفتها التي اعتكفت بها طيلة الليلة الماضية واليوم بأكمله وتتجه لمعتكفها هي..

وخلف بابها المفتوح وجدتها تحتضن صوره، تقبلها، تدمع وتبتسم وتقرأ ما كتب عنه.. وتعود لتبكي..

وتتمتم بما لا يصل لأذنيها ثم تنظر إلى السماء.. وتخشع بطلب وحيد تعرفه حق المعرفة.. كما تدرك أنه لن يتحقق!

***

قالوا أن: الحب في حياة المرأة تاريخ، وفي مدار الرجل.. حدث عابر!

وعشقه مذبحة.. لكن غرامها معارك متتابعة..

في مذبحته: النصر ثمنه حياة!

وفي معاركها قد تكون هناك هزائم تتلوها انتصارات حتى يعلن أحد طرفي الصراع..

الاستسلام!

والبحث عن النصر له ثمن.. ستدفعه، ستناضل حتى آخر رمق، وتصارع كل عقبة تعثرت بها وتهزم كل دروعه التي رفعها بوجهها..

هو رجل.. كأي رجل، له نقطة سيطرة ورغم ضعفها عنده فهي موجودة.. عليها فقط أن تجيد استغلالها، الضغط عليها بقوة كافية.. فتعيده إليها!

وما أفضل من رفع مستوى الإغواء للحد الأقصى، ليلة شرقية تحوله فيها لشهريار وتحيا هي دور شهرزاد.. لكنها لن تحكي الحكايا.. بل ستدلله..

برقصة!

عندما ترقص الأنثى؛ يتمايل خصرها.. قد تحمل قلب رجل في يمين.. ورغباته في يسار..

وبين ميل وآخر.. يضيع عقله في ثناياها.. في حناياها..

في أنوثة تعرضها هي بغنج خلقت منه..

تخطو خطوة للأمام، وينثني الخصر، وتتراجعها والإنثاء معكوس..

تشاغل بالعين والشفتين والتنهيدات.. تشير بأنملة، وترمش بالأهداب..

وملك اللحظة.. خصلات طويلة تتابع حركاتها بجنون حتى تنتهي بين أصابعه والجسد أسير قيده حتى الارتواء..

لكن.. هل رقصت فاتنات الشرق لتنلن من ذكورهن وتفرضن سيطرة!!

هل غازلت ليلى قيسها بهزة خصر منحوت؟.. هل أغوت بثينة جميل بتعرية صدر عامر!.. أو ربما عبلة تملكت من قلب العبسي بميل ورنة خَلْخال!

وحينها صرعت كل منهن المعشوق وبعثر هو عند قدميها الشعر!

هي لا تعلم ولا تهتم.. هي ستفعلها وحسب حتى لو كان هو قد رفضها من قبل.. فقط هذه المرة ستصل للحد الأعلى والأبعد!

سبقته إلى قصره دون دعوة أو سابق موعد..

تتحدى عناده، وتغازل اشتهائه لها الذي تدركه عن يقين..

بتحضيرات أنيقة تحولت غرفة معيشة الطابق الثاني لجلسة عربية، طنافس بألوان مبهجة، ستائر شرقية، وسائد توزعت بعشوائية أنيقة وطاولة منخفضة ستملأها بصنوفه المفضلة من الطعام وبخور ملأ بدخانه العَطِر أجواء المكان..

وكم بدت الدهشة على وجهه حين رأى ما قامت به؛ ثمينة للغاية، أما نظرته المتفحصة لجسدها ولذلك الثوب الملتصق بحناياها بأنوثة مهلكة فقد واجهتها بصمود.. هي رُغم طول علاقتهما، وما رأى كل منهما من الآخر؛ إلا أن عينيه تجبرانها دومًا على الهرب من لقاء مطَّولٍ بهما..

- ما هذا ريما؟!

جمود نبرته منح قلبها قلقًا ما، تجاهلته باقتراب متمهل وخطوات مغناج:

- ليلة شرقية لشهرياري.

لم يتحرك من موقعه، بل مد يديه في جيبي سرواله وزمة شفاهه انعقدت ببوادر غضب:

- أتعلمين ما هي مشكلتك ريما؟

تيبست قدماها قبل أن تدنو بما يكفي وعلا نظرتها تساؤلًا باهتًا جاوبه بعنجهية باردة:

- أنكِ لا تعلمين متى تتوقفين!

وضغط زناد الذكرى وأشعل فتيلها..

كلمة قالها لها من قبل بعد وفاة والدها، فبعد ليلتهما الأولى معًا غاب عنها وعندما عاد رفضها بشكل قاطع!..

لم يخبرها بسبب، لم يبرر أو حتى يوضح.. فقط امتنع عنها..

ولم يعد إليها إلا بعد وفاة والدها بعامين ربما أو أقل قليلًا، عامين لم تتوقف خلالهما عن الدوران حوله، مطاردته، والتعلق به.. وقتها أخبرها بجملته تلك لكن بعدها سحبها لفراشه، ولم يتوقف هو من حينها..

الآن.. بهاته اللحظة، ترى اختلافًا بمدلول كلماته أوجعها:

- تريدني أن أتوقف عن ماذا آمر!!

وتحركت نحوه ثانية تواجهه بصلابة:

- عن الحياة؟.. عن وجودك بحياتي؟.. عن سعيي للحفاظ على ذلك الوجود!

مال برأسه يقابل عينيها بدمعاتها الوليدة:

- عن محاولة إغوائي حين لا أريد.. كما في كل مرة، تسعين إلي، لكن احزري ماذا!

وقست حروفه بموازاة نبرته وحركة الشفاه:

- هذه المرة.. لا سقوط.

صرخت بجنون لحظي تمكن منها دون وعي:

- لماذا آمر؟!.. لماذا هي؟.. ما بها!!

ودارت حول نفسها بعشوائية حانقة:

- تعجبك متعة الصيد!

وتحدت عيناه بشراسة أفعى:

- وماذا بعدها!

وعادت تصيح بهوس وتمكن من نبرتها ضعف:

- لقد تزوجتها آمر.. تزوجتها هي!!

كل استنكار الكون لم يكن يكفيها، وشرد عنها.. ربما للحظة تاهت هي فيها قبل قليل بعد علاقتهما الأولى!!

ففاتنته لم تكن تعلم أن أبيها كان هو من رفض زواجهما، عندما انطلق إليه في اليوم التالي أثناء تمرينه الصباحي المعتاد على التصويب رغم أنه لا يمارس عملًا يتطلبه، بدا بهيبته ورقعته الجلدية وعينه الواحدة الثابتة على نظرة تغوص في أعماقك وتثير بها رجفة لا مدلول لها؛ شامخًا صلبًا.. مثيرًا للرعب، لكن ليس هو!

طلب يدها والجواب كان صمتًا لم يدُم طويلًا، أتبعه الرجل برفع سلاحه ليواجه قلب الهدف، وبتركيز قصير الأمد أطلق وأصاب وابتسم بنشوة التفت بعدها إليه بحديث لم يدرك مغزاه:

"كنت أعمل لجانب الخير كما يقولون.. أو دعنا نسميه جانب القانون كما عرفت، أُصبت إصابة عمل.. نلت ميدالية الشرف، مكافأة مادية مغرية، والمفاجاة أحالوني للتقاعد.. فتحولت للجانب الآخر ودون أن أفقد لمستي السحرية"

والتمعت مقلته، يصب خبراته بأذنيه والنمر الصغير جامد لا يبدو على تعابيره ما يدلل على دواخل نفسه:

"حينها كنتُ زوجًا، وأبًا.. لدي نقطتي ضعف لا يمكنني الخلاص منهما.. لذلك أُجبرت على التعامل مع أمور عملي بوجودهما.. وفرت لهما الحماية اللازمة وانطلقت بمساري الذي حددته لنفسي"

ثم وضع السلاح جانبًا ونبتت على ثغره بسمة قاسية:

"لن أزوج ابنتي الوحيدة لقاتل مثلي آمر"

وتحرك يربت فوق كتفه مع نصيحة أخيرة:

"وهي لن تكون سوى نقطة ضعف في طريقك، فلا تخلقها لنفسك.. تفردك هو سر قوتك بني"

والنمر لم يكرر الطلب، تباعد عنها وكانت هي تشكوه، تبكيه، تصرخ في وجهه.. تسبه وتلعنه، واكتفى بالتباعد حتى مات والدها، عادت إليه بعدما فقدت أملها فيه.. وحينها استخدمت أسلوبًا جديدًا يناسب تلون الأفاعي..

"الإغواء"

هو رجل كأي رجل.. مهما تظاهر بالصلابة والجمود تبقى الأنثى بكل ما فيها.. نقطة ضعف، صمد معها طويلًا.. لعامين أو أقل بعد رحيل الأب، بل أدخل كل صنوف نون النسوة بحياته وتحت عينيها لكنها لم ترتدع.. حتى وافق هواها وجعلها ملكه من جديد..

لم تكن لحظة ضعف.. بل قرار إرادة لملكية حان وقتها!

وبقيت علاقة في الظل لا طائل من ورائها سوى متعة وقتية تنتهي بإنتهاء دقائقها.. وتملكًا فرديًا بحق حصري له!

- أجبني آمر!

- لا تملكين الحق بجواب ربما..

رده السريع رغم شروده أجفلها والنبرة علاها تهكم موجع:

- رغم أنني أوضحت لكِ من قبل.. ما يميز امرأة مثلها!

واستدار عنها يوليها ظهره وكادت تنقض عليه تنشب أظافرها الحادة المطلية بحمرة قانية في عنقه لكن أوقفها رنين هاتفه بنغمة مميزة باتت تعلمها..

إلتقطه سريعًا وأجاب ولم تفهم شيئًا:

- ماذا هناك سديم!!.. حسنًا اهدئي أنا لا أفهم... ماذا؟!.. اهدئي فقط ستكون بخير، سأرسل إليكِ سيارة إسعاف وسأتبعها للمشفى.. ستجدينني هناك!

وانطلق لا يلوي على شيء..

تركها خلفه وفقط!..

صرخت بغضب.. ضربت بقدمها الطاولة الصغيرة وما تراص فوقها لتقلبها أرضًا، بعثرت المكان بجنون ثم انهارت باكية..

والخلاصة..

هزيمة جديدة في معركة أخرى، وخوف بأن الحرب.. على وشك الانتهاء!

***

أنثى ضعيفة.. هي أنثى مغوية!

لا تستفز رغبات أو تحرك شهوات ذكر؛ بل تقتنص بفخ ضعفها رجولته، حنانه، احتوائه، ولأجلها قد تتفلت نبضة من خافق لم يكن له وجود مسبق!

تغري قوة يمتلكها فتجبرها على العناية بها.. الخضوع أمام ذلك الوهن، وتلبية احتياجه..

تتركه واجفًا ينتظر وحال رؤيتها يفتح ذراعيه فتلقي بنفسها بينهما شاهقة بدموع مختنقة وتمتمات حائرة متقطعة:

- خالتي آمر.. لن أستطيع.. هي لن.. كلا..

ربت على كتفها واحتواها بدفء غريب، همس بأذنها مطمئنًا:

- لا تقلقي.. ستكون بخير.

قوة نبرته بعثت السكون في أوصالها قسرًا فرفعت عينيها إليه، والضعف فيهما أسره فتخلل خصلاتها برفق:

- ستكون بخير.

- هل تعدني؟!

وبدت كطفلة صغيرة تاهت عن مصدر أمانها.. وفي لحظة ما ود لو كان هو ذاك المصدر، ثم راجعته نفسه بتساؤل:

"لست أهلًا لذاك الوعد!"

فاكتفى بابتسامة هادئة وعاد يضم رأسها لصدره في صمت، دموعها بللت قميصه وانتبه في لحظة لما ترتديه، أبعدها يدقق فيها لثوان بتمعن جلب حمرتها الممتعة لوجنتيها.. لكنه تضايق فجأة وأبعدها أكثر، خلع معطفه الشتوي

الطويل ولفه حول كتفيها متخيلًا مشهدها بمنامتها الطفولية الوردية وخفها المتلائم معها أمام المشفى بأكلمه أثناء ركضها خلف الخالة:

- ما هذا الذي ترتدينه سديم؟!

نطقها بشبه غضب أجبرها على تحريك وجهها لتواجه عينيه بخفر، تمسكت بالمعطف تلفه حولها وتتشبث بطرفيه:

- لم أنتبه، كنت أشعر بالفزع فتبعتها دون وعي.

انعقد حاجباه وزفر بضيق ثم تنفس بحرارة وعاد يحيطها بذراعه ويتحرك معها نحو مقعد جانبي:

- حسنًا.. اهدئي.. انتظريني هنا سأعود إليكِ.

تعلقت بكفه فشعر ببرودة يدها:

- أين ستذهب؟!

رمش بعينه رمشة واحدة.. ولمعت صورتها خلف أجفانه نصف المغلقة، جلس القرفصاء في مقابلها ونبضات خافقه تتعالى:

- سآتيك بمشروب دافئ.. لن أتأخر.

وربت على كفها عندما احتواه بين يديه، منحها نظرة تعد بالسكينة وغادر سريعًا.. خرج من المشفى يتنشق الهواء البارد بسرعة وعنف حتى أوجعه صدره، صراع دامٍ خنق أفكاره وأضحت الرؤية مبهمة غامضة..

تشوش وضوح الصورة والقرار بات مضطربًا وفَقَدَ كل حسم!

دقائق وعاد إليها، وجدها على وضعها.. منكمشة حتى بدت منمنمة بالفعل، تستند برأسها للجدار وتكاد تختفي أسفل معطفه الداكن الطويل.. توقف يتأملها للحظات ثم تحرك نحوها بهدوئه المعتاد.. جاورها يعانق كفها ويمنحها مشروبها يحثها على ارتشافه.. والمتاح انتظار..

- هل تشعر بالبرد!

بنبرة قلقة حائرة محبة، أخفض ناظريه إليها وقربها من صدره بشفقة غريبة عليه:

- مادمتِ دافئة؛ أنا بخير.

ولم يصدق ما نطق به للتو، تجاهل كل أفكاره ومسح على شعرها، جمعه بيده لأحد جانبي عنقها وهمس في أذنها يحاول سحبها من دوامة خوفها:

- هذه الخصلات لا تحرريها إلا أمامي غيمتي.

ابتسمت بحياء وأومأت بخنوع وانتشى بالحمرة خاصته، عاد الطبيب إليهما بوجه جامد لا يبشر بخير، ومن نظرة واحدة ارتعشت.. رعشتها أجبرته بلا إرادة على ضمة أقوى وأقرب والطبيب يخبرهما بأسف عن..

رحيل!

الخالة غادرت دنياها وتركتها وحيدة تحارب أمواج الحياة دون سند.. الأم الحنون التي عوضتها مرارة الفقدان وجزع الوحدة، الأم التي كانت كل شيء رحلت وتركتها.. لا شيء!

انهارت باكية وتشنج جسدها بين ذراعيه، دعمها من سقوط خانتها قدماها لأجله، وفي النهاية سلمت له فجلست فوق الأرض الباردة تنتحب مذعورة وهو معها يدفن وجهها في صدره..

يهدهدها، يعقد حاجبيه.. قلبه يرتجف.. بل كله يرتجف، ولا يملك بيده شيئًا، همهمت بتيه لم يفهم منه سوى كلمة واحدة:

"وحيدة!"

نهرها معنفًا بصدق نبرة:

- لستِ وحدكِ أبدًا سديم.. أنتِ زوجتي.

وأضاف عليها صفة ملكية تخصه وإن بدت لمسامعه غير مفهومة، اهتز جسدها في أحضانه بدموعٍ كسيل:

- لقد تركتني.. رحلت وتركتني!.. أصبحت وحدها وأنا وحدي..

وكانت ما تزال لا تصدق، نظرت إليه شاردة كأنما لا تراه:

- ماذا لو أغضبتني في يوم!.. إلى من سألجأ؟.. من ستنهرك وتؤنبك؟.. من سيدافع عني!.. إلى من سأشكوك أو أرحل إليها فتمنعك عني!

وبأفكارها البريئة أصابت قلبه بوجع لم يدرِ كنهه ولم يفكر بمدلوله:

- لن أفعل.. لن أتسبب في غضبك، ولو فعلت فسأترك لكِ أنا المنزل..

وضمها حد أنين صدر من بين شفتيها:

- اشكيني إليَّ.. وحينها سأقتص لكِ من نفسي، وأمنعها عقابًا لها عنكِ.

ورفع ذقنها يتمعن بعينيه في عينيها يحاول محو الذعر الذي غزا نظراتها:

- لن أتركك تبتعدين عني أبدًا.

وأعادها فوق صدره يهمس في أذنها:

- أبدًا.

تمتمتها المختنقة وصلته رغم خفوتها تبحث عن أمل، تخشى فراقًا أبديًا أخذ منها كل من تحب:

- أتعدني؟

كررت الطلب.. وانعقد جبينه أعلى نظرة جامدة، بل تجمد جسده وكيانه كله للحظات لم تطُل قبل أن يمنحها الوعد:

- أعدكِ.

- ستظل معي دومًا، لن تؤذيني!.. لن تتركني وحدي أنت أيضًا!

- أعدكِ سديم.

وكررها بحزم أكبر، وصدق ظاهر غطى لهجته طمأنها.. ثم حاولت تجفيف عبراتها التي أغرقت قميصه لكنها من تجمدت هذه المرة وهو يخبرها بقرار قاطع:

- ستأتين للعيش معي بمنزلي.

- ماذا!!

وكانت قد انتزعت نفسها المهلهلة الباكية من بين ذراعيه..

تنظر له بانشداه ألجمه مع كل سؤال ممكن بنظرة صارمة وتكرار لن يقبل برفض:

- ستعيشين معي سديم.. لن آمن عليكِ وحدكِ أبدًا.

فتحت فمها تراجعه معاندة رغم احمرار عينيها وذلك البلل الذي يكتنف وجنتيها.. وأخرسها:

- لا تناقشيني.

ومد أنامله يجففها هو بعطف لم يمتلك مثله يومًا:

- أنتِ زوجتي.

- لا.. نحن فقط..

- أعلم..

وأعادها لصدره بضمة مسيطرة لا تمنح حق الرد وناظريه يشردان في اللا شيء:

- ستكون لك غرفتك بعيدًا عني، مخطوبين فقط غيمتي حتى يمكننا إقامة زفاف يليق بعروسي الجميلة.

شعرت بخجل لم تستطع تحجيمه، دقات قلبها تسارعت قبالة قلبه الهادئ..

هل تخضع!!

النفس الواهنة، الخافق العاشق، والروح التي تحاول التمسك بمصدر أمان وقوة يصوتون بنعم..

أما العقل.. من يعاند ببقايا منطق.. رضخ أمام احتياج كان هو التعويض الأمثل له!

***

وله في النساء حياة!

هن الشدة، الفتحة، الضمة، الكسرة والسكون..

هن العبث والمجون..

هن واحة الراحة.. هن الجنون!

عابث هو حد الأبد.. دون قيد أو قانون!

بل قانونه الخاص جدًا رغم كونه قاعدة عامة.. إن لم تستطع هزيمتهم: انضم إليهم!

وهزيمة الأنثى محالة، لذا فامتلاكها هو الممكن بل والمضمون، ولأنه أمر ممتع أيضًا فهو لم يقتصد فيه، بل حاز على كل ما كان متاحًا، أو حتى غير متاح..

وهي من قائمة صعبة لا تحتوي اسمًا غيرها!

"كارما"

الذهبية العنيدة التي غابت عن عملها لثلاثة أيام عقب آخر لقاء بينهما، بعدما فجر قنبلته بوجهها وتركها تجمع ما نجم عن ذاك الانفجار المميت من أشلاء، أدمى قلبها وروحها وبكلمة واحدة..

لكنه لا يشعر بندم!..

هي من جلبت ذاك على نفسها، منعها كثيرًا، أخفى الأمر ولم يعلم حتى لمَ فعل!.. وفي النهاية أشعلت البركان، لذا فعليها مواجهة الحمم وتحمل الاحتراق بنارها..

طرق بابها هذه المرة عندما علم بعودتها، انتظر الجواب وعندما فتحه وظهر من ورائه قابله وجهها الحاد ونبرتها العنيفة:

- ماذا تريد الآن؟.. ارحل.

تجاهلها كما هي العادة ودخل بتمهل، أغلقه دون أن يحيد بعينيه عنها:

- هل سألتِها؟!

بكل جرأة باردة تصل حد الصفاقة، وبألم أدارت وجهها:

- هل هذا يعني أنكِ جبنتِ عن المواجهة!!

تشددت قبضتاها فوق ساقيها دون أن يراها، أسبلت جفنيها تحبس دمعة تصر على الهطول أمامه:

- تمتلكين قاموسًا خاصًا من السباب لأجلي.. وهي.. لا تجرؤين حتى على معرفة حقيقتها التي تصرين على تصويرها مقدسة!!

ولم تحتمل، نهضت بحدة وأمرته مجددًا:

- ارحل.

وقهرًا غادرت العبرة المُرة في رحلة قصيرة فوق وجنتها لتنتهي بعلقمها بين شفتيها، تأملها لثوان وتغيرت نبرته بمباغتة فاجأته قبلها:

- لا تبكي.

وارتجفت عضلة فكه بتشدد ونظراته تحيط بها:

- لا تبكي كارما.. هي لا تستحق تلك الدموع.

- تبًا لك.. كانت تحبه!

صرخت بها وتوسعت عيناه دهشة أعقبها غضب شيطاني ارتعشت له:

- ماذا!!.. تبررين خيانتها وقتلها لوالدي مقهور القلب!

ودنا منها باندفاع أثار بنفسها الهلع، تراجعت بذعر والخوف بدا جليًا على ملامحها:

- هي تظل القديسة بعد كل شيء، بعدما عرفتِ حقيقتها!!

- أنا لا أبرر لها!

وعلا صوتها في مواجهة صراخه القاسي:

- أنا أشعر بـ...

وتيهها، شرودها، حيرتها وتشتت نظراتها بعثوا شيئًا من السكون لغضبه:

- بالخداع!

- بالألم..

- لأجلها.

- لا.

وواجهته بوهن تغلب على قوتها:

- لأجل أبيك.. لأجلك..

صوتها الأبح بوجع ظاهر أثار بنفسه شفقة رغم كلماتها التي أعادته لمنطقة الغضب:

- ليس خطأك كارما.. هو خطؤها وخطؤه.. وحدهما يتحملان عاقبة اختيارهما، وإن كان هو قد رحل.. فستعاني هي ما بقي لها من عمر.

- كانت تحبه!

وشخر ساخرًا بسخط:

- لو كانت تحبه لما تركته لتتزوج غيره.. ولو كانت ذات أخلاق لما خانت أبي لتسقط في فراش من تدعي حبه..

وكانت كلمة الختام!

وضع بها النقاط على الحروف وأغلق القضية على ماذا!!

بقاء الوضع على ما هو عليه، وعلى المتضرر..

الخنوع والصمت..

(١٦)

الماضي لا يموت.. إنه يُبعث في الحاضر بألف صورة وصورة!

"مصطفى محمود"

***

هل يمكن أن تغرق في تفاصيل أنثى!!

تتيه بين خطوط ملامحها!

تنسى نفسك والوقت وعيناك تغازلان ما تراه منها!

أو تحتويانها بشفقة تمَسُّ قلبك لأول مرة!

قد يكون جواب هذه الأسئلة الوجودية بنعم.. لكن مع من ظن أن ما بين ضلوعه هو مضخة خامدة خاملة لا حياة فيها، بل أنكر في بعض الأحيان وجودها؛ فتلك معضلة..

لقد ظل يتأملها طوال ساعة، لا يشعر بالزمن يمر من حوله، لا يتذكر أن أهدابه طرفت تحجب صورتها، ولا ينتبه لصوت إلا هدير تنفسها المنتظم الهادئ وهي نائمة على أريكة تقابله..

تنكمش على نفسها كطفلة بمنامتها العجيبة، لا تغوي فيه ذرة..

بل تحرك به شيئًا آخرَ لا يفقهه ولا يتخيل حتى أن يحاول.. مدثرة بمعطفه القاتم الذي ناقض ورديتها وتناغم بفتنة مع موجات خصلاتها..

أن يجهل امرؤٌ نفسه؛ تلك لوثة تملأ كيانه بالغضب.. والقلق!

قبل ساعات كان يضمها، يواسيها.. يمنحها أمانًا فوضويًا كفوضى أثارها ضعفها بين جوانحه، يهديها الوعود.. يثقل كاهله بمسئولية.. ويتخذ عنها القرار، بل ويهبها عهدًا أخيرًا بتحريمها على نفسه إلا بعد زفاف!

أي زفاف هذا الذي قصده!

النمر لم يزُر سوى أعراس الدم.. احتفالات على أشلاء موتاه، وموسيقاه الخاصة هي آخر نبضة بقلوبهم!

وها هو هنا يخبرها بصدق غشيَّ نبرته المهتمة كأنه فطري.. أنها ستحظى بأجمل عرس يليق بها، هي عروسه الجميلة!!.. طفلته التي نقبت بأظافرها الصغيرة عن المدفون أسفل رماد احتراق الشيطان..

زفر بضيق وأشاح بوجهه عنها.. أي فخ هذا الذي نصبه؛ ثم سقط فيه وبكامل إرادته!..

تشددت قبضتاه تعتصران الوهم، وخياله يجمح به متنائيًا عن صورة الوردية النائمة بمواجهته، يجمح للحظات فقد فيها كل خيط ربطه بإنسانيته وظهرت هي تعيد رتق الثقوب، وتربط الخيوط المقطوعة بضعف..

"سيدي.. الغرفة أصبحت مُعدة"

رفع رأسه بشرود لمدبرة منزله فأشارت لامرأته بحنو:

- هل أوقظها لتستريح بها؟!

تابع إشارتها وتغضن جبينه عند نظرة مدلولها الأوحد لا يساوي عنده سوى الدم!.. ما انتزعته منه ليس من حقها، وما يمنحه أمرًا فاق قدرته على ترويض ذاته..

وفقدان السيطرة.. رعب يحرك الجنون!

ترك جلسته المتراخية فوق المقعد بغمغمة لامستها شفقة:

- لا.. سأتكفل أنا بالأمر.

اتجه نحوها بتمهل، يتمعن في ملامحها المختبئ نصفها أسفل الموجات الليلية الحالكة، أزاحها للخلف وتأملها لحظة بصمت صرخ بالكثير قبل أن ينحني أكثر ويمد ذراعيه أسفل ظهرها وركبتيها، يقربها لصدره ببطء ويرفعها كريشة ناعمة تحملها نسمة ربيعية..

تململت قليلًا ثم دفنت وجهها في منحنى عنقه متمتمة باسمه، تجمد جسده كلوحٍ من جليد لامس النيران فجمدها بالمثل دون أن تذيبه.. وانصهر بعدها دفعة واحدة بلا هدف أو معنى، زم شفتيه وذاك الغضب المبهم ينتشر بداخله أكثر.. تحرك بها نحو غرفتها وهناك أنزلها برفق هادئ فوق الفراش..

وازى نظراته إليها انعقاد حاجبين بات يلازمه مع كل فكرة تطوف بعقله عنها، مع تلك النبضة التي غافلته وهربت من بين ضلوعه لأجلها.. مع همسة حركت كل كوامنه وأعادته للحظة الصفر..

صفر جديد.. ربما سيبدأ بعده كل شيء، كما انتهى قبله كل ما سبقه!

انحنى ولأجلها فقط ينحني.. يطبع شفتيه فوق الجبين والوجنة وباطن الكف.. ولا تنال الشفتين منه نصيبًا، بمفارقة أولى.. بميلاد بداية..

بتفاصيل رجل يمنح الأمان ويطوع الغريزة لأجل امرأة لم يعد امتلاك أنوثتها مجرد رغبة، ومعها لم تستمر لعبة الصيد في خانة المتعة..

وتلك النبضة تعود لتهتف في وجهه تطالبه بالخضوع..

لكن الظلام يسحبه أكثر، ويأمر بالصمود..

ومن أكثر من شيطان ليدرك أن جحيمه، لن تطفئه خفقات جناحات الملائكة، بل ستزيده استعارًا!

***

عندما تصبح الأنثى هي المحور، هي المركز وقلب الدائرة.. هي المتاهة التي لا مهرب من طرقاتها المتشعبة كخلية سرطانية، هي حلقات دوامة سرمدية تطيح بما يسقط في وسط دربها؛ يعود هو!

يعود بهياج قلب وروح وضعف نفس باتت على شفا جُرف هارٍ سينهار به حقيقة في قلب السعير، فلا هو أنقذ ما تبقى منه، ولا منح تلك البقايا طواعية.. بل قُطع عليه طريق الاستمرار.. واللص؛ أنثى!

والورطة؛ أنه ليس طريقه وحده.. بل طريق الخليل الوحيد الذي يملكه، لا يدري أي خطة يرسمها!.. أي منعطف حاد يمر به!.. بل حتى أي هاوية تلك التي يحوم حولها كأنما يتمنى السقوط فيها!

تواجها.. عين حائرة تضج بالتساؤلات، وعين نظرتها باهتة لا تمنح الجواب..

"إذًا ماذا حدث!.. لم تعد طريقة الصيد البطيء مجدية، فقررت المباغتة بقنص!"

والجملة رسمت بسمة أكثر شحوبًا فوق شفتي "آمر"، فهو لم يعد يعلم من اقتنص من!.. وحتى ذاك الخيط المحكم الذى تراخى من قسوة قبضته.. تركه بسهولة كأنما يفتش عن تغيير ما لم يجرؤ يومًا على البحث عنه جهرًا!

- خالتها ماتت غيث، ماذا كنت تتوقع؟

والنظرة التي تسبر أغوار أعماقه ليست بكافية ليحوز الفهم، والزفرة تناغمت مع ضيق وشبه غضب:

- أخبرني آمر.

- أخبرك عن ماذا!

ودار حول مكتبه يطالع قطرات المطر الخفيفة التي تطرق زجاج نافذته الضخمة:

- أنت تتقن البوح غيث.. لكن أنا...

- أنت تتقن الصمت، الكتمان.. تتخفى وراء ستار الغموض لكني بتُ أكرهه وأخشاه آمر.

التفت إليه برأسه فوازى تساؤله اقتراب وربتة كتف مهتمة:

- هل تذكر أول يوم تلاقينا فيه؟!

ونبش الذكرى فولدت بسمة فوق ثغر الاثنين، وكل منهما يشرد بما يخصه منها..

فهما إن اجتمعا لحظة اللقاء؛ ما بعدها تمايز واختلف!

كان لا يفهم لمَ يراقب ذلك الفتى بعين متفحصة!..

تحركاته.. خطواته.. ارتباكه، توتره والتفاته حول نفسه كل لحظة؛ كلها علامات تشي بسارق.. وقف مكانه وابتسم هازئًا، فالتناقض الأكبر كان يتركز على.. ملابسه!

أنيقة، راقية.. باهظة ويدرك أنها من ماركات عالمية!

إذًا ما الذي يفعله؟..

انتبه أنه بالفعل يخفي عدة علب طعام وحلوى أسفل سترته، ومع خطواته الراحلة لم يقاوم تتبعه.. أمام صراف المكان ادعى ارتباكًا ثم تهرب وأسقط عدة أشياء.. وضُبط في وضع تلبس!

وبدون تردد كان خلفه، يناديه.. ويوضح للحضور أنهما معًا، حاسب على بقالته وخرج يدفع العربة حتى السيارة، والآخر معه:

- أنا لم أطلب منك أن تدفع المال لأجلي!

حظِيّ بنظرة ساخرة والبسمة كانت أكثر سخرية، حتى النبرة أتت مستخفة مستهجنة:

- أخبرني أنت.. هل حرمك والدك مصروفك الكبير فقررت عقابه بتهمة سرقة؟!

وتوقف "غيث" بملامح مكفهرة توحي بثورة بركان طال سكونه، و المنقذ واجهه بفظاظة باتت هي تعبير وجهه ورداء لهجته:

- إن كنت تسعى للانتقام من أحدهم؛ احرص على ألا تتأذى أنت أثناء ذلك.

وعاد يتحرك، والفتى الأصغر يقلب الأمر بذهنه، يفكر والكلمات وإن كان يرفضها فهو قصد إيذاء ذاته؛ يدرك أنها صحيحة..

وتبعه، سأل عن الكثير.. وأجاب عما هو أكثر، ولدت ونمت بينهما صداقة حد أن أخبره "غيث" بقصته دون أن يذرف دمعة واحدة.. وحينها علم أن القلب تحكمت به القسوة، وذلك المسلك هو خاض فيه من قبل، لذلك انتوى حيازة دور السند..

والخِل الوفي!

شرد أكثر، يذكر عمره وقتها.. تخطى الإحدى وعشرون عامًا، الأخير منهم قضاه ببيت القناص الذي يحاول تجسيد صورته فيه، ونجح..

عامًا طويلًا للغاية تدرب خلاله على القتل دون أن يمارسه بالفعل؛ فالخبرة لا تأتي بين ليلة وضحاها والاحتراف طريقه ممتد لأفق لم ينله ببصره بعد..

لكن التجربة الأولى أتت على حين غفلة ودون تخطيط..

التجربة الأولى كانت زوج أم صديقه!..

أو للدقة.. "العشيق".. الخائن الذي سرقها من ابنها، من زوجها.. من سمم حياتها وأنهى حياة من حولها..

يومها أتاه "غيث" غاضبًا، وكأن الغضب حينها اكتسب منه صورته وملامحه، فالبركان الخامد ستحرق حممه الأخضر واليابس.. ستأكل كل ما في طريقها، ومن يسقط في ذلك الطريق فلا يلومن إلا نفسه..

أخبره بالقصة، بخاتمة حكاية انطوت على صفاقة لا حد لها، بأم خائنة وانتهاك ميثاق غليظ، وباتت الصورة تتكرر تسحب من مخزون الذكرى، تلقي به في غياهب جحيم خاص يحمل عبق الخيانة.. ورائحة الدم!

ثم قرر الانتقام، وكان الضحية الثالثة، أطاره من عرض الطريق بسيارته ليسقطه جثة هامدة على قارعته، وهرب دون أن يخبر أحدًا إلا معلمه.. وتلك الليلة انتهت بتأنيب من المعلم الذي نهره:

- لا تترك لعواطفك العنان آمر لتتحكم بك، ولا تقحمها بعملك فتفقد معها السيطرة.

بصيغة أمر حازم جاور نصيحة يدرك جديتها وأهميتها، نصيحة عمل بها لليوم وهو ينتزع نفسه من بين غيوم الذكريات ببسمة تحمل وفاءً خالصًا:

- كان يومًا لا ينسى يا.. صديقي.

- كنتُ متهورًا!

وخبط رفيقه رأسه بلكمة خفيفة:

- ولاتزال.. لا تظن أنك كبرت ونضجت وأصبحت المسيطر الآن.

ضحك "غيث".. ضحك بمرارة لم يمحُ الزمن علقمها من حلقه، من صدره أو نابضه الذي يتلوى فوق لظى الحرمان والذنب والخوف!

- أخبرني.. ماذا ستفعل معها؟

هرب من ماضيه بحاضر يصر صاحبه على الفرار منه هو الآخر:

- لا شيء في الوقت الحالي غيث..

وبعد تفكير علَّق العابث قبل أن يغادره كاتمًا فضوله:

- تلك الدائرة الغامضة التي تحيط نفسك بها؛ يومًا ما.. سأخترقها.

عاد "آمر" للجلوس خلف مكتبه وتلاشت البسمة، تلاشت الفكرة والمنطق والذكرى، وظهرت صورة!..

صورة لمحها قبل أن يأتي لعمله، لفتاة ضئيلة جفت عبراتها فوق وجنتيها، نائمة كطفلة خائفة بمنزله، مع وعد منه يدرك بيقين أنه لن يفي به..

الشيطان يعد.. الشيطان يخلف الوعد..

الشيطان يكذب.. الشيطان يخدع..

الشيطان فقط يحرق، والنار ستطال الجميع.. ولا استثناءات!

وأخيرًا..

الشيطان.. لا يعشق!

***

في دنيا الضواري العبث خطيئة لا تحتمل الغفران..

في أرض الضواري، الدخول يحمل نتيجة من اثنتين: لا خروج!..

أو الخروج إلى القبر..

وفي عالم الضواري لا قوانين تسيطر ولا قواعد تحكم، سوى قانونًا واحدًا يستنه كل ضارية فوق منطقته الخاصة.. يحرم السير فيها، ويحدد الثمن!

والضبع بجهل وجشع يندفع نحو أرض النمر.. يبحث عن لحم ما لينهشه، وفرصة سنحت له يريد الفوز بها واقتناصها من بين فكي وحش لا يدري عنه شيئًا!

يواجه برجفة خفية، يتبجح بلسان سليط.. ويبحث بعينيه عنها بعدما سمح له أمن القصر بالدخول لموافاة صاحبه:

- أين هي!.. بأي حق تأتي بها لمنزلك دون زفاف؟

والصمت في مواجهة السَفَه فرض عين.. صمت لم يطُل عندما تخطت السفاهة حد المعقول:

- ستعود معي.. حتى تأتي وتأخذها عروسًا معززة مكرمة من بيت أهلها.

- والمقصود بأهلها.. أنت؟!

النبرة الباردة جمدت أوصاله حرفيًا، تجاهل وكاد ينجح:

- هي ابنة عمي.. وأنا من بقي لها من الدنيا، لا تظن أنها لا أهل لها لتجرها لمنزلك دون مراعاة لعاداتنا وتقاليدنا.

"أحمق"

همس بها النمر ولاحظ ارتفاع عينه تجاه الدرج، وكانت هي هناك..

بريئة مشعثة الخصلات، بل ثائرة.. تنظر بقلق ويقسم أنه لامس رعشة جسدها.. جذب وجهه إليه بقسوة:

- لا ترفع عينيك إليها.. أنت تحتاجهما للرؤية، صحيح!

نظرة الهلع في عيني الضبع أثارت تقززه، لكن الغبي لايزال يجادل:

- أنت تخطيت حدودك يا هذا..

وتوجه نحوها بعدما هبطت إليهما لتختفي خلف ظهر زوجها دون عناء منه، تحتمي به والنظرة فوق مقلتيها متوجسة مذعورة أطلقت العنان للوحش.. قطع طريقه ودفعه بعنف:

- ابتعد عنها.. أقسمت قبلًا أن أقطع يدك لو حاولت لمسها.. وصدقني التنفيذ سهل.

العناد لا دين له، والحماقة لا أهل لها.. والوطن والمستقر هما رأس ذلك الثور الذي قرر تخطي كل الحدود بصراخ نفض جسدها ولكمة وجهها لزوجها وأغمضت عينيها بشهقة مرتعبة قبل أن تفتحهما وهي تتوقع الأسوأ..

لكن الأسوأ لم يجُل بأشد خيالاتها جموحًا!..

فالحبيب تلقى اللكمة ببساطة داخل قبضته، بعدها لوى ذراع ابن العم بعنف قاس سمعت له قرقعة عظامه قبل أن يلكمه فينحني ويكرر بركلة في معدته سقط لها على ركبتيه..

والنمر ذاق الدم.. تفتحت الشهية، وأصبح التوقف في عداد المستحيل!

جثا فوقه وانهالت اللكمات على وجهه وصدره والآخر يصرخ، يناشده التوقف.. يتألم، ويكاد يختنق بالفعل، رفعت عينيها إلى رجليه الواقفين أمام باب المنزل من الداخل يشاهدان ما يحدث دون تدخل وتوسلتهما بنظرة تجاهلاها.. خطت نحوه وبتردد لامست كتفه تنادي باسمه..

لا مجيب.. لم يسمعها أو يشعر بها، وابن العم يلفظ حقيقةً أنفاسه الأخيرة، ضغطت ذراعه وصرخت.. صرخت ترجوه صحوة، لن تفقده.. لن يقتله، ليس لأجلها.. سيضيع منها، ولأجل من!!

"آمر"

صراخ أخير جمده قبل قبضة غليظة موجهة نحو عنقه.. كانت الخاتمة، وما الثمن؟!

ازدرد لعابه بعسر.. أدار وجهه إليها وهاله مرأى الدموع وملامح الرعب.. هل باتت تخافه الآن!

نهض ببطء متمسكًا بواجهة خشنة.. نظر لرجاله بنظرة خاصة:

- ألقوه لحيوانات الطريق لينهشوا ما تبقى منه.

"آمر!"

همستها المشدوهة عاد يتيبس لها جسده.. ونظر ثانية وليته ما فعل:

- لن تتركه يموت!!

- بلى سأفعل.. كان يريدك أنتِ!

نطقها بحروف ثقيلة مضغوطة بقدر ما بثت السعادة في أوصالها فقد أرهبتها:

- لكنك لست بقاتل حتى لو لأجلي.. دعهم يأخذونه لأي مشفى.

تأملها لثوان، وكلماتها يتردد صداها في جوفه، أي قدر ألقى بها عقابًا في طريقه!.. عقابًا شهيًا بريئًا لا يملك معه إلا الاستسلام، فقط حتى لا تهتز الصورة!

أومأ لرجاله بأمر أخير خالف معه الضارية قانونه الخاص:

- إلى أقرب مشفى.

ومال نحو الهامد أسفل قدميه:

- لن تفتح فمك بكلمة، وإلا فالثمن لن يدفعه سواك.. وبأقسى مما يمكن أن يطوف بخيالك الضحل.

زاغت عينا الراقد بإذعان، فالحياة ليست رخيصة حتى لو كان المقابل أنثى تصرخ خلاياه أنينًا وشوقًا إليها..

فاز النمر، والقاعدة رقم واحد..

"لا تخطو أبدًا فوق أرض الضواري ما لم تكن أهلًا لترويض الوحوش!"

***

هل يمكن أن يصل أحدهم في حمايتك للحد الأقصى!

هل تقبل أنت ذلك الحد بدافع حب، بتبرير لقرب.. ببهجة ربما!

وهل تلك بلاهة أنثى!..

أم أحقية اكتسبها ببلوغه خط النهاية، نهاية حياة آخر تجاور نهايته معها.. ولأجل خاطرها هي!

حائرة، مشتتة.. خائفة!

يومين فقط مرا على وجودها بمنزله قبل أن يأتي ابن عمها الأحمق مطالبًا بها، دون صفة ودون وجه حق.. هي تعلم السبب، وتقسم أن "آمر" كذلك خمنه.. لهذا طحن عظامه حرفيًا عندما حاول الاقتراب منها..

وها هو يقف بشموخ، يتابع انصراف رجاله ويلتفت إليها وتتغير النظرة:

- هل أنتِ بخير؟

- بل هل أنت!

وابتسم بشحوب أجبر عينيها على الإحاطة بوجهه بحنو:

- ما يهمني هو أنتِ.

- وما يهمني أنا هو.. أنت.

اقترب منها خطوتين، وقف يزجرها بتذمر خشن نبض له قلبها:

- لا تكرري كلماتي.. فقط طمئنيني.

وأباحت لنفسها جرأة القرب، بل رفعت أناملها تلامس وجنته برقة:

- مادمتُ معك.. أنا بكل خير.

ولم تتوقع منه هروبًا!

لقد ربت على كفها فقط وهمس:

- سأذهب لأغير قميصي.

سقطت بنظراتها على قطرات الدماء التي تناثرت فوق ثيابه بتوتر ويدها ارتجفت أسفل يده فطمأنها بهدوء:

- ليست لي.

غاصت في عينيه تبحث عن صدق ومنحها إياه قبل أن يتخطى الموقف لعبث:

- تعالي معي.

حصل على حمرته وابتسم بلؤم.. وتغير مزاجه للأفضل بلحظة!

تبعته بحياء يرسم خطواتها حتى غرفته..

القرب شيء مبهر.. مبهم ومخيف بنفس الوقت..

أن تكون تحت ظله، تنطوي خلف جناحه ويحتويها بأمانه.. مشاعرًا لم تخض متاهاتها من قبل، ولم تتصور أن تكون ممتعة ينبض لها القلب بهكذا طريقة..

ظلت تراقبه بهيام غريب، وكان يلمحها في مرآته وهو يستغل كل لحظة ممكنة لينال قربًا يخترق به حدودها.. وجدته يخلع قميصه القطني عبر رأسه بحركة واحدة فأخفضت عينيها بخجل، ابتسم مستمتعًا وقرر التسلي على حساب هاتين الوجنتين المحمرتين..

تقدم نحوها بتمهل تعالت له أنفاسها.. انحنى يهمس بصوت ماكر:

- اختاري لي قميصًا على ذوقك.

استدارت على عقبيها كأن في خزانة ملابسه الضخمة ملاذا آمنًا تحتمي به منه وهي من كانت تحتمي فيه قبل قليل.. التقطت واحدًا ومدت يدها إليه دون نظر، توقف مكانه وأمرها:

- ساعديني على ارتدائه.

ترددت.. فرغم حزم النبرة تلبسها خبث سافر زاد من ارتباكها وتوترها.. أدار لها ظهره في إشارة صريحة تنتظر منها استجابة!!

وفعلت..

اقتربت، رفعت بصرها تحاول تجنب إطالة النظر.. لكن يداها توقفتا في منتصف الطريق وهي ترى تلك الندوب الجلية بعرض ظهره تقريبًا.. لم تشعر بنفسها سوى وهي تتحسس إحداها بألم:

- يا إلهي!!

انتفض مبتعدًا عنها، عاد بعينيه إليها، لكن هذه المرة تخلت النظرة عن المتعة واللؤم والمكر.. فارقت النبرة الاستمتاع والموارية.. اكتسبت قسوة، ضراوة، واللهجة أصبحت مرعبة أجفلتها:

- لا تلمسيها..

ودنا خطوة واحدة واسعة أكمل بعدها بهسيس بارد مهيب اشتدت غلظته وعيناه تنذران بعاصفة رعدية لا نجاة منها:

- إياكِ أن تفعلي مجددًا.

تبا له.. كيف نسي؟.. ولأجل ماذا!.. حمرة خجل ودلال أنثى!

قيل أن: هؤلاء الذين لا يتذكرون الماضي محكوم عليهم بإعادته!..

وها هو يعود لنقطة فاصلة طواها منذ زمن، ونبشتها لحظة متعة تحت ضوء خافت نسيه في حضورها!..

شهقتها الناعمة لم تؤثر به وشياطين الأمس البعيد كلها مجتمعة تتقافز رقصًا حول لهب عينيه، شد قامته يواجهها بصدره، يجبرها على تفحصه والتدقيق فيه ومن خلف أسنانه المطحونة جمدتها نبرته تلك المرة:

- ندوبي كثيرة سديم.. ومحرم عليك لمسها.. أتفهمين!!

وقبالة نظراتها الموجوعة لمحت ما قصده، ندوب دائرية صغيرة مبعثرة فوق صدره وبطنه، وهنا وهناك خدش ما لم ينمحِ أثره.. بدت كحروق لفافات تبغ، أو جروح سكين:

- هل رأيتِها!.. تمعني فيها جيدًا لأنها ستكون الأخيرة.

وجذب قميصه من يدها بعنف نفضها، ارتداه بعجالة:

- آمر!.. يا إلهي...

صوتها الباكي المتحشرج فجر غضبه أكثر، استدار إليها وفي عينيه رأت نظرة وحشية شرسة لا تمنح سوى القسوة:

- لا أريد شفقتك.

أغلقت فمها بكفها تمنع البكاء، لكن دمعاتها كانت كافية ليأمرها بحدة:

- لا مزيد من الحديث.

وعاد يوليها ظهره والصرامة والحسم الباتر غلفا نبرته لحد لا تملك معه سوى التنفيذ:

- اخرجي الآن.

لكن الكلام سهل، والفعل يصل لأطراف مدينة المستحيل!.. كيف تتركه بعدما تعرى جزءً من روحه لها ورغمًا عنه، حتى وإن أخافها!.. حتى لو لم تفهمه.. هي فقط تشعر بوجعه، بألم يفترس كيانه ولا تستطيع الرحيل مهما أمر.. اقتربت منه، تحاول لمس كتفه بأناملها:

- آمر!.. أنا آسفة.. كنتُ فقط...

- الآن.

بلفتة وزمجرة مخيفة تشبه زئير سبع مهتاج، بعينين محمرتين وفكين منعقدين فوق أسنان تكاد تسمع صوت صريرها الغاضب، وتحولت العبرات الحزينة لسيل جرف معه إحساس الذنب بقلبه قبل أن تندفع بهرولة هاربة.. وينال الجدار منه لكمة لو نطق؛ لسمعنا أنينه لها!

***

مع مرارة الماضي، نجتر علقم الذكرى وحنظل الألم..

بل نستعيد وجع اللحظة كأنها تتكرر بلا انتهاء، وجع النفس وانكسارها.. وجع الجسد وذل خضوعه، وسجنًا انحبست خلف قضبانه روحًا فقدت حريتها دون سبب!

وبينما يغمض عينيه ليحيط ذاته برداء الظلمة، في مؤخرة صفوف جيش أفكاره نهض المشهد القديم ينفض الرماد عائدًا لقيد الحياة..

مكبل هو بعجز.. لسعات سوط.. وشهقات مكتومة بعناد وقسوة تشبه نزع الروح تحمل همهمته، بل صراخ أخير دون صوت باسم ما، بكنية ما من المفترض أن تمثل له الخلاص.. أنها النجاة!..

والتجاهل هو الرد..

وما بعد التجاهل عقاب، والمحصلة نهاية مجرى نهر الدموع!

يتذكر ذلك اليوم كأنما لم يكن منذ خمسة عشر عامًا، لا بل كان بالأمس، بتفاصيل تبعث على الجنون، بفوضى تؤجج اللهب.. بعبثية لا تحمل معها سوى مذاق الدم وشهوته.

وذلك الذي خلق بداخله كل شيطان يتلذذ بأنَّاته، يرفع سوطه وينزل به فوق ظهره بكل غلظة أتاحتها له قبضة يده، ويضحك بغياب عقل خلف لفافة محشوة أطارت ما تبقى منه، وهي هناك!

تشاهد، تضيق عينيها، لا تحمي أو تدافع فقط تتأمل وتحطم كل تابو متاح منذ الأزل!

وما قبل السوط طفل بائس أكثر عجزًا وقهرًا، يتعرى جسده في زمهرير الشتاء، وتشوي جلده دوائر من نار، يتسلى مجنونًا ساديًا بمديته في بدنه كأنما ينقش خريطة ألم سيحملها معه إلى القبر!

قست عيناه وتأمل كفه المرتعشة!

أصابع النمر التي تتحكم بالزناد ترتجف، نفسه ترتجف.. روحه ترتجف.. والبارحة تعود لتقتحم الحاضر، تحيي ما اندفن في قبر الذكرى، تسحب بساط التناسي من أسفل قدميه وتسقطه في أعماق دُجنة هوة سحيقة، هوة نتجت عن مخاض كيان مظلم.. ولد يومًا ما على يد أحدهم!

وازدادت القسوة.. بل توالدت ذاتيًا تسيطر على عقله، قلبه.. وما تبقى من روحه التي صارعت الموت مرات ومرات حتى هزمته وامتلكت زمامه..

توقفت الرجفة، غابت الرعشة.. وعاد النمر، فالثمن لم يكن هينًا!..

هو نال انتقامه كما تمنى، بل وأكثر!.. ما أصبح عليه يَجُبّ ما قبله، ولن يعود لتلك الحفرة ثانيةً، سيردم فوقها وحل ذكريات الضعف.. ويتذكر الأهم والأعظم؛ فهو الآن.. الأقوى!

***

لقد سافرت!

بكل جبن وواقعية هربت بعيدًا وهو لا يملك الحق في السؤال، أو حتى معرفة أين هي.. والأهم؛ إلى متى ستغيب!

بفوضى خطتها بأناملها فوق صفحة عقله الحائر، وبتفاصيل حديث العهد هو بها!

يعلم أنه حطم الواجهة المثالية التي تخفت ورائها أمه معها، حطمها بقسوة لامتناهية، ولم ينظر لشظايا الحطام، بل داسها وتركها تجمعها حد نزف القلب والروح، تركها تبتلع غصة مريرة بحقيقة لا مناص من التصدي لها..

سبعة أيام طويلة مرت دون أن يشاكسها، يضايقها، يقاتل عنادها ويهزم خجلها وينال متعة حمرة وجنتيها.. سبعة ليال لم تفارق فيها خياله لدرجة دفعته للجنون..

يشعر بقلق، بضيق.. بدناءة ما فعل، لكنه امتلك كل حق، والدفاع عن النفس يوجب استخدام كل الوسائل المشروعة أو غير المشروعة بما تستدعيه غريزة البقاء!

بعدما لمح عبراتها آخر مرة، عندما طلب منها..

"لا تبكي"

حينما ألقى بآخر حجر يعكر به صفو حياتها ويخلق فيها دوامات التيه، منذ ذلك اليوم ووجهها لم يترك عقله.. أو فؤاده على السواء، نظرتها الكسيرة، لمعة التحدي التي بهتت وانطفأت شعلتها بتدرج راقبه بحسرة.. نبرتها التي تحشرجت حد الخفوت فلم تخرج من بين شفتيها إلا كأنين غير محتمل!

وتنهد.. لعنها ولعن كل نساء الأرض، ما الذي فعلته به لتنال ذلك النصيب من أفكاره وحيرته واختلاجات خافقه بين ضلوعه.. في شوق!

تبًا.. هو بالفعل يشتاقها، ولا يستطيع تفسير ما يمر به!..

أهو اشتياق للعبة تمتعه!.. أم تَوق لأنثى تناقض كل قناعاته!..

"تشرد كثيرًا مؤخرًا"

مقاطعة في غير وقتها من امرأته.. امرأة تمثل له إشباع شهوة تجاهلها طيلة تلك الأيام، فماذا عن احتياج قلب!

تلمست كتفيه بنعومة وانحنت تلامس أذنه وتتابع بهمس:

- أفتقد اهتمامك بي.. أكثرُ من أسبوعٍ لم تأتِ إليّ!

جذب يدها وأجلسها تجاوره فوق أريكتها العريضة:

- انشغلت بعض الشيء جوان.

ثم قبَّل كفيها لكنها انتبهت لشفتيه الباردتين وقبلته الباهتة، وقبل أن تعلق وجدته ينهض بزفرة لم تدرك مغزاها:

- أنا متعب.. سأعود لمنزلي.

والمبرر بداخله: فقدان رغبة بامرأة مثيرة تدلله بغلالة لا تكاد تستر شيئًا، وأمامها دافعًا غامضًا لا معنى له..

وبينما يرحل تحت مراقبة عينيها كانت براكين غضبه تقذف بحممها عبر شرايينه في نكران لما بدا له بوضوح الشمس.. والقلق ينهش قلبها العاشق الذي تحسس في ظلمة مقلتيه، تَغُيرًا يشي بكل ما يمكن أن يخيف امرأة مثلها..

امرأة تعلم أنها مهملة على هامش حياة رجلها، وأن الخيط الرابط بينهما رفيع لن يلبث أن ينقطع!

امرأة دومًا تتخذ من المبادرة أسلوبًا، وتعلم عن نفسها أن النهاية لن يسطرها سواها..

(١٧)

الحب جحيم يُطاق.. والحياة بدون حب نعيم لا يطُاق!

"كامل الشناوي"

***

هل يمكن أن يكون الهوى داء عضال.. لا دواء له ولا شفاء منه!

سم زعاف يجوب خلايا الجسد، يسري مع الدماء إلى أركانه فيتغلغل فيه ويتمكن من خباياه.. ولا ترياق لأثره!

قالوا أن: الحب كالحرب من السهل أن تشعلها؛ من الصعب أن تخمدها!

وأيضًا توارد لمسامعها قول أحدهم:

الحب لا يقتل العشاق.. هو فقط يجعلهم معلقين بين الحياة و الموت!

وهي اشتعلت بداخلها حرب شعواء لا مفر من السقوط في براثن وغاها، وتعلقت بعدها بين حياة وموت لا تطال أناملها أيًا منهما فترتاح!

باتت لا تذكر آخر مرة قبَّلها أو حتى لمسها.. تحولت نظراته لجامدة عملية، ونبرته لم تعد تتلون ولو بالغضب، وهي خانعة كزهرة فقدت مصدر الإرواء واستسلمت لقدر الذبول بصمت..

عيناها تشتاقانه، قلبها، روحها.. كامل كيانها وحتى جسدها..

وبعد وجود الأخرى بمنزله لم تعد تعلم هل تمم زواجه منها فعليًا أم لا!.. هل اكتفى بها عن غيرها أم لاتزال هي على قائمة المتاح من خياراته!

لقد مر أكثر من شهر ونصف على عقد قرانه، وبالفعل هي سقطت من حساباته الواضحة لتدخل في منطقة غامضة وسطى لا تلمس منها سماءً ولا تقف فيها فوق أرض..

ضائعة، تائهة مشتتة.. وعاشقة حد الألم، والمرض والخضوع!

طيلة ذلك الوقت كان هو هناك.. يطيب جرحًا يجهل مكان وجوده أو من سبَّبه!.. يدلل امرأة متعبة، ويحنو على روح بائسة. في البداية ظنت أن لقاءاته بها مدبرة، خافت..

هربت وتجاهلت القرب الذي رغب فيه. تحاشته لكنه أصر على اقتحام شرنقتها، بل وحاول تمزيقها ساعيًا خلف تحرير جناحي الفراشة التي اندفنت بالداخل لتعلم أنه يكاد يماثلها شقاءً ويفوقها وجعًا!

معه سقط من ذاكرتها الوقت وعدد مرات اللقاء، فهو هناك تقريبًا كل يوم، بصداقة تقدرها، وبمشاعر تخشى أن يفصح عنها في لحظة ما وتراها هي بعين أنثى تعلم متى سقط رجل في حبائل هواها!

ورغمًا عن خافقها الذي يشدو عذاباته فوق أوتار الحزن بين يدي آخر؛ فهي تأنس لوجوده، تجد بعض راحتها معه، وسكون نفسها إلى جواره.. وتعلم أنه يدرك ذلك جيدًا ويضغط حينها على جرح الاحتياج الذي يغزوها فتذعن

لمقابلته وتعلن انتصاره على أرض معركة؛ خصمه فيها لا يكترث لتلك الحرب من الأساس.

يسمعني حين يراقصني..

كلماتٍ ليست كالكلمات..

يأخذني من تحت ذراعي..

يزرعني في إحدى الغيمات..

وتتهادى بشرود تتابع خطواته في آلية دون انتباه حقيقي، ويبتسم في مواجهة نظرتها التائهة، يهمس بحديثه الذي بات إدمانًا خاصًا لعقلها المنهك ولو كان حتى عن كيف مر يومه بعمله!

- شاردة كالعادة.. دائمًا وأبدًا!

- أستمع إليك.

البسمة منها كانت مفتعلة وإدراكه يثير به سخطًا يدمغه بتحكم مدهش مستمرًا بسعيه الحثيث ليخترق قوقعة صمتها الكريه:

- أخبريني عن يومك أنتِ هذه المرة!

ودار بها يتابع اللحن الناعم، وضاعت عيناها أكثر، وسخريةٍ بمرارةِ العلقم تقتحم حلقها، هل تخبره عن غائبة تحتل كيان من تعشق!.. همسات تصل لأذنيها عندما يهاتفها من العمل مطمئنًا أو حتى مشتاقًا!.. وتقترب هي ويبتعد هو وتستمر المطاردة صامتة لأنها تعلم الحد المرسوم وتخشى تخطيه!

- مجرد يوم ممل طويل من العمل الأكثر مللًا.

ابتسم لغيابها اللحظي الذي التقطته عيناه، هو رجل أغلق قلبه منذ سنوات عقب رحيل زوجته وطفلته عن عالمه.. بل عن الدنيا كلها، لم تشغل أنثى غيرها حيزًا ولو ضئيلًا من أفكاره، حتى قابل "ريما"..

صاحبة الأعين المليئة بالشجن، والنبرة التي تنضح خسارة..

وانتزعت منه استجابة نبض كان قد غادره منذ زمن وتجاهل هو البحث عنه:

- أحب اللون الأزرق عندما ترتدينه.

تأملته بدهشة.. هل يغازلها هذه المرة دون تورية!..

يخبرني أنّي تحفته..

وأساوي ألاف النجمات..

بأني كنز وبأني، أجمل ما شاهد من لوحات..

كلمات!..

وتتناغم الحركات مع النغمات والأحرف التي أضحت تتكرر بأذنيها دون هدف، همسه تاليًا جاور دفء أنفاسه قرب وجنتها، ولمسة كفه التي تحكمت بخصرها بتملك أكبر:

- تذهلني روعته مع لون عينيك.

وتراجع وهي تزداد انشداهًا، هو لم يهاجم بمشاعر من قبل!..

والحيرة تلبستها فهي لا تملك في المقابل شيئًا يستحق المنح، هي مستنفذة.. بل مستنزفة حتى آخر قطرة عشق لرجل تخطاها بالفعل:

- زرقتها تفوق صفاء زرقة السماء ربما.

ويثير بها ارتباكًا لا تذكر متى حدث من قبل!.. ابتعدت ووازى ابتعادها دنوه ليعود لذات القرب، يهمس وتستمع وتتيه:

- لا تبتعدي.. لا تخشيني.

يروي أشياء تدوّخني..

تنسيني المرقص والخطوات..

كلمات تقلب تاريخي..

تجعلني.. إمرأة في لحظات..

"أنا لا أخشاك"

ونبض الفؤاد يعلن بهجة وسعادة بينما هي تكمل بهزة كتف هاربة من لقاء بعواصف عينيه التي تتوقعها بهذه اللحظة لمرتبة تبلغ اليقين:

- أنا أشعر معك بالأمان.

ولم تكن كاذبة، استشعر صدقها وكانت تعي ما تقول.. احتواها بدفء أكبر واللهجة خفتت حد إدراك حواسها وحسب:

- يقولون أن المرأة تقع في غرام من يشعرها بالأمان!

نبرته كانت واثقة تتعلق بأذيال أمنية لا يدري كيف ولدت معها هي دون غيرها!.. لكنها لم تنتبه لأمنياته أو حتى دفء صوته وهي تتمتم بشرود:

- أو من يملأ قلبها بمخاوف لا حصر لها.. كما تفعل الفراشات فتنجذب للنار، ثم تحترق!

تغضن جبينه بفكرة ولدت واختنق لها القلب، تمتمته الحذرة قابلها ابتعاده ليغوص بعينيها:

- تتحدثين عن تجربة؟!

وانتبهت من شرودها الذي تتعثر معه في كل مرة داخل أخدود ألم وانكشاف أمر المخنوق بين الضلوع، تبسمت بغنجها الذي تجيده كالشهيق والزفير:

- لا.. مجرد مثال.

لم تنفك عقدة حاجبيه فتراجعت تغادر طوق ضمته، تريد العودة للطاولة التي اختارها بركن خاص في ذاك المطعم الأنيق.. حيته بإيماءة رأس وتنهيدة وازتها خروجًا من صدره وهو يدرك هروبها.. ويسمح لها به!

وأعود لطاولتي..

لا شيء معي..

إلا كلمات!

***

قاعدة رقم اثنان..

"لا تثير ذعر الفريسة قبل لحظة القنص المناسبة، وإلا ستفقدها!"

عندما تضغط زناد الذكرى لا تبحث بعدها عن شظايا تخلفت عن طلقات الألم..

وهي ضغطت ببرائتها الفطرية، وهو تفجر بوجهها يثير بنفسها الهلع والخوف.. ومخلفات الانفجار طالتها معه.. فبينما غرق هو في أوجاع الماضي غاصت هي في أحزانها ورعب قلبها من تباعده عنها ولأسبوعين كاملين!

في أجازة مفتوحة حتى يقرر عودتها، هذا لو فعل!..

كلمات متفرقة تسأل عن حالها، احتياجاتها، نظرة مطمئنة سريعة ولا غير.. ابتساماته المحدودة تلاشت وصولًا للصفر، اهتمامه تقلص حد الأساسيات، ورفضه لأي اقتراب منها أو حتى اعتذار قاطع كحد سيف مر فوق عنقها فذبحها وتركها تعاني دون موت.

وبداخلها تتتابع المشاعر.. شفقة أمسكت بطرف الخيط، وأنهته أيضًا، وما بين نقطة بداية ونهاية قبع غضب، حنق، سخط، عليه وعلى من آذاه وترك ندوب الأمس تقهر روحه مع وجع الذكرى.. قلق من ابتعاده رغم الوعود، ورهبة من أنين طرق أبواب مسامعها عقب خروجها من غرفته يومها.

وجاور حدادها على خالتها حدادًا من نوع آخر.. اشتمل نبض قلبها الذي ينعي آلامه ورفضه وتحاشيه للقاء كأنما يرفض الغوص في دوامات ما مضى، ويمنعها أن تنبش ما تناساه!

ظلت منكمشة بفراشها طيلة اليوم تقريبًا، فإن تجاهلها وأعلن الغضب فقد فعلت المثل واعتكفت متنائية عنه تحرمه رؤياها كما تحرم ذاتها منه.. لكن فراق الأجساد لا يعني أن يفارق كيانها كله الذي يتلهف شوقًا وحنينًا إليه، يتمنى قربه ويعد بعدم الدنو من منطقة الخطر..

إلا حين يبيح هو!

وصل لأذنيها طرقات هادئة تعلم أنها تخص مدبرة المنزل والتي تعاملها كابنتها بحنو افتقدته برحيل الخالة وبرود الحبيب، سمحت لها بالدخول وتفاجئت بما تحمله:

- سيدة سديم!

كانت لا تراها من خلف الصندوق الورقي الضخم بين ذراعيها والثاني الأقل حجمًا فوقه، تتبعها مساعدتها الصغيرة بعدة حقائب تسوق تحمل أسماءً لماركات شهيرة!

أهذه محاول ترضية!..

هل يصالحها؟!

وابتسمت باحتياج والمرأة تخبرها:

- لقد أرسل إليك السيد آمر هذه المشتروات.. ويدعوك للعشاء بغرفة الطعام الرئيسية بعد ساعتين.

وضعت ما تحمله جوارها فوق الفراش، وأجهضت هي قفزة كادت تقوم بها لتسأل عنه متعلقة بأذيال المرأة الراحلة.. زمت شفتيها وابتسامة حالمة تولد من جديد على ثغرها الذي بهتت بسماته خلال الأيام الماضية، تناولت بطاقة بسيطة من أعلى الصندوق الكبير لتقرأ بخطه الأنيق:

"أنتظر بجعتي بعد قليل.. لا تتأخري"

ولم يعتذر وعقدت حاجبيها بضيق.. ثم عادت البلاهة تتمكن من ملامحها وهي تتفهم موقفه، فلمَ يكتب ما يمكنه قوله وجهًا لوجه بعد قليل !.. وشردت في كلمة تجهل مدلولها..

"بجعتي!"

نهضت بحماس لتفتح العلبة المثيرة للفضول ولم تصدق عينيها وهي تلتقط الثوب بين يديها بفرحة طفلة تحققت إحدى أمنياتها.. وضعته على الفراش بحرص وفتحت العلبة الأخرى وصدق حدسها.. الحذاء الرقيق المزين بأناقة ونعومة مع عدة لآلئ تربط بين مقدمته ورباطه حول قدمها..

تنهدت براحة.. وذهبت لتستعد كي تراه، ستسامحه على غضبه السابق ورد فعله العنيف لكن بعد أن يتذلل قليلًا ويطلب منها العفو ويقابل دلالها بمنحها المزيد منه.

براءة أفكارها بغرفتها كانت تقابلها قتامة أفكاره، بل متعته الخالصة وهو يضع سلاحًا من الذهب الخالص بعلبة مخملية أنيقة داخل خزانة تحتل ركنًا من الجدار جوار مكتبته الضخمة..

ابتسامته هو تتسع بنشوة تحمل نكهة المنتصر..

منتصر بلغ حد الكمال في عمل يمنحه القوة والسيطرة.. عمل شيطان يجيد التخلص من الأرواح بعد دفع الثمن المناسب.. شيطان بالأمس انتزع الروح رقم خمسين من جسد صاحبها ورقص بانتشاء فوق دمائه!

عشر سنوات هي حصيلة خبرته رغم ما سبقها من موتى في عالمه، الاحتراف ليس بالأمر الهين، والإتقان استلزم الكثير من الجهد.. وهو وصل، ويوبيله الذهبي تطلب احتفالًا خاصًا بسلاح تذكاري يحمل أحرف اسمه.. وترضية لامرأته التي يعلم أنها الآن تعرفت على الحدود الوهمية بينهما.

لا ينكر أنه في الفترة الماضية كان يتجاهلها، هي خطت بأعماق منطقة لم يصل إليها مخلوق من قبل، تخطت حدودًا أجاد رسمها وأتت السقطة بسببه عندما أجاز لها الدخول سهوًا.. وكان لابد من عقاب..

لها.. وله!

ببساطة ورغم أنه يوقن من حنقها عليه فهو استن القواعد بينهما.. وكانت القاعدة الثالثة تأمر بصرامة:

"لا تتدخل فيما اختبأ خلف جدران الصمت، فقد تسمع ما لا يرضيك.. وما لا يمكنك دفع ثمنه!"

ويدرك الآن أن الدرس الأول ستنجح في اختباره..

هي لن تسأل، وهو لن يجيب..

وانتهى!

مرت الدقائق واستعد هو الآخر للقائها، بذلة حالكة تناسب مزاجه الاحتفالي، وعشاء شهي مما تحب هي، موسيقاه المختارة بعناية لليلة كهذه وثوبًا خاصًا أجاد اختياره لاعبًا على وتر الحنين والأمنيات.. فهي رغم حزنها على خالتها لن تقاوم ما ستراه.

نحنحتها خلف ظهره أجبرته على استدارة، وهيئتها التي تجاوزت ما جنح به خياله أرغمت أنفاسه على الانحباس برئيتيه، فلا شهيقها أعانه ولا زفيرها قدر عليه.. وأقسمت هي للمرة الثانية أن صدره توقف عن الحراك وهو ينظر إليها بعينين لا تعي مغزى نظراتهما..

ومع خجلها لعنته.. يجيد التحكم بكل حركاته وسكناته حتى تأمله لها وهي تكاد تذوب أمامه دون كلمة واحدة.. لكنه تخطى الحديث، واقترب يمد يده يقبض على كفها، رفعت رأسها إليه ولاحظت الفارق بينهما مع حذائها المسطح لأول مرة.. التوى جانب فمه بعبث:

- لم أتوقع أن الحذاء يشكل كل هذا الفارق!

انعقد حاجباها فمال نحو أذنها بمشاكسة:

- أنتِ قصيرة كدمية.

وعاد يتراجع، يتمعن فيها بثوب راقصة الباليه العاجي، طبقات الشيفون العديدة التي تنسدل بعد خصرها باتساع رقيق يصل بالكاد لركبتيها ووردات الجوبير التي تحيط بحناياها أسفل كتفيها العاريين..

وذلك الشريط الأزرق الداكن الذي جذبه للثوب منذ البداية يشد نظراته بمكر..

- أنت من اخترت الحذاء.

تؤنبه بتذمر وشفاه مضمومة تتعجل القبلة ويؤجل هو لوقت يراه الأنسب!

تجاهل الرد والكلمات..

استرد صدره هدوء أنفاسه مع ضغطة زر بجهاز تحكم كان بيده، يسحب يدها ويتحرك بها للداخل مغلقًا باب الغرفة العريض من خلفها والهمس بات يحمل حميمية أفقدت قلبها عددًا لا بأس به من دقاته:

- هل تعلمين شيئًا عن رقص الفالس!

مشدوهة نفت ومبتسمًا باستمتاع لم يهتم.. وتعالت النغمات الشهيرة من جديد، أوقفها قبالته، مد يدًا مطوية خلف ظهره والأخرى أحاطت بخصرها وأمر:

- تابعي خطواتي.

- بحيرة البجع ثانية!

- رقص البجعات هذه المرة.

وضحكت بخجل وهي تدرك ما قصده في بطاقته بـ"بجعتي":

- لن أستطيع.

- بلى.. هيا.

بصيغة أمر لا تقبل الجدل!..

خطوة لليمين، تالية لليسار وتكرار.. ثم دوران، وتتيه هي..

ويبعدها عنه ثم يجذبها ويتملك من الخصر، يرفع ذراعها بطوله بمحازاة كتفها ويحيط بكفها داخل دفء قبضته ويدور بها فتتطاير أطراف ثوبها مشكلة دوامة تشبه برائتها..

يرفع ذراعها للأعلى تلك المرة متمسكًا بنهايات أناملها ليديرها حول نفسها في مواجهته وتبتسم وتحمر الوجنتان وتلتمع عيناه..

يعيدها قربه، يضمها إليها ويطوف بخطوات راقصة والثوب يشاركهما الرقص بفتنة، وهي بين يديه كدمية بالفعل، يميل بها قليلًا فتضحك، ويتأمل دون حروف تقاطع اللحظة..

ويعود ليدور وتدور هي معه وعقلها يضيع فيه أكثر..

وينهي الرقصة بتملك من قبضتيه لخصرها.. يحملها عاليًا وتتردد ضحكاتها النقية مجددًا، يلف بها وأخيرًا تهبط على قدميها لكنها لم تكن تمسُ الأرض، بل تلامس الغيمات الوردية وأنفاسها صاخبة متلاحقة.. يطوقها بذراعيه ويقترب، يغوص في عينيها بنظراته ويطبع الخاتمة فوق شفتيها منهيًا المشهد بما يليق به!

برجفة طفيفة لامست جسدها وروحها أبعدته عنها عندما شعرت بيديه تخرجان عن الدور المرسوم لهما، وشهقت بتأنيب تمازج مع حيائها:

- آمر!

لكنه منح صدرها فرصة راحة الأنفاس دون يفلتها من حصاره، أحنى رأسه يتمعن فيها ببسمة تلذذ وهربت هي بنظراتها حتى همس باسمها فتاهت بعمق رمادية مقلتيه كغيمتين تمتلئان بالمطر:

- عيناكْ!

- ما بهما؟

وزوى ما بين حاجبيه ينتظر التتمة:

- لونهما يتغير تبعًا لحالتك المزاجية!

وكانت بنبرة خجل اتسعت لها ابتسامته وجاورت رفعة حاجب ماكرة:

- تخيفاني أحيانًا.. ورغم ذلك لا أشعر بالأمان إلا معك.

- لا تخافيني.

تلمس بأنامله ملامحها الرقيقة فتعانق جفناها استمتاعًا أو هروبًا:

- أخيف البشر كلهم.. إلا أنتِ.

- أنت لا تفعل.. أنت أماني.. بل عالمي كله!

وباعدت بينهما تمنحه بنفسها طوق نجاة نحو مرفأ.. وطنٍ وسكنٍ قربها.. معها، علّها في يوم تزيح التراب عن ماضيه ويجيز هو.. طافت عيناه فوق وجهها للحظة

واستقرتا عند شفتيها عقب ما نطقت به.. وكأن ما قالته أفلت منه الزمام فهمس:

- يا إلهي!.. وأنتِ...

واكتملت الأحرف المبتورة بين شفتيها، بل بضمة وازت شدتها قسوة ذراعيه حولها حد أنها لم تستطع الإفلات منه مع دفعها لكتفيه، ولأول مرة يترك لنفسه العنان.. يتذوق منها ما شاء تاركًا ثغرها حتى أفاقه صوتها الضعيف:

- آمر.. لا تتمادَ.

انقطع تواصله معها عقب همستها الخافتة بوهن أوقفه رغمًا عنه، ابتعد يعُب الهواء ببطء وتراجع ينظر في عينيها.. وأرعبها ما رأت هناك بين جفنيه..

عواصف ربما، أعاصير وموجات داكنة متتابعة تشتت لها كيانها كله:

- اذهبي للنوم الآن.. تبدين مرهقة.

- ماذا!.. لكنني لم أبقَ معك لوقتٍ كافٍ!

بل حتى لم نتناول عشاءنا سويًا كما خططتَ أنت!.. أكملتها بعقلها عندما وضع سبابته فوق شفتيها يمنعها المزيد:

- ليس من الأمان أن تبقي معي الآن.

وكان لا يفهم ما يمر به وذاك يغضبه!.. امتلأت النظرة بدهشة سبقها أيضًا قبل بداية الاعتراض الثاني:

- عودي لغرفتك.

حتى انعقاد حاجبيها بدا طفوليًا وتذمرها عفويًا لا يمت للخبث بصلة لكنه أخرسها تمامًا بحديث يبتر به كل احتجاج كانت على وشك النطق به:

- سأتمادى سديم ولن يرضيكِ ذلك.. اذهبي.

توسعت عيناها بلمعة عسل خالصة كبَّلت حدقتيه، تراجعت مبتعدة من بين يديه بشهقة مذهولة:

- رباه!

واستدارت على عقبيها تركض، تفتح الباب وتغادر ولم يستطع مع ما رآه مرتسمًا على وجهها، بل حتى مع خطواتها المتعثرة وهي تصعد الدرج وتتوقف أعلاه تلقي نحوه بنظرة أخيرة قابلها ببسمة خبيثة وخطوة اقتراب أجفلتها؛ لم يستطع سوى..

الضحك.. ومن عمق قلبه..

كأنما لم يضحك من قبل أبدًا!

وفي غمرة خجلها وفرارها وتلك السعادة التي تناطح الحزن بين جنبيها.. لم تنتبه أنها لم تسأل، لم تحاول.. تناست أو نسيت، وفاز هو وتأسست القاعدة التي على نهجها ستكون حياتها معه..

ولو قصُرت!

***

للعشق قوانينه الخاصة.. للعشق قوانين أخرى!

وفي دروب العشاق هي أبدًا.. لا تحمي المغفلين..

نعم هي مغفلة وكبيرة أيضًا، تجاهلت أجراس الإنذار التي تفجرت بوجهها منذ لحظة اللقاء الأولى، استجابت لضعف غريزي تجاه رجل لا يمثل لها سوى جحيمًا الاقتراب منه يوازي الهلاك..

ومع ضعفها نبت ضعف جديد بقلبها الذي رغم ما مر به، رغم عمره ورغم زواج سابق.. لم يسكنه غيره، ولم يتمكن من عرشه إلاه..

هو العابث، الماجن.. الرافض لكل التزام أو حتى مشاعر!

هو نفسه الذي همس بين ذراعيها باسم أخرى قبل لحظات!

همسة لا تعني إلا أن قواعده تغيرت، قوانينه انكسرت.. وتلك "الأخرى" قد تخطتها ودون إرادته..

مدت أناملها تمسح عبرة غادرة هزمت جفنيها، رشت بعض الماء البارد فوق وجهها وعادت إليه ببسمة مفتعلة تداري بها..

خيبتها!..

نظرة تستعيد معها قوتها، وفكرة تولد بين ثنايا عقلها تخبرها عن حتمية.. بل وجوب قرار!

لكن استقباله هو كان حارًا شغوفًا عندما جذبها إليه ثانية لينسى نفسه ويتناسى ما يشعر به، يدفنه في خبايا أنوثتها علَّه يعود لواقعه الذي يعرفه..

من بين كل الحروب حرب الأفكار هي الأقسى..

معركة الشوق، والهزيمة أمام الافتقاد.. الاعتراف به والإقرار أن الغائب، غيابه فاق الاحتمال!

انتصار أعلن أنه المدحور في مواجهة غير محسومة مع الهاربة، وفرار قام به هو في أحضان امرأة غيرها كأنما يعلن لذاته..

"أنا كما أنا.. لن أتغير، كل ما في الأمر محض فضول ومحاولة متطلبة اختلط فيها اليأس مع رغبة الفهم للوصول لهدف.. أنه قوض التمثال، ورقص فوق حطامه"

لكن حتى شرود عقله فيها..

وفي هذه اللحظات بالذات؛ يثبت له كذب إدعائاته، يخبره ألا مناص من الإذعان لذلك الاشتياق، وأن الاستسلام لتياره هو الاتجاه الوحيد المتاح..

تراجع مبتعدًا يستند بظهره لوسادة خلفه، هدأت أنفاسه بينما يدس لفافة تبغ بين شفتيه ويشعلها، تلحفت هي بغطائها إلى جواره توليه ظهرها، صمت شاردًا لدقائق ثم نظر نحوها بغير فهم.. نفث دخانه قرب وجهها، وبسبابته مر فوق ذراعها بتمهل:

- ما بك!

وأقسمت ألا تبكي.. لا، ليست هي من تبكي!.. الاختيار اختيارها والمسئولية لن تثقل سوى عاتقها وحدها..

للمرة الثانية يكرر النداء باسم صديقتها، كأنما يناجيها.. يتوسلها الحضور، يتمنى لو تبادلت معها هي الأماكن ليكون مستقرها بين ذراعيه وبلا وعي لما ينطق به، لم ينتبه البتة، والأمر برمته تحول لعبث لا طائل منه..

شعرت به قرب أذنها وهمسه الملتوي الماكر يشاكسها:

- لا تقولي أنني لم أكن جيدًا بما يكفي!

وابتسمت ساخرة تردد بين جنبات روحها:

"بل أكثر مما يكفي.. لأنك كنت تتوهم غيري بمكاني"

سحبت نفسًا عميقًا وقررت الالتفات والمواجهة، استدارت إليه تراقب نظراته التي تفحصت ملامحها من علو بتساؤل:

- أنت أرهقتني فحسب.

وتحول المكر لخبث، وانتشى الذكر بدلال أنثاه ولأن القلب والعقل والكيان في حالة صراع لا يرى له نهاية وفي الوقت الحالي لا يفتش عن واحدة؛ فقد أطفأ اللفافة، أحاطها بذراعه ومال بدمدمة حارة:

- ما رأيك في المزيد من الإرهاق إذًا؟!

فرصة الرد ضاعت بخضوعها، وتيه في كهف بعتمته يخفي داخل أعماقه جلبة أفكاره.. ينسى منها ماشاء مع أنثى تمنحه ما يحتاج.. وقتما يحتاج!

***

الحياة لا تمنح الفرص في الوقت بدل الضائع..

هو ذاته فرصة اقتنصتها قد تفوز.. أضعتها فالنهاية خرجت من بين يديك لبين يدي المصير وليس هناك فائدة من العودة إلى الخلف..

وهي امرأة لم يعد لديها ما تخسره.. امرأة فقدت الدافع والأسباب.. وتلك تدخل في خانة الخطر!

الوقت فقط يمر من حولها، وتجمدها في مكانها لا يعني قبولها باختيار القدر عنها، ربما هي تكمن في الظل حتى الوقت المناسب للهجوم كعادة كل الضواري..

وربما أيضًا ذاك ما تقنع به نفسها في محاولة للاستمرار إلى جوار من يهوى القلب رغم إعراضه عنها!

"الخسارة مؤلمة.. صحيح!"

بصوته قسوة اعتادتها منه مؤخرًا، قسوة تنبئها أنها عبثت مع الرجل الخطأ عندما حاولت الانتقام لكرامتها الجريحة بعدما خطا فوقها المعشوق بلا اكتراث:

- عن أي خسارة تتحدث سيد غيث؟

- خسارة الأفعى في مواجهة المنمنمة.. أظنك تعرفين ذلك جيدًا!

ببرود نبرة ومتعة نظرة تسحق ما تبقى في روحها من أمل قبل أن يستند لمكتبها ويميل فوقه مقتربًا بهمس خشن فظ:

- تعرفين أن الحرب انتهت هذه المرة.. ربما.

ولمعت بين أهدابها دمعة لم يرِق لها قلبه وهو يلوي شفتيه ساخرًا، يتجاوزها نحو حجرة شريكه ليدخلها عبر بابها الموارب دون طرق..

وتجسدت المفاجأة باصطدام.. قامة طويلة ممشوقة، خصلات كستنائية معقوصة بصرامة حادة وعوينات طبية فوق مقلتين غارقتين في بحر العسل الرائق وشبه احتضان بعد ارتطام الجسدين أمام الباب بلا سابق إنذار..

تراجعت تتحرر من دعم ذراع "غيث" لخصرها بحماية من سقوط محتمل، تتماسك بسرعة تثير الإعجاب ورفع هو حاجبًا مندهشًا.. أومأت له باعتذار لم تتضح أحرفه وغادرت الغرفة تتبعها نظراته لتستقر فوق مكتب زوجة صديقه المختفية منذ أكثر من أسبوعين، أغلق الباب من ورائه وأشار بتساؤل:

- حسنًا.. من هذه!

رفع "آمر" رأسه إليه بابتسامة مرحبة ولمعة عينيه تشي بالغموض:

- هذه "حياة".. مساعدة جديدة ستعمل بمكان سديم.

- وهل أخبرتها؟

- أخبرت من؟!

جلس فوق مقعد مقابل لمكتب صديقه، وضع ساقًا فوق أخرى وأشعل تبغه بتحدٍ دون أن يأبه للنظرة الناهرة التي اعتلت عيني رفيقه:

- زوجتك بالطبع.

وانعقد حاجباه فور تغير النظرات لمستخفة هازئة:

- حقًا!.. وهل تظنني سآخذ الإذن منها أولًا.

- هذا مكان عملها.. لا تتعدى على الحريات يا رجل.

وقهقه الاثنان.. ذاك التفاهم غير المنطوق بينهما يجعل كل منهما يدرك ما يدور بعقل الآخر بلا جهد يذكر حتى وإن أحاطت دائرة غامضة بمنطقة ما من أفكار "آمر".. لكن تظل البقية الباقية متاحة لصديقه.. يفهمها، يتجاوب معها.. ويتصرف على أساسها:

"لقد عادت"

اعتدل "غيث" ببطء من جلسته المتراخية إثر الجملة الخبرية القصيرة، تجاهل ما نطق به "آمر" بتلاعب واضح، رمقه بنظرة جانبية وادعى اللامبالاة:

- من تقصد!

- حقًا!!

وزوى ما بين حاجبيه، استند بمرفقيه فوق مكتبه وتوسعت بسمته الماكرة تجاور النبرة اللعوب:

- كنت أتحدث مع باسل.. وعرفت بالصدفة أنها عادت.. بالأمس.

رجفة الفك، رعشة الشفاه.. ولمعة العين خلف النظرة المهتزة كلها جعلت شكه يقينًا.. الخليل يتغير، وذاك التغيير يرفضه كما يرفض هو ما يمر به، لكن ربما خوض اللعبة هو الحل الأمثل لكسر تعويذة السحر:

_ اذهب إليها.

- ماذا؟

ونهض يواجه النافذة، يشعل لفافة تبغ أخرى قبل أن تنتهي الأولى المستقرة فوق مرمدة قريبة، وتبعه شريكه، يربت على كتفه ويجبره على مواجهة:

- الهجوم خير وسيلة للدفاع.

تشددت قبضتاه والآخر يدفع المزيد من الوقود للاحتراق:

- المغامرة في حد ذاتها فوز غيث.. خُض التجربة فربما...

- لا.

قاطعة، حادة، تجذُ عنق الأفكار بلا مزيد من المبررات، ومنحه نظرة قاسية امتزجت فيها ذكرى الماضي بحاضر مقيت لا يفتأ شبحها يطارده فيه:

- لا.

مؤكدة تقرر عنه ما يجوب بخياله، وخرج لا يلوي على شيء تصاحبه تنهيدة حارة غادرت صدر "آمر" وهو يدرك..

أنه في طريقه إليها مهما أصر على العناد!

***

الانتظار مؤلم، كذلك النسيان مؤلم.. لكن عدم معرفة أي منهما يجب عليك القيام به؛ هو أسوأ أنواع المعاناة!

"باولو كويلو"

للمرأة في قوانين العشق الأزلية.. فصول!

ورجلها رغمًا عنه مهما شكَّلها بيديه ليس فوق هذه القوانين، تجمده في شتائها، تشعل ناره بصيفها.. تزدهر معه في الربيع، وتخور قواها فتسقط بالخريف.. في جميع الأحوال يكون هو هناك، يتغذى بنهم على ما تمنح ويتوق للمزيد، وهي لا تتوقف حتى النضوب!

لكن لعشق الرجال لا توجد قواعد أو أصول، جامح هو كجواد بري عنيد، لا يروض إلا مع واحدة.. وحتى هي لا تملك كامل السيطرة على اللجام!

وبداية العشق شوق، والاعتراف به مأساة!

وهو الآن يعاني من تلك الكارثة، أسبوعين بعمر دهر غابت فيهما عن العمل والمدينة بأكملها، هروبًا ربما، ترتيب أفكار، إعادة نظر!.. كل ذاك غير هام، لأن كل ما يهمه في هذه اللحظة أنها عادت، وأنه يقود سيارته ضاربًا بكل قوانين المرور عرض الحائط.. فقط ليراها!

مهما أثبت ذلك صحة وجهة نظر صديقه، أو طبق نظريته التي رفضها قبل قليل..

بلهاث أحكم السيطرة عليه وقف يراقب شحوب ملامحها، الذبول الذي اعتراها، والتيه الذي بدا على وجهها بينما هي لم تلمحه بعد.. زجره قلبه:

"أنت السبب.. حطمت ثقتها بنفسها وبقدرتها في الحكم على البشر!"

والعقل والضمير يخرسانه:

"كانت تستحق معرفة الحقيقة، خداعٌ أكثر يعني ألمٌ أكبر"

والفؤاد يمتلك الجرأة، يبيح لنفسه حق الرد بصراحة:

"لم يكن الأمر محض استحقاق، أنت فقط أردت أن تحسن من صورتك بتحطيم صورة أمك في قلبها"

وربما كان صادقًا، ولن يعترف بالدافع، هو فقط أراد ذلك وإرادته أمر واجب التنفيذ:

- كارما!

لم تتفاجأ بوجوده، توقعته في أية لحظة ولم يُخيب ظنها، تمعن في عينيها وانطفاء اللمعة المتحدية بهما، ومن همسته باسمها وخلف تطلعه بدت نظرة شرهة تعلن الشوق!

- ماذا تريد؟

- أريدك!

- فقط ألقِ ما بجعبتك وارحل.

باترة ترفض السماع، تحرك نحوها بخطوات ثابتة متمهلة، بدت ساكنة مستسلمة ضعيفة، وذاك الوهن أغضبه قدر عنادها تمامًا:

- ماذا بك؟

- أنا بخير.

بآلية جامدة لا تحوي نبض حياة:

- أين كنتِ؟

- عمل.

واكتفى، ردودها المقتضبة بإذعان أثارت غيظه فقرر إشعالها باقتراب متجاوزًا به كل حد، ومال يستند بقبضتيه فوق مسندي مقعدها، يواجه عينيها، ويتحداها رد الفعل:

- إفتقدتك.

خرجت منه دافئة مشحونة بمشاعر شتى أجفلتها رغم محاولتها الصمود:

- انسيّ الماضي كارما.. لا تتعلقي به فهو لا يخصك.

جابهت عيناه وعادت تلك اللمعة تخطف أنفاسه:

- سأنساه؛ إن كنت ستفعل أنت.

تراجع بحركة مباغتة، ونهضت هي تبتعد عن دائرة قربه.. راقب فرارها وزم شفتيه فوق نبرة حانقة:

- ماضيّ أنا ترك ندوبًا كارما.

وشرد بنظراته يزفر بحرارة ألهب كتمانها صدره:

- تلك الندوب ليس من السهل محو آثارها بعملية تجميلية.. ربما لأنها بأعماق الروح.. وهذه لا شفاء لها.

- التسامح الحق لا يستلزم نسيان الماضي بالكامل..

جملة خاطفة أجبرته على استدارة حادة فأردفت بهزة كتف:

- مانديلا.

وهزأ محاولًا الفرار من هالة سيطرتها:

- وتقتبسين أيضًا!

تعانق جفناها ترفض رؤية تلك النظرة التي اعتلت عينيه:

- ما أشعر به فقط.

- أتعلمين ما أشعر به أنا في هذه اللحظة؟!

نبرته بدت مستاءة تحمل سخطًا جليًا لم تفهمه!..

لكن مع لقاء المُقل انتشر بداخلها خوف، خوف امتزج بخطواته الدانية منها حد مسافة اختلطت فيها الأنفاس:

- بل.. هل تدركين ما هي مشكلتي معك كارما؟

همسه أجش خافت، هزت رأسها بنفي خاضع لسطوة قتامة عينيه:

- ذلك الساكن بين ضلوعي.. كنت أحسبه مضخة حياة وكفى بها مهمة له!

انعقد حاجباها.. والقلق جاور الخوف والتوجس وازى الحيرة بينما هو يكمل بقبضة تضرب صدره بقسوة:

- لكنه خانني!

ومال أكثر وتراجعت تتمنى هروبًا وساقاها تعاندان:

- خانني ونطق باسمك في غفلة مني.

والحيرة هذه المرة تمازجت مع الهلع، لا تفعلها!..

تمتم بها عقلها، رفضها قلبها، والفزع الذي رآه على وجهها أجبره على الاستمرار بلهجة شرسة لا تمت لكلماته بصلة ليفجر قنبلته:

- أنا وقعت في حبك دون أن أدري.

وأعقبها بتأوه وحبست هي بصدرها شهقة وصخب الصمت حلَّ على المكان!

- أنتِ غيرت قوانيني.

باتهام حاقد ملأ صوته وكُره غريب أتبع لفظة حب!

- حطمتِ قواعدي واخترقتِ حصوني.

والنبرة باتت حادة بوحشية!

- أنتِ امرأة.. وأنا أحتقر كل النساء.

بتقرير تؤكده عيناه ولهجته ولغة جسده، تراجعت أخيرًا تحيط كيانها كله بذراعيها:

- ثم ظهرتِ أنتِ.. أنتِ؛ نقيض كل أفكاري وقناعاتي، فتعثرت بكِ دون إرادة!

دمعاتها سالت خارج حدود التحكم، وصوتها الجريح المشروخ دل على ما بها بلا جهد:

- أنا لم أطالبك بذلك.

- أنتِ أجبرتِني!

صراخه أجفلها ونفض جسدها حد رجفة تسللت بخبث نحو خافقها فاختلج بين ضلوعها:

- بكل حرف وكلمة ونظرة ولفتة منك.. بكل رعشة خوف ووقفة تحدٍ، بكل عناد واجهتِني به، بل حتى بعيوبي التي ألقيتِها بوجهي.

ورفع كفيه بتسليم أخير.. وتحولت نبرته لأبحة جاور فيها الشجن شغفًا بدا غريبًا:

- أحببتك.

وصمت، انتظر.. وطال الوقت ولم ترد، بل لم تنظر إليه، وكان يعلم أن ما فعله خطيئة!

كيف ترك زمام نفسه حتى فقد السيطرة!

كيف تناسى أن لكل فعل رد فعل، وهجومه عليها وازى هجومها على قلبه!

وكيف يمكنه التراجع أمام طوفان مشاعر لا يملك معه سوى.. الغرق!

أفاقت من تيهها على صوت باب مكتبها ينغلق خلف خطوات رحيله.. ونظرت، وسكنت.. والتبست الأفكار.. سقطت فوق أقرب مقعد والنفس تهمس:

"لقد اعترف بما خمنته.. اعترف بحبه وبأسوأ طريقة ممكنة!.. اعترف كأنه إثم لا توبة منه، ولا شفاعة له!"

(١٨)

المرأة في الحب تغفر حتى الجريمة.. أما في البغض فلا تغفر حتى الفضيلة..

"الفيكونت دوشاتوبريان"

***

حدثوني عن الحب فقالوا أنه لهفة.. رجفة.. لمسة.. ونظرة لا تعني سوى سؤال عن متى اللقاء!

قالوا لي أنه بحر هائج لا تُدرَك تفاصيل مَوْجِه، ولا يتحكم بمدها وجزرها سوى أعاصير.. أعاصير تهب فتدفعها نحو الحافة، تأكل في طريقها الكثير ولا تبقي شيئًا عندما تعود..

وأخبروني أنه مخيف.. مؤلم.. ومحرك لجنون الشغف!

مخيف كسعير لا مهرب من ألسنة لهبه، مؤلم كحد سيف لن تكمل طريقك دون المرور فوقه، والشغف معه هو نقطة البداية.. التي يتغير بعدها الكون بأكمله..

كما تمتموا في أذني أنه دخان.. ينتج عن نار، ينتهي لهواء.. وفي الطريق بين النقطتين يحرق الكيان ويخطف الأنفاس..

وفي الختام حذروني..

أخافوني ونبهوني..

يا طفلتي.. لا تسلمي مقاليد أمر قلبك للحب.. لأنه إن استمر فسيهلكه، وإن انتهى قبل الأوان سيضنيه!

وقبلها وضعوا روحي على أول درب متاهات العشق، دفعوها للدخول وتركوها تتخبط بين جدرانها بفوضى حائرة.. فلا التحذيرات أعانتها، ولا هي رسمت خريطة تهرب بها من فخه.

فيا أهل الغرام!..

هل من غوث!

لكن هل تبحث الأنثى عن النجاة من الغرق فيمن تحب؟.. أم تنشد التيه فيه أكثر!

لأنه بكل بساطة أفكارها، رقة مشاعرها، براءة وعفوية قلبها العذري.. تريد أن تنسى نفسها، لا بل هي بالفعل تنساها معه، تندمج فيه.. وكيانها يخضع لإرادته متحديًا إرادتها الخاصة، قاهرًا كل عقل، متمنعًا على المنطق ومذعنًا لمن سقطت في هواه.

أسبوع آخر مر.. لاتزال في أجازتها الجبرية، وأيضًا لم تمتلك بعد شجاعة السؤال رغم الفضول عن ندوبه التي هاجمها يومها يطالبها بالتمعن فيها هاتفًا بأن هذه النظرة ستكون الأولى.. والأخيرة!

أنهيا طعام العشاء.. وبعد حديث قصير أمسك بيدها يصعدان الدرج متجاورين، لم تقاوم واختارت الطريق الأسهل بسؤال ربما يجر وراءه آخر رغم شك يساورها أنها في الغالب لن يفعل:

- آمر.. متى سأعود لعملي؟

توقف هنيهة بتفكير، عاود بعدها الصعود وهي تتأمل جانب وجهه المبهمة تعابيره:

- لن تعودي.

وصلا أعلى الدرج فتوقفت بمفاجأة:

- ماذا؟.. لكن أنت أخبرتني أنها مجرد أجازة بعدها..

- بعدها سأقرر عودتك من عدمها.

قاطعها بنبرة خشنة باردة، واستدار إليها دون أن يحرر كفها:

- أنا بالفعل وجدت أخرى لتحل محلك بالعمل.. زوجتي لن تعمل سديم.

- أنت تزوجتني وأنا أعمل.

- وبعدما تزوجتك.. لا عمل.

- لكن..

مد أنامله يخرس شفتيها بلمسة ضاغطة حازمة:

- هذا قرار لا رجعة.. أو نقاش فيه سديم.

ورغم عنادها فقد رقصت بداخلها الأنثى طربًا.. أنثى تبحث عن الدلال ووقتما وجدته لا تمانع الاغتراف منه، لكنه فقط عقلها الذي يعاند ولسانها الذي ينطلق بفطرة مهلكة:

- أنت.. أنت!..

رفع حاجبًا يتحداها أن تكمل، أو ربما يجد متعة ما في عجزها عن وصف.. ورفعة حاجبه ضغطت زر عصبيتها أكثر فانفجرت:

- أنت ديكتاتور وأنا أرفض ذلك.

وغزَتْها ضحكته المجلجلة فأنستها غضبها وضيقها وكل ما انتوت الصراخ به في المقابل خاصة وهو يتراجع بها نحو غرفتها فنظرت خلفها مخافة السقوط:

- تعاملي مع ديكتاتوريتي.. فأنا لن أتغير صغيرتي.

- آمر.. ماذا تفعل!

أسند ظهرها لبابها وأمسك مرفقها بقبضته، وبكف الأخرى استند خلفها:

- اسمعيني سديم لأنني لن أكرر كلامي..

ومال بوجهه يقابل نظراتها المغتاظة:

- لا عمل.. قرار ونقطة وانتهى السطر.

فغرت فاها بذهول من تحكمه وتابعت نظرته وردية شفتيها الناعمتين المنفرجتين دهشة.. فتأملهما لحظة قبل أن يدنو أقرب، يهمس أمامهما بنبرة أجشة:

- وعن هذه.. فهي دعوة لن أرفضها غيمتي.

وابتلع كل اعتراضاتها بل حتى صراخها المكتوم خلف شفتيه وهي تعاند بمحاولة ابتعاد، تدفع صدره، تلكم كتفه.. وتهمهم بغضب كاد يضحكه مجددًا.. مد يده يفتح الباب ودفعها واندفع معها للداخل، يرفض تحريرها وهي بدأت بالفعل تهدأ بين يديه.. تحولت سيطرته لرقة، وتبدل التسلط لشغف تآمر على عقله فغاب معها فوق غيمتها الحالمة وهي تستكين داخل حصاره..

ثوان وحررها.. ثوان وابتعد ولم يبتعد.. ثوان وتاه ولأول مرة في البركة الرائقة من العسل المنغمسة فيه حبات الزيتون اللامعة فتسبب له المزيد من الحيرة..

كانت تلهث، تنظر إليه تدعي الحنق، تتلافى الخجل، ترفض الهرب، ومع اختلاف نظرته هو لم تفهم.. عم الصمت لكن صخب القلوب كان أوقع!.. ولم يصدق عندما سمع نفسه يهمس بشرود:

- سديم.. أنا لا أعرف نفسي معك.

بدا لها ما قاله غريبًا، لم تفهم!..

هل ذاك اعتراف غامض بحب يغيره، أم سخط على ما يمر به أثناء القرب!.. نبرته قدر حيرتها قدر حرارتها وقدر ضيق ما اعتلاها بوضوح جعل جبينها يتغضن وصوتها يتعثر في ارتباكها فشردت أحرفها حائرة:

- وهل هذا شيء سيء؟!

تستفهم، تتعجب.. تخاف، وهو تلوت أحشاؤه، انطبقت سماء قلبه على أرضه وعيناه خاضتا في بحر ظُلمة هي مهربه الآمن:

- بالنسبة لشخص اعتاد التحكم والسيطرة على كل الأمور حتى الصغائر منها..

وصمت، ثانية.. اثنتان.. ثلاث وبعد الرابعة عقد حاجبيه واللهجة ظهر بها الغضب سافرًا رغم خفوتها:

- هذا مخيف.

اقشعر بدنها، تسللت رجفة خبيثة نحو خافقها، تلاحقت أنفاسها فأحنى رأسه يغوص بعينيها:

- أنا أفقد معكِ سيطرتي سديم.

وتلفت بعينيه حوله:

- على ما يحيط بي.

وعاد إليها، يمر فوق ملامحها بنظرات هادئة شبه تائهة.. نبض بها خوف ما قبض قلبها:

- والأدهى.. على نفسي.

وأنهى صراع الأفكار المنهِك.. حيرة القلب، والكيان الشارد في لُجة مغوية لا يملك معها إلا أن يغوص في أعماقها أكثر، يغرق ويتناسى ويطفو ويتيه والسطح بعيد والأنفاس حبيسة الصدر..

أنهى كل ما يجول بخاطره بضياع في دفئها.. لأنه هناك..

هناك فقط..

يجد آخرًا أسقطه من ذاكرته منذ زمن ولم يظن يومًا أنه من سبيل لعودته!

***

أحيانًا تتمثل رصاصة الرحمة.. في اعتراف مباغت بعشق!

لكن.. هل كانت رحمة، أم وجعًا جديدًا يضاف لمزيج أوجاعه التي لا تنتهي وأبدًا لن تنتهي؟!

وجعًا شمل أخرى هذه المرة عندما فجر القنبلة ولم يهتم لما خلفه ذاك الانفجار، بل تركها تلملم أشلاء نفسها ورحل هو يبحث عن ذاته..

رصاصة أطلقها على الشوق.. على الحنين، على نار تأكل دواخله ولا رادع لها إلا كلمة "أحبك".. نطقها لسانه فانطفأت لواعج القلب وتأججت نيران الغضب.. نيران غضب لم تخمد بعد رغم مرور ساعات دار فيها بسيارته تائهًا في الشوارع الساكنة حتى منتصف الليل، ليجد أنه في النهاية ذهب إليها..

ملجأ راحته المؤقت الصامت المتقبل بقدر ما يمنح دون تطلب أو اعتراض..

"جوان!"

ولأنه يعلم بسفر أخيها وهي في العموم تقيم وحدها فقد صعد إليها دون إنذار وبعد سؤالها المذعور عن الطارق وقبل أن تتأكد عيناها من صورته خلف عدسة بابها كانت تفتحه وكان يقتحمه!

ولم يشعر بشيء إلا بعد ساعات طالت وقد أوشك الفجر على البزوغ، تأمل باب حمامها الذي اختفت ورائه قبل قليل، ورغم وصول صوت الماء لأذنيه فقد نهض يتبعها يبحث عن مخدر أقوى ليفاجأ بقفله المحكم من الداخل..

عاد للفراش متأففًا وأشعل تبغه يحرق مع أنفاسه فؤاده الذي أجبره على ما يرفض.. هو لا يكاد يصدق أنه نطقها.. بل لا يصدق أنه بالفعل..

يعشق!

هو رجل خُلق من نار أشعلها ظلام ماضيه، ظلام تحكمت به امرأة وإذ به يغرق في واحدة، أي فوضى هذه تبعثر لها إيقاع حياته الروتيني الهادئ!

بعدها أعلن غضبه بين ذراعي أخرى، تناسى.. تجاهل.. وكانت صورتها تخضعه أسيرًا وتقهر عنفوان إرادته، تمناها، اشتهاها، عاندها.. غضب منها ثم سقط في هواها، معادلة صعبة، بل مستحيلة وهو الأخرق الذي لم يجد لها حلًا.

انتبه على خروجها بكامل ملابسها، رمقها بنظرة ماكرة تمازجت بها سخرية:

- ما هذا!

بادلته النظرة بجدية رسمت ملامح وجهها الجامد:

- أريد الحديث معك في أمر هام.

نهض يستند لركبتيه فوق الفراش ومد يده يجذبها بغتة، سقطت فحاصرها والتوى فمه بعبث:

- أجلي الحديث.. أنا لم أنتهِ بعد.

دفعت صدره برفض واضح فاجأه:

- لا غيث.. الأمر لا يحتمل التأجيل.

ذاك الرفض وتلك النبرة توجس لهما، ناظرها بتساؤل أدارت عينيها هروبًا منه فحوله لصوت:

- ماذا هناك جوان؟!

نال منها تأملًا لحظيًا لم يطُل قبل أن تغلق جفنيها لثانية:

- فقط دعنا نتحدث.. من فضلك غيث.

ودفعته من كتفيه بإشارة جلية توحي بنفورها أكثر.. حررها بضيق، فملجأ الراحة يتمرد وفي التوقيت غير المناسب.. تابعها بعينيه وهي تتوقف أمام باب الغرفة:

- سأعد لنا قدحين من القهوة.

- تعلمين أنني أكرهها.

وكانت قد استدارت، تجمدت تفكر ثم تمتمت:

- حسنًا.. سأحضر لك عصير التفاح كما تحبه.

وغادرت وامتلأت نفسه بالشك أكثر، لكن لا مفر من الاستسلام لرغبتها حتى لو كانت جوارحه كلها تطالب بغيبوبة مؤقتة لن يمنحه إياها سواها..

"أنا أريد الفراق"

هكذا بادرته، وانقلبت ملامحه لتوحش مباغت أغمضت عينيها عنه كي لا تظهر خوفًا أو حتى تراجعًا ضعيفًا أمام حبٍ يملك عليها كيانها، لم تشعر بهجومه، بهياجه.. بجنون غير مبرر أصابه بينما يقبض على ذراعها بغلظة:

- ماذا؟!

- أريد الفراق غيث.. هذه العلاقة انتهت.

- ومن منحكِ الحق بإنهائها؟

واشتعل غضبها في المقابل..

هو يبخسها كل شيء، يمنعها كل حق، ويستكثر عليها حفظ ماء الوجه والكرامة:

- ماذا تعني!.. أنا أحد طرفيها، لذلك أملك كل حق ممكن مثلك تمامًا.

ودارت حرب بين أعينهما، عتمة مقلتيه ارتجف لها قلبها، وشجن مقلتيها أثار بنفسه الكثير، ترك يدها ومرر أصابعه في خصلاته محاولًا إدعاء اللامبالاة:

- هل هناك آخر!

نظرتها الجريحة كانت الجواب المثالي، لكن لسانها نطق بحدة:

- أنت لا تملك الحق في هذا السؤال.

وقبل اندفاعه نحوها مجددًا باشتعال لمحته في عينيه كان تردف بنبرة جاور فيها البرود المفتعل حزنًا لم يغفل عنه:

- خاصة وأنك أنت من لديه أخرى.

تيبس في موضعه، لم يجد ردًا يبيح له سؤالًا أغرق عقله، لكنها هي من أوضحت بتماسك مثير للإعجاب:

- أخرى نطقت باسمها كأنك تناشدها تبادل الأماكن معي لتصبح هي بين ذراعيك غيث.

- ما الذي تهذين به؟!

- كارما.

تسارعت أنفاسه وتعالى ضجيجها بصدره مع ذكر اسمها..

مع إدراك شناعة فعلته، مع جرم تلبس به مشهودًا دون وعي ولا يحتاج بعده لدليل إثبات أو حتى نفي!..

وسبَّ قلبه الخائن من جديد..

- أخبرتني من قبل أنك لا تخون غيث.

تأملها وانكسرت نظرته بخجل غاضب رغم العناد:

- لا أريدك أن تتحول لخائن.. فتخون قلبك معي.. أو تخونني أنا بمشاعرك لها.

واقتربت تربت على كتفه وانسابت يدها نحو خافقه تتحسس جنون نبضاته:

- لن أكون ملهاة لك.. ولن أكبل روحك بقيد إخلاص لم تعد تملك منحه لي.

وأمسكت بذقنه تجبره على مواجهة عينيها:

- اذهب إليها أو لا تذهب؛ هذا شأنك.. فقط اتركني أنا لحالي.

حشرجة نبرتها مع كلماتها الأخيرة بدلت شكه ليقين، هي تحبه!

هي مختلفة.. وتحبه!

وتلاقى جفناه يدرك أن لديها كل الحق، فـ"كازانوفا" لن يستمر مع عاشقة، والعاشق كذلك لن يخدعها.. وأنثى مثلها.. تغاضت عن كل شيء حتى الحب لأجل كرامتها.. لن تمنحه أكثر!

مد يده يمسك بكفها المستريحة فوق صدره، تراخت أصابعه حولها وهو يبعدها عنه، يمنحها نظرة أخيرة توحي بوداع.. يلتفت، يفتح بابها ويغلقه من ورائه دون مزيد..

وبعد صمت قصير كانت دموعها المُدَّخرة للحظة ملائمة تغادر مكمنها بين ضلوعها..

نعم.. فالقلب كان هو من يبكي هذه المرة!

***

في هوامش كل أنثى تفاصيل مبهمة.. تتجاهل وجودها حتى يظهر "هو".. ينبشها مبعدًا عنها ثرى اللامبالاة؛ ليدخلها في دوامة قيد.. يمتلك زمامه بقبضته..

وبعدها..

يدفنها تحت تراب "الأنا" خاصته!

"أنا" تتفوق بمنطقه على كل معاني الإيثاروالعطاء وإنكار الذات..

"أنا" هي رقم واحد واثنان ومائة وما بعدها مجرد كسور بقيمة لا تكاد تساوي الصفر، خاصة لو تضمنت امرأة جميلة أنيقة ببساطة، حازمة إلا في مواجهته، تساعد في بناء العش بمعظم القش وإن كان معنويًا يستهلك ذاتها وكيانها وتقدس حياتها الزوجية معه.. تمنحه من فيض أنوثتها، ويبخل عليها كعادة الشرقيين..

يبخل بالكلمة والنظرة واللمسة الدافئة، يبخل بالاحتواء والحنان والتفهم والصبر.. يبخل بالوجود لحظة الاحتياج.. ويبخل بكل شيء إلا حينما يوافق الأمر هواه فيمنح بمقداريلائم زاوية رؤيته..

ببديهية امرأة مطلقة في مجتمع لا يرحم الأنثى بجميع مراحل حياتها كانت تتخذ دومًا موقف دفاعي قبالة أي رجل بعد فراقها عن زوجها..

وبفطرة أنثى تبحث عن السند لم ترَ أن "هو" قد يعود لتلك المكانة بحياتها.. وبقوة تلك التي واجهت دوامات الحياة ونجت من الغرق تعلم بيقين أنها لا تعوز سواها..

ذاتها التي تمنحها ولا تحرص على المنع أو الكتمان..

هي قوية بنفسها.. بعملها.. وبحياة جديدة رسمتها لنفسها عندما تركت مدينتها وأتت للعاصمة تبحث عما فقدته مع ذكر لا يدرك من الدنيا سوى ذكورته تلك!

"سيدة حياة.. هناك شخص ما ينتظرك بالأسفل"

كان هذا صوت موظف مكتب الاستقبال عبر الهاتف حينما ردت عليه بشرود لا يناسب عملها الذي كان كفرصة على طبق من ذهب.. فرصة لن تتكرر:

- عفوًا.. ما اسمه!

والكيان كله يكاد يرتعش قلقًا..

واجهة القوة الصلبة التي تدعيها حينما تريد تتصدع معه، ربما لأنه هو الوحيد من أدرك ولمس مواطن ضعفها، من ضغط على جروحها المفتوحة وذرَّ فوقها الملح يبغي به أنينًا كان يشجيه حاملًا نبرتها:

- اسمه جاسر شهاب الدين.

وبالفعل سقطت السماعة من يدها، رجفة نالت من جسدها بأكمله وقلبها أوشك أن يغادر مكمنه بين ضلوعها..

"فضيحة!"

هذا هو ما أتى ساعيًا إليه، لقد هددها قبل هروبها.. أخبرها أنها لا تملك من أمرها شيئًا، أنها له مهما عاندت ومهما امتلكت ورقة بحُكم قضائي حَكَم بتطليقها..

أوصل لها رسالته ببرود، وختمها بأن الفرار درب لن تخطو في دهاليزه لأن نهايتها لن تكون سوى إليه، كما بدأت بين يديه.. كما تعرفت الدنيا بحلوها ومرها وقسوتها قربه.. كما تمنت الموت ألف مرة ولم تنله في مرة وهي معه..

أعادت سماعة الهاتف فوق أذنها، صوتها انحشر بالفعل داخل حلقها فخرج متعثر الأحرف منقبض النبرة:

- حسنًا.. أنا في طريقي للأسفل.

امتلاك القوة شيء رائع، التظاهر بها ليس بذات الروعة، لأنك وقت الجد سيسقط القناع ويتحطم الدرع.. وتلكمك الحياة في وجهك لتعيدك لموقعك الذي ظننت أنك هربت منه.

كان يقف بعنجهيته المعتادة، قامته الطويلة وسمرته التي فتنتها حين مراهقتها، خصلاته السوداء المصففة بعناية وعيناه تختفيان خلف منظار شمسي باهظ يناسبه، يتلاعب بسلسلة مفاتيحه كما كان يتلاعب بها من قبل، وقفت تواجهه وخلف القشرة الصلبة تمزقت نفسها الواهنة:

- ما الذي أتى بك إلى هنا؟

رفع منظاره فوق رأسه وتأمل ما ترتديه باستخفاف ساخر:

- يا له من ترحيب حار.. "حياتي"!

صفة الملكية على اسمها بنبرته أثارت غثيانها:

- ماذا تفعل هنا جاسر؟.. لقد انتهينا وتركت لك المدينة بأكملها، لماذا أتيت خلفي؟

جذب ذراعها يخرج بها من المكان، أوقفها بعنف مألوف لديها حد إسكاتها دون مقاومة أمام بوابة الشركة الضخمة وتولت عيناه الكلام لثوان قبل أن يترجمه بتملك:

- دومًا ما أسعى خلف أملاكي عزيزتي.. وأنتِ أكثر من يدرك ذلك.

ازدردت لعابها، تمنح نفسها فرصة تفكير قصيرة المدى قبل رد باتر تبحث عنه بلا جدوى.. هو لا يتوقف، لن يتركها.. أخبرها وها هو ينفذ:

- جاسر.. نحن انتهينا.. أي حرف فيما أقوله غير واضح بالنسبة إليك!.. انتهينا.

وضغطت أحرف الكلمة، بل دهستها بين أسنانها وهي تراقب ما حولها بتوجس قلِق، وفي لحظات شرودها كان اقترابه قد تجاوز حد السماح والمقبول، امتدت قبضته تضغط مرفقها بقسوة لم تنسَها بعد، وزفر أنفاسه لاهبة في وجهها بشراسة هي طبع أصيل فيه:

- كلمة النهاية أنا من سيكتبها "حياتي"..

وسحبها لترتطم بصدره:

- إن كنت قد سمحت لكِ بقليل من الحرية فذاك لا يعني أنني سأترك لكِ الحبل على الغارب.

شهقت بفزع بينما يميل بوجهه ويجبرها على الخضوع لنظرته المسيطرة:

- هروبك إلى هنا لم يفقدني خيوط اللعبة.. ولن يفعل أبدًا.

وكل أنثى متاح لها البكاء.. مباح لها الصراخ.. وجائز لها الضعف والخوف واختلاج النفس.. كل أنثى في ظل مجتمع غليظ يقهر ويقسو ويعنف ويوبخ ويرفض.. كل أنثى لا تملك من دنياها سوى وحدتها ليأتي رجل ما.. ويعلن ملكيته لها شاءت أم أبت!

"ما الذي يجري هنا؟!"

الصوت يحمل تجهمًا بيِّنًا، النبرة خشنة حادة آمرة، والسؤال يطالب بجواب دون تأخير قبل أن تشعر بنفسها تنجذب بعيدًا عن "جاسر" بيد غريبة اقتحمت المشهد..

تلعثمت بخوف.. وها هي الفرصة الذهبية تضيع أدراج الرياح بعدما صادف وجود طليقها رئيسها بالعمل.. رئيسها الذي تلبس دور الشهم وهو ينظر بثبات والآخر يبادله النظرة بتفحص كأنما هما خصمان على أرض معركة يقيسان قوة بعضهما البعض قبيل لحظة الهجوم..

ابتهلت لله أن يمر الموقف بسلام.. دعته أن يحافظ على ما تبقى من فرصتها لأنها لن تملك غيرها واستجاب لها عندما شمل "جاسر" ذاك الذي يواجهه بعنفوان واضح بتطلع أخير بعده أدار وجهه إليها فكانت ابتسامته مخيفة تسللت بقشعريرة ثلجية لبدنها:

- سنلتقي قريبًا.

ورحل.. ببرود وغرور غادر مرفوع الرأس بعدما أعاد منظاره فوق عينيه وعيناها هي تتعبدان بهلع في محراب رحيله وترقب عودته كأنما هي دائرة لا منفذ لها!

"من كان هذا؟"

"زوجي السابق"

"أنتِ كنتِ متزوجة!!"

الدهشة التي جاورت صوته جعلتها تفيق من تيهها لتنظر إليه.. ثوان وامتلأت نظرتها بامتنان شدت بعده قامتها، تعود لتتخفى خلف واجهتها الجامدة، تنطوي على ذاتها داخل شرنقتها، وتتقوقع بعيدًا عن أعين كل متلصص يفتش عن ضعفها:

- نعم سيد غيث.. وعذرًا على المشهد غير المناسب.

مط شفتيه وأشار بكفه يخفف من حدة الموقف:

- لا عليكِ.. لقد بدا وكأنه يؤذيكِ.

تجمدت مقلتاها وحادت بعينيها بعيدًا ترفض تدخله وتبتعد عن موضوع لا يجوز الحديث معه فيه:

- هل يمكن أن آخذ باقي اليوم عطلة!

امتلأت النبرة برجاء.. وناشدته النظرة بتوسل وحتى لغة جسدها التي كانت صلبة قبل لحظات تحولت لأخرى متضرعة تستعطفه موافقة:

- لماذا؟

- أريد الذهاب للاطمئنان على ابني.

- ولديكِ ابن أيضًا!

رفعت ناظريها إليه بحيرة:

- هذا كله موضح في سيرتي الذاتية سيد غيث!

زفروأشاح بيده مجددًا:

- لم أوقع أوراق تعيينك.. كان ذلك السيد آمر.

أخفضت رأسها بلا رد.. تأملها قليلًا وتلفت يبحث عن ذاك المتحفز الذي غادر بصمت، راودته نفسه عن مزيد من شهامة.. وصور له شيطانه بديلًا مثاليًا لتلك التي هجرته بدعوى خيانة، بديلًا يصلح لدفن روحه وقلبه بخفقاته الغادرة بين أحضانه، تلبس روح العابث لكن بزي نخوة وعرض بكرم:

- حسنًا.. هيا سأوصلك.

دهشتها ورفضها لم يمنعاه عن إصراره فبتر حديثها قبل أن تتفوه بحرف:

- لا تجادلي.. أنتِ لا تدركين ما الذي ينتظرك ما دمتِ تسعين لهروب يرفضه رجل!

توقفت نبضاتها لحظة وهي لا تصدق ما نطق به للتو.. كأنه نقَّبَ عن مكمن أقسى مخاوفها، نبشها وألقاها بوجهها وعرض حماية بقدر ما تحتاجها؛ تخشى مقابلًا لها!..

هكذا عودتها الحياة، لكل شيء ثمن، وبعد كل عطاءٍ أخذ!

أمام مدرسة الصغير أوقف سيارته وترجلت منها بتوتر.. انحنت عند النافذة وأخبرته:

- لا أدري كيف أشكرك سيد غيث!.. لقد كنت كريمًا معي للغاية.

- لا تذكري ذلك.. هيا اطمئني على صغيرك وسأنتظركِ هنا.

دهشتها أعلمته أنه أصاب الهدف وباحتراف، فهو يتمادى في المنح وبنفسه يرد على سؤالها وإن لم يسمعه:

"سأجد الثمن المناسب بنفسي"

- سيدي هذا كرم زائد منك.. أرجوك لا ترهق نفسك، سأتولى الأمر من هنا.

عارضها بأمر لا نقاش فيه.. حتى لهجته أخبرتها بحتمية الخضوع:

- أخبرتك ألا تجادلي.. أحضري صغيرك.

تململت بتردد استجابت بعده لأمره، فقبل كل شيء هو وقف إلى جوارها، وإن ادعت القوة وتظاهرت بعدم الاحتياج؛ تبقى تلك التي قهرها القدر خائفة ترتجف بين ضلوعها تبحث عن أمان مفقود!

دقائق طالت قليلًا وهو قيد الانتظار، أدار وجهه ينظر نحو البوابة التي اختفت خلفها ووجدها عائدة، تتهادى بخطوات ناعمة لكنها ثابتة.. يقسم أن كيانها كله يرتجف لكن مظهرها المتماسك الصلب ببأس يثير إعجابه لأقصى حد.. وابتسم بخبث وعقله يخبره أنها..

أكثر من مثالية!

تابع ذلك الصغير الذي يتشبث بيدها أو ربما كانت هي من تتشبث به كأنه مصدر أمان لا ينضب.. تأمل الفتى، لا يقل عن سبع سنوات، يشبه أباه كثيرًا وإن أخذ عيني أمه، ترجل يستقبله هو من لا يعلم عن التعامل مع الأطفال شيئًا!

- مرحبًا.

توجُس نظراته كاد يضحكه، فابنها يواجهه كأنه ذئب دون أن يدرك كم هو على حق!.. يقف بينه وبين والدته كأنما هو على وشك افتراسها.. تولت هي تلطيف الأجواء ببسمة بدت لعينيه جذابة:

- إياد.. هذا رئيسي في العمل.. السيد غيث.

مد "غيث" يده بمصافحة رجالية يمنحه بها الثقة وإحساس السلطة، وأفلح بالفعل عندما نظر الصغير لكفه الممدودة لحظة بعدها استكانت كفه الضئيلة داخلها دون تردد..

تعارف لم يتوقعه، لكن يبدو أنها وطفلها على قدرٍ عالٍ من التفاهم.. الولد عيناه توحيان بعمر أكبر منه، وحمايته لأمه تكاد تطلق منه ضحكة ساخرة حتى لو أعجبته!

فتلك النظرة كانت تسكن بين جفنيه هو من قبل..

منذ سنوات، حينما كانت الأم هي مصدر النقاء والبراءة والحنان والأمان بحياته، مصدرًا انقلب وتغيرت مفاهيمه فباتت دُجنة سرمدية لا يجرؤ على اقتحامها بصيص من نور.

"شكرًا لك على مساعدتك لأمي"

تحولت الذكرى لهباء عندما اقتحم صوته الطفولي الجاد أذنيه بشكر غير متوقع، رفع نظراته إليها يسأل بصمت.. هي أخبرته!.. وردت بنعم فعاد ينظر للصغير ثم لها..

ومفهوم ما بداخله.. بدأ يتغير!

***

بين الواقع والحلم تختبئ أمنية..

وبين من يريدها ومن تريد هي.. تقف حائرة!

ليجابه القلب بتجبره الدائم على كل منطق وعقل وجوارح.. ويختار عنها، ربما لأنها فقدت جرأة البوح بما ترغب، بل حتى حق الرغبة دخل في قائمة من الممنوعات صكّها بصمت وتقبلتها دونما اعتراض!

لأول مرة تزور القصر بعد ليلة عقد قرانه المشئومة.. تلك الليلة التي نال منها فيها حتى آخر رمق، ثم لفظها خارج حياته.. أو للدقة، هو يحتفظ بها فقط في ذلك الركن المظلم الخاص الذي لا يطأ عتباته غيرها..

ركن النمر!

تخطت الساعة الواحدة صباحًا، ليلة حالكة دهماء جاور فيها سيل المطر رعدًا وبرقًا مخيفين، بعدما وصلت حسب طلبه المباغت وجدته ينتظرها بمكتبه، ادخرت الدهشة والحيطة والحذر عقب نظرة تأملت بها هدوء المكان وسكونه تحت سطوة تفحُص ساخر منه..

اقتربت، تخطت الحد الذي خطه الصك غير الموقع في الأيام الماضية، ألقت بذراعيها حوله تحيطه وتستند بوجنتها لظهره بينما هو واقف يتأمل القطرات العنيفة المثابرة التي تضرب جدار الغرفة الزجاجي المطل على الحديقة:

- أنا لا أصدق أنني هنا.. في منزلك، وهي هنا.

فك حصارها ببساطة وبلا اكتراث، التفت إليها يحدجها بعمق:

- لا تأملي كثيرًا ربما.. تلك المهمة التي أخبرتني عنها، أريد التفاصيل.

تراجعت قليلًا تسعى لفهم أكبر:

- سنتحدث عنها هنا!

- نعم.. هي متعبة ونائمة بغرفتها بالأعلى منذ ساعتين.

ثم تحرك نحو مكتبه يجلس فوق مقعده بتؤدة:

- أخبريني.

وبإصرار لا يملك مثله غيرها تبعته، ألقت بجسدها بين أحضانه لتقبع جالسة على ساقيه، تتلمس ملامحه المتجهمة بأناملها:

- المهمة هذه المرة تتطلب ضجة.

منحها نظرة جامدة، لا توحي بشيء، لم يبعدها أو يكلف ذراعيه عناء ضمها:

- أوضحي.

تأملته باشتياق لا تستطيع أن تنكره ولن تفعل:

- رجل يخون زوجته.. تريد التخلص منه، مع عشيقته.

انعقد حاجباه ودفعها ليستقيم واقفًا باستهجان شاب لهجته:

- جنون النساء!

- أنت لا يمكنك التخيل.. عندما تفقد الأنثى من تحب؛ لا يهمها العالم بأسره.

وهي كانت جادة، عاد ينظر إليها.. لم يستسِغ كلامها المبطن فتجاهله بيسر، اقتربت تضم وجهه بين يديها:

- أفتقدك بشدة.

ورفعت نفسها على أطراف أصابعها تمس شفتيه بتردد، كأنها تخشاه، تخاف رد فعله.. يُرهبها رفضه بل يوجعها لكن توقها إليه يؤلمها أكثر.. مع سكونه تجرأت، أحاطته بذراعيها، تبحث عن استجابته.. تتوسلها منه.. وفعل!

ضغط جسدها فوق صدره بعنف أنَّت له بلهفة، بدا كأنه يبحث عن شيء ما تجهله.. شيء غامض لم يجده فتراجع وأعادها لوضعها بعيدًا عنه.. محبطة:

- لا، توقفي ريما.. أنا حتى لم أستطع التجاوب معك.. حاولت، كان اختبارًا وفشلتُ فيه قبلك.

وكاد يمزق خصلاته بين أصابعه حانقًا.. ثم تجاهل ما حدث كأنه لم يكن:

- ماذا عن المهمة؟!

أغمضت عينيها، ففي لحظة امتلكت الكون، وفي التالية تحطم تاج الملك!

- تريد قتلهما معًا آمر.. في وضع تلبس.

ودلكت ذراعيها بيأس، بردٌ مبهم تخلل عظامها ولا تدري مصدره:

- هي لا يهمها مقدار الضجة التي تثيرها بقدر ما تهتم للفضيحة وكشف خيانته.. تقولها بالحرف: ترغب في أكبر قدر ممكن من الدماء!

التفت إليها وتوحشت عيناه..

النمر تجذبه رائحة الدم كغيره من الضواري، وإطلاق يده ليغوص فيه هي نشوة ما بعدها نشوة.. صمت لثوان وتلبس صوته أمر عمليّ:

- حسنًا.. تابعي الأمر وأخبريني عندما يحين الوقت المناسب للتنفيذ.

أومأت موافقة فاتجه نحو الباب ليفتحه بدعوة مباشرة للرحيل:

- أراكِ غدًا.

اتساع عينيها وهي تنظر لما يظهر من ورائه أجبره على التفاتة سريعة!

التفاتة تلاقت بعدها المقل المرتعبة بتلك الغاضبة.. المذعورة بأخرى هائجة.. الخائفة بالشرسة التي انقلبت إثرها كل ملامحه لرسم شيطاني يشبه الهول..

هولًا أطلق من المنمنمة التي كانت تقف خارج الغرفة صرخة قصيرة وشهقة متحشرجة كأنها تبحث عن الهواء ولا تجده فتكاد تختنق..

ثم تلاها فقدان وعي!

(١٩)

هل تعرف مدى السحر الذي يمكن أن تستسلم له امرأة تحب!

"فيوديور ديستوفيسكي"

***

التعريف العلمي الأبسط لل "الافتراس" أنه علاقة بين نوعين من الكائنات، أحدهما يأخذ دور المفترس.. الضارية، والآخر ينال دور الفريسة، علاقة أساسها اقتيات الأقوى على الأضعف، علاقة تبدأ بفخ وتنتهي بالطريدة بين فكي الصياد.

والنمر مفترس.. رشيق.. سريع الحركة وقدرته على النيل من فرائسه تفوق بكثير غيره من الضواري، كما أنه أكثرهم وجاهة وقوة وسيطرة، ومخالبه يمكنه ببساطة سحبها لباطن كفه فتختفي.. وبالتالي يمتلك زمام المفاجأة ومباغتة القنص.

وهو نمر..

نمر يحمل بين عينيه الموت.. أما هي، فلم تكن طريدته، بل طُعمًا اجتذبه فأطبق عليه فخ العشق..

فخًا لا يمكنه نكرانه، لن يكذب على ذاته وعقله فتلك أولى خطوات الجنون، يعترف أولًا بعدها يعود للتخطيط.. خطة أخرى تتناسب مع المعطيات الجديدة التي ظهرت في الأفق..

الصياد سقط في غرام صيده.. واللعنة عليه لو تركه يضيع من بين فكيه..

الضارية عشق الفريسة..

الشيطان؛ أعماه نور الملاك فخرج من جحيمه سعيًا لجنة لا يحق له دخولها!.. وبات ملعونًا بحب مستحيل..

نعم.. عليه أن يعترف، فالتصديق بوجود الداء هو أول خطوات العلاج..

سقوطها عندما تقابلت الأعين، فرارها من واقع يملك هو ناصيته لغيبوبة قصيرة تتحكم هي بها انتزعا قلبه من مكانه، لا يصدق تلك القبضة العاصرة التي ضغطته حتى شعر به ينازع آخر الخفقات.. لا يعقل فكرة أنه هو.. بالذات، قد يعشق أنثى بعدما خلقت منه امرأة قاتلًا ينتشي باجتثاث الأرواح!

هو القناص الماهر والأفضل، تعثر بحفرة أشعلت به أتونًا لا يوزايه حتى الجحيم!.. هو يحترق وعندما يحترق الشيطان يُحرق الأخضر واليابس معه ولا ينجو من سعيره كائنًا من كان!

خطة طويلة محكمة رسمها ببداهة عقل مناور، خطة أحكمت حلقاتها حول الهدف حتى أصبح داخل قبضته.. وقبل أن تنغلق يده تفلت من بين أصابعه بخطأ.. لا يغتفر، ومنه هو!

تأملها في فراشها.. تنكمش على نفسها كعادتها في النوم، تبدو ضئيلة للغاية حتى أنه يلاحظ وجودها بصعوبة على الضوء الخافت بالغرفة.. ولأنه شيطان في مواجهة ملاك.. فقد أغلق عينيه للحظات يستجمع أفكاره، يتنفس ببطء، يعيد حبكة الأمور.. ويتعامى عن براءة يخطط لتلويثها.

هو لا يدري لأي مدى سمعت ما دار بينه وبين الحمقاء "ريما"!..

هل وصلتها حقيقة مهنته؟..

أم ظنت به خيانة وفقط!..

لكن لو الأمر توقف على الخيانة فلمَ فقدت الوعي وامتلأت عيناها بالذعر عندما واجهت عينيه!

ذعر!!

رغم غضبه الذي اضطرم بقلبه وبكيانه كله في لحظة إلا أن نظرتها، سقوطها.. غيابها، خوفها!.. سببوا له الحيرة.. وبات يفكر فيما يمكن أن ينتهي إليه الأمر لو انكشفت كل الأوراق.. وبتوقيت لا يتلائم مع خطته وأفكاره!

تململت فتركزت نظراته عليها بترقب..

مع تفرق جفنيها واستيعاب عينيها لوجوده القاتم نهضت بهلع، تراجعت بالفراش، اختنقت بصراخ مكبوت لا دليل بعده؛ معلنًا تعري رداء الستر عن حقيقته!.. توهج غضبه حتى أن بريق عينيه بدا أشبه بنمر حقيقي في عتمة المكان:

- وأخيرًا استيقظتِ!

جسدها تشنج بالكامل، عقلها توقف عن العمل لثوان بضياع وهو لم يمهلها لتستعيد السيطرة على ذاتها المفقودة بل استمر بهجومه:

- لم أكن أعلم عن هوايتِك هذه شيئًا!

مال يستند لركبتيه بمرفقيه من وضع جلوسه على مقعد عريض يواجهها:

- تتلصصين سديم!

ونهض بغتة فأجفلت وسرت الرعشة في جسدها وتوحشت عيناه وهو يضع ركبته فوق الفراش ويستند بساقة الأخرى للأرض:

- دومًا يستمع المتلصص إلى ما لا يعجبه.

إلى هنا واكتفت، تباعدت أكثر تنطوي على نفسها وتنظر إليه بارتياع، تجوب ملامحه كأنما تراه للمرة الأولى، ترفض قربه وحديثه وتأمله المتفحص.. تبحث عن حديث ما يصلح لموقف شبيه لكنها كلها خارج حدود المنطق والفهم!

ثم بدأت بالصراخ في عنف.. صوتها ضعيف مشروخ رغم كل شيء، ودموعها تنساب على وجنتيها بقسوة ما سمعت ورأت.. صراخها جمده للحظة في مكانه، توقع تباعدها، هروبها، شيء من خوف يبثه في نفوس من حوله وهو يعلم..

لكنها تصرخ، تصرخ ألمًا، وجعًا، قهرًا، حزنًا.. وهلعًا!

تلَمَسَ نبرتها بأذنيه وحلل تفاصيلها التي باتت فوضى تشتت لها مشاعره فزعق بها بزمجرة شرسة:

- توقفي.

عقب أمره توقفت بغتة كأنها آلة انقطعت عنها الطاقة!

ارتعبت عيناها أكثر، تحسست بأنامل ضعيفة واهنة أعلى صدرها، حنجرتها.. وضربات قلبها تخطت حاجز التحمل بل حتى طبيعة البشر، وبكت.. انسابت العبرات كسيل جارف في صمت ساكن واجم والصوت تلاشى في لحظة كأنما ألبسه لجام الفزع من هول النظرة!

نظر لحيرتها، لأصابعها التائهة فوق شفتيها وعنقها انتهاءً بقلق جديد..

ضم قبضته ولكم ظاهر فراشها بعنف كاد يحطمه لتقفز من مكانها خارجه، تتراجع لركن قصي بعيد.. وهو يواجه، يهاجم بضراوة.. فنمر جريح هو أكثر شراسة خاصة عند احتمال ضياع الفريسة.. ومحارب عازم على النصر في معركة؛ لن يخرج منها أبدًا دون غنائم:

- أتعلمين شيئًا!!.. دومًا كنت أفضل اللعب بأوراق مكشوفة.

ولهث كأنما يكبح جماح ضارية على وشك نهش الطريدة:

- رغم أن متعة الصيد؛ تكمن في نصب الفخاخ.

ورمقها بنظرة قاسية أخلَّت بما تبقى في جسدها من توازن وهي تنظر بعجز.. بتيه.. بخوف:

- وأتيتِ أنتِ وأفسدتِ كل شيء.

شحُبت.. فتحت فمها لتنطق، استعصت الأحرف، عاند الصوت وضاعت النبرة بحشرجة لم ينتج عنها سوى همهمة باهتة غير مفهومة انعقد لها جبينه بتفكير وتساؤل فاقترب..

"هل فقدت قدرتها على النطق!"

تبعثرت نظراته وضاقت أنفاسه، مع اقترابه تراجعت، انحبست بين الجدار وبينه وكان هذا أكثر من كثير على الحالمة الوردية.. سقطت بين يديه مرة ثانية وآخر أفكارها تجرفها نحو الغرق..

فأحيانًا ترسو بنا قوارب النجاة على شواطئ الوهم..

وأحيانًا يكون القارب نفسه حلمًا والمرسى سرابًا وبوصلة الاختيار معطلة..

فتقع الفأس في.. القلب!

***

وكما تنتشي النمور برائحة الدماء تتراقص الأفاعي حول عنق ضحاياها..

خطوة لم تكن بالحسبان، وعقبة من اختيار القدر.. عثرة حددها مصير لم نُحكم أيدينا حوله، ولم يمهلنا هو فرصة اتخاذ القرار..

الطريدة التي حولت الصياد لفريسة؛ دخلت في منطقة حالكة السواد.. عرفت ما لم يكن ينبغي لها معرفته، وغاصت في أوحال خطايا.. النمر!

ورغم ذكرى اللحظة.. ملامحه التي تبدلت من غضب إلى قلق جاور الخوف في ثانية عندما فقدت وعيها بمواجهته..

قفزته التي تخطت المترونصف فقط ليتلقاها بين ذراعيه قبل أن ترتطم بصلابة الأرضية القاسية.. ندائه باسمها كأنها ملجأ روحه.. صرفه لها هي بأمر ونظرة شبه مميتة.. ورحيلها محملة ببقايا مشهده؛ يحملها قرب صدره، يضمها وعيناه تحيطان بملامحها حد التشبع!

رغم ذاك كله، فلن تتركه يعكر صفو مزاجها..

انكشف المستور، تعرت الحقيقة.. وبقي رد الفعل!.. وهي تثق أنه لن يكون في صالحه أبدًا.. من تتحمل رجلًا مثله؟.. ثبتت عليه خيانة!.. قاتلًا يتلهى بمنجل الموت، وضارية يستعذب مذاق الدماء!

من غيرها على وجه الدقة!

وارتسمت ابتسامة تلذذ فوق شفتيها المطليتين بحمرة قانية، تأملت انعكاسها في مرآتها ولمعت عيناها بانتصار.. إن هي إلا مسألة وقت فحسب، ويعود الشارد لأحضانها هي.

انتزعها من ضجيج أفكارها رنين هاتفها، تأملته لحظة وتوسعت البسمة قبل أن ترد.. النبرة وازت سعادة والجسد كان على وشك الرقص بينما تنهض تتفحص حالها وتدور حول نفسها بدلال:

- رافد!

وعنده أبعد الهاتف عن أذنه ينظر إليه بدهشة.. فالصوت به اختلاف يستصرخ الاهتمام والملاحظة:

- الجميلة سعيدة يا ترى!

- نعم.. للغاية.

- وما السبب؟!

تنهدت بعمق، دارت مرة أخرى تتمعن في ثوبها المكشوف:

- دعك من الأسباب والمبررات.. ما رأيك لو نلتقي!

تراجع في مقعده ومدد ساقيه براحة.. لم يستدعِ منه الرد تفكيرًا ثانيًا:

- يسعدني ذلك بكل تأكيد.

التقطت حقيبتها وتوجهت خارج الحجرة ببساطة:

- الآن.

وكانت تقرر.. انعقد حاجباه واعتدل مجددًا، صوتها.. بهجتها التي انتقلت إليه دون سبب محدد.. ورغبته في اللقاء جعلوه بعد الاعتدال ينهض.. يبتسم، ويلتقط سلسلة مفاتيحه راحلًا بالمقابل:

- كما تشاء أميرتي.

ضحكت بنعومة جعلته يهمس بحزم:

- لا تغلقي الخط.. ابقي معي حتى نلتقي.

وكأنما سقطت من علو مفاجئ.. تجمدت في مكانها لثوان، ناداها خلالها بقلق، بهجتها بانتصار لم يكن لها يد فيه أفقدتها حذرها..

"رافد" يملك مشاعرًا تجاهها وإن لم يصرح بها، وما تفعله.. الحديث، المهاتفات، المراسلات.. واللقاءات؛ كلها تجذبه إليها أكثر، بينما هي لا تملك ما تمنحه سوى صداقة عابرة ووقت فراغ كبير تنشغل به خلاله!

هي تستغله على طريقتها، وتستخدمه كوسادة لمشاعرها المذبوحة تحت مقصلة معشوق قاس..

تنهدت تستجيب لنبرته الآمرة، تابعت المسير وألقت بنفسها للتيار فهي تحتاجه رغم كل شيء:

- لن أفعل.. أنا معك.

والخطأ حين القيام به يتلبس ثوب الاحتياج، ويتوارى خلف جدار الضرورة التي تبيح كل محظور!

***

أحيانًا يظل المرء سجين لحظة ما.. رهين محبسها بقتامته ودُجنة أركانه، لحظة ماضية قضبانها من ألم وبابها الموصد بإحكام من صورة تتكرر بلا نهاية وتستمر حد رحيل الروح..

يسعى بعدها الكيان بكل ذراته بحثًا عن دواء.. علاج ما يرمم ما تصدع، ترياق لسم ممتد المفعول، لا يقتل بل يؤلم.. ويترك النهاية للقدر!

ومع أنه اختار الطريق بنفسه.. فالعثرات تكالبت عليه وأوهنته، أضعفت الرجل، شتتت فكر الضارية، وأوخزت قلبه بعشق غير متوقع.. غير محتمل.. وغير مرغوب.

قلَّب في الملف بشرود.. تأمل صورتها بمنظارها الطبي الذي لا تخلعه، خصلاتها المربوطة برسمية جافة توحي بصرامة وعنوان النظرة "ابتعد".. التوى فمه بمجون والخطة ترتسم بدقة داخل عقله..

سيرتها الذاتية لائقة للغاية.. تصغره بعام واحد.. ورغم ذلك كانت زوجة وهي أم!.. انتقلت حديثًا من الأسكندرية وتقيم على مقربة من مقر عملها بشركته.. مواصفات قياسية تلائم احتياجه في الوقت الحالي..

المهرب الآمن والمخدر المؤقت..

نهض يغادر مكتبه استعدادًا للرحيل بعد يوم عمل ممل لم يأتِ فيه شريكه، بعدما اطمئن عليه طلب ملفها من شئون العاملين، وها هو أنهى تصفحه والتقاط ما يريد منه.. دلف للمصعد وفي الطابق أدنى طابقه توقف وظهرت هي، بتردد دام لثانية وخلال التالية كانت تخطو بثبات لتجاوره..

ابتسم ولمعت عيناه بمكرٍ معتاد، تفحص ملابسها المحتشمة وفكر بوقاحة فيما يكمن أسفلها!.. زفر وبادرها:

- مرحبًا.

أومأت بتمتمة خافتة فأردف دون انتظار:

- ماذا كنتِ تفعلين هنا؟.. ظننتكِ رحلتِ باكرًا!

نال نظرة مبهمة وإن طغا عليها الاحترام:

- كنت أسلم بعض الملفات الهامة للأرشيف.

مط شفتيه وارتكن بظهره لجدار المصعد:

- كيف حالك؟.. هل تعرض لكِ زوجكِ السابق مجددًا؟

- أنا بخير والحمد لله.. لا، شكرًا لك سيد غيث.

وترددت قبل أن ترتبك وتشيح بوجهها حياءً، تخشى فقدانها لوظيفة لن تجد ما يماثلها بعد هروبها من مدينتها خالية الوفاض:

- آسفة على ما حدث أمام مقر الشركة، أعدك أنه لن يتكرر.

طارد عينيها في مرآة مقابلة، لم يترك نظراتها تفلت من قيد نظراته، بل منحها بسمة مطمئنة:

- لا تهتمي.. اتركي اسمه لدى الأمن بالأسفل، فإن عاد؛ منعوه من الدخول.

استدارت تترك مجال مواجهة عينيه المقتحمتين حد الخجل والفرار وطأطأة الرأس، وعاد العبث يتلبس الابتسامة التي تراقصت فوق شفتيه بينما تكرر شكرها:

- شكرًا لك سيدي.. لا أدري كيف يمكن للشكر أن يكون وافيًا لكرمك واهتمامك!

ولم يقاوم اقترابًا وميلًا وهمسًا ناعمًا:

- أخبرتك.. ألا داعي للشكر.

بصوت متقطع خافت دافئ، حبست أنفاسها بصدرها حتى تراجع لوقفته السابقة..

لم يصمت بينما باب المصعد ينفتح، تبعها باستغراب مفتعل ونبرة مرحة يكسر بها حاجز الجدية:

- تعجبني لهجتك.. أنتِ لستِ قاهرية صحيح!

تضاعف خجلها لكنها حافظت على مسافة لائقة ومسارًا جديًا ترفض أن تحيد عنه:

- لا.. من الأسكندرية.

وقبل أن يطرح سؤالًا أو يعلق على جوابها كانت تبتعد بتحية باهتة وحجة رحيل أشبه بهروب سمح به وهو يتابع خطواتها بعينيه..

ولأنه اتخذ القرار.. فقد وضعه قيد التنفيذ دون تأجيل، وكما أن لكل مقام مقال.. فلكل أنثى مدخل خاص عليه فقد أن يبحث عنه، يجد مفتاحه..

وبعدها يحين وقت الامتلاك!

***

ماذا يمكن أن تفعل امرأة خاسرة في حرب لم تكن قدرها منذ البداية!

حرب هي من أوقدت نارها، وخالفت قبلها بنود الاتفاق غير المعلن، فأتتها الهزيمة نكراء وطعمها المر لايزال بحلقها حتى بعد أسبوع كامل مر!

الصديقة تتغيب عن العمل، تسافر.. تبتعد عن المكان، والداعي تعلمه عن يقين.. زياراته المتكررة لمقر شركتها لم تكن هي دافعها بل أخرى تعلم أنها لا تكترث له أو يمكن حتى أن تفكر به.

وقفت تراقب ملامحها الشاحبة.. الهالات الداكنة التي تحيط بعينيها كما لم ترها من قبل، شرود نظراتها وقلة تركيزها على غير العادة..

أيمكن!

لا.. ليست "كارما" من تفعلها، لقد رفضت قرب أخيها وهو الذي أخلص في حبها حتى نسي معنى الحب، لن تقبل أن يدخل العابث في حياتها وهي تدرك كيف هو!..

لكن الدلائل تشير للعكس، والعكس ليس بالضرورة أن يكون علاقة تشبه علاقتكما "جوان"..

هكذا أنبَّت نفسها وخطت للغرفة دون مزيد من التلكؤ:

- كارما.

تقابلت النظرات واحدة متعبة والثانية حنون:

- تبدين مرهقة!.. ما بكِ صديقتي؟

- لا شيء جوان.. ضغوطات عمل لا أكثر.

ولأن المواجهة حتمية والهجوم هو وسيلة الدفاع المثلى فقد تجاهلت الرد ومنحت نفسها جوابًا يناسب أفكارها:

- حقًا!!.. العمل.. إمممم!

ثم جلست فوق مقعد مقابل، تجاور النبرة شقاوة مدعاة وتوازي النظرة لؤمًا مصطنعًا:

- أم أن هناك من شغل بال الفتاة الجادة.. وأوقع قلبها في حبائله!

سقط القلم من يدها بدوي تخيلته أشبه بانفجار، بل الكلمات كانت هي الانفجار.. أو بالأحرى فتيله!.. انحنت تلتقطه دون أن تنتبه لعقدة حاجبي "جوان" المتوجسة بقلق.. فهي إن خرجت سالمة من علاقتها به؛ "كارما" لن تتحمل يومًا واحدًا معه ببرائها وطريقها المستقيم كحد سيف باتر..

ودت لو سألت، فضولها ينهشها.. خوفها ذريعة كافية وإن كانت واهية، نعم هي تخشى على صديقتها، وفي محاولة لمزيد من الضغط ضحكت وسبرت أغوار المرتبكة بنظرة:

- يا إلهي.. هناك أحدهم بالفعل!

- ما الذي تتحدثين عنه جوان!.. هذه حماقة.

- حماقة تنكرينها بعنف!

ونهضت تستند للمكتب بينهما بكفيها:

- والإنكار دومًا ما رأيته وسيلة إثبات لا أكثر.

حرب نظرات باردة دارت لثوان قبل أن تميل بجسدها، تمسك بذقن الشاحبة بين أناملها وتأمرها بالعين والنبرة والملامح:

- تيقني فقط أنكِ تجيدين الاختيار.. صديقتي.

- أنتِ فقدت عقلك بالفعل.

ضحكة أخرى عالية، ولايزال الإنكار هو دليل الإدانة الوحيد والأقوى..

والتتمة.. امرأة للمتعة وأخرى للحب وذكر جشع يتوق للمزيد!

تركتها برحيل متمهل تتأوه بداخلها كأنما تخطو بقدميها فوق بقايا نابضها، نابضها الذي ينعي حبًا لم يكن من حقه، وحبيبًا لم يمنح مقابل نيل ذلك الحب.. وصديقة تسقط في فخه هو..

عزاؤها الوحيد..

أنها أيقنت من امتلاكها لخافقه، والإثبات كان.. لحظة ذبح!

***

فلسفة الحب تتلخص عند الرجل في ثلاث أفعال، ماضية.. حاضرة، وثالثة تدخل في مرحلة "لو"..

رآها.. أرادها.. قد يحبها!

والنتيجة أن يحصل هو على ما يريد، حتى لو كانت المشاعر في منطقة وسطى مبهمة لا تُعني بوضوح الرؤية.. يتملكه مهما غلا الثمن وارتفع.. ومهما بُنيت من

عراقيل في طريقه، يناله بكل الطرق المباحة أو غيرها.. فهم أتاحوا كل وسيلة مادامت توصل للغاية.. كما قالوا: "كل شيء مباح في الحب والحرب"..

وعشقه معركة استعرت بين شياطين فكره وخفقات قلبه التي تناجيها رغمًا عن إرادته، صورتها التي تقهر عقله وتقتحمه قسرًا لتفرض عليه حضورها، نبرتها المتحدية العنيدة الناعمة التي تداعب أذنيه حين شروده.. وطيفها، قربها، امتلاكها الذي يشاغل أحلامه حد الألم.

وحتى تلك التي يداوي رأسه برسم خطة للإيقاع بها تتراجع لخلفية الصورة عندما يبرز اسمها.. القوية الشامخة التي أخضعت فؤاده وأمسكت بزمام السيطرة..

لكن هيهات!

لكل فعل رد فعل، وإن ابتدأ هو فعله وكان الرد منها حربًا شعواء شنتها دون وعي على خافقه فرده سيكون حاضرًا بعنفوان ذئب وخبث رجل درس فنون وخبايا النساء حد الإتقان..

ذئب محنك خبير في الصيد واقتياد فرائسه إلى حيث يريد لها.. ذئب ماكر يقظ شرس ينتقي الطريدة بمعايير عالية، ولا يختار إلا الأفضل.. ذئب لا يمكن التعامل معه إلا بحرص.. ولا يجوز الاقتراب منه لأن ترويضه خارج حدود الممكن.

كعادته في التسلل مؤخرًا، التمتع بصورتها قبل أن تتحول لقطة لو طالته لمزقته بمخالبها، كعادته التي باتت أكثر مما يطيق ورغم ذلك لا يملك التوقف عنها؛

ذهب إليها بعد غياب طال لأسبوعٍ عقب اعترافه الناري.. ذهب بعد لملمة أفكاره، وبعد إيابها من مكان ما لا يدري عنه شيئًا..

تفحصها دون علمها.. هي حتى لم تشعر به يفتح بابها بهدوء!.. تحيط بعينيها دوائر رمادية تشبه غيومه العاصفة التي حجبت شمسها، تندمج في الأوراق بين يديها وشفتيها تداعبان القلم بطريقة أجبرته على الخروج من صمته بخطوة ونبرة واثقة باردة معاندة:

- أصبحتِ تجيدين الهروب مؤخرًا.

ولم تجفل كأنما كانت تتوقعه، لم ترفع عينيها إليه.. ولم ترفض حتى وجوده، كل ما قامت به هو إغماضة عين تستلهم بها الصبر ربما، تنهيدة حارة أعقبتها زفرة ضيق واضحة أشعلت بها مراجل غضبه:

- أين قوتك السابقة وعنادك في مواجهتي يا ذهبية؟!

وعادت الجفون تتعانق هربًا، صبرًا وربما منعًا لصورته من الولوج لعمق عينيها فيمتلك منها ما هو أكثر.. ولأن صمتها طال، وهو لديه من الجرأة ما يكفي فقد دار حول مكتبها دون أن تطرف أهدابه، وقف إلى جوار مقعدها، أداره ببطء وانحنى يغوص في نظراتها الباهتة واللمعة المنطفئة التي كانت مثار إعجابه من قبل:

- ماذا!.. هل فقدت اللعبة متعتها؟

وبذات الوضع استند لمسندي المقعد بكفيه كما فعل آنفًا:

- هل تفلتت الخيوط من بين يديكِ فقررتِ إنهائها!

الصمت بركان ثائر.. لا تملأ فراغه حروف ولا تبينه كلمات، هو اكتفى من دور العابث اللطيف وحان وقت لقائها بالضارية الذي تجهل وجوده.. مد يده يرفع وجهها إليه فجذبته بحدة لكنه ثبته رغمًا عنها، جابه عينيها وبإبهام اليد الأخرى لامس جفونها المنتفخة الداكنة:

- دلائل أرق!.. كنتِ تفكرين بي!

ثم عاد لعبثه بلية شفاه ماكرة ونظرة وقحة:

- أو ربما.. تحلمين بي!

وغمزها بجرأة دفعت بالحمرة لوجنتيها بموازاة محاولة التماسك غير المجدية:

- يمكنني تحويل أحلامك لحقيقة كما تعلمين!

دفعته بعنف وغادرت مقعدها، تواجه النافذة، تعتصر جفنيها وتفرك كفيها قبل أن تستدعي الهدوء بتنهيدة أخرى وتستدير إليه.. وتقابلها رفعة حاجبه الخبيثة وابتسامته التي تدفعها للجنون:

- ماذا تريد مني بعد!

ثم اقتربت خطوة هجومية:

- ما أتيتُ إليك بشأنه في المرة الأولى أبيتَ تنفيذه وانتهى.. لمَ لا تبتعد عن طريقي!

انقلبت ملامحه دفعة واحدة فتراجعت خطوتها برهبة:

- ليس تبعًا لرغبتك كارما.. أنت دخلتِ وجاري بقدميك.. بملء إرادتك، أما عن الخروج منه!

وباغتها باقتراب أشبه بقنص:

- فذاك بأمري أنا.

- أنا تعبت.

نبرتها المنهكة المستسلمة ارتجف لها قلبه، لكنه حجَّم الرجفة وتجاهل الألم الكامن فيها، تناسى ما نطقت به وعرض ما يريد وبوضوح:

- أمتلك وسيلة راحة مناسبة للغاية.

رفعت إليه عينين واهنتين فأكمل دون اكتراث للمناشدة الصامتة بالابتعاد:

- فقط اتركي نفسكِ لي.. وبين ذراعي ستنسين دنياكِ وما فيها.

ارتدت بإجفال وتوسعت النظرة بذعر تبدل لغضب صارخ:

- ماذا!.. هل جننت؟!

- بل أنتِ الجبانة.

استنكرت ما قال، احتقرت ما قال.. تأملته بسخط والبريق عاد يسيطر على مقلتيها يتحداه أكثر:

- نعم جبانة مرتعدة كدجاجة مذعورة.. هل تخشين السقوط في الخطيئة!

بانحناء نظرة تجاوزت حد الوقاحة لحد ترفض لفظ اسمه، لم تصدق ما ينطق به، وهو لم يرَكيف كانت تكاد تسقط أمامه وتتمالك نفسها بدعوى كرامة:

- تعلمين أن العودة منها سهلة..

بعدها مال برأسه وقست نظراته:

- حتى لو قتلتِ نفسًا في الطريق.

وتراجع يشيح بذراعيه بدراما تناسب سواد روحه المذبوحة في ماضيه الحالك:

- فقط أعلني توبتك وسيتقبلك العالم بأسره.. وكأن شيئًا لم يكن!

لهثت دون وعي، دون فهم.. بخوف، بخطوات اتخذتها قدميها دون إرادة لتبتعد عن مجال قربه:

- كتلك التي ترينها أمكِ تمامًا.

وشهقت!

- اخرج.. غادر.. اتركني لحالي.

بشبه زعقة جاورت حشرجة النبرة وضعفها غير المستساغ. قطع المسافة بينهما بوثبة تحكم بعدها بمرفقها وتشددت أصابعه حوله بقسوة غليظة واللهجة باتت فظة شرسة:

- أنتِ لي كارما.. عاجلًا أو آجلًا.. ستسقطين بين يدي، وحينها...

تركها تنتزع ذراعها من قبضته، تتراجع بسخط، وقبل أن تعلن رفضها للمسته بادرها بتمعن فاضح لجسدها بالكلية كأنما يعريها، بل يعري روحها وكيانها قبل جسدها، يخبرها ببساطة أن ذاك الاعتراف الذي نالته مسبقًا حوله لوحشٍ ضارٍ.. لن يتورع عن نهشها والتلذذ بدمائها فقط ليثبت لنفسه.. أنه على حق!

زم شفتيه، وضم قبضتيه ودمدم بما لم تسمعه ثم انطلق كرصاصة لا تعرف لها هدفًا.. رحل وتركها أكثر وجعًا وقهرًا وانكسارًا.. كأنما لم يكفِه ما فعله بقلبها في المرة السابقة، فقرر هذه المرة أن يدمر.. روحها!

هو المذنب بدرجة ضحية!

الجلاد بدرجة قاض!

الرجل بدرجة.. عاشق!

وهو العاشق بدرجة عابث فاشل تائه حائر، ورافض مكابر..

وهي الجانية في محكمة عشقه!

هي المدانة أمام قضاء قلبه!

وهي البريئة قدر تلبسها بجريمة انتهاك حرمة روحه.. والحكم آخر الجلسة!

(٢٠)

نحن مصنوعون من الفناء.. ولا ندرك الأشياء إلا في لحظة فنائها!

نشعر بثروتنا حينما تفر من يدنا..

ونشعر بصحتنا حينما نخسرها..

ونشعر بحبنا عندما نفقده..

فإذا دام شيء في يدنا؛ فإننا نفقد الإحساس به!

دكتور/ مصطفى محمود

***

عندما تعشق الشياطين تصلى السعير.. فهم دومًا يقعون في غرام الملائكة!

والقرب بينهما محرم كحرمة لمس الماء للنار؛ فأحدهما يُنهي الآخر.. كحرمة اجتماع الموت والحياة في جسد؛ فإما يفنى ويوارى الثرى، أو ينبض حيًا!.. كحرمة توازي الشمس والقمر فحينها ننال الكسوف حتى لو كان اللقاء عن بُعد.. وتظلم الدنيا.

وما هي إلا ملاك يوجع عينيه بضوء اقتحم به ظلمة سعيره..

ملاك يصارع شيطانًا في حرب سرمدية.. حرب بين براءة وشراسة، نور ونار وحريق لا فوز بعده بل كل هزيمة!

وملعون هو بحرمان من فردوسه لو ترك ساحة الحرب بعد!..

طريدته أدركت الفخ قبل تمام السقوط، لكن الصياد الماهر يدرك متى ينتظر.. يتراجع أو ينقض!.. ومن زاوية رؤياه الحالية؛ هذه لحظة مناسبة للقنص حتى لو هربت هي بفقدان وعي مؤقت.. أو هرب صوتها عقب أمر مخيف منه!

نعم.. المنمنمة الرمادية فقدت النطق، صدمةً ربما، أو هلعًا.. أو حتى فرارًا من قرار يطالب به المنطق والعقل ويعارضه القلب الخانع الخاضع لسيطرته هو..

يدرك أنها وقعت في هاوية غرامه حد الحضيض، وحينما ترتطم بالقاع تتكسر كل الخيارات ويبقى الوحيد من بينها هو حق ملكية.. يخصه هو وحده دون غيره، لقلبها.. كيانها.. روحها.. جوارحها التي تعاندها بغياب ربما لأنها تأبى الابتعاد!

وفي هذا لا يراه غرورًا، بل دراسة وافية لخصمه، لخسارة غير متوقعة في إحدى معارك حربه الضروس مع البريئة التي تملكت القلب، وأحيت نبضاته وأخرجته عن طوع إرادته..

يومان تعاقبا.. يومان طويلان للغاية حد اعتكافها كقطة مبتلة مذعورة أسفل غطاء فراشها تحتمي به من نظراته وقربه.. يومان تأكد خلالهما من معرفتها لكامل الحقيقة.. حقيقته كقاتل تثيره الدماء ويتنشي برائحتها كنمرٍ ضارٍ.. وحقيقة علاقته وإن كانت سابقة بمساعدته "ريما" رغم نفيه لها من قبل..

سحب دفقة من الهواء يملأ بها صدره قبل أن يدلف لغرفتها المعتمة كظُلمة خافقه.. ذلك الخافق الأبله الذي سقط في حبائل أنثى تعدت حدوده لترسم حدودها الخاصة بداخله وحوله.

كانت مستيقظة.. صامتة.. ساكنة لكنها ليست مستسلمة، تجابه بنظرات جاور فيها الفزع والخوف منه قوة وتحديًا وعنادًا وأمرًا بالانتظار.. كأنما تخبره:

"الصبر فقط حتى أستعيد قواي وألملم شظايا نفسي المحطمة؛ وحينها.. ستدور تروس الحرب من جديد، لكن بأوراق مكشوفة!"

أو ربما شيطانه يهيئ له ذلك كما يهيئ له صورتها بلون حمرة دمائها، يحذره من مغبة الضعف أمام دقات فؤاده باسمها، ينهره عن وهن يصيبه معها، يوبخه بكل سلاح متاح ليعيده لأرض "الباردوس" الذي لا يهمه إلا النصر، ومهما كان الثمن!

شيطانه المخيف الذي يحتجب خلف ستار الظلام، ومن هناك يصدر أوامره تباعًا وكل منطق يوافق والقلب وحده يقف في صف المعارضة.. وتبًا، فالمعركة معه ليست هينة وهزيمته شبه مستحيلة!

أغلق الباب من خلفه واعتاد الانتفاضة الطفيفة التي تصاحب جسدها مع كل مرة يفعلها، توجه بخطوات متمهلة نحو مقعده العريض، استقر فوقه ولم يبعد عيناه عنها..

يطوف حولها بنظرة متفحصة، يتأمل هشاشتها، رقتها.. رعبها المبرر وانكماشها على ذاتها بتوجس قلِق كأنها تنتظر خطوته التالية.. لكنها لا تفهم حتى الآن.. مفهوم الصيد!

لطالما كان الصبر هو الطعم الأنسب، وبعده تأتي الجائزة المنتظرة.. وهو يجيده لأقصى درجة حتى لو ظنت أن اللعبة انتهت بانكشاف الوجه الغامض له، لأن لعبته هو على وشك البدء.

ترقب عينيها يقابل تمعن عينيه..

هي خائفة والخوف يوقظ غريزة البقاء، وبقائها لن يستمر مادامت داخل عرينه.. مادامت محتجزة خلف قضبان جحيمه.. مادام ذاك الشيطان يتلهى بها كما يلاعب القط فأرًا قبل الالتهام.

"امتناعك عن الطعام لن يجدي سديم"

رفعت وجهها نحوه بنظرة منكسرة باهتة.. تلعب على وتر عاطفة تجهل وجودها بقلبه لكنه هو يعلم بذاك الوجود، ضعفها يثير غضبه.. سكونها يحفز جنونه.. وصمتها يؤجج لهب ناره حد إحراقها ولينطبق المعبد على رؤوس الجميع!

"تناولي وجباتك.. فربما حينها تستعيدين قواك.. ربما حينها يمكنك تحمل المواجهة في معركة أعلم أنها خاسرة!"

لم تفهمه، بحثت عن مغزى لكلماته فبهتت الصورة وتشوشت معالمها لتفقد وضوحها أكثر، تعانق جفناها وأدارت رأسها يمنة ويسرة بألم.. ما جدوى الصراع إن كانت أرضه تخص الطرف الأقوى.. والفأرة الضعيفة لا مهرب لها منها!

هي حبيسة سجنه الفخم، باب غرفتها مغلق بمفتاح لا يملكه سواه، لا يراها غيره، ولا يحادثها مخلوق إلاه!.. فما فائدة الاقتيات أو التقوي لأجل نصر لن تناله!..

هي انتهت..

وإن لم تفعل، فالوقت هو عامل الحسم في هذه المسألة، والخاتمة وشيكة حتى وإن امتلكت بقايا عزيمة على الفهم.. أو طمحت لنصر ينقصه معجزة ليتم!

أشاحت بوجهها تأبى السماع، دواخلها تهدم.. تتحول لأنقاض، أطلال ما كان يومًا حلمًا، أمنية.. عبثًا حوله الخيال لواقع ملموس، والإفاقة أتت بغتة ليتلاشى التمويه فتواجه الحقيقة البحتة!.. الأمر كله محض لعبة، وهي بين يديه دمية امتلك خيوطها، يحركها كيفما شاء، ويتركها للسقوط بلا حول أو قوة متى أراد!..

الأمر عسير على التصديق أو القبول، منذ فتحت عيناها وهي تبتهل.. تفكر، هو فقط كابوس، كابوس حالك طويل موجع، سينتهي بعد قليل، وعندما تصحو منه ستحكيه لحبيبها، تضحك بعدها وتسخر من أفكارها التي تخطت حاجز المنطق لجنون الخيال المستحيل!..

ثم تستقر فوق صدره، تناوشها دقات قلبه، يضمها بحنو ألفته معه.. وتسُّب عالم الأحلام البائس الذي يخلق أكثر مخاوفها رعبًا ويجسدها داخل عقلها لتحياها ولو للحظات لا تتعدى وقت الحلم!

اقترابه بخفة لم تلحظها حين تيهها أجفلها بينما يعيدها لتنظر نحوه بقسوة لم تلمسها منه قبلًا:

- لا تشيحي بوجهك عندما أحادثُك.. أنت قابلتِ آمر صفوان..

ودمدم بهسيس قبالة عينيها.. مفزع رغم خفوته:

- لا تتعجلي مقابلة النمر!

وارتجفت كأنما مر سيف من صقيع فوق عنقها وظل يبترها ببطء، فبفطرة سندريلا ظنته الأمير.. لكنه في النهاية كان شرير الحكاية الخيالية، تعلم أن الخلاص منه لن يكون سهلًا، وتبًا كم هي وحيدة.. ضعيفة، لا ظهر لها ولا سند سواه في مواجهته، فأين المفر؟!.. ترقرقت العبرات ساخنة بل حارة في مقلتيها، لمعتا ببريق خطف نظراته وتجاهله.. فالصفقة الحالية أهم:

- استعيدي قواكِ سديم.. ما بيننا لم ينتهِ بعد..

وتقلبت العواصف في الغيوم خلف أهدابه:

- فقط ثقي.. أنه لن يكون كما تتمنينه، وسيفوق كل ما تتخيلينه!

وكأنه يدرك أمنياتها!.. بحثًا عن خلاص منه!

وببساطة رجل يثق بكل حرف ينطقه بلسانه أو يعبر عنه حتى دون حديث، ينبئها أنه لن يكون منه مهربًا إلا.. إليه!

يخيفها، يثير رعبها، يتحداها ربما.. يثبت بالقول والفعل والنظرة أن المتعة هذه المرة ستختلف، فقد تغيرت طريقة الصيد، والتخفي لم يعد ذا قيمة!

كما أن التشبث بواجهة الشراسة يلائمه تمامًا، فوجه العاشق غير قابل للتصديق، وشيطانه لا يقبل به حتى لو كانت لحظة وهن روح تحن لتلاقي نصفها المتمم..

أو حتى تئن أسفل وطأة أوجاع قديمة تركت ندوبًا لا يقدر على محوها بشر..

وتأمل خوفها بنظرة احتواء أرغمت عينيه على التلبس بها، والقلب يسأل بينما العقل يستصرخه بعنف..

لكن ماذا عن الملائكة!

والواقع يمحو الأمل في أقل من ثانية..

الملائكة لا تجتمع مع الشياطين يا شيطان الموت، فإما أن تحرقها في لظى سعيرك، أو تطفئ هي بنورها جحيمًا.. هو لك الوطن!

***

خلقت المرأة من ضلع الرجل.. حقيقة لا خلاف عليها..

فكيف يتصرف الرجل حيال ضلعه المحيط بقلبه!!

بفطرته وتكوين جيناته، البداية امتلاك والسعي لتقويم هو خط السير، إلا فيما ناسب اعوجاجها هواه، تركه معوجًا حتى يخالف ذاك ما يريد فيرغب بسيطرة..

وتبقى المعركة أزلية بين شد وجذب.. مد وجزر..

يأمر آدم فتطيع حواء..

تتمرد حواء فيغضب آدم..

والويل لمن يناله غضبه!

حتى الحالمين عازفوا الألحان ضربوا النغمات حين الغضب، فخرجت قوية عنيفة بقدر ما هي مخيفة حادة صادمة.. عالية ترتفع بالإيقاع ولا تنخفض بهدوء بل تقطع الصوت بغتة فيطغى الصمت ويتجبر وينشط معه الفكر..

مد يده بجهاز التحكم يعيد تشغيل سيمفونية "المواسم الأربعة" لـ "فيفالدي".. واختص منها "الصيف" بسرعة وحدة نغماتها كأنما تناسب جانبه الأسود الذي سيطر عليه خلال الأيام الماضية، قبل أن يغادر المنزل.. هاربًا ربما ليطحن نفسه في دوامة العمل بحثًا عن نسيان مؤقت!

دلف شريكه لغرفته بدهشة.. ومع أول لمحة لوجهه أدرك أنه يحبس سخطًا يكاد يبتلعه:

- آه.. يا إلهي!.. آمر هذه المقطوعة شرسة للغاية.. أخفض الصوت قليلًا.

تواجهت الأعين لحظة قبل أن يستجيب بإغلاقه نهائيًا، اتخذ "غيث" من المقعد المقابل مجلسًا، أشعل تبغه ورمقه بنظرة متفحصة اعتلى المكر نهايتها:

- ماذا يا شريك!.. غياب يومين عن العمل.. هل كنت غارقًا في العسل؟

وكأنما ينقصه مرح العابثّ.. زفر ومط شفتيه، نهض يتأمل السماء خارج نافذته الواسعة، بدت رمادية داكنة تنذر بغزارة مطر، طقس يلائم مزاجه المعتم كأنه لا تصله شمس:

- عن أي عسل تتحدث غيث؟!

تبعه ليقف خلفه، تمعن في ملامحه المبهمة:

- تدعي عدم الفهم إذًا!.. عروسك في بيتك يا رجل، أظن فترة حدادها على خالتها انتهت.. واقتناص الفرص في هذه الحالة؛ فرض واجب يا صديقي.

التفت بوجهه إليه، ثوان وتخلل خصلاته بأصابعه بشيء من قوة:

- أنا لم ألمسها بعد.

جاور الدهشة قلق التهم ما تبقى من صبره فقبض على كتفه يجبره على مواجهة عينيه:

- ماذا تعني؟.. لمَ تزوجتها إذًا!

- هذا لا يعني أن أنقض عليها فور توقيع العقد.

- هي تعيش معك تحت سقف واحد يا رجل!

- وكأنني لا أعلم!

- وزوجتك.. أي أن...

استدارته الكاملة وازت مقاطعة شبه حادة:

- كفى غيث.

وابتعد.. بل تباعد، أقام جداره العالي مانعًا أحدًا من الوصول إليه، أخفى كل ما يصول ويجول بداخله خلفه، لكنه تأخر.. فالرفيق لم يتوقف، ولن يفعل.. عاد يقابله، يتمعن في وجهه.. يبحث عن اختلاف ووجده وصرح به مذهولًا:

- أنت أحببتها آمر!

حصل على عقدة جبين ونظرة قاسية دون حرف، وذاك حرك نار ماضيه فتأجج لهيبها حتى أتى عليه:

- أجبني.

- ماذا تريد غيث؟

- أحببتَها!.. أريد جوابًا.

قالها بيقين.. لا.. بتساؤل.. أو ربما هو قرار تلبسته الحيرة فتوترت النبرة وارتبكت المقل بتيه:

- أنت تحبها!

- نعم.

باترة حد قطع أنفاسه، هادئة لا تشبه ذلك الصراع الذي ينهش كيانه، وناهية عن مزيد من الخوض في بركة امتلأت بأوحال خطيئة قلب:

- لا آمر.. لا تفعل.

وتبًا له يشتت عقله مجددًا، يسقط في غرام أنثى وكل سقوط مشابه لا قيام بعده!

- لم أفعلها طواعية غيث.

تعالى رنين الكلمة يُخرج أفكاره عن مسارها..

"طواعية!"

كم هو صادق، أرعن.. وهي زوجته!

أحبها وهي زوجته!..

حبيبة هي مفتاح الضعف، وزوجة هي باب الخيانة!

وليته يملك من الأمر شيئًا.. ضم قبضتيه، ود لو لكمه وحطم وجهه علَّه يفيق، لكن.. سبق السيف العذل، تحققت أعظم مخاوفه، والويل له لو تركها تتحكم به..

سيكون لها بالمرصاد، للرعب الذي يسكنه، ولامرأة لو مر بخيالها إيلام صديقه: ستكون نهايتها وعلى يديه!

ربت على كتفه، لم يجد ما يقوله فكأنما شُلت أفكاره وأُلجِم لسانه، وكل ما يبحث عنه في هذه اللحظة هو الابتعاد عن العاشق.. الغاضب، الحزين كما يراه:

- انتبه لقلبك و.. لنفسك آمر.. لا تفقدها فيها فتضيع كمن ضاعوا.

وتبادلت الأعين حديثًا مطولًا مفاده مقلق مخيف..

فكيف بالمغلوب على أمره أن ينصح من سقط معه بذات الحفرة!..

والعابث لا يعلم عن جحيم النمر شيئًا، والنمر ينتابه ضعف غير مبرر أو مقبول، له ثمن واحد..

الدم!

***

عندما تهب الأعاصير على عقل الرجل يتوتر..

وعندما تناوش قلبه النسمات يضعف..

وحال توتره وضعفه ينقلب لغاضب حانق مندفع؛ حينها يتعامى عن كل شيء ويبحث عن مهرب حتى لو تعجل صيدًا أفقده شيئًا من صبره..

بل ربما أفقده كامل الصبر وهو يخرج بعجالة من مكتب شريكه، يقف قبالة مكتبها بتمعن لحظي لم يطُل..

فعندما تلاقت النظرات منها مستفهمة ومنه غامضة بادرها:

- هل تناولتِ غذائكِ بعد!

ومن فوق كتفه ألقى بنظرة للآخر الفارغ من صاحبته والتي تزامن غيابها مع غياب صديقه!.. و"حياة" أخفت دهشتها بهدوء ونفت بتهرب جيد:

- سأتناوله في مقهى الشركة.

- تناوليه معي.

وفاز بنقطة، استغرابها ظهر جليًا دون محاولة إخفاء بينما نبرته؛ لمست فيها ضعفًا غريبًا:

- هذه المرة فقط.. أحتاج لأذن مصغية.

رق قلبها لكن الغلبة للعقل:

- آسفة سيد غيث.. لن أقدر، لدي عمل أنهيه ولم أعتد الـ..

الـ"ماذا"!!

لا تعرف بالضبط، تركت بقية جملتها معلقة وفهم هو دون تطويل.. رجفة طفيفة مرت بفكه السفلي كأنما يضغط أسنانه، شردت عيناه لثوان ثم تعانق جفناه.. ارتفع صدره بنفس عميق تلته زفرة حارة.. بل مضطرمة استشعرت فيها الغضب..

مدمنة هي للتفاصيل..

وما مرت نظراتها عليه فوق ملامحه للحظات الماضية أجبرها على نحنحنة خافتة خجول، ارتباك وتراجع ونظرة عطوف لا تعلم حتى بعدها سبب عودتها عن قرار الرفض:

- موافقة.

تحول شرود مقلتيه لتعلق آمل.. ابتسم وخلت البسمة من مكره وعبثه ووقاحته المألوفة، تراجع خطوة وأشار بكفه في دعوة لتسبقه، ترددت..

تساءلت بداخلها: هل أخطأت!

ووبختها واجهتها الصلبة.. الأمر لا يتعدى وجبة ستتناولها بصحبة رئيسها وحسب..

حول طاولة أنيقة بمكان مفتوح يطل على النيل، تنشق الهواء يملأ به صدره، حافظت هي على صمتها.. لا تجد ما تقول، بينما هو احتاج لمستمعة وكفى، لكنه لا ينطق بحرف!

"هل وقعتِ في الحب من قبل حياة!"

استهل حديثه بسؤال غير متوقع، ومن البداية أغلقت الباب وابتسمت بدبلوماسية باهتة:

- ظننتك تحتاج لمن يصغي إليك!

التوى فمه مدركًا القصد:

- ليس كل ما نشعر به يمكن أن يقال.

- ماذا عن رتوش!

احتواها بعينيه واحمرت وجنتاها تحت نظرته المتفحصة المبهمة:

- التفاصيل تكمن دومًا في الهوامش.. وتلك هي التي تشكل بوضوح ما تواريه أنفسنا.

ارتبكت لا تدري مغزى حديثه، وأعاد السؤال رغم اختلاف الصياغة:

- كيف ترين الحب حياة؟!

- ضعف.

تغضن جبينه، رمقها بتيه حائر، وتوافق ما نطقت به مع فكره المشوش:

- إذًا أحببتِ من قبل؟!

أغمضت عينيها، زفرت.. ابتلعت ريقها وتابع هو كل تلك الفوضى التي قوَّضت جمود ملامحها ومشاعرها على حد سواء..

أناملها التي طرقت الطاولة بتتابع متوتر، اليد الأخرى التي أعادت خصلة خلف أذنها بفرار من جواب.. وتلاها تحكم أصابع اليدين بياقة سترتها كأنما شعرت ببرد مفاجئ فاحتاجت لضمة دفء!

- كان خطأً.

بادرت باعتراف واهن رغم اعتياده قوة نبرتها، ولم يتكرر الوهن لأن اللهجة تشبثت برداء الصرامة في اللحظة التالية:

- وكل خطأ قابل للإصلاح.

- وكيف أصلحتِه؟!

- تخلصتُ من مسببه.

لم يدرِ أنه فجأة تحولت نظراته لعابثة ونبرته لمرحة وابتسامته لماكرة وهو يعقب:

- الإصبع الذي يؤلم..

وابتسمت تكمل من ورائه وقد فهمت ما يعنيه:

- أقطعه لا أداويه.

- قاسية.

- لا..

وتهدل كتفاها بتفكير، قبل أن تواجه عينيه بنظرة قوية:

- أنا فقط تعلمت الدرس..

وعادت للشرود ربما في ماضٍ ليس ببعيد:

- وبالطريقة الأصعب.

لم يشعر بنفسه وهو يمد كفه يربت بها على يدها المستقرة فوق المائدة بينهما برفق:

- من كل ألم نخرج بشيء، ما كنا لنحصل عليه لولاه.

غرقت في سواد عينيه الداكن وطال وقت الغرق قبل أن تسحب يدها، تنهض بتعثر.. تعتذر، تغلق صفحة قلبها التي فتحتها عفوًا دون إرادة.. وتخطو بشبه ركض عائدة لسيارته.

وهو تابع هروبها.. تأمل ارتباك خطواتها، زفر وابتسم ساخرًا من نفسه:

"انصح نفسك أولًا يا أحمق"

استقام يلحق بها، وقلبه يضِل في دروب امرأة.. امرأة يسحبه عقله نحوها عنوة، ليجد نفسه ضائعًا بين جدران متاهة لا بداية لها ولا نهاية. متاهة هي ملك القلب في الأصل!

***

متى يصبح العشق إثمًا!!

عندما نُقر أنه خطيئة القلب بلا تمييز..

حينها لا يحتمل الغفران، وتتلبس معه الجوارح بمعصية.. فالروح تشتاق، العين تبحث، والعقل يفكر، والنفس تهفو للقاء!

وخاطئة هي باعتراف لن تنطقه، وتوبتها من ذنبه اتخذت معها من الهروب سبيلًا وإن لم يكن ذا نفع.. فهي إن غافلت الواقع وتجنبت تقاطع الطرق، الحلم يواجه بحقيقة لا مناص من الإذعان لها..

هو صدح بحب، جاهر به كجريرة قلب، سقطة وثب بعدها واقفًا كأن شيئًا لم يكن، ووقوفه كان فيه سقوطها هي.. كلا.. لن تنطقها.. لن تفكر بها.. لن تخشع لها أو تسلم بين يديها مقاليد الفؤاد..

جرمها لا عفو عنه، لذا فالإثم يثقل كاهلها وحدها دونه!

دوامة..

ما يدور بعقلها الآن هو دوامة، دوائر متتابعة لا متناهية مغلقة لا منفذ لها.. وحائرة هي لا تفهم ولا تفتش عن فهم!

"صغيرتي!"

رفعت رأسها بانتفاضة والنفس تئن وجعًا.. ربما وقت المواجهة قد حان رغم كل شيء، جلست "سوازن" أمامها فوق فراشها، تتمعن في ملامحها المتعبة بوضوح، مدت كفها تتحس بها وجنتها بحنو:

- تخاصمينني حبيبتي!

وارتبكت..

ألف لعنة عليه، كانت غافلة.. والجهل نعمة في بعض الأحوال:

- بالطبع لا.. أمي.

تأخرت في لفظ اللقب، والدقة المتفلتة من بين ضلوعها أخبرتها عن خطأ لم تستطع تفاديه لأن العين المقابلة لمعت بحزن وشيك:

- ما بك يا ابنتي؟

وتغافلت هي الأخرى عن سؤال كان هو الأولى:

- لا شيء.. مرهقة من العمل فحسب.

- تسافرين كثيرًا هذه الأيام.. كأنما تهربين من شيء ما!

واقتربت في جلستها تربت على ساقها برفق:

- أخبريني.

رعشة غامضة تمكنت من شفتيها وهي تحدق في اللاشيء، تفكر وتستوعب ما مرت به، بيدها عبثت بالنار، بقدميها دخلت عرين الوحش.. وعليها تقع المسئولية، عليها وحدها سيطبق قوانينه:

- اعترف لي بحبه.

توسعت عينا المرأة بشبه ذعر، شهقة خافتة غادرت صدرها وأناملها تلامس ثغرها تكتمها بعد فوات الأوان.. ازدردت لعابها فبدا كشوكة حادة:

- وأنتِ؟!

تشتُت مقلتيها أنبأها عما ترفض التصريح به، فقط كل ما خرج يحمل صوتها كان مبهمًا باهتًا ضعيفًا:

- أشعر نحوه بالشفقة.

الكلمة المنطوقة خالفت تعبير العين ورجفة الشفاه وتيه الفكر، تأملتها لحظة وضجت بالتساؤلات والقلق ينهشها:

- هل.. هل أخبركِ؟!

انتبهت الغافلة لما قالته، تلعثمت وتبعثرت أحرفها بارتباك، لم تجد جوابًا فأشاحت بوجهها والألم أنَّ خافقها بين جنبيها ينعي قسوته:

- أنا لا أملك الحق في السؤال أو الحساب.. لكن..

قاطعتها "سوزان" بنبرة حاسمة متوجعة رغم التظاهر بالصلابة:

- كارما.. لا تعيدي فتح جراح الماضي، أنا...

- لا أريد..

ووضعت كفيها فوق أذنيها تأبى الإنصات، تهرب بنظراتها، بخوفها، بألمها.. وتوجس روحها من غدٍ تخشاه.. تأوهت المرأة بخفوت لم يصل لأذني الجالسة معها، تأوهت تلعن ذاتها وتلعن ذاك الفظ الذي انتهك براءة ابنتها بغلظة ليست من حقه!

يخبرها عن حب.. يسعى لامتلاك.. ينقي صورته ويشوه صورتها بأوساخ الماضي الذي تابت عنه، لكنه لا يغفر، لا يصفح فما بالها تبحث عن العفو!

هي تخشى عليها، لكن مفاتيح القلوب ليست في متناول اليد، أدارت رأسها نحوها، نظرت في عمق عينيها البائستين وساوت خصلاتها المشعثة برقة:

- لا تخضعي لحبه كارما.

- أنا لم.. لم.. لا..

لمست شفتيها بسبابتها تسكتها:

- غيث غير قادر على الحب.

واعتصرت جفنيها تدرك أنها السبب.. الفاعل والفعل والمبتدأ بل وخبره:

- غير قادر على عطاء الحب.

الحيرة تلبست ملامح الفتاة فربتت على وجنتها من جديد، تهمس بصوت حزين من بين شفاه مرتعشة:

- للأسف ما حدث بسببي ترك شرخًا بعمق قلبه، والقلب المشروخ لا يمكنه منح شعورًا مكتملًا كالحب..

وتأوه النابض دون النبرة بوهن:

- لا يمكنه فهمه أو احتواؤه بطريقة صحيحة..

وزفرت بحرارة تناشد العينين الزائغتين:

- وكلما حاول؛ سبب ذلك له الألم.. وكلما تألم سيصب جام وجعه وغضبه على مسبب آلامه من وجهة نظره!

ومالت نحوها تصل النقاط ببعضها وتملأ الفراغات:

- أنتِ كارما.

راقبت انحدار ثغرها الشاحب بأسى، لكن ما أفضل من البتر.. من الكي بالنار كعلاج نهائي لا عودة بعده!

- احذري صغيرتي..

ونهضت تلملم شتات أفكارها وتواسي لوعة القاطن بصدرها:

- الشفقة هي أول خطوة نحو عاطفة إن تمكنت من القلب؛ ستطبق عليه فخًا لا مهرب لها منه إلا بنزع الروح!

ثم غادرتها تعيد حسابات تلك المعادلة القاسية وحدها..

وعقدت العزم على قرار تأخر.. إن لم تفعلها لأجل نفسها؛ فهذه المرة باتت لخاطر طفلتها..

قد يكون القرار خاطئًا ونتيجته موجعة، لكن الغاية تستحق!

***

الفرار وسيلة جيدة للصمود.. فقط عندما تكون متاحة!

هي فرت بما يكفي، كما لقيها من قبل.. فرت كدجاجة مذعورة، كفأر جبان كان أول من غادر السفينة حين الغرق.. وما بيدها لتفعله سوى الخوف!

لكن الواقع والحقيقة لا مناص عنهما، هما يعملان معًا، اجتماعات العمل وحفلات الصفقات الهامة يحدث فيها اللقاء عنوة.. مهما عاندت أو أبت أو تظاهرت باللامبالاة.. فكل خلجة من خلجاتها وكل ملمح من ملامحها يؤكدون أنها تحترق اهتمامًا.. ورهبةً!

هذا حفل آخر، تكرهه كما تكره كل ما يشبهه، لكنها مجاملات عملية ضرورية مجبرة هي على حضورها، ولأن بينهما شراكة فهو أيضًا هناك.. يراقبها من بُعد، يتربص بلحظة مناسبة لينقض.

وعندما أتت وجدته يقف قبالتها بلا تردد أو تفكير، يمد يده ويخالط الوقاحة في عينيه تحديًا:

- هلا رقصتِ معي؟

- أنا لا أرقص.

ندت عنه ضحكة خافتة وأعاد يده إلى جيب سرواله، بدا أنيقًا ووسامته وحشية بتلك البذلة الداكنة والقميص المماثل لها دون ربطة عنق كما اعتادت أن تراه، استند لجدار عن يمينه وغمزها بجرأة:

- خسارة.. الرقص بين ذراعي مختلف.

تأففت وهربت فعليًا من المكان تشعر باختناق، توجهت نحو الشرفة التي تطل على حديقة الفندق المقام به الحفل، اعتمدت على سورها العريض وأغمضت عينيها تبتهل مرور الوقت لتنتهي من هذه الليلة وترحل..

"الانفراد.. أفضل بالتأكيد"

تبعها دون تردد.. تبعها ساهيًا عن عينين أخريين تأملتا ما حدث.. عينين جاور فيهما الاهتمام، ألمًا و.. قلقًا!

التفتت تواجهه، تخطط لدفاع ضعيف ابتدأته بهجوم:

- ألن ننتهي من هذا أبدًا؟!

وعلت نبرتها بشيء من حدة غاضبة يائسة:

- ماذا تريد مني بعد؟.. لم يعد هناك حاجة لمزيد من الحديث.. يكفي.

مط شفتيه ببديهية، أخرج لفافة تبغ وضعها بين شفتيه، أشعل قداحته، راقب لهبها لحظة واقتنص عينيها في نظرة:

- أخبرتكِ من قبل كارما؛ أنتِ بدأتِ.. لكن النهاية ستكتب بيدي أنا.

وأطفأ اللهب ثم عاد يشعله، يتمعن فيه وتتمكن القسوة من نبرته:

- أنتِ اقتربتِ من النار.. لا تتوجعي حينما يطالكِ لهيبها؛ فيحرقك!

تطلعت للقداحة بين أصابعه بحيرة تمازج بها توجس:

- أنت تريد أن تحرقني؟!

سؤالها أيقظ العابث، وجنت على نفسها براقش.. ابتسم بلؤم ودنا خطوتين، توقف قبل الثالثة وأشعل اللفافة بهمس حار وازى نظرة وقحة:

- يمكنني أن أحرقك بطرق عدة..

ثم هز كتفيه بعدما نال حمرته الخجول بمتعة:

- لكن ما يجب أن تعيه جيدًا ألا مهرب لكِ إلا حينما أريد أنا.

- أنت تعلم أنك لن تصل لشيء.

تعاند رغم ضعف يتسلل إلى نفسها بخبث، هز كتفيه ورسم دائرة حول وجهها دون لمس:

- لا تستخفي بقدراتي عزيزتي.. ولا تقرري المستحيل.. فأنا خلقت لأكسر القواعد.

- ليست كل القواعد قابلة للكسر.

وأردفت تقطع عليه طريق الرد:

- وليست كل النساء كغوانيك سيد غيث.

- لم أقابل من شذت عنهن بعد!

ولوى عنقه بحركة ساخرة، جابهتها بسخرية هي الأخرى وهي تشير للمكان من حولها بكفيها:

- مرحبًا.. انظر حولك جيدًا.

تفحصها من قدميها لرأسها بوقاحة صرفة ووازى النظرة ضحكة مستمتعة مستخفة:

- لا.. تعجبني الزاوية التي أنظر منها.. إليكِ.

شعرت بخجل مفاجئ ليس في صالحها أبدًا، أشاحت بوجهها تفكر للحظة قبل أن تبرق عيناها بعزيمة.. لو ظن أنه سيهزمها فهو لم يدرس خصمه بحق، ولا يدري عنها شيئًا!

- أنت قلت أنك تحبني!

بجدية ونبرة باردة عقد لها حاجبيه مندهشًا، رفع حاجبًا واحدًا وهز كتفيه يوحي بنعم.. وهي بادرت تداهم عقله علَّها تصل معه لشيء:

- هل مرادف الحب عندك هو الإيذاء!

تجمد هنيهة.. لمعة سريعة مرت فوق مقلتيه قبل أن يدهس عقب تبغه تحت حذائه وتتشبث نبرته بغلظة أشبه بدرع واقٍ يواجهها من خلفه:

- الحب نفسه أذى كارما.. خاصة عندما يقتحم قلوبنا عنوة وتسلم هي الرايات دون مقاومة تذكر!

تراجعت خطوة بينما يكمل بقسوة وقبضته تلكم الهواء بحثًا عن خصم تفرغ غضبها فيه:

"الحب جارح.. قاتل"

"الحب موجع"

"الحب.. ضعف"

ورفع القبضة المضمومة بعزم أمام نظراتها المبهوتة بحزن:

- وأنا لن أستسلم لضعف كهذا يومًا ما أبدًا.

وترك أرض المعركة بعد هدف سجله في مرماها..

هدف أجبرها على مواجهة ما تشعر به.. حتى لو رفضت الاستسلام لعاطفة مهلكة لا طائل منها ولن تنال من ورائها سوى.. الألم!

(٢١)

الماضي أبدًا لم يمت.. هو حتى بعد لم يمضِ!

"ويليام فوكنر"

****

قبلة.. حب حقيقي، وتنفك اللعنة.. تتلاشى التعويذة ويذوب السحر..

تستفيق الجميلة النائمة من نومتها، ويعود الوحش لصورته البشرية، وتنتهي به.. وبها، وعاشا في سعادة وهناء إلى الأبد..

لكن سندريلا.. قصة تختلف!

فالصغيرة البريئة، تسللت لحفل الأمير بأمر السحر، وبعد الرقصة سقطت وسقط.. والعقدة كانت عند منتصف الليل.. فتعود لأصلها وتبطل تعويذتها الخاصة.

في حكايا الأطفال تتم الأمور ببساطة، تبدأ قصص الحب بنظرة.. تنتهي بقبلة.. وزفاف ويتبدل الحال من فقيرة لأميرة..

أما في واقعها هي، تحول الأمير لوحش، أو بالأحرى هو لم يتحول.. هو فقط عاد لصورته الحقيقية التي عُميت عليها..

والجميلة.. الآن تواجه الشيطان!

فقدت العد كأنما هي خارج حدود الزمن داخل سجنها المحكم، تتعاقب الأيام ويغزو ظلام الليل ضوء النهار، وهي رهينة محبسه تتمنى الحرية ولا تطمح لها.. فهو بدد كل طموح، وطعن كل أمل..

وكعادته منذ اليوم الأول، يقضي معها في غرفتها بضع دقائق لا تطول.. يتخذ من مقعد عريض يجاور فراشها مجلسًا، يستفز فيها العناد، ويبعث في روحها الخوف والرعب، يجذبها لتعود، ويتركها بذات اللحظة لتغرق في محيط الضعف.

"إلى متى سيستمر هذا الصمت سديم؟!"

في تلك الفترة التي مضت تمالكت نفسها أكثر، فكرت وحللت الموقف.. وتدخل القلب عنوة يدمج نفسه إلى معادلة غير محسوبة النتيجة، طرح منها حسابات المنطق، وأضاف إليها قوة النبض، وضرب معه أمنية غير قابلة للقسمة..

"ألا تريدين قول شيء؟!.. السباب ربما!"

ويتبجح أيضًا!

تعانق جفناها، هي تود الصراخ، الأنين، التوجع بحرية ولفظ كل ما يحرق روحها.. رفعت عينين منهكتين إليه، برقت عيناه بترقب وعم السكون، فالصوت عصيٌّ على الاستجابة والأحرف منعتها حشرجة خوف بات جزءً من تكوين ذاتها!

"ربما حتى تطلبين شيئًا ما!"

وكأنه يحثها على الخلاص بكلمة، وليتها تستطيع.. تلمست بأناملها حنجرتها الصامتة، فرقت ما بين شفتيها بلهاث خفيف ودارت حدقتاها في المكان بعبثية، تنفست وعلا صدرها بضيق وتعثرت الكلمات فوق لسانها..

تنهدت تتقن إخفاء الذعر، وتوقن من شيء واحد!

لو أراد إيذائها لأنها كشفت حقيقته؛ لفعل.. لكنه فقط يحبسها قربه، يعتني بها، والسبب في عقلها مجهول، وخافقها يؤنبها بمناوشة عشق يرفضها الواقع!

تبًا!

كلماتها لا تشبهه.. روحها لا تشبهه.. هي في الأصل كلها لا تشبهه، لكن القدر قطع طريقها مع طريقه.. فاشتهى واقترب وتملك وباتت هي أسيرته، بقلب.. وعقد زواج!

وإن كان التحرر من عبودية الأول يبيح كسر صك الثاني فهي ستطالب به..

وكررت المحاولة، زفرت، وتوجس وراقب وتمعن في ملامحها التي تقاتل برعونة بحرب هزيمتها فيها محققة.. فتحت فمها، أغلقته، ترددت.. وأصرت، عاندت اللسان الثقيل وخرجت الهمسة أجشة أبحة متقطعة:

- ط.. لِّ..قني!

ولم تصدق أنها نطقتها، وكان يدرك أن هذا قادم لا محالة فتجاهل ما سمع، وأعادتها بوضوح أكثر، بقوة أكبر.. وبعينين تبثان اليقين والحسم رغم رقص الهلع في الخلفية:

"طلِّقنِي"

سكتت دهرًا ونطقت كفرًا.. وعقاب كل كافر خلود في الجحيم!

وعن جحيمه فهو لم يخطر ببال بشر!..

نهض يقترب، ومع كل خطوة كانت هالته تطغى عليها، تبث الخوف بقلبها، تحيطها بقضبان سجن من حضوره الباغ على جنبات كيانها:

- ماذا!.. أعيدي ما قلتِه!

كانت تدرك أنه سمع، وكان يعلم أنها تدرك.. يتحداها تكرار مطلبها ونبضة هناك غافلته بفرحة طرب أذنيه لعودتها، أما هي فقبلت التحدي رغم ضعفها ووحدتها:

- أريد الطلاق.

قالتها سافرة صريحة لا تحتمل معانٍ أخرى، وعاد الصوت يتماسك والنبرة تحكمها قوة، وقوَّض هو أساسًا بنته بمداهمة حواسها، بعينين تطلقان الشرر، وبصوت بارد قاتم يشبه قلبه:

- دعيني أخبرك شيئًا جديدًا لا تعلمينه عني "غيمتي"..

وارتكن بيده لظهر الفراش، يطل عليها من عليائه فبدت هامته ضخمة وانكمشت على نفسها بتوجس قلِق:

- ياء الملكية تلك ليست دلالًا لاسمك، بل هي ختم تملك أبدي لا خلاص منه..

انحنى فوقها فتراجعت بملامح باهتة شاحبة والصرامة تعلو لهجته:

- ما أمتلكه لا أحرره إلا بإرادتي.. ما أمتلكه لا يمتلك إرادته الخاصة..

وتشددت أسنانه وقبضته الحرة بعنف، والقسوة غلفت نبرته:

- وما أمتلكه؛ لا يعارض رغباتي أو أوامري.

ألقى الفرمان الحازم وانتهى!

أو ربما لم ينتهِ، فهي نظرت إليه بحيرة، وإن شابها شيء من رعب فاللسان لم يقاوم التعبير عما يدور في العقل بتوتر مرتبك:

- أنت لست طبيعيًا!!

وكانت تتعجب، منه ومن قدرتها على مواجهته بكل ما يحيط به من غموض مثير للفزع، غموض بنكهة الدم:

- أعرف.. ربما لهذا وقعتِ في حبي.

جذَّ أفكارها باعتراف لم تنطقه لكنه جليٌّ بانجلاء شمس ظهيرة يوم حار، والإنكار وسيلة متاحة وإن كانت غير فعالة:

- أنا لم..

لكنه قتل الفرصة في مهدها ببتر حاد:

- لا تكذبي.

أغمضت عينيها، فهي إن أقرت بعشق؛ لن يصبح هو الدافع لخيانة مبدأ:

- لن أكون زوجة لقاتل..

والنظرة التالية كانت مطعونة بوجع، والنبرة علاها شجن وملأتها بحة ألم عاتب:

- خائن!

تغضن جبينه فوق تأمل جامد، شهق الهواء بعمق وأخرجه زفيرًا مضطرمًا كروحه في هاته اللحظة:

- القتل مهنة كغيرها.. أما الخيانة..

ويبرر وهي تنظر بذهول:

- فلم تحدث!

صرخت دون وعي أو مقاومة:

- كاذب.. مختل.

انقض بحركة خاطفة يسجن ذقنها بين أصابعه، الضغطة قاسية آلمتها، والنظرة محذرة واللمعة هناك تنذر بجحيم لن يطفئه شيء:

- انتبهي لما تتفوهين به.

ومال أقرب، يلهب وجهها بأنفاسه:

- احتفظي برأيك في لنفسك سديم.. فالخلل الذي تتحدثين عنه يحثني الآن وبقوة لإزهاق روحك.

الرعشة التي انتابت كامل جسدها استشعرها فزم شفتيه، تخطى حاجز القلب الموبخ، ونهر العقل الذي يأمر ببعض من رقة، تلبس ثوب النمر وعاد لوحشيته دون أن يمنح أي منهما فرصة احتجاج:

- نعم.. الخوف هو ما أريده في هذه اللحظة..

وتوقف قبالة شفتيها فأغمضت عينيها والرجفة تزداد ووجيب فؤادها يخشع لأمره:

- وهو كل ما ستمنحينه حتى أريد غيره.

ثم ترك ذقنها وتباعد بتمهل، يراقب جفنيها المتعانقين بضغط يشبه اعتصار حبس الدموع.. هل ستبكي!

مجددًا!

لكنها باغتته بنظرة تدعي الصمود، تتخفى وراء بأس مصطنع، وتتوهم التماسك المدعى:

- أريد الطلاق.

أعجبته اللعبة، فنثر قوانينه بحسم:

- وأنا أرفض..

وكبل عينيها بأصفاد نظرة أرهبتها:

- وإرادتي فوق إرادتك سديم..

كرر الميل والقرب وأنفاسه لفحتها حارة مرة أخرى فتراجعت ولا مهرب:

- لا تخاطري بمخزونك من الحظ معي أكثر من ذلك..

واعتلى بإحدى قدميه الفراش يستند بذراعيه حولها، يجبرها على الشعور به، بوجوده وإن لم يلمسها:

- لا تستدعي شيطانًا لا قِبَل لك بمواجهته..

وذاك البريق كاد يضيء المكان بجوار توحش عينيه وبرية نبرته:

- شيطانًا؛ جحيمه هو مسكنك حتى الموت.

ثم أنهى القصة..

وغادر الحكاية..

ترك لها المكان والدموع والنشيج، وأسقط في يدها..

فالاستسلام لم يكن من ضمن قائمة المباحات، بل محظورًا لا ضرورة يمكن أن تسوغ حدوثه!

***

هو رجل يتقن قواعد اللعبة..

لا بل هو من يسن تلك القواعد، ويرسم خريطتها!

وتلك التي اعترف لها بعشق، والأخرى التي تشبه ماضيه هما تحديه الجديد، لو كسر أحدهما فهو فائز..

وهو كذلك رجل اعتاد الفوز!

من بين سحابة تبغه التي غيمت الأفق في مواجهة عينيه تنهد، انسحب للخلف وتأمل دجنة السماء من وراء نافذة غرفة نومه العريضة، نجومها شاحبة بهتت لمعتها وقمرها في طور احتضار..

كل ما حوله يوحي بسكون لا حياة فيه!

"حياة!"

وابتسم..

هي تركيبة غريبة لم يمر بها من قبل، قوية عنيدة.. وضعيفة، تألمت من قصة عنوانها حب سابق، والتحدي الأكبر هو نيلها رغم العراقيل ومتاريس الصدود..

استعاد دفء نبرتها وهي تحادثه، تبدو أحيانًا كأنها تشعر بعطف نحوه، وهو في الواقع لا يمانع.. ففوضى المشاعر تلك نقطة وهن يستند إليها سعيًا للوصول!

انتزعه من أفكاره رنين باب المنزل، نظر من نافذته لكن زاوية الرؤية مستحيلة فتحرك متجهًا إليه.. من يزوره في هذا التوقيت؟!

ولو أخبروه عن نيزك سيهبط من السماء ويختار منزله ليحرقه؛ لصدق.. أو ربما لو أخبروه أن إعصارًا سينقض عليه هو وحده دون غيره ليداهمه بجُل قواه.. لقال أن هذا ممكن، فالحظ السيء له أهله.

لكن أن يراها هي!

تقف خلف حارسه بنظرة امتلأت بـ.. الحنين!

فتلك صاعقة تخالف جميع التوقعات وخارج حسابات كل منطق أو مقبول، همس الرجل بشيء ما لم يتبينه، لم يشعر حتى بهزة رأسه وهو يجيبه لكنه رحل وظلت هي في مواجهته..

عيناها تلتمعان بعبرة على وشك الهطول، تطوفان حوله بتبجيل واشتياق، وصدرها يعلن قسوة الأنفاس التي تصارع رئتيها للدخول..

وهو لا يبدي حراكًا، لا ترسم ملامحه انفعالًا.. ولا يظهر أنه حتى يتنفس!

"غيث!"

نادته.. وصمت، كررتها بتوسل.. دون جواب، وعادت تكرر بمناشدة لامست كل حواسه، لكنه جامد كلوح من ثلج.. وأخيرًا أطلق شهقة خافتة تعلن عن احتياجه للهواء بعدما تجمد الكون من حوله، بل وتوقفت أرضه عن الدوران!

- ماذا تفعلين هنا!

ابتلعت ريقها وحلقها الجاف تألم:

- أريد الحديث معك.

انعقد حاجباه بقسوة ظاهرة.. بل سافرة تعلن الرفض وعاجلته تدرك أن ما ستنطقه هو نقطة ضعف:

- بشأن كارما!

حرر زفيره متقطعًا وكيانه يغلي غضبًا، ذاته تشتعل واللهيب يستعر فيحرق بدواخل نفسه كل ما يطاله، أمام صمته سألت بترجي:

- هل يمكنني الدخول؟!

- لا.

قاطعة قطعت أنفاسها للحظة وأرجعتها خطوة بصدمة:

- غيث!

وواهمة هي لو ظنت بضعف نبرتها ستنال منه، ضم قبضتيه بعنف ولمعت عيناه بشراسة أخافتها قبل أن يلتقط سترة شتوية ثقيلة ويعبر الباب مارًا بها في طريقه، وغلظة نبرته تهاجم مسامعها:

- سأسمعك في الخارج.

لم يكرر نحوها النظر، تخطاها وتوجه إلى سيارته وانطلق بها فأسرعت إلى سيارتها تأمر سائقها بتتبعه حتى توقف قبالة النيل.. هناك كان يحتاج لسِعةٍ من الهواء، يعوز مكانًا مفتوحًا لا يضيق عليه وهي حوله كما حدث عندما وجدها أمامه:

- بني...

- إياكِ أن تنطقيها!

ودون أن ينظر إليها يأمر بفظاظة، ويردف يريد إنهاء الأمر:

- ما الذي تريدين قوله؟

أغمضت عينيها في ابتهال لله أن يمر الموقف بسلام.. هو ابنها، وحيد رحمها وإن شاركته أخرى في قلبها، أخطأت بحقه ومُقرة هي بعظم الجرم، هو لم يسامح وتوقن أنه أبدًا لن يفعل.. لكن الفتاة البريئة لا تقوى على مواجهة شيطان مثله؛ حتى وإن كان هو من صنع آثامها!

- ابتعد عنها غيث.

اللفتة الحادة.. النظرة القاسية الوحشية.. والنبرة المرعبة هم رد الفعل الوحيد الممكن في موقف يجاور المستحيل بتفاصيله وفوضاه وخبال أفكاره، أكملت بتردد بعدما تراجعت خطوة:

- أنت ستؤذيها.. هي لا تناسبك.

قهقه ساخرًا، والمرارة ألجمت حلقه فتعسر ميلاد حروفه دون رد.. أخيرًا أتت والدته، ظهرت وقررت أن تواجه.. لكن واأسفاه أيها الغرير، ليس لأجل اعتذار مستحق وإن كان غير مقبول!

ليس لأجلك!

ليس لأجلك!

وتعالى الصدى بين جنبات روحه التي يعتصرها الوجع والألم، تشتعل بها نيران الذكرى والصورة تعاد وتعاد بغياهب عقله، تاه عنها وغفل عن صوتها وهي تحادثه، رآها..

رآها، هي أمه.. عارية!

بين ذراعي رجل!

ليس هو أبيه!

بفراشه!

وأنين الروح أصبح غير محتمل فزعق بها:

- كفى!

واستدار إليها بكيانه كله، يلهث كثور غاضب، بل كذئب على وشك الافتراس.. وكرر أمر الصمت وابتعدت عن مجال يديه ذعرًا من نظرة اعتلت عيناه توحي عن يقين برغبة في القتل:

- غيث!

- لا تنطقي اسمي.. لمَ أتيت!

بلهجة متشنجة تكاد تمزق حلقه، واقترب خطوة وثانية ومازالت هي على تراجعها:

- تخشين على فتاتك الذهبية!

وضرب السور الحديدي بقبضته:

- احزري ماذا سيدة سوزان!

وقطع المسافة بينهما ليواجه نظراتها المرتعبة بقبضة مضمومة بغيتها عنقها والحاجز بينهما مجهول:

- هي لي.

قرار لا رجعة فيه، من قسوة استنبتتها في تربة قلبه الذي كان غرًّا في يوم ما، من غلطة اكتنفت روحه فأفقدتها شعور الحياة، من وحشية شيطان أزالت هي عنه تراب بشريته فتملك منه:

- هي لا ذنب لها.. لا تنتقم مني فيها!

وعاد يضحك بسخرية شابتها مرارة:

- ومن أنتِ لأهتم لأمرك!

- غيث!

تنهره بوهن، ويقسو أكثر:

- أنا أريدها هي.. ومادمت أفعل؛ فهي لي.

- أنتَ كذبتَ عليها وادعيتَ الحب.

وتصر على ثورة بركانه الذي ظل خامدًا لسنوات:

- ليس هذا من شأنك.. لا تتدخلي بيننا.. أبدًا.

ومد يده نحوها يبغي إيلامها بقبضة يده ثم تراجع.. قبل أن يلامسها توقف، نظر لها باشمئزاز واضح آلمها.. تكورت قبضته وأشهر سبابته في وجهها:

- لا تتدخلي.

وتظل تناضل، تحارب وتصارع وحشها الخاص لأجل صغيرة لم تأثم إلا بقربها منها:

- أنا أعلم ما فعلتُه بك.

صمت وانتظر وكل كيانه لا يبالي مثقال ذرة بأحرفها غير المبررة:

- أعلم أي وحش خلقتُه منك!

زم شفتيه وزفر بحدة مؤلمة:

- ظلام نفسك حالك غيث.. نورها الضعيف لا يكفي لتبديده، أنت فقط ستهلكها.

وربما كانت على حق، أو هي فقط تهتم لأخرى وتتناسى ما أسقطته في طريقها:

- لا شأن لكِ بي أو بها.

وعادت تتشبث برداء القوة والخوف على فتاتها:

- أعلم أن خطئي...

- خطيئتك.

ألجمها بكلمة، ومال نحوها يبدد كل فكرة ودفاع مستهجن:

- خطيئتك.. لا تهاوني في الوصف.. أماه!

رفعت يدها نحوه تحاول لمسه لكنه منعها بنظرة محرقة زاجرة، وفي ثانية كان قد اختفى من أمامها، انطلق بسيارته تاركًا إياها خلفه تنعي ذنبًا تابت عنه، وربها الرحيم ربما قبله، لكن ابنها.. صغيرها، لا يملك قدرة العفو!

هي تدرك أي شيطان صنعت منه..

وللمأساة.. فذاك الشيطان سيؤذي أكثر من تحب في هذه الدنيا.. بعده!

***

عندما يتألم الرجل يهتز كيانه كله.. يتصدع تماسك نفسه، تنعصر روحه بين شقي رحى القوة وإظهار الضعف.. وخلف الواجهة انهيار، لكن في المقدمة يظل الصمت هو الأصل.

أي صفاقة أتت بها!

أي وجع تبغيه أكثر ولم يمر به!

ذكرى وأيقظتها حية.. تيه ونشرته بذاته.. غضب ونار وجحيم سيصليه من تحب فقط ليشعر بأنينها كما تجاهلت أنينه!

كان يقود بسرعة تجاوزت حد التهلكة..

سيارته طوع أمره وقدمه تعتصر دواسة الوقود بجنون، الأفق أمام نظراته معتم.. حالك يشبه قتامة إثمها غير المغفور..

بريق الدمع ناوش مقلتيه بجرح، وعناده أبى الخضوع.. مهما كان السكين الثالم يذبح دون رحمة؛ فالمقاومة ستكون برداء اللامبالاة!

انتبه لنفسه وحوله صحراء!

متى غادر العاصمة؟!.. هل فقد إحساسه بالوقت والمكان لهذه الدرجة!

اتجه بالسيارة لجانب الطريق، أوقفها بحدة فوق الرمال وغادرها.. يدور حولها بخطوات حائرة ضائعة، يتلفت يمينًا ويسارًا بتشتت، يرفع وجهه للسماء لثوان، ثم يخفضه، يمسح عليه بكفه، يتخلل شعره ويجذبه بقسوة بين أصابعه..

يدور ويدور كأسد حبيس قفص الماضي، سجن مصنوع من ألم، وأساسه ذكرى تخز صدره بالوجع!.. سجن لا هروب من وراء قضبانه؛ سجن قابع بأعماق الوجدان!

دار حول نفسه دورة أخيرة واعتصر يديه بشدة.. نظر للسيارة المضاءة واتجه نحو مقدمتها وتعلقت عيناه بها..

ضربة فثانية وثالثة ورابعة فعاشرة وتوقف عن العد، ربما وصل لمائة وانبعج معدن سيارته أسفل لكماته المتتابعة.. وتبًا لجسد لم يشعر بألم فأنين الروح تخطى حاجز الصراخ.. لكن الصمت يعم الكيان..

تبًا لوجع ينتشر كما النار، يحرق ولا يبقى بعده سوى رماد ذات خاضت يومًا صراع الحياة.. ونجت، لكنها نجاة مطموسة المعالم، نجاة تجمعت من شظايا وتجاورت فيها الشروخ فاختفى جمال الصورة..

اللعنة على قلب.. ومائة ألف لعنة على عقل تناسى ما مضى ولو للحظة، وشرد في غير المباح.. بصحبة خافق عاق، عقَّ جسد صاحبه وواراه ثرى الهزيمة أمام عشق!

وملعون.. هو ملعون ككل شيطان.. لو ترك ساحة المعركة بعد!

تأمل يديه دون شعور بنظرة مهتزة واهنة، أصابعه متجمدة أوشكت على التحطم، وطغيان عذاب روحه منعه إحساس الألم.. قبضهما بقرار نهائي دون تفكير وقست النظرة.. عاد لمقعده يقود فاقدًا لكل رشد..

وتلبس ذاته عزمًا على عدم الرجوع.. فالحرب لم تنتهِ بعد!

***

نقطة ضعف كل أنثى.. الاحتياج!

أن يحتاجها أحدهم فتشعر أنها مصدر راحة أو أمان.. أو حتى حب!

وهي تنظر إليه بتلك النظرة في هاته اللحظة، بدا ألم طفيف على ملامحه وهو يمسك بالقلم ليضع توقيعه على الأوراق التي حملتها إليه فطغى على عينيها عطف يعرفه تمام المعرفة، عندما رفع رأسه إليها ارتبكت قليلًا، ترددت ورمقت الرباط الذي يحيط بكفيه بقلق:

- هل أنت بخير سيد غيث!

أغلق الملف ولم يحررها من تأمل عينيه، نهض يواجهها أمام مكتبه ورد بينما يلقي بنظرة إلى قبضتيه المكدومتين:

- بخير.

- ماذا حدث؟!

ثم تراجعت عندما تفحصها بتساؤل، وتلعثمت أحرفًا تُظهر اهتمامًا ترفضه:

- أعني.. تبدو متوجعًا!

ابتسم بمكر والذئب يعود لزمام السيطرة:

- مباراة ملاكمة ضد خصم صلب.. بعض الشيء.

انعقد حاجباها دون فهم فأومأت برأسها والتقطت أوراقها لتغادر، عندما مدت يدها لباب المكتب تفتحه فوجئت بكفه تستند فوقه، يمنعها المحاولة.. والقرب تخطى حد المباح:

- ما رأيك بتناول العشاء.. معي.. الليلة!

ينطق عرضه بتباطؤ مدروس، وعيناه تمران حول ملامحها الحائرة، يدنو أكثر وتستقر النظرة فوق شفتيها المرتعشتين، وتتابع هي اتجاهها بتوتر قبل أن ترفض بأدب:

- لا يمكنني..

وأجبرته أن يحيد بنظراته نحو عينيها:

- لماذا؟!

- خارج وقت العمل.. وقتي ملك لطفلي.

أمال رأسه وعاد يتمعن فيها، لامست حمرة فاتنة وجنتيها وعدلت منظارها الطبي وهربت بحدقتيها بعيدًا عن تفرسه المدقق:

- لنجعله غداءً إذًا.. ربما بصحبة الصغير!

وسجل نقطة في مرماها بدهشة اعتلت وجهها وهي تتأمله في المقابل.. ابتسمت بخفوت، هزت كتفيها وتحججت بلطف:

- ينبغي إذًا أن أستأذنه أولًا.

ثم قررت الهروب، وقطع هو الطريق فلم يبعد يده عن منفذ فرارها، بحيرة اضطرت لمواجهته وببسمة شقية تقارب العبث كان هو هناك:

- هل تحبين أن أطلب أنا الإذن!

رغمًا عنها استنسخت شفتاها بسمته لكن بلمسة حياء جذابة، فمال مقتربًا بهمس دافئ:

- فليكن الأمر كذلك.. حددي لي معه موعدًا.

تضاعف خجلها ووازى هروبها الممنوح منه بكرم نبرتها الخافتة:

- حافلته ستعيده إلى هنا اليوم.. يمكنك سؤاله!

وانغلق خلفها الباب برقة تشبهها وهو عقد النية ونفذ وفاز..

بنى صداقة لطيفة مع الصغير، قضى يومًا يمتلئ ببهجة لم تمر بأيامه من قبل.. ضحك ولن يكذب لو اعترف أنها من القلب..

ونظرته إليها شابها شيء ما لم يدركه.. لكنه أخجلها!

عندما أوصلها أسفل منزلها بحلول الظلام شكرته برقتها التي تسحبه نحوها بلا إرادة، عانقه فتاها فجأة فنبض قلبه، ومد أحد ذراعيه بتردد مرتبك يحيطه ويربت على ظهره برفق، تابعهما بعينيه حتى اختفيا بمدخل المبنى الواسع، وقبلها..

كانت تمنحه نظرة امتنان.. واهتمام، تبسم لها شيطانه!

لكنه صفده في جحيمه؛ لأجل غير مسمى.. فربما من بين أنياب الوحوش؛ تنجو فريسة ما!

***

بكرم حاتمي وسع رقعة سجنها..

من بين جدران غرفتها، لجدران قصره المهيب على كثرتها، ووحيدة هي دون أحد، فمدبرة منزله تنهي عملها وتغادر في تمام الثامنة من مساء كل يوم بعدما تحضر عشاءه وتتركه جاهزًا للتسخين فقط.. وهو يعتكف بمكتبه حتى العاشرة، ثم يعود لغرفتها، يلقي عليها نظرة مبهمة.. ويرحل عنها إلى غرفة نومه، ولا تراه إلا بعد نهاية دوامه في اليوم التالي..

كل الأبواب محكمة كما يليق بمحبس أنيق فاخر، تختنق داخله وتسحبها هوة الضياع نحو أعماقه بلا مفر، تتجول تائهة، تفكر وتفتش عن ثقب تعبره فربما تنقذ نفسها من براثن.. قاتل!

هذا اليوم كان أطول مما ينبغي، ربما لأنها لم تره بعد انتهاء عمله، أو ربما لأن الساعة تخطت الثالثة فجرًا وهو لم يعد بعد.. وكذلك ربما لأنها باتت تخاف

وحدتها كما تخشى وجوده معها.. لكن العبرة بأنفاس تزيح عن ذهنها وحشة المكان وبرودته.

تناهى لمسامعها صوت الباب ينغلق، علمت أنه عاد!.. غصة تكونت بحلقها، وقبضة اعتصرت خافقها.. عودته في ذاك الوقت المتأخر لا تعني إلا أنه كان معها!..

هل كان معها؟!

يكذب وينفي خيانة، وككل ذكر لا تشبعه واحدة..

عبرت الممر الموصل بين الغرف في الطابق العلوي، تريد لقائه ولا تدري ماذا ستقول!.. لكنها غاضبة.. حزينة.. وحيدة، ترغب في التحرر من أسر حاصد الأرواح.. والقلب يخون بعشق ويتألم بدعوى خيانة!

وجدته يصعد الدرج بصعوبة، يستند لسوره بيده وبالأخرى يضغط كتفه وفوق رُخام درجاته الفاتح لمحت قطرات حمراء تتساقط في خط يتبع خطواته!

تجمدت في مكمنها حتى وصل إليها ليباغته وجودها.. تسارعت أنفاسه وتلبس ملامحه برودًا لا يشي بوجع خمنته:

- أنت مصاب!.. ما هذه الدماء؟!

ضم القبضة الحرة يكتم أنَّة ألم اعتاده حد الألفة والصداقة:

- لا تهتمي.. عودي لغرفتك.

وأكمل مسلسل جموده بحركة تجاه غرفته، ومجبرة هي.. بل مسيرة بأمر الفؤاد المرتجف بين ضلوعها؛ تبعته، وقفت على بابه تخشى عبوره:

- ماذا بك!

التفت إليها ودار رأسه لوهلة، بدا في عينيه احتياج رفض لسانه التصريح به لكنها اكتفت بمطالبة نظرته فدلفت للداخل بتردد، واجهته وتعلقت عيناها بجرح ظاهر رغم سواد لون قميصه فقد بان التمزق والدم الذي يسيل فوق كفه وصدره بلا توقف مفزع:

- رباه!.. ما هذا؟

- اتصلي بريما.

- ماذا؟!

وارتدت بحدة ترمقه بغضب جعله يرفع عينيه إليها.. ليلمح الغيرة!

هي تغار!

ورغم متعة ناوشت قلبه في صقيعه فقد تخطى اللحظة ونبرته باتت فظة:

- هذا ليس وقت الغيرة سديم.

انتبهت لحالها.. الاتهام خالص سافر، والبينة على من ادعى وهي جلية، واليمين على من أنكر.. ولن تقسم كذبًا فالبرهان لا يحتمل رأيًا آخر.. وكله بحماقة عشق تمكن منها:

- أنا لا أغار.

سبر أغوارها بنظرة.. تُعلمها وبتأكيد أنه يفهم ما تمر به رغم النكران، رغم اللامبالاة المدعاة.. ورغم ملامح تجاهُل صعُب عليها رسمها فخرجت مشوهة تثبت ما تنفيه دون إرادتها:

- لمَ تظنني أغار؟.. وممن!.. من هذه؟.. لا.. أنا لا أغار عليك مطلقًا.

طفولية، بريئة حد الوردية، حالمة في حضور نمروالتتمة زعقة:

- سديم.. اتصلي بريما.

وعليها اللعنة لو وافقت، ترددت وتضاعف غضبه وبدأت تدور حول احتياجه:

- حسنا أخبرني ما الذي علي فعله كي أداوي جرحك!

توسعت عيناه.. هذه الحمقاء حقًا مخبولة!

تحولت الزعقة لنبرة أعلى، أشد قسوة.. والأمر تلبس أحرفها حد الخضوع:

- لن يمكنك فعل شيء.. هاتفيها الآن.

أمسكت بالهاتف وعادت تتوتر، تعاند ولا تعلم أي غباء أصابها في هذه اللحظة!.. فليحترق في قلب الجحيم.. كيف استطاعت أن تغار عليه!

جذبه من يدها يبادر بالمكالمة وخنعت عندما أنَّ بخفوت أرغمه ألمه على الظهور فعادت تلتقطه:

- حسنًا.. حسنًا، سأفعل.. ناولني إياه.

وهاتفتها.. ونبرة الأخرى المذعورة وتلك اللهفة التي حلت على صوتها وصلت بغيرتها غير المفهومة لفوهة البركان فكانت على وشك الثورة.

وهو كان يحاول الصمود في وقفته مستندًا للجدار والدماء تغرق ملابسه، يستمتع مع كل ما حدث بمواجهتها، بتنمرها، بنار تنهشها جوار أنثى غيرها كانت هي من يريد في هاته اللحظة.. ومع لذة تسللت إليه حافظ على غيظ ملامحه ونظراته الباردة، أنهت مكالمتها واقتربت منه:

- هي آتية.

- جيد.. اخلعي عني هذا القميص.

تفرق جفناها على اتساعهما دليل خجل وازته حمرة داكنة هاجمت وجنتيها والهروب أصبح فرض عين.. تمتمت مستنكرة:

- ماذا؟!

لم يرحمها رغم ألمه، فالفرصة مواتية لبعض المرح:

- كما سمعتِ، أحتاج لإلقاء نظرة على الجرح.

ابتلعت لعابها بشق نفس، كيف يفكر هذا الرجل!!.. وبعد كل شيء لايزال يسعى إليها:

- ماذا بك؟!.. هذا ليس وقت الخجل أيضًا.. كيف كنتِ ستعالجين جُرحي إذًا!!

- ولكن...

- رباه سديم.. أنا أنزف!

لهجته مستهجنة ونظرته بها عبث تجاهلته وهي تستجيب، تدنو منه.. تواجهه فينظر لقامتها الضئيلة من علو.. تمد أصابعها الصغيرة لتفكك أزرار قميصه بارتباك.. وصبر هو مع دوار يتسلل إليه ببطء، خلعته عنه فكتم تأوهًا بجلد، توجه نحو مرآته والتقط منشفة في طريقه يتأمل الأثر الدامي.

مسحه ولا فائدة، فكلما أزال بقعة حل محلها سيل دافئ عقد له حاجبيه..

هي كانت تتأمله بحيرة، خجل ما يكتنفها.. لكن خوفها عليه أعظم!

تبًا لك يا قلب وألف تب!

فبعد كل شيء لا تزال تخفق له، ويتملك منك.. تحركت نحوه وتناولت منشفة ثانية، جذبته من يده برفق حازم:

- انتظر، سأحاول تنظيفه قليلًا.

أجبرته على الجلوس فوق الفراش وطافت حول الجرح تمسح برقة، وكانت نظراته هو في طواف سرمدي حول محرابها..

دون وعي تعلقت عيناه بها.. وبكل وعي، هربت هي بعينيها!

ثوان والفائدة صفر، نهض متجهًا نحو المرآة مجددًا فلاحقته بقلق:

- آمر.. انتظر، ابقَ جالسًا.

تجاهل اهتمامها وأمرها ونيران غضبه تتأجج حد الجنون:

- لا.. أريد أن أراه بوضوح.. هذه ندبة أخرى لن تنمحي.

ندبة تجاور ندوبه، وكأن جسده لم يكتفِ منها بعد!

- الغبي كان لديه سلاحا وامرأته لم تخبرنا!

انقبض قلبها فوضعت كفها فوقه تهدئ من صخب نبضاته:

- ربما ينبغي أن تحصل على رسالة من نوع خاص هي الأخرى!

وتحولت الانقباضة لرجفة خوف.. استدار إليها يناظر ذعر ملامحها وغشاوة غيمت فوق أفق نظرته فضغط جبينه بحثًا عن صحوة:

- أنا أشعر بالدوار.

وانهزم الخوف في معركة خاسرة مع القلق، مدت يديها تسانده بأمر متذمر:

- اجلس إذًا.

خطوتين أخريين وثقل جسده بات فوق طاقة تحملها.. زاغ بصره ودارت عيناه بمحجريهما:

- سديم..

ودون تتمة كان يفقد الوعي وتفقد هي توازنها أمام ميله فوقها لتسقط على الفراش وتتلاحق أنفاسها بينما يجثم أعلاها وأنفاسه هو تتباطأ بموازاة صراخها المرتعب باسمه!

***

أليس من حق كل أنثى دقائق حالمة وإن كانت قصيرة مبنية على أساس من وهم!

لا تنكر أن به شيئًا مختلفًا يثير بها الفضول، سمعته التي باتت تعرفها حق المعرفة تخيفها، وقاحة عينيه معظم الوقت، نبرته العابثة ومكر شفتيه حتى وقت البسمة.. لكن خلف كل ذاك لمحت هي نظرة.. احتياج!

احتياج أجبرها اليوم على الموافقة.. احتياج جعلها تتخذ من صغيرها ذريعة فقط لتكون معه، فهي لن تترك له حق الانفراد بها.. احتياج حرك غريزة أمومتها ولامس أنوثتها بنعومة فاستجابت ولو بعد تردد..

شغل أفكارها وهي تضع فتاها بفراشه، تدثره بحنو وتقبل جبينه وهو يقص عليها أحداث اليوم كأنما لم تشاركه إياه.. طفلها حذر في التعامل مع الغرباء، مثلها تمامًا.. لكن مع رئيسها، أرخى زمام الحذر قليلًا وترك مسافة كافية ليعبر منها إليه.. يكتسب ثقته ويستحق مكانة في قلبه.

وهو بذكاء فعل!

حتى وإن كان "إياد" يعامله بشيء من تباعد؛ فالضمة التي منحه إياها تدلل على اختلاف..

راح الفتى في النوم وهي تداعب شعره برفق، تخلل الصمت من حولها طرقات على باب منزلها أخافتها.. فمن يأتيها في هذا الوقت من الليل وهي لم تصادق أحدًا، حتى في مبناها!

نهضت ببطء تراعي عدم إقلاق الصغير، وضعت فوقها مئزرًا شتويًا باهتًا، وقفت خلف بابها تتساءل عن الطارق.. وأتتها نبرته خشنة جافة هادئة، أو هكذا استشعرتها:

- إنه أنا حياة.. افتحي.

ارتعبت أوصالها..

ما الذي أتى به؟..

هي وحدها ولن ينقذها منه أحد في هذه اللحظة، ولما طال ترددها علت طرقاته من جديد فخافت على طفلها، فتحت الباب وناظرته من خلفه بغضب:

- ماذا تظن نفسك فاعلًا!.. هل تعلم ما هو الوقت الآن؟

لم يمهلها أكثر، دفعها ودخل يتحكم بمرفقها بقبضة غليظة، لهجته امتلأت بشراسة وناظرتها عيناه بوحشية:

- الوقت متأخر لحضوري.. ومناسب لعودتك مع رجل آخر!

شهقت مذعورة فدفعها بقسوة يصدم ظهرها بالجدار وأحاطها بهيمنة:

- ربما تحتاجين لتذكير.. من هو رجلك حياة!

تحركت مقلتاه بهوس أوجف قلبها وهو يحكم سيطرته عليها.. تخلص من مئزرها بعنف ومد يده ينتهك ما يطاله منها بينما هي توشك على فقدان الوعي وتبعده دون جدوى..

لطالما كانت واهنة في مواجهته، لطالما آلمها ولم تملك سوى الأنين، لطالما كان قاسيًا مخيفًا ولم تقدم سوى فروض الطاعة والولاء.. والضعف!

وخلف شفتيها المكممتين بكفه انحبست صرخة.. جوار دمعة قهر!

(٢٢)

لا يمكن لبشر أن يملي أوامره على الحب..

"جورج ساند"

***

قالوا أن: الخاسرون فقط.. هم من يحاكَمون!

وفي شريعته الخسارة غير واردة، المكسب متاح وكل ما يوصل له مباح حتى وإن نهش روحها، كسرها، حطمها.. ليعلن بها ملكية لن تفنى إلا بفنائه هو!

وكانت تعلم كيف يفكر، يخطط وينال ما يريد!.. قسوة عاشرتها لسنوات، قهرًا عايشته، وخوفًا لازمها حتى امتلكت في النهاية شجاعة المواجهة، شجاعة الخلاص منه.. وبعدها جبن الفرار.

والفرار لم يمنحها راحة، بل ظنه الأسود تغلغل فيه حد انتهاكها!

كفه لاتزال تسجن صراخها خلف شفتيها، تكتم أنفاسها، يده الأخرى تخرق حدودها، تمزق ما تطاله من ثيابها، يحبس جسدها للجدار ويضغط بثقله كله ليمنعها حرية الهروب، وهمسه الحار يذبح مسامعها بوعيد لم تقدم له ذنبًا..

هو فقط رأى وقرر.. ثم قضى بالحكم، ونفذ!

في اللحظة التالية استبدل كمامة أصابعه بشفتيه، بقسوة لم ترها منه يومًا رغم الاعتياد، بخشونة موجعة بينما يكبلها ويهيل فوق رأسها تراب العجز والقهر.. وتذوق دموعها، لم يهبها الفرصة لتستجديه أو تتوسله بغفران، بتوبة عن إثم لم ترتكبه، برجوع وعزم على عدم العودة!

تحكم بخصلاتها الطويلة وجذبها، عاندت وتفلتت منها صرخة أبحة مجروحة لا تفي بالغرض منها، حملها من خصرها وظهرها يواجه صدره، ترفس بقدميها، تحارب طواحين الهواء وهو بضخامته يمحو لمحة النصر ويذيقها هزيمة نكراء في مواجهة عقابه..

دلف لأقرب غرفة وجدها بطريقه، ولسوء حظها كانت غرفة نومها، رماها فوق الفراش وأغلق الباب بمفتاحه ليتمم ما بدأه دون عائق، تراجعت تناشده بعشرة، بخوف، بابن لا ينبغي أن يرى من أمه وأبيه ما يفعله هو.. بكت وهاجمها بعنفوان يهتك سترها ويعري روحها المشروخة قبل جسدها الذي يدمنه ويتقن خريطة طرقاته:

- أنا رجلك الوحيد حياة.. وبعد هذه اللحظة، لن يلمسكِ غيري.

كان يهمس بها بهوس وتصارع هي بجنون، تخفي ما يكشف، تدفع ويقترب، تبعد يده ويلمسها بغلظة، بفظاظة، بألم:

- لن يلمسكِ غيري..

يكررها بعنجهية ومكابرة، بأمر.. لا، بقرار تيقن منه وهو يغتصب منها خنوعًا لا تمتلكه، يثبت رأسها للفراش أسفله، يلاحق وجهها بشفتيه وهي تهرب ولا مفر، يمزق ويخدش ويجرح ويؤلم وفي النهاية صفعة!

- توقفي عن مقاومتي.

ويأمر بما لا يمكنها الإذعان له، جمدها أخيرًا متحكمًا يجبرها على لقاء عينيه، رأت فيهما توحشًا شيطانيًا لم تعرف بوجوده داخله، تحكم في حركتها بجسده ومال متمتمًا قبل الامتلاك الأخير:

- أنتِ لي أنا.. وحسب.

"أمي!!"

تيبس في موضعه!.. تعالى شهيق بكائها وصوت الصغير يطرق بابها بلهفة مذعورة، يعيد النداء حتى اهتدى لآخر:

- أبي!!

تشنجت كفاه اللتان تحبسان وجهها بينهما بقوة:

- أبي أرجوك.. لا تؤذي أمي.. لا تؤذها!

الطرقات تتعالى وخرمشات أظافره تحتك بالباب كأنما يريد اقتحامه والضعف يحبسه خلف قضبانه:

- أبي أنت وعدتني من قبل.. تذكر أبي.

وتلك المرة وصلته نهنهات البكاء تصدح في أفقه حالك الظلمة، تفيقه وإن لم يكن غائبًا حقًا:

- أنت وعدتني أبي.. أرجوك!

تطلع إليها فرمقته بعجز..

وجهها اختلطت فيه العبرات المنهمرة بفيض مع الدماء الطفيفة التي غادرت جروحًا نقشها فوق ملامحها، تأمل شفتيها الداميتين، عينيها المتوسلتين، لهاثها وضيق أنفاسها ونهض مبتعدًا بغتة!

انكمشت على نفسها فور ابتعاده تغطى ما انكشف، تستر ما تعرى!.. ولا جدوى، فالعري طال ما لا يمكن ستره.

عدل من ملابسه وأغلق المفتوح من أزرار قميصه، تفحصها وهي تنطوي كجنين أصابه هلع لقاء الدنيا فصرخ يود البقاء في رحم الأمان:

- ليست هذه هي النهاية.. حياتي.

ويؤكد ويضغط كل حرف، والابن يبكي في الخارج بوهن، فتح الباب وتقابلت عيناه معه، لكن طفله أنظاره الهلعة كانت معلقة بالملقاة كخرقة بالية على الفراش من خلفه.. ركض إليها يضمها بذراعيه الصغيرتين، يحيطها ويحتضن رأسها لصدره.. وتشبثت هي به بضعف، بخجل، بعار شملها..

علا نحيبها يتبع أذنيه بينما خطواته ترسم طريق الرحيل..

وشيطانه يرسم خطة بديلة في عقله الذي تؤازره جُل جوارحه.. هي له وحده، ولو أخذها عنوة!

***

المرأة العاشقة لها قوانينها الخاصة للغاية!

العشق يغير من تكوينها كليًا، يخلخل مفاهيمها، يتحدى منطقها، يضع غشاوة رمادية حول عقلها، ويقيد قلبها بأصفاده مانعًا إياه حرية الفرار..

المرأة العاشقة قوية رغم ضعف أنوثتها، عنيدة فوق حقيقة واقعها، وغيور حتى لو كان المعشوق وحشًا.. خائنًا!

وهنا تأتي القاعدة رقم أربعة:

"عندما يغفل الصياد؛ تتفلت الطريدة من فخه"..

ماذا إذا عن عن طريدة بلهاء.. خائفة.. مريضة بعشق خبيث تمكن من خلاياها ولا تعلم أهناك علاج في الكون له بعد؛ أم كُتب عليها معاناة أوجاعه مادامت تتنفس!

هل يمكنها الهروب بالفعل؟

هي لم تستطع حال غيابه، فهل متاح لها ذاك وهو فاقد لوعيه.. بنزيف لا يتوقف.. وأنفاس بطيئة مرعبة لقلب عاشق!

هذا لو تغاضت عن أسوار القصر وحراسه!

دفعته بصعوبة من بين أنفاسها المتلاحقة لتقلبه على ظهره فوق الفراش، تأملت ملامحه الساكنة بذعر، ودمائه التي أغرقت ملابسها ضاعفت خوفها.. عليه، تلمست وجهه بأنامل مرتعشة:

- آمر.. أجبني!

ومرار العجز بات مذاقه مقبضًا، لهثت بوجع.. نعم هي تود الخلاص، الرحيل، الفراق؛ لكن ليس بموته!

اقتربت تتفحص أنفاسه، صدره يتحرك ببطء مفزع، وهي حائرة لا تدري ما الحل!.. تناولت الهاتف ثانية، اتصلت بها..

ويا ويل قلب خلاص من يحب في يد أخرى!..

سمعت صوتها يخبرها أنها أمام بابها، نهضت غير مبالية بمشهد دمائه فوقه ثيابها لتفتح لها.. وتفاجأت بوقع خطواتها المهرولة نحو الدرج، ببساطة..

هي تمتلك مفتاح منزله!

ظهرت أمامها بوجه مرتاع، تركض نحو الملقى نصفه على فراشه وساقيه تلامسان الأرض:

- آمر.. رباه!.. ستكون بخير.. لقد أتيت.

وتُعلمها دون شك عن مكانتها بحياته.. هي دون تزيين أورتوش؛ وسيلة نجاته!

تبعها رجل لم تنتبه إليه، يرفع كامل جسده للفراش ويتحدث بعملية:

- ساعديني من فضلك ريما.

توجهت نحوه بلهفة، ومن بُعد خطوات كانت هي تراقب..

تدرك موقعها من الصورة، تحدد لنفسها المقام المناسب خارج إطارها، وتتراجع بصمت وعيناها معلقتان به.. دامعتان خوفًا عليه، وربما لوجع يفترس فؤادها الخاضع له.

"لماذا تقفين عندك!"

نقلت نظراتها المنصبة تجوب حوله، تتلمسه بوهن، تناشده بقلق.. إلى تلك التي بادرتها بعنف حاد، تلبسها شيطان ما جعلها تقابل النظرة بنظرة أكثر عنفًا، بل تبادر بتذكير هي نفسها ترفضه:

- أريد الاطمئنان عليه، أنا زوجته ريما.

تحولت النظرة العنيفة لقاتلة، كأنما هي سهام مميتة انطلقت تنغرس بقلبها:

- أعلم من أنتِ.

من خلف أسنانها المطحونة بصوت خافت وصل لأذنيها، وقطع الطبيب المفترض تواصل الأعين بأمر حازم:

- ريما من فضلك.. خذي السيدة للخارج حتى أهتم بالسيد آمر.

شملت الراقد بتأمل خائف ثم تحركت تجذبها قسرًا نحو باب الغرفة، انتزعت يدها منها بتمرد معاند:

- لا.. لن أخرج، سأبقى معه.

وعادت الأخرى تسحبها بقسوة:

- هو يعلم ما يفعله.. ليست المرة الأولى.

أتاها صوته من ورائها هادئًا:

- لا تقلقي سيدتي؛ سيكون بخير.. أحتاج فقط للانفراد به.

غادرت مرغمة دون أن تبعد عينيها عنه، غادرت وامرأته الثانية تعلن فوزها في معركة الاحتياج!

"ما الذي أغرق ملابسك بدمائه هكذا؟!"

كان سؤالًا مرتابًا لم تدرك مغزاه.. حانت منها نصف التفاتة إليها وردت ببرود:

- لقد سقط فوقي.

- ماذا!!

بعينين ذاهلتين حانقتين، تعلم أنه لم يلمسها بعد، وكل فكرة تدور بذهنها عنهما معًا تشعل نارها، هو فاقد لوعيه تدرك.. لكنها فقط تستعر مع معرفتها لما يريده وينتويه ومع كل قرب بينهما وإن كان تافهًا!

والزوجة لم تكترث لاعتراضها الصامت، أبعدت ناظريها عنها بتجاهل واستندت للجدار في انتظار قطعته "ريما" بسخط لم تستطع إخفاءه:

- اذهبي لتبدليها إذًا.

تطلعت إليها بنظرة مبهمة واستجابت بسكون واجم، عندما عادت وجدت الطبيب يرحل مطمئنًا، والعشيقة تتجه نحو الغرفة، لاحقتها بحدة:

- سأعتني أنا به.. يمكنك الرحيل.

تجمدت خطواتها حد التوقف، لفت وجهها إليها بحقد:

- أنا أهتم به دومًا.. يمكنك النوم.

وكانت تدهس الحروف بين أسنانها كأنما تؤكد على مكانتها، حضورها، قيمتها.. أنها هي من كانت، وبعدها ستكون!

- هو زوجي لو كنتِ قد نسيتِ!

تهاجم بعنف، تتعلق بأحقية لا تملكها غريمتها، لا تعلم ما تفعله.. لكنها تريد النصر وحسب:

- أنا أعلم به منك؛ لو كنتِ تتناسين!

ونعم هي تتناسى، وتظل تعافر بوهن تصرخ بما تظنه واقعًا:

- وهو يريدني أنا.

ويدرك الخصم ذلك بوضوح وتلوح الهزيمة، لكنه لا يترك أرض المعركة بيسر، هي لن تفعل.. دنت منها، واجهت عينيها شبه الدامعتين، ودمدمت بأنفاس محترقة تخلف عنها رماد خانق:

- هو يريد شيئًا محددًا؛ وقتما ناله...

وتركت التتمة لعقلها.. فالقلب لم يكن محل ثقة!

***

فطرة الضواري على مرور الأزمان واحدة.. بدائية.. بديهية، لا تتغير!

صيد يتبعه افتراس..

لحظات الضعف غير مقبولة، غير محتملة.. ونتيجتها أبدًا ليست محسوبة!..

ظلت إلى جواره طوال الليل، ليل قاتم يشبه قتامته، ومن وراء جفنين مرتجفين على ضوء جانبي ناعم؛ تأملت ندوبه المنتشرة فوق صدره وكتفيه بأريحية منحتها لها استكانته تحت تأثير مخدر حقنه به طبيبه يقيه الألم.. وكأنه يبالي به!

تذكرت كيف كان واقفًا بصلابة قبل ساعات، يتفحص جرحه دون تأوه، دون حتى حتى لمحة على وجهه توحي بوجع ما!..

كم تحمل هو من آلام تركت آثارها ليس فقط فوق جسده، بل بروحه التي تسربلت بالسواد، غشيتها الظلمة وباعت نفسها للشيطان!

والآن باتت تبرر له!..

حمقاء أيتها العاشقة.. حمقاء وغبية وجبانة، ترفضين مواجهة حقيقة أقرتها الأفعى قبل قليل وكأنك كنتِ فقط تتعامين عنها!..

هو يريد شيئًا محددًا.. وقتما ناله سيلفظك من حياته.

وأنهت أفكارها بنقطة فاصلة، قاطعة.. تختتم بها حكاية لم تكتمل، وخيالًا تشبع بنكهة الدم.. الغدر.. علقم الخيانة ووجع الخديعة وإتقان الكذب..

"سديم"

همسة خافتة باسمها غادرت شفتيه، همسة تكررت بتوتر.. بلهفة.. بشبه جزع!

همسة أجبرتها على مجاورته فوق الفراش، احتضان رأسه وتمتمة مطمئنة كأنها تدرك احتياجه لها هي.. هي بالذات في هاته اللحظة:

- أنا هنا آمر.

"سديم"

أعادها، بضياع من داخل حلم قاسٍ تبدل لكابوس غرق بعده في غيبوبته من جديد.. تمعنت في ملامحه المتغضنة بألم.. هل يؤلمه جرحه؟!

لم تقاوم قبلة على جبينه وربتة حانية أزاحت بها عرقًا طفيفًا باردًا نبت فوقه قبل أن تعيد همسها في أذنه تؤكد وجودها.. تُسكن قلقه.. حائرة لا تعلم هل بالفعل يريدها، يبحث عنها في عالمه الحالي!.. يخشى ضياعها بينما هو غائب!

مر الليل واستيقظت الشمس باهتة تعاند برودة الطقس بأشعة واهنة لا تمنح الدفء، فتح عينيه بغتة وتنقل ببصره تائهًا في محيطه ليستقر فوق ملامحها الرقيقة.. نائمة بهدوء في وضع لا يشي براحة البتة.. كانت تستند بظهرها للفراش، تضم رأسه بيسراها، يمناها مستكينة فوق صدره ورأسها تستند إليه..

تحرك بهدوء شديد يتيح لنظراته التشبع بتفاصيلها، بعدها تعانق جفناه ودفن رأسه في صدرها كأنما يستمد منها راحته ومسكن ألمه الذي بدأ ينتشر بكتفه المصاب بتصاعد مريع..

تجاهله وتنشق عبيرها، أنثى بعبير الغيم لو كان هذا ممكنًا!

أهناك واحدة تشبهها!

أهناك امرأة تماثل نعومة السحب ورقتها!

أهناك امرأة أخرى تستحق النمر!

تراجع قليلًا ورمقها بنظرة عابثة تبحث عن متعة، تململ بإدعاء وهمس بصوت ضعيف مفتعل:

- سديم.. أشعر بالبرد.

أجبرها على إفاقة قلقة، تأملته بتوجس وهي تراقب رجفة جسده خائفة..

تبًا لك أيها العشق، بل تبًا لما تفعله بقلوب خارت قواها في حربها معك!

ضمته أكثر وتمتمت بنبرة مرتعشة:

- آمر.. هل استيقظت!.. هل أنت بخير؟

انكمش على نفسه قربها وردد بتيه:

- الجو بارد.

نهضت مرتبكة يخالط خطواتها جزعها، بحثت عن غطاء ودثرته به، وظل هو على تمتماته الغائبة:

- أشعر بالبرد.. سديم!

وكأنما تصطك أسنانه فعليًا، وكأنما يغادر دنياها فالموت يحمل صقيع الوحدة.. والرعب تملك من عقلها وقلبها.. رفعت الغطاء قليلًا ودخلت أسفله، احتضنته بكامل قوى جسدها، لمس رجفتها بالمثل فابتسم ولم تره، ظلت تهمس في أذنه تطمئنه:

- اهدأ آمر.. ستكون بخير.

وبخبث تعلق بها، ضمها بذراعه القريب واستدار يحيطها بالآخر متجاهلًا وجعه، شعرت باحتوائه وحصاره لها.. لم تفهم أهو واعٍ أم لا!.. دفعت كتفه برفق:

- آمر.. ماذا تفعل!

- أشعر بالبرد سديم.. أحتاج دفئكِ.

ويطوقها حتى بات الهرب شبه مستحيل، تأوهت متوترة، ظلت تدفعه برفق خشية إيلامه:

- آمر.. يا إلهي.. استيقظ، ابتعد.

ولأن جسدها كان ينتفض فعليًا بين ذراعيه فقد فتح عينيه يطالعها بمكر والنبرة غارقة في المتعة:

- أنا مستيقظ بالفعل غيمتي.

وحاصرها بعدما أراحها فوق ظهرها مشرفًا عليها بسطوة لا يشبهه فيها غيره:

- كانت لعبة ممتعة رغم أنها لم تطُل.

رمقته بغل، قلبها كان ينبض بجنون، حد أن نبضاته تلاحقت لها أنفاسها، ضربت كتفه السليمة بقبضة متخاذلة:

- أنت.. أنت..

تعثرت كلماتها وتدخل هو بسؤال متلذذ:

- ماذا.. ماذا.. أخبريني، أنا ماذا؟

وأمرت كأنما سيطيع:

- ابتعد.

- وإن رفضت!

- سأصرخ.

- أعلم كيف أخرسك!

الوغد مستمتع بما يفعل وهي في وضع لا يتيح لها الفرار:

- آمر.. ابتعد.

ونظرة منه لشفتيها أخبرتها بنيته:

- ماذا عن رشوة بسيطة!

- آمر...

وأخذ رشوته قهرًا، واستسلمت بضعف.. تسبُ قلبها وجسدها المستكين له:

- أنت تستغل ضعف موقفي نتيجة إصابتك.

- وأنت تستغلين صبري يا صغيرة.

لامته بعينيها.. تقبل لومها برفعة حاجب أغاظتها فعادت تأمر بحدة:

- ابتعد.

تطلعه لثغرها أرجف جسدها، والرجفة متعة..

القلق متعة..

وحتى نواياها السيئة خوفًا منه تحمل له لذة..

هي متعته الخاصة وكفى، ابتسم وتحرك يبيح لها الهرب فقفزت خارج الفراش متعثرة:

- لن أعتني بك مرة أخرى.

بتذمر بريء لا يصدر عن سواها، قهقهة مستمتعة توازي نظرة ماكرة تألقت في رمادية مقلتيه بينما يشملها بين جفنيه بجرأة:

- سأعتني أنا بك عندما تمرضين.. لكن حينها.. سأستغل كل لحظة ضعف ممكنة.

وغمزها بوقاحة جعلتها تهرب من غرفته، تلعنه وتلعن قلبها الذي سلم له مفاتِحه دون إرادتها، تدعو أن يتركها.. يحررها لكنها تعلم وهو يعلم: أنها أسيرته حتى نهاية النبض..

أو على الأقل ذلك الأبله بين جنبيها.. أسيرًا سلم راياته دون حرب، دون مقاومة، وإلى ما لا نهاية!

***

قال أحدهم: " ليس الذئب شيطانًا، وليس قديسًا أيضا.. إنه ببساطة حيوان مفترس كبير!"

وهو ليس مفترسًا فحسب.. بل يتصف بشدة الافتراس وعنفه في الغالب، كما أنه صعب التأقلم، لا يغير محيطه ولا يتكيف مع الاختلاف بسهولة!

وعن فريسته الناعمة فقد دخلت بقدميها لذاك المحيط، وعليه حينها استيعاب وجودها: المتفرد..

انتظر خلف مكتبه ظهورها الصباحي المعتاد ببريده الخاص، لم تظهر.. وانتصف النهار تقريبًا ولم تفعل، بلا إرادة شغلت فكره، هاتفها والرسالة مغلق، وناوشه ضيق!..

هل تتدلل عليه!..

رأت رغبته في عينيه فقررت أن ترمي بأوراقها وتمارس ذات اللعبة المقيتة التي تظن النساء أنهن يُجِدنها في حين أن الرجل.. يتظاهر فقط أمامهن بالهزيمة حتى يصل لمبتغاه!

لم يكرر تمحيص الأمر، تناول سترته ومفاتيحه وغادر الشركة لعنوانها رغم معرفته بغياب شريكه اليوم..

ترجل من سيارته أسفل منزلها وصعد إليها بعد تردد دام لعشرون ثانية بالتحديد..

صعد غافلًا عن أعين اشتعل بين أهدابها سعير مضطرم قبل أن يتبعه صاحبها بمقت جليّ، وبعقله تتجسد صورة.. خيانة!

وقف قبالة بابها يراجع ما قام به، الواجهة اطمئنان، وما خفي لهو عظيم!

هي وحدها بهذا التوقيت فطفلها في مدرسته، وهو سيصبح معها.. والمشهد يلزمه ثالث: لن يكون سوى شيطان..

وابتسم بلؤم يجاري لعبتها، ويترك لها سحب الورقة الأولى.. طرق الباب وتفاجأ بالصغير يفتحه وفي عينيه خوف.. مقلتاه كانتا حائرتين، تائهتين، مذعورتين شابهما شيء من اطمئنان بعدما تأكد من كونه هو..

دلف وبعد خطوة وجدها ترتكن لمقعد قريب.. وهاله مرآها:

- حياة!.. ماذا حدث؟!

شفتاها متورمتان بهما زرقة واضحة وخدوش لم تندمل بعد، أثر صفعة تركت حمرتها على وجنتها، وتهالُك تمازج بضعف ظاهر بموازاة نظرات رافضة ضائقة خلف أجفان منتفخة كأنما باتت ليلتها باكية!

- ماذا تفعل هنا؟!

ألجمه سؤالها المرتجف بهجوم لم يفهمه فتوقف لحظة:

- لم تأتِ اليوم فشعرت بالقلق.

- وهل تزور كل موظفينك بمنازلهم في الحالات المشابهة!

عقد حاجبيه وشاب نبرته غضب:

- ماذا هناك حياة؟.. ومن فعل بك هذا!

ونظراته كانت منصبة على ثغرها الذي بهتت فتنته السابقة، هذا أثر قبلات عنيفة وحشية، زم شفتيه وتغضن جبينه بينما يكرر مغيرًا الصيغة، أو ربما مقررًا الجواب:

- هل كان زوجك السابق من أذاكِ؟

- أرجوك.. ارحل.

- ماذا؟!

استنكر ما نطقته بصوت واهن، وقبل أن يجيبها اقتحم "جاسر" المكان كثور مهتاج:

- حسنًا.. انظروا من لدينا هنا!.. الخائنة والعشيق وتلبُس!

سالت دموعها وقسوة الكلمات تحرقها، التفت له "غيث" وحديثها بتر ما كان على وشك النطق به:

- اخرجا.

ثم ارتفعت النبرة بحدة جاورت العبرات ومذاق العلقم بحلقها:

- أنتما الاثنان، اخرجا من منزلي.. غادرا حالًا.

مع آخر أحرفها وصل الأمر حد الصراخ، والزوج السابق يناظرها بهياج، والرئيس يحدجها بتفحص لم يدُم طويلًا وهي تكرر بانهيار بكاء:

- اخرجا.

نبتت بداخله خشية؛ أن يتحرك ويتركها وحدها معه!..

لكن "جاسر" كان من بادر برحيل مفاجئ ونظرة تتوعدها بأشد عقوبة بينما صغيرها يدفن نفسه بجسدها، يطمئنها، يمنحها أمانًا دافئًا ويستمده منها بذات اللحظة..

تبعه وعيناه تخبرناها بحقيقة يدركها..

هي ليست وحدها، حتى وإن كانت مجرد طريدة في محيطه!

مرت ساعة، وثانية وقبل منتصف الثالثة كان يطرق بابها مرة أخرى، وقفت مشدوهة تراقب وجهه، جبينه المجروح، ذقنه المدماة ورباط كفيه المفكك:

- ماذا حدث لك؟

- أخذتُ لك حقكِ منه.

وبيأس انحنى كتفاها.. بل بثقل ما يرميه من مشاعر بنفسها وهي ليست قدرها، لقد تساهلت معه بما يكفي، والنتيجة كانت انتهاكها.. فماذا بعد!

هل يمكن أن تفقد طفلها!

انتزعها من حيرتها بصوت هادئ:

- عدتُ فقط لأطمئن عليك.. سأتكفل به لاحقًا.

ارتعشت شفتاها لثوان ثم أفسحت له:

- ادخل.

الحيرة تلبست ملامحه لكنه استجاب، على أقرب مقعد دعته للجلوس وغابت قليلًا.. عادت تحمل بيدها مطهرًا وقطنًا، وقفت أمامه تهاجر عيناها بعيدًا عن لقاء عينيه، تخشى الغرق في بحر لا تتقن السباحة فيه، موجاته عالية مخيفة وغياهبه مظلمة لا يدركها بصرها..

وكان يتأملها صامتًا، ترك لها وجهه تعالج جروحه بلمسات رقيقة لم يكد يستشعرها، وأحاطها بنظراته رغمًا عنه.. حينما انتهت أمسكت بكفه تعيد إحكام رباطها عندما طرق مسامعها همسه:

- هل أنتِ بخير؟!

ارتجفت يداها الممسكتان بيده فمد كفه الثانية يحيطها بهما معًا:

- ما حدث كان بسببي.. صحيح!

سحبت نفسها بعيدًا عنه وخطوة لم تكتمل كان يوقفها بعدها:

- انظري إليّ.

غاصت في كهف عينيه المعتم بتيه، وتردد هو في مواجهة ضعف نظراتها، تردد أمام احتياج ظهر يناشده وأخرسه اللسان والجفون بعناق هارب.. حتى لفت وجهها بعيدًا عن أنامله التي تحكمت بذقنها للحظة:

- أنا بخير.. شكرًا لكل شيء.

زفر بحرارة وهي تهمس بأمر لم يكن أكثر من توسل لأذنيه:

- غادر.. من فضلك.

- حياة..

- لا حاجة لمزيد من الحديث..

واكتسبت النظرة قوة، ارتفعت القامة ببأس.. ولغة جسدها عنوانها صلابة، حتى وإن كان كل ذلك تظاهرًا فقد أثار إعجابه:

- اذهب.

ولم يعاند.. استجاب بعد وعد صامت بالأمان، والذئب الكامن بأعماقه يتراجع للخطوط الخلفية..

يخبره عن فريسة..

أيقظت فيه غريزة الحماية، ودفنت غريزة.. الصيد!

***

عندما يطرق العشق بابًا.. علا قفله الصدأ، في التوقيت الخاطئ.. مع شخص يتحدى المنطق والمعقول؛ تصبح الخطوات مرتبكة، تتبدل الخطط.. وتنقلب الموازين دون رادع!

وهي بشجن عينيها، بقوة تغافلها أحيانًا للظهور، بعنفوان لمسه مرات محدودة، وبضعف هو الطاغي المشوه لجمال الصورة.. تحرك به كل كامن، تخرجه عن طور هدوئه الروتيني، وترطب بنداها جفاف قلبه..

تأملها بصمت طال ولم تقطعه، بدت شاردة بعدما قص عليها شيئًا من قضيته الأخيرة، كأنما أيقظت بها شيء ما يجهله:

- إلى أين شردتِ؟

ارتفعت بعينيها لتواجهه.. رغم حضورها معه لكن عقلها بدا تائهًا حتى لسانها كرر آخر ما نطق به:

- يخونها!

مط شفتيه وأوضح.. فاهتمامها يبهجه:

- كان مع امرأة غير زوجته والتي لديها حجة غياب قاطعة.

- هل تظن أنها من قتلته مع تلك المرأة!

سؤال بمحله، ووارد للغاية فهي محل شكٍ بالفعل:

- ربما.. لقد كان يخونها، لديها الدافع القوي لتفعلها.

- ولديها الحق..

كانت شاردة وهي تنطقها، عقد حاجبيه وهاجم غفلتها بنبرة قوية:

- لا أحد يملك الحق بالقتل.

غضب غير مبرر تلبس ملامحها وهي تنتبه له بضيق، تدرك متأخرة ما نطقته وتهاجم نتيجه تصدع روحها:

- ولو تبدل الموقف سيادة رئيس النيابة؛ أليس من حقه هو قتلها حال خيانتها!

صمت بدهشة لهجومها الغريب، استنكر تفكيرها فأجابها بنبرة مهادنة كأنما يحادث طفلة غاضبة:

- لسنا في غابة ريما، ليقتل بعضنا بعضًا كلما شعرنا بحاجتنا لذلك.

- لكنه خائن، خانها ولم يهتم بها.. كيف تشعر؟.. هل تتألم؟.. هل مات قلبها بعدما علمت فقررت أن يموت معه ربما!

وتزداد عقدة جبينه وإن تزامن معها حيرة.. فكر للحظة وكان رده الأخير:

- بالنهاية ليس من حقها قتله.

وسخرت بمرارة من ميزان عدل فقدت كفتاه التوازن:

- لكن القانون يمنحه البراءة في حالة قتلها هي.

زفر متضايقًا من اتجاه تفكيرها، تثير حيرته كثيرًا كما تثير نبضات فؤاده، يقترب منها دومًا بخطوات محسوبة مقننة، وفي كل مرة لابد من عثرة.. لكنه هذه المرة قرر القفز فوقها:

- ما رأيك برحلة معي!

- رحلة!

- نعم، رحلة خاصة للغاية، لأجل عينيكِ فقط.

ولأول مرة تخجلها نظرة، لا تصدق أن سخونة وجهها التي تشعر بها تدلل على حمرة.. هل احمرت وجنتاها خجلًا حقًا!!.. هذا الرجل مختلف وحسب:

- إلى أين؟!

- مفاجأة.

ونهض يمد كفه إليها بمبادرة موحية.. ترددت، تطلعت إليها بارتباك حسمه هو بنصف انحناءة تناول فيها يدها واحتواها بدفء قبضته.. جذبها خلفه وآخر همسه كان حازمًا آمرًا.. مغويًا:

- اتركي نفسك لي.. اليوم فقط.

واستجابت هاربة من عقل يفكر بحبيب امتلكته أخرى، وقلب يتوجع لفراقه وهو لا يكترث مثقال ذرة.. بل يذبح، يقتل.. ويدهس في طريقه قلبًا عاشقًا لم يسكن غرفاته غيره.

***

هي امرأة تحمل بعينيها تفاصيل اللعنة الأولى!

تفاصيل إثم بلا مغفرة..

تفاصيل خطيئة كل رجل، وبين يديها استقر مفتاح باب الخروج من الجنة..

هي أنثى الفوضى بلا معايير.. أنثى الجنون.. أنثى الاشتهاء المحرم..

هي أنثاه هو!

رغم أنفه، وأنفها.. وأنف تلك التي زارته تتبجح بخوف!

هي امرأة الغرق بين شفتيها نجاة، والغوص بعالمها حياة..

هي ساحرة التعويذة.. وهو المسحور في عالمها حتى لو تمرد، هرب.. كر وفر وحارب وادعى أو تظاهروانغمس بغيرها فرارًا يائسًا!

هو شيطان ملعون بعشق ملاكه، لا تقرب جحيمه ولا يدنو من فردوسها!.. هو ذئب سقط بغرام الفريسة، والفخ لعنته.. شوق!

هي امرأة.. ترسم تفاصيل الاشتياق، بناره.. سعيره.. لظاه المحرق، وخباله المحقق..

هي امرأته وكفى..

بات يخط الشعر، يرسم ابتسامتها في الخيال، وفوق نجمة نقش اسمها وبعناد رجل لا يجد الترياق محاه..

نعم الوقوع بهواها سم زعاف، والنهاية ملك يمينها رغمًا عن إرادته.. مهما هرب، اشتهى أخرى، خطط لمنال وإن كان صعبًا، تظل هي الباقية على عرش قلب بكل حرقته انتوى إسقاط تملكها له وإن تركها تواجه شيطانه.. وجهًا لوجه!

عاندته جوارحه وأجبرته على زيارتها، عانده قلبه وأرغمه على الحنين إليها، وعيناه تبًا لهما.. تتعبدان في محراب مستقرها.. مؤخرًا دومًا تبدو له تائهة، شاردة.. وجهها يلامسه شحوب على استحياء فلا ينقص مهما حاول من جماله وعنفوانه شيء.

رفعت رأسها بغتة تنظر إليه، انقبض قلبها في إشارة قلق كبتتها بتعنت:

- ماذا حدث لوجهك!

- تهتمين!

- حسنًا.. لا تُجِب.. لا يهم، لماذا أنت هنا؟

- أشتاقك.

ولم يكترث لتجاهلها السؤال الأول فيكفيه نظرة الاحتواء التي مرت بمقلتيها ولو لثوان، اللعنة على تلك التي زارته قبل أيام تريد منه فراقها!.. بلمحة دفء لامست شغافه اقترب منها، ابتسم ولم تطمئن هي فنهضت تبتعد تتحسس صدق نبرته.. وترتعب:

- تقولها بصدق دون مواربة!

واقترب وتراجعت وظل على رسم خطواته فربما ينال قربًا يتمناه:

- الاشتياق.. يجبر القلب على الاعتراف.. يجبر الجوارح على الانسياق وراء رغباته.. يجبر الروح على الضعف حين الفراق والبعث وقت اللقيا..

اصطدمت بالجدار فتوقفت حائرة تبحث عن منفذ هروب أغلقه هو بحصار من ذراعيه حولها:

- باتت شفتاي لا تنطقان سوى اسمك.. أرى في كل العيون بريق مقلتيك.. في الشفاه وردية شفتيك.. وكل وجنة أتذكر معها وجنتاك وقت حمرة الغضب.. أو الخجل.

ومال برأسه يواجه عينيها، يجبرها على لقائه فربما تدرك.. تضعف فتخضع:

- أبحث عن ترياق من سموم لم يعتدها جسدي بعد.. لا يمتلك المناعة الكافية لصدها.. لحمايتي منها.. لحماية قلبي من سيطرتها.

وأمام شفتيها تمم همسه ودفء أنفاسه يلامسها بجنون:

- كوني لي.. فربما تصبحين دواء جسدي العليل بك.

- غيث.. ابتعد.

بتهدج نبرة واستدارة وجه تخشى من أفكاره ورغباته ورعونته، نالت من عينيه نظرة تخلت عن الوقاحة وامتلأت بدهشة جاورت تلذذًا ما:

- غيث!.. دون ألقاب!!

زمت شفتيها بوهن جديد عليها:

- فقط ابتعد.

- أبعديني.

بتحدٍ لا تملك القدرة على التصدي له فتشتتت أحرفها بلعثمة:

- لا أستطيع لمسك.

فكر وانعقد حاجبيه يخمن فكرة:

- حقا!.. لماذا؟

- لا.. لا أريد.

سبَّت نفسها وقلبها الذي يطرق صدرها بقسوة موجعة، وضغطت عينيها فسالت دمعة.. دمعة راودته يده بعدها ليدير وجهها إليه، يرمق دمعتها بذهول ويمد إبهامه يمحوها برفق:

- أنتِ..

وود لو أبدل إصبعه بشفتيه وتذوق مرارة سقوطها.. تمم ما خمنه ببسمة مسيطرة:

- أنتِ تبادلينني ما أشعر به!

ونشجت لحظة بصوت مخدوش:

- هذا خطأ.. أنت لا.. لا..

- ماذا!.. لستُ كفؤًا لك؟!

- لستَ كفؤًا لأي شيء.

صرختها تحارب بها الضعف الذي غدر بروحها وكيانها الهش:

- فقط غادر.

- وإن رفضت!

يعاند ويتجبر على أرض معركة تدرك هزيمتها فوقها، عادت تغمض عينيها.. تفقد قوتها وتهمس بتعب:

- افعل شيئًا جيدًا لمرة وابتعد.. أريد البقاء وحدي في هذه اللحظة.

- تبًا لكِ كارما.. أتعلمين ما أريد أنا؟!

اعتصرت جفنيها أكثر، هي لا تعلم، وترفض أن تعلم.. وربما تود الهروب قبل أن يخبرها كما تتيقن، بعد صمت لم توجه إليه خلاله نظرة هزت رأسها بنفي طفولي:

- أن أغرق بين شفتيك.

شغف!

الأحرف تساقط منها الشغف، وامتلأت بلسعة نار أشعرتها بقرب سقوطها في سعير شيطان..

سعير لا يبقي ولا يذر!

- يا إلهي!.. لا.. ارحل.

ابتعد فجأة فباتت على وشك السقوط:

- سأفعل.

وعاد يميل، يهمس.. يلفح وجهها بزفير حارق:

- فقط لهذه المرة.

ثم تركها بخطوات متسارعة يملأها غضب مبهم..

ويسقط الحب صريع واقع حقيقي وملموس؛ بين امرأة صادقة.. ورجل لديه عقده الخاصة!

(٢٣)

لا توقظوا المرأة التي تحب.. دعوها في أحلامها حتى لا تبكي عندما تعود إلى الواقع المر!

"مارك توين"

****

الحب يفقد الرجل اتزانه.. أما عن المرأة: فحدث ولا حرج!

الحب عند الأنثى يفضح نقاط ضعفها.. يعري روحها الهشة، ويزيدها هشاشة!

قديمًا قالوا: المرأة تفقد جميع شخصياتها في اليوم الذي تحب فيه.

وهي فقدت تلك القوية التي تعرفها، العنيدة التي تألفها، المستقلة التي تنهج نهجها، والعاطفية الحنون التي تمنح بمقدار ليس بضئيل وعنوان المنح إيثار..

أضاعت تفاصيل كانت هي قوامها، وباتت لينة واهنة تائهة لا تدري أي طريق تختار أمام ذاك المفترق المصيري الذي ألقاها قدرها قبالته بلا توجيه أو إرشاد.. أو حتى تحذير!

دون تجميل وبكل فوضى مشاعرية متاحة: هي تحب!

وبعد لفظة من حرفين هما النقيضان كالماء والنار وللدقة الجحيم: لا تكفي ولا ألف علامة تعجب، أو حتى ألف نظرة استنكار..

لا.. هي سقطت في بئر الغرام..

والبئر عميقة لا قرار لها، لا تطبق قاعدة الطفو، ولا طوق نجاة من ظلماتها.. أو ربما هو بحر غادر، موجه قاتم يشبه عتمة فؤاد من تتقاذفها موجات عشقه، فتارة ترفعها لعنان السماء لتعانق الحلم، وتارة ترميها بلا هوادة إلى القاع.. حد الغرق.

"لستُ كفؤًا لك!"

"أن أغرق بين شفتيك"

و.. "تبًا لك كارما"

ذكرى الحروف المنطوقة لا تفي بالغرض، بل تلاحقها نبرته التي استقرت بمسامعها فلم تفارقها بعد، أنفاسه التي لامست وجنتها، أنامله التي محت دمعتها، وشغف عينيه بتلك العتمة الساكنة فيهما حد الخوف.. الفرار.. والتيه!

زفرت بحرارة ودت لو اقتلعت معها خافقها المهزوم في معركة عشقه، استقامت تنشد سكنًا، طمأنينة.. وربما رأيًا رشيدًا من والدها.. ويوازي توترها وارتباكها: أمنية تعانق المستحيل ويركلها الواقع بقسوة..

رمت نفسها فوق صدره فأغلق كتابه وخلع منظاره بهدوء، أحاطها بذراع والثاني ربت برفق فوق خصلاتها وترك لها زمام البدء.. تأخرت فرفع وجهها إليه:

- عندما تلقين بنفسك بين ذراعي هكذا.. تثيرين قلقي!

رعشة اكتنفت جفونها المنتفخة تعترف بأثر بكاء لم تقره هي بنفسها.. ورعشة ثانية مرت بجسدها فانتفض لحظة انعقد لها حاجبا الأب فأبعدها عنه وتفحصها بنظرة شابها توجُس.. لم تجد جوابًا مناسبًا لتلك الأسئلة التي تزاحمت بعينيه، شردت وعندما عادت لواقعها ألقت ما بجعبتها بكلمة واحدة وازت شهقة تحشرجت بها أنفاسها:

- يُحبني.

حال النبرة يقين.. وحال القلب خوف!

هو قالها، صدقتها لكن القاطن مختبئٌ خلف سجن ضلوعها يرفض التصديق رغم أنه سلَّمَ نفسه بنفسه لحب ليس أهلًا لاجتياز متاهاته أو المرور باختباراته.

والوالد أبعدها أكثر.. وطرح دون تردد سؤالًا بديهيًا بتلك اللحظة وكان يدرك عمن تتحدث:

- وأنتِ!

ضمت شفتيها بين أسنانها كأنما تحبس صرخة وجع.. أو آهة عشق!

لعنته مائة مرة.. بل مائة وواحدة تزيد عليها، سبته بأقذع السُباب الذي مر بقاموسها، احتقرت ضعفها معه، وودت لو خنقت كل شعور مر بكيانها فقط لتغلق عليه مدخل الحب..

- لم يكن وحده من خانه قلبه.. أبي.

قررتها بتأكيد وجرحت جفونها دمعة.. والحيرة تجاور الرعب بروحها!.. أي فخ أسقطت نفسها فيه وبكامل إرادتها الحرة؟!

والصدمة أتتها مجددًا من أبيها في صيغة سؤال يغلب عليه طابع مهنته السابقة به:

- هل ترين أنكِ أهل لإضاءة ظلامه!

- خائفة.

- بل قوية.

- أخشاه.

- هو أيضًا خائف.

- ماذا لو أذاني؟!

- ماذا لو طابت جروحه على يديكِ!

- بل ماذا لو ذبحني هو!.. لو جرحني ونقل ندوب ذاته لكياني!

رمقها بنظرة حنون.. نعم يدرك كم هي صلبة، يخشى عليها.. لكنّ الفتى بحاجة لشيء من نور يبدد دُجنة قلبه، لن يرمي بابنته في طريق الشيطان.. فقط؛ من قال أنه شيطان حقيقي!.. هو ضلَّ الطريق وحسب، وهي قد تكون الدليل الذي يعيده إليه..

تدخل فؤاد الأب بانزعاج رافض وهو بتر عليه اعتراضاته:

- إن كنتِ تخافينه؛ ابتعدي.. وإن كنتِ أهلًا لمداواة جروحه؛ لا تبخلي عليه بالدواء وهو بين يديكِ صغيرتي.

وجذب رأسها يقبلها، يعيدها فوق صدره ويحيطها بضمة أسكنت نبضات خافقها الواجفة.. لطالما عشقت هذا الرجل، عشقت عقله المتفهم.. صبره وقلبه الذي يسع الكون بخيره وشره..

إنما خانه المنطق هذه المرة وحسب!

فأن يسقط حمل صغير في براثن ذئب لهو الموت بعينه..

أما أن تقع عصفورة حرة في غرام ذات الذئب فذاك الجنون الذي ليس بعده استفاقة ولا تليه نجاة..

وهي جرَّت على نفسها وابل تلك الحرب ولن تهرب من شظاياها..

الخطأ كان خطأ بداية والألم ألم نهاية.. وفيما بينهما هو الغرق ببحر عشق دون أحقية، بل بأسبقية حجز في مملكة جحيم..

عاشق مغمور!

***

على قدر الذنب يكون لوم النفس!

وهي تستشعر بنفسها عِظم الإثم، حجم التخاذل، وضعف قلب لم يعد ملك يمينها.. لذا هي تجلدها!.. تصليها سعير الحرمان ولمدة أسبوع كامل لم تره ومنعته رؤياها وتجاهل هو ببرود مستفز.

منذ هربت من غرفته كأنما تفر من شيطان وهي تتحاشى لقائه، ورغم أنه لم يذهب للعمل إلا قبل ثلاثة أيام فهي اعتكفت بغرفتها فترة وجوده.. بعدها كانت تطمئن عليه من مدبرة منزله التي أقامت معها علاقة ودود بدأتها بجلسة تباسط بالمطبخ لتعلن هي بعدها عن موهبتها في الطهي..

ويذوق هو طعام من بين يديها، دون علمه!

حائرة ومشتتة.. كل نواميس الكون ترفض ما يفعله، عقلها، قلبها، منطقها.. إنسانيتها وخلقها ودينها، بل لاتزال هناك بقايا مبعثرة من أمنية لم تفر من حيز الحلم بعد..

أن يعود!

لكن هل للشياطين من عودة!.. هل بعد معصيته سيطرق باب الجنة فينفتح أمامه ويستقبل توبته ويغفر بأوبته!.. والسؤال الأهم والأول..

هل يفتش هو جنة!.. هل يسعى وراء توبة!

عندما تسقط الملائكة عنوة في غرام الشياطين تنقلب موازين عالمهم بأكمله، تصبح التبريرات واقعًا مقبولًا يُسوِغه ظلمٌ مضى، أو ألمٌ اعتصر الروح حد فقْد الشعور، ويمسي القلب خاضعًا متبتلًا مبتهلًا بخلاص.. لكن طريقه الوحيد عشق!

هي ليست ملاكًا؛ بل بشر يقع بالخطأ وينفر من الخطيئة ويزلزل كيانه الجُرم..

بشر حافظ على نقاء سريرته رغم دنس الحياة، تشبث بطهارة فطرته رغم أوساخ الدنيا، بشر عشق وذاب وصُدم فتراجع وولى الدبر والفخ محكم لا خلاص منه!

مبكرة كعادتها مؤخرًا عندما تتسلل للمطبخ لتجالس السيدة، متسللة اصطدمت فجأة بمالكها فانتفضت بشهقة ودافعٍ واهٍ تداهم به قبل أن يبادر:

- ماذا تفعل بهذا الوقت!

ثم تنبهت لحُلة رياضية تحمل اسمًا شهيرًا فوق جسده، تلائم عرض كتفيه وتبرز صلابة صدره وذراعيه حد أن أبعدت عينيها عنه:

- ذاهب للركض.

ورفع رأسه يتمعن في ارتباكها، سحب نفسًا بدا له عسيرًا:

- كعادتي.. لكن أنتِ مبكرة على غير العادة!

نبرته تطالب بتفسير لم تأبه له وهي تعود أدراجها نحو غرفتها.. أحكم دون تردد أصابعه حول معصمها يعيدها إليه، وصوته أجبرها على التلاقي مع نظرته:

- تبدين غاضبة!

والنظرة العاتبة غير كافية، اللوم حتى لا يجدي نفعًا، والحزن الذي يملأ مقلتيها لا يرفع ضررًا:

- لم يتغير شيء.. صحيح!

سؤال باهت من خلف أسنانه المضغوطة بصرير شبه مسموع:

- ولن يتغير.

جواب شاحب أرادت فيه الإيحاء بعزم وبأس شديدين، لكنه فقط خرج منها مهتزًا مفتعلًا موحيًا بضعف!.. أفلتها.. تأملها من شعرها المعقوص بصرامة إلى أطراف أناملها وانحنى حتى وازى أذنها فلامسها دفء أنفاسه واقتحمها فحيح صوته:

- لا فارق.. غيمتي.. ما أريده فقط؛ هو ما سيكون.

واندهست أحرف ملكية لقبها تحت ضغط نطقه، ابتعد متوجهًا نحو باب المكان، فتحه وقابلته بضع قطرات من مطر صباحي خفيف، التفت يرمقها بنظرة منذرة بشيء مجهول، رفع قلنسوة سترته فوق رأسه وخطا للخارج مغلقًا سجنه عليها..

كأنما يعلنها سافرة.. جلية؛ ستنتهين لي ومعي.. غيمتي!

***

تظل غريزة البقاء، هي الغريزة الأقوى بنفوس بني البشر..

هي التي تدفعهم لشهوة الطعام.. اشتهاء الأنثى والتناسل.. قدرة الصيد.. والدفاع عن النفس ضد اعتداءات المخلوقات الأخرى.

غريزة البقاء هي التي أخرجت رجل الكهف من ظلمات كهفه لتصدمه ألوان الواقع وعواصفه ومتغيراته.. تخيفه تقلباته ويوتره وضوحه وقسوة طبيعته..

والذئاب تتفرد بغريزة صيدها، الذئاب دومًا قطيعها متلاحم يؤازر بعضه بعضًا بينما تتشتت بمواجهته الحملان فيمسي قنصها كطرقعة إصبع..

لكن ماذا عن ذئب شذَّ عن القطيع!.. هل يجوز للقائد، الألفا.. التعامل معه بما يليق!..

وإن لم يكن جائزًا فهو لا يكترث مثقال ذرة، سيحميها مهما كلفه الأمر.. حتى لو خطا لطريق ملتوٍ يناسب أمثاله.. أغلق الملف العامر بيده، الرجل مخلص لامرأة واحدة بالفعل هي "حياة".. وذلك لا يعني أنه لا يمكن أن يحيد عن الصراط؛ فلكل ذئب نقطة انهيار وكل صياد ماهر يجيد نصب الفخاخ.

تفاجأ بشريكه يقف قبالته بتأمل صامت متفحص، عيناه على الملف الذي يحمل اسمًا لا يعرفه، ويداه تستريحان بجيبي بنطاله والنظرة شبه ماكرة تتساءل عن شروده!:

- من جاسر شهاب الدين!

- زوج حياة السابق.

مط "آمر" شفتيه باستفهام قبل أن تستقر فوقهما بسمة متلاعبة:

- حياة!.. مساعدتي.

- مساعدتنا.

وقرر بجملة قصيرة قاطعة لا تحتمل الجدل:

- أريد التخلص منه.

- ماذا؟!

نطقها "غيث" وانفصم عقد الكلام بعدها.. وتراجع "آمر" وجبينه ينعقد فوق نظرة وحشية اختبأت خلف سِتر الغموض قبل أن يتخذ من المقعد المواجه للمكتب مجلسًا منصتًا إليه:

- لا أريده أن يتعرض لها مرة أخرى.

- وما شأننا بذلك!

ثانية صمت انشغل بها فكره قبل أن يردف مقاطعًا جوابه:

- بل ما شأنك أنت؟!

وعيناه تصرحان بمقصد تجاهله شريكه عائدًا لنقطة الفيصل:

- لقد حاول.. انتهاكها.

ترددت نبرته قبل كلمته الأخيرة، الكلمة التي اعتدل لها "آمر"ببطء، لحظات امتدت ساكنة تتبادل فيها الأعين حديثًا مطولًا لا تحتاجه الشفاه، حديثًا ختمه النمر بقرار:

- دع الأمر لي.

ومد يده يلتقط الملف، استقام "غيث" تاركًا مقعده، أشعل لفافة تبغ وتأمل وهجها قليلًا:

- جيد.. أريده فخًا لا مهرب منه، لأنني لو أفلتُ زمام نفسي لقتلته.

جاوره صديقه بهمسة حازمة تحمل اسمه، وبموازاة سؤال لم يتلفظ به إلا بعد تجاهل من "غيث".. ربت على كتفه ونبرته تمازجت بقلقٍ قلما يمسّ صوته:

- لمَ تهتم بالأمر!

منحه نظرة من فوق كتفه بصحبة بسمة ساخرة وهو يكرر نهيه المعتاد مع كل انزعاج يتلبس الصديق:

- لا تتدخل آمر.. كما لا أفعل أنا.

واستدار بكامل جسده ينفث دخانه بوجهه، يبادله ربتة الكتف ويطمئنه:

- أنا أعلم ما أفعله.

انكماش طفيف لاحظه فوق ملامحه فزوى المسافة بين حاجبيه بتساؤل:

- ماذا به كتفك؟!

تحرك "آمر" تاركًا المكان لصاحبه وضجيج أفكاره. فقط البرود غطى ملامحه ولهجته:

- لا شيء.. صدمة بسيطة بالجدار.

نظر إليه بشك ثم مط شفتيه بتنهيدة قبل أن يعيد اللفافة بينهما:

- انتبه لنفسك يا صديقي.

وبداخله يسخر من تلك "المنمنمة" التي تملكت عليه قلبه.. وعقله حتى بات يرتطم بالجدران ككرة تتقاذفها بإرادتها، تحررها أو تتلقفها كما تشاء!

***

امرأة واحد لا تكفي..

عنوان فيلم قديم يمنح الرجل الحق باختيار ثلاث لا اثنتين فقط، واحدة توازي عقله، أخرى تحمل شقاوة طفلة وبراءتها وحيويتها، وثالثة متعة الفراش وعنفوان الرجولة ولا يهم بعدها شيء.

لكنه هو اعتاد الاكتفاء بواحدة.. في كل مرة على الأقل، والتوى جانب فمه بسخرية.. الحبيبة أقرت بحب، وبات هو مالك القلب.. ولحق الملكية خضوع!

خضوع مشابه لخضوع من لفظه رحمها للحياة بكل قساوتها وغُشمها ودُجنتها، هي ببساطة عشقت.. فارقت.. عاد المفارق المعشوق، فخانت..

العشق مبرر ضعف، والضعف ذريعة سقوط..

وحينها سيتلقاها بين ذراعيه ويبرهن معها بفراشه.. ألا امرأة تشذ عن قاعدته!

وحينها يعاقبها على امتلاك قلبه، ثم ينبذها، يهجرها.. ويقصيها خارج نطاق حدوده..

قست عيناه بظلمة لا يجرؤ على الدنو منها نور، همس باسمها ودعوى الشوق تطالب بحنين وقرب، والأحمق بين ضلوعه، الخاسر أمام هواها يستنكر فكر شيطانه، يخرسه بنبضة خادعة، ويناجي طيفها الغارب.

طرقات خافتة أخرجته من شروده فمنح إذن الدخول لتفاجئه هي برقة خطواتها، وجهها الذي طابت خدوشه بعض الشيء، وعيناها اللامعتان بامتنان شاكر.. وحنان!

- ظننتُ أنكِ لن تعودي قبل بداية الأسبوع!

توقفت قبالة مكتبه مع سؤاله، وضعت عدة أوراق فوقه وابتسمت بخفوت:

- أصبحتُ أفضل.. شكرًا لك.

وترددت لحظة واجهت بعدها لمعة عينيه:

- على كل شيء.

راجع الملف سريعًا ومنحها توقيعه قبل أن يغلقه ويتركه مكانه، ينهض ليقف بمواجهتها بهمس رفيق:

- طمئنيني عليكِ.. وإياد!

رغمًا عنها تاهت في تلك الظلمة الحالكة بين جفنيه، ظلمة عميقة تثير الرهبة لكنها تبعث في جسدها دفءُ أمانٍ لم تلمسه مسبقًا:

- نحن بخير والحمد لله.

مد أنامله وتوقف على بُعد مسافة قصيرة من وجهها، هيأت له نفسه تحسس أثر بزرقة داكنة يجاور شفتيها ثم عصر قبضته وفاضت نظرته بوحشية ارتجفت لها:

- أعدكِ.. ستكونين دومًا بخير.

ناوشها قلق فاستفسرت وهو بيِّن فوق ملامحها:

- ماذا ستفعل؟!

- لا تقلقي.

- هو والد طفلي!

ارتد خطوة وانعقد حاجبيه، غضب امتد بسرعة برق يُغرق أوردته وهو يعود خطوته وأخرى جوارها حتى كاد يلامسها:

- تخافين عليه!!

وسحب منها فرصة الرد بهتاف شرس:

- بعدما فعله بك!

كان مستنكرًا حاد اللهجة والنظرة والحركات حتى أنها ابتعدت بتوتر خائف:

- هو والد طفلي.. إن آذيته ستؤذي ابنه.

- وجوده يؤذي ابنك.

- يحتاجه.

- غيابه أكثر جدوى.

هزت رأسها بيأس تناظر سخطه غير المفهوم وقلبها يدق صدرها دقًا كأنما يريد الفرار من سجن جسدها:

- لماذا تفعل ذلك؟

- لأنني...

وتوقف، تراجع واستند لمكتبه دون جواب واضح، التفت يلتقط علبة تبغه وأشعل واحدة تفضل عليها بالرد بعد أول نفثة خانقة منها:

- أنا أهتم لأمرك.

وخشيت المعنى والمضمون وخافقها عاد لعناده وقبل ذلك كله.. رحلت من بين أهدابها المتعانقة تمنع لقاء الأعين؛ دمعة!

استدارت على عقبيها بشبه ركض ولم يمنعها، أطفأ شعلته وزفر بحرارة..

هو لا يفهم نفسه فحسب، لم يعد يعرف ماذا يريد!

يحتاج واحدة، ويحب أخرى.. وبين هاته وتلك، متاهة شُق عليه خوض دروبها حد الضياع، والخوف..

فهل تخاف الشياطين!

***

فوضى أنثى قد تكون شغف رجل..

وفوضاها هي متعة..

متعة تفاصيلها غير مرتبة شعثاء كخصلاتها المرفوعة برباط مطاطي دون إتقان، ومنها هرب البعض ليناوش وجنتيها وعينيها، تفاصيلها منامة شتوية ثقيلة بلون باهت كأنما استنزفت عدد مرات ارتدائها للحد الأقصى ولاتزال تحتفظ منها بذكرى، تفاصيلها خفًا على شكل جرو فقدت كل قدم منه عينًا لكنه يلازمها ولا شك..

متعة تفاصيلها مبهمة غامضة ومقلقة وهي تتحرك في مطبخه الواسع بحرية تامة كأنما تدرك أركانه كخطوط يدها، تشعل الغاز وفوقه مقلاة عريضة يئزُ منها صوت زيتٍ حار، تنتقل لركن آخر وتستخدم سكينًا ضخمًا بدا مضحكًا بين أناملها الصغيرة لتقطع خضروات يجهلها، تحضر خبزًا شعبيًا وتعود لتعويذتها الأصلية فوق النار بانتباه..

قدر متوسطة الحجم ألقت بداخلها الخضروات المقطعة وقلبت لدقيقة ثم أعادت إغلاقها.. ارتكن بكتفه لجدار مجاور واكتفى بالمشاهدة..

امرأته دومًا تخرجه عن طوره..

تُحيِّد جنونه ودون وعي.. وتفجره بذات اللحظة ولو دون سبب!

زاوية فمه سكنتها ليَّة ماكرة، والغيوم السائرة بمقلتيه برقت ودوى فيها رعد ومطر بشارة بعاصفة.. كانت تخرج شيئًا من المقلاة أدرك كنهه على الفور فارتفع حاجباه بدهشة متلذذة.. تضعه بطبق بسطت فوقه محرمة ورقية، ترش بهارًا ما وتتشمم باشتهاء تعانق له جفناها وتئن بصوت خفيض كأنها تتذوقه بالفعل..

اتسعت بسمته الوليدة..

امرأته ببساطة.. مهرة!

بدقة تفاصيلها وخبال اللحظة وهوس سيطر عليه يريد استكشافها بدقة أكبر!

دقائق أخرى وانتشرت رائحة شهية لم تلامس حاسة شمه منذ دهر، فتحت القدر وتذوقت طرف ملعقة، رشت ملحًا وبهارًا آخرًا.. قلبَّت وملأت طبقًا بمحتواه الأصفر الثقيل، بضع قطرات من عصير ليمون طازج وورقة خضراء لم يخمنها وضعتها بأناقة فوق السطح..

نعم هي متعة..

متعة لا يدرك كامل تفاصيلها من زاوية وجوده.. فاتخذ قرار اقتحام!

تنحنح وأخفى النظرة اللعوب والبسمة العابثة، التفتت إليه بشهقة ذعر ويمناها ترتاح فوق موضع خافقها الذي ركضت نبضاته توترًا..

بداخلها ارتباك.. وبداخله هو فقط مستمتع، وللحد الأقصى..

مع خطوات اقترابه كانت تتراجع.. حاصرها من الخلف سطح المطبخ العامر بما لذ وطاب من وجبتها الليلية المتأخرة للغاية، وبات صدره جدارًا صلبًا يواجه عينيها ونظراته تتسلل من فوق كتفها لما تخفيه..

ضحكة خافتة خرجت من بين شفتيه فأعادت لقلبها جنونه..

حانت منه نظرة لساعة معلقة على جدار مقابل، وجدها تجاوزت منتصف الليل بدقائق فبادرها:

- حقًا!

تحركت بحيرة تغادر سجنها الضيق رغم اتساع المكان فحبسها بذراعيه من حولها، ومال يهمس بتسلية:

- حساء العدس.. باذنجان مقلي.. وما هذا أيضًا!!

- جائعة.

نطقتها حادة معترضة تشجب استنكاره، وأمام وجهها تمتم بشغف:

- وأنا كذلك.

والتقط ورقة خس مضغها ببطء دون أن يفلتها:

- لكنه منتصف الليل سديم!.. ألا تجدين ذلك..

وأشار لما ورائها بسبابته:

- ثقيلًا بعض الشيء!

أرجعت خصلاتها المتمردة خلف أذنيها بضيق، هربت من عينيه وتفحصه الذي نبهها لما ترتديه!

وعادت تنهر أفكارها الحمقاء.. هي لا تبحث عن مظهر يعجبه، لكن قلبها وبخها.. منامتك تشبه جلد فأر مبلل أسقطه القدر ببالوعة ولم يمكنه النجاة.

زفرت بحنق ولم تبرر.. وجنتاها المحمرتان تعلقت بهما نظراته فاستكمل همسه بنعومة:

- يبدو شهيًا.

ومال يتشمم بعمق وكان عبقها هي يملأ أنفاسه فأغمض عينيه ومسَّ تشعثها بأنفه دون شعور:

- تجيدين الطهي!

وتراجع برأسه ليمنحها حرية الرد وهي كانت بالكاد تتماسك:

- ابتعد.

- سآكل معك.

- كله لك.. لم أعد جائعة.

انعقد حاجباه وانسل لنفسه غضب لامست نبرته بشائره:

- لكنني لاأزال جائعًا.

ولم تفهم ماذا يقصد!

دفعت صدره بيدها بقوة فحاوطها بقبضته، رفعت رأسها إليه بحركة حادة تبغي بها تمردًا وربما تلقي أمرًا واجب التنفيذ.. لكن لمعة عينيها انعكست بغيومه فأمطرت سيلًا أغرقها بين شفتيه.

تملصت منه كقطيطة صغيرة حاصرها وحش ضارٍ..

همهمت بعنف ودفعته ولكمت كتفيه ولم تبالِ بجرح لم يطِب تمامًا بعد، رفضت غزوه، إغوائه.. أبت الخضوع، ابتعد على حين غرة فأخافتها عيناه!

- لا.

هدأت عاصفة نظراته بغتة حد البرود بعد صرختها الخافتة، انضم فكّاه في زمة قاسية تبعها أمره:

- لا تبعديني عنكِ سديم.. أخبرتك من قبل ألا تفعلي.

دمعة خدشت جفنها وأسقطت معها رمشًا طويلًا وهي تنساب فوق وجنتها:

- ماذا تريد مني!.. فقط حررني ولننهي هذه المسرحية الهزلية.

ومسحتها بقسوة مؤلمة تحت مراقبته الحادة المبهمة:

- تعلم أنني لن أكون لك.. وتدرك أنك لن.. لن..

ثم أدارت وجهها بوهن لم يؤثر بملامحه الجامدة:

- فلمَ نخوض بالمحاولات الفاشلة؟!

جذب وجهها بقوة يجبرها على النظر إليه:

- من قال أنها فاشلة!.. أنتِ تحبينني.

- حبي لك ليس مبررًا لأخالف مبادئي وأخلاقي.. وديني.

ولم تسأله أو تُسائِل نفسها عما يشعر به هو!.. تهدل كتفاها وانحلت خصلاتها بعفوية تخفي وجهها عنه وهي تخفضه، تتأمل ضيق المسافة بينهما:

- ليس عذرًا لأتغاضى عن إنسانيتي.

وتغاضى هو عن كل ما نطقت به ليسحق رفضها بقبضة متملكة فوق مرفقها:

- ستتعلمين سديم.. ستتعلمين، فقط المرة الأولى هي الأصعب.

انتزعت يدها منه بصرخة مكررة شجَّت صدرها ومسامعه:

- لا.

ورفعت رأسها بعناد صلب تتحدى عينيه:

- لن أكون لك آمر.

- ستكونين.

- هل ستجبرني؟!

بهجوم يسوقه خوفها، انتفض مبتعدًا فجأة يحررها من قيد أسره.. غامت عيناه بلا سبب مفهوم وذكرى تناطح عقله فتخرجه من محيطها لمحيط ماضٍ دفنه سحيقًا حيث لا تصل إليه يدا مخلوق:

- أنا لا أجبر النساء على معاشرتي سديم.

وكادت تضحك بسخرية رغم خجل زحف لكيانها، مرارة غلفت قلبها وتصاعدت حتى غُص بها حلقها وهي تتشبث برداء القوة خلف جدار الوهن والضعف:

- يالها من أخلاق مثالية!

ولم تعِ ألم عينيه، زمة الشفاه أو القبضة المضمومة بغلظة.. انتبهت فقط لشراسة نبرته ونهيه المُلزم:

- لا تسخري.

تنبهت لوجع قلبها وتشتت روحها وهي تعاني كطير ذبيح كان سكين ذبحه ثالمًا:

- وماذا تركت لي!

وابتعدت ونشيجها تشبعت به نبرتها وصوتها المشابه للأنين:

- أسخر من حالي وقلبي الأحمق.

والسقوط في حالتها مباح لكن بقايا كرامة تعلن دعمها لتتوكأ على عصا الكبرياء اللعين وتتمسك بجدار التظاهر بالبأس:

- ماذا أتوقع من.. قاتل!

لفظة تشبه بصقة باحتقار تغضن له جبينه دون أن يستدير إليها:

- أنا لا أجد وصفًا ملائمًا لما فعلته بقلبي!

والبحة غالبت النبرة والحشرجة هددت قوة الصوت لكن العبرات كان لها النصر وهي تسيل بسخونتها لتغرق وجهها.. وقبضتها تضرب وتضرب صدرها كأنما تناشد قلبها التوقف عن النبض:

- ذلك الوجع الذي يأكلني من أعماقي.

والتفتت ترمق ظهره بنظرة علاها اتهام صريح مقهور.. مهزوم:

- يمزقني ويبعثر أشلاء روحي فلا يعد بي قدرة على جمعها.

ثم انغلق جفناها بفتور وتخاذلت قدماها عن حملها فاستندت لباب المطبخ قبل أن تغادره بقرار لا رجعة فيه.. قرار أنهته بنقطة فاصلة اجتثت كل فكرة وأنشبت مبضعها بكل اختيار:

- لن أكون لك أبدًا.

وها هي قد عرَّت مشاعرها وكشفت سوءة عاطفتها أمامه.. فلم تعد تسترها ورقة توت الكبرياء أو يداريها عنفوان الرفض..

عند أول الدرج تناهى لمسامعها دويّ تحطم.. فأدركت أن وجبتها هي ما أهدرها متنفسًا لغضبه، تخشاه.. وتطمئن إليه، ولا تدري كيف يجتمع النقيضين برجل!

لكن كلمة النهاية؛ خطَّها القدر..

(٢٤)

قافلة الماضي لن تصل بك إلى أي مكان..

"مكسيم غوركي"

***

القاعدة الخامسة من قوانين الضواري..

"لا تخاطر مع ضارية جريح، فالمخاطرة وقتها أشبه بذر الملح على الجُرح.. والثمن وحشيته جوار دمائك!"

كنمر سقط في فخ صياد خبير، انطوى على نفسه يلعق جُرحًا نبشت قبره امرأة لا يملك معها من أمره شيئًا، امرأة تحييه ببسمة، بنظرة.. بقبلة، وتقتله بخوف.. هزيمة، ورفض!

امرأة أخرجت جثة الماضي المتعفنة وأطلقت رياح عفونتها بوجهه وحده، هو من يحمل الذكرى.. الألم.. والندوب!

كشفت حجاب السِتر الذي وارى خلفه الأمس، لوثت اليوم.. وربما الغد!

وضعته على خط النار، في مواجهة ظن أنها لن تحدث أبدًا، ألقت به في جبهة قتال لم ينتصر فيه البارحة إلا بالدم، الهرب.. والاختباء حتى إشعار آخر: إشعار حوله.. لقاتل محترف!

"فتش عن المرأة"

قالها نابليون سابقًا وطبقها كل رجل على ظهر البسيطة منذ بداية الكون، فوراء كل مصيبة أنثى، ووراء كل ضائع تائه فقد قدرته على تحديد المصير: امرأة!.. أيًا كانت الخانة التي تشغلها من تكوينه، أو المهمة التي تقوم بها بحياته..

فإن كانت أمًا قد ذبحته؛ فامرأته غيرت فيه الكثير حتى أصبح ينظر في مرآته مستنكرًا ذلك الوجه الذي يطل عليه بانعكاس يجهله!!

انعكاس بنظرات شيطانية في هاته اللحظة.. بريق دموي يغشي البصر، واللمعة كشمس أشرقت بغتة على صحراء قاحلة كل تفاصيلها متربة رملية خائنة للقوة.. خادعة للثبات..

ابتعد عن المرآة.. أشاح بوجهه عنها يرفض ضعف الملامح التي تطل عليه فوق سطحها، ضعف أخفته وحشية عينيه وضمة الشفاه القاسية.. ضعف حجبته قبضته وهي تغوص بزجاجها فتصنع منه فتاتًا متناثرًا تمازج بقطرات من دمائه وخدوش طالت حتى روحه..

واتجه لنافذته غير مبال بالألم.. غير آبه لتلك القطعة التي انغرست بكفه وبإرادته الحرة كأنما يستعذب الوجع فربما تنقشع سحابة الذكرى التي تخيم

فوق رأسه الحين.. ضغطها أكثر، وتحولت القطرات لشبه سيل تتبع خطواته حيث وقف يراقب الهلال الصغير يختفي بضوء باهت في الأفق..

شهيق.. زفير.. فاحتباس أنفاس، الصدر ضاق بما فيه، وأرضه ضاقت عليه بما رحبت!

تبًا لك يا غيمة تظن أن ببردها ستطفئ نار الجحيم!..

اللعنة عليك يا ملاكًا سقط في فخ شيطان وجذبه معه ظنًا منه أن الوحوش أصلها حملان!..

وبئسًا لصغيرة.. بريئة.. منمنمة، تفكر أن الرفض مباح، الهروب متاح.. والسقوط محظور!

أفلتَ قطعة الزجاج من بين أصابعه، تأمل كفه المفتوحة والسائل الأحمر يغرقها بدفئه، اعتصرها بمواجهة ناظريه وراقب القطرات تسقط فوق الأرض حتى بات صوتها مسموعًا بصدى مخيف.. ثم أظلمت عيناه، وانفتح باب السعير على مصراعيه فجأة بموازاة صرخة..

صرخة خرجت من كهف الماضي المعتم..

صرخة تحمل أنينًا، وجعًا، خوفًا.. وخضوعًا!

صرخة تجاور أمر رجل أجش الصوت، حاد النبرة غليظ اللهجة والكلمات..

صرخة اخترقت مسامع طفل في السابعة، صرخة.. تحمل صوت أمه!

صرخة استقبلتها أذناه، ومعها صورة حية لوحشية أجهزت على نبض قلبه وهو يقف متجمدًا عاجزًا في وضع مراقب صامت، خانع ضعيف.. لأمه، بين ذراعي رجل..

المشهد انتهاك..

الدعوى منه حق، ومنها عشق..

والتتمة.. لا تحتم تدخلًا، فهو الزوج!

ومن عمق جوفه انطلقت آهة تلوت لها أحشاؤه وحجبتها شفتاه بحزم قطع عليها طريقها؛ فالنمر تخطى مرحلة الألم، حد التلذذ به!

تعانق جفناه هروبًا من تداعي الذكريات كأنما هي مبنى عال تهدمت أعمدته فخر فوق رأس ساكنيه بلا تمهيد..

امرأة تشد الرحال، أرملة صغيرة، بجسد أنثوي فاتن وعينان بلون الغيوم الماطرة، تسدل عليها السواد وتتخفى في جُنح الليل تجر وراءها طفلًا بالكاد أجاد تكوين الجمل..

وكان يسأل عن أب.. والكلمات تتردد من حوله.. "مات"..

والأم تهرب دون عودة، تترك بيته الفقير الحميم، أرضه بخسة الثمن، وتنزح نحو الجبل.. وهناك كان قيد الانتظار عاشق قديم، أجرم وفرَّ من القصاص ليقود مجموعة من الخارجين على القانون..

يسكنون الجبال، ينهبون القرى المحيطة، يقتلون ويسرقون ويستحيون النساء.. ولا رادع، لا محاسب ولا عقاب أو جزاء!

وبكهف رطب، ممراته وعرة، والصعود إليه فوق طريق غير ممهد، جدرانه صخورها حادة، تضيئه مشاعل يتراقص لهب نيرانها فتبدو كأنما هي صورة مجسدة لكل خيالات الرعب..

وباتساع أطلقوا عليه اسم غرفة القائد.. كان هو، جسد ضخم وشارب أكثر ضخامة، بجلباب واسع وعمامة توازن رأسه.. بيده سلاح، وبالأخرى أرجيلة نفث دخانها قبل أن ينهض لاستقبال الأرملة الحزينة.. والمعشوقة التي عادت بعد وفاة الزوج.. عادت بابن يحمل عينيها، وملامح أبيه!

ملامح تمردت لها نظرة الرجل، فرفع الطفل بين يديه، وأخبر رجاله أنه سيكون ابنه..

أعلنها كذبة.. وأوقعها ثأرًا!

وأمام عيني الصغير، كان يعاشر أمه.. مرة ومرة ومرات.. يجبره على النظر ويضحك ملء شدقيه وهي لا تعارض.. وابتسم الشيطان ولأن فرعون فرعنه السكوت.. فقد تمادى..

حد الاغتصاب!

وصرخت، وصرخ الطفل.. حاول الحماية.. أراد الدفاع.. حشر جسده الضئيل في منتصف معركة لا قبل له بالصراع فيها.. وكانت أول صفعة، أدمت شفتيه،

ألقته أرضًا.. وبعد ثوان كان مقيدًا ذليلًا واهنًا.. وأمه تنتهك بعنف تحت سمعه وبصره.. وضعفه!

وتوالت المرات حد نسيان العدد.. وتحول الأمر معها لإرادة، لمتعة.. ومع خضوع الرفض زادت الوحشية والغلظة.. فبات العاشق يجبرها على الممانعة لينتشي بصرخاتها، بدموعها وبكائها.. وكانت هي أكثر من مستعدة لترضيه!

وكبر الطفل.. مرت سنوات على ذات الحال، وتعلم بعمر العشر كيف يطلق السلاح.. ومع أول هدف أخطأ إصابته، حصل على مكافأته، أطفأ شعلة تبغه بصدره، وانطلقت صرخته الأولى..

وكانت هي تراقب، تقسو عيناها.. وعيناه تناشدانها الأمان..

أمانًا لم تمنحه، ولم تفكر حتى أن تفعل!

وتكررت حروق التبغ، وتتابعت نيران حطب أرجيلته تشعل جسده وجاورتها جروح مديته ببدنه كأنما يتسلى بنقش خرائط العجز والقهر فوقه.. واعتاد تحمل الألم، أَلِفَ كتمان الأنين.. وامتلأ قلبه بالقسوة إلا قليلًا!

وذاك القليل دفع ثمنه بعمر السابعة عشر، بعري وشمس ظهيرة وصخرة ربطوه إليها، بعطش وشبه موت ومستضعف هو بلا حول.. بلا قوة.. بلا سند..

ساعات واكتملت صورة العقاب، ليظهر القائد، مستعمِر مكان الأب.. العاشق المسيطر، ظهر بسوط جلدي مخيف المظهر.. ظهر يرفع يده به لأقصى قدرة، وتنزل معه بُجل استطاعة تحرق، تمزق جلد ظهره وهو مصلوب على الصخور..

مرة.. وجلدة أولى، وتسقط ورقة كرامة!

وثانية.. وجلدة أخرى، وتسقط ورقة ألم!

وثالثة.. وجلدة جديدة، وتسقط ورقة أمل!

ورابعة.. وجلدة تتبعها، وتسقط ورقة انسان!

وخامسة فجلدة فسقوط.. فطرة!

لم يصرخ بل صرخ جلاده بغضب صمته، لم يتوجع فمنع قاتل روحه من انتشاء منتظر فوق أوجاعه، لم يبكِ فسحب من أسفل قدميه بساط النصر وحول مذاقه لهياج كاد يزهق روحه لولا أحد رجاله؛ تدخل في الوقت الصحيح فأوقفه.

تراخى الجسد على الأرض دون حراك واستقرت الروح معلقة فوق صراط يمر أعلى الجحيم، طهر الرجل جروحه، أخبره عن يومين بعدها سينتهي الألم، وابتسم في وجهه مشيرًا بيأس عن استسلام وذريعة خوف بطش..

وفاض حلقه بمرارة يُتم.. بملوحة دمعة غافلته واستغلت وحدته لتجاور الصمت يسكنان لسانه..

انتهى الألم، وبقيت الندوب.. ودام الأثر!

هو اتخذها جارية وأعلنته معشوقًا، والثمن.. خرج من ظلمة رحمها لظلمة حياة قررتها هي عنه حتى اشتد عوده فأخذ زمام القرار.. المبادرة من حقه، والاختيار من نصيبه.. والثمن هذه المرة؛ دماء!

فعندما صرخ بوجهها في غيابه متسائلًا عن رحمة، عن أمومة، عن احتياج: كان الرد مفحمًا:

"اعتبر نفسك وحيدًا في هذه الدنيا.. ليس لك سند سواك، حقك لن تأخذه إلا بعنفوانك وقوتك، وما تريده؛ تملَّكه بنفسك.. لا تنتظر من أحد أن يساندك بل كن أنت المُهاب الأقوى"

وأردفت بغلظة خافق لم تعد به روح:

" يا عزيزي.. كن قويًا.. شرسًا.. دمويًا، ولو تطلب الأمر؛ شيطانًا..

هذه الأرض لا تليق بالأبرياء ولا بالحمقى المغفلين الذي يعيشون تحت مسمى "طيبين"

هذه الأرض قاسية، صفوانية صلدة لا تخدشها أمطار ولا تحركها رياح..

هذه الأرض.. جحيم الأنقياء، وفرودس الأبالسة!"

وكانت نصيحة أنصت إليها ومردودها داخل صدره وعلى زوجها بالتأكيد لم يكن هو ما قصدته حين نطقت كلماتها!

فلو علمت أن بعدها بأقل من سبعة أيام سيلقي بين ذراعيها برأس زوجها المقطوع النازف.. لما حثته ليكون السيد القوي.. النمر.. أبدًا!!

هو يبحث عن جنته، فردوسه.. ولأن أرضه ليست للملائكة؛ فقد انتصر الشيطان!..

انتهت الذكرى.. وجف نزيف الدم من حول أنامله، انقلبت ظلمة عينيه لدُجنة حالكة يخشاها النور.. واسوداد القلب عاد لكامل سيطرته طاردًا جيوش الوهن التي كانت تتسلل إليه مداهمة مؤخرة جيوش عزمه وقسوته، لكن الغلبة.. كانت له..

للشيطان!

للوحش!

للضارية!

للنمر..

***

قيل: تحب المرأة في الرجل أن يكون في حاجة إلى أم ترعاه!

وهي لا تدرك، أهذا هو ما تشعر به نحوه بالفعل!.. أم هناك ما هو أكثر؟!

للرجال في الحياة مذاهب، وفي النساء.. هو مذهب واحد..

يقول "أحبك" والمعنى "أشتهيك" ويهمس "أهتم لأمرك".. والمفهوم مجهول!

يقدم المشاعر لينال الجسد، ويمنح شغف العاطفة ليكون المقابل امتلاك، لا تتحدث عن نظريات لم تثبت على أرض الواقع، بل تجربة عايشتها وأقرتها بالأدلة وكامل البراهين!

يشبع نهم الأنثى للحب، يرضي نزعتها الرومانسية.. يظهر بثوب الفارس، الجواد والزهور والفراشات، يختصها بنظرة عينيه، بهمس نبرته، ببسمة شفتيه.. ومع القبلة تسلم الحصون.

حينما رفعت راية الخضوع وفتحت بوابات قلعتها لعاشق سابق؛ لم يأتِها من ورائه سوى كل ألم، خوف.. ذعر، وامتهان لكرامتها وانسانيتها.. بل وأنوثتها، لكن هذه المرة.. الخطوات حذرة، والعين تغشاها قتامة هلع من تكرار هو أقرب للحدوث!

بموازاة أناملها التي تتخلل بشرود خصلات صغيرها الذي دس نفسه بين ذراعيها وراح في النوم؛ تاهت فيه.. كلماته.. نظراته.. همساته وما فعله لأجلها!..

ضاعت في شعور حماية غير مكتسب، بل موهوب بكرم!.. تناست خوفها للحظة وأذعنت لقلب عاد.. للنبض!

وجوار شفتيها مرت بسمة بطعم مر، ومن خلف جفنيها المضمومين تسللت عبرة تشي بالكثير..

ترى فيه احتياجًا يشعرها بالاكتمال!

ترى فيه رجلًا غير ذاك الذي يغازل بوقاحة نظرة، وتدرك أن أسفل ثوب الذئب.. هو فقط موجوع، وربما جريح!

فتحت عينيها تراقب ظلام الغرفة، تعاند أفكارها، تمسح دمعتها وتهمس لنفسها تقتل الحلم في المهد.. تأمرها بالانصياع لحدود الملموس، فالسحابات الوردية لا تغادر صور حكايا الخيال..

الذئب.. لا ينقلب حاله من صياد لحامي، والذكر.. لا ينسى مقابل ما يمنح، وهو.. لن يختلف عن زوجها مهما ظهر منه، فجمال الصورة يخفي خدوشًا شوهتها من الأعماق.. وتلك الخدوش لن تجرح غيرها، لن تدمي سوى قلبها..

قلب نزف بما يكفي، ولم يعد هناك مزيد!

عقدت النية على نهاية تليق بموقف امرأة مثلها، لكن من قال أن القدر سيترك لها حبل الاختيار على الغارب!

***

الحب معضلة كونية لا حل لها..

معادلة تحتمل كل العمليات الحسابية وتنتهي للاشيء!

في الحب لكل فعل رد فعل.. مساوي له بالقوة.. وبمخالفة لقانون نيوتن "موازي" في الاتجاه حتى نقطة التقاطع..

عندها تنصهر الأرواح، تتمازج القلوب، وتتيه العقول..

فقط..

إن كنا من أهل العشق وسكان داره المقيمين؛ لكن إن كان العاشق زائرًا أجبره قلبه على الولوج عنوة لدار العشاق؛ فحينها تنقلب الموازين، ينتصر الوحش، ويفشل الترويض!

بأقصى خيالاته جموحًا لم يطُف حضورها بنفسها إليه، وبعالم أمنياته حلقت الفكرة.. أما في جحيم شيطانه؛ فقد سيطرت وتملكت منه حد التوقع، الترقب.. والانتظار والتخطيط!

دلفت لوجاره بوجه وردي الوجنتين لم تمسسه زينة، وعينان تشربتا بالعسل حتى اكتمال التشبع فقاربتا ذهبية شعاع الشمس، بملامح مصمتة تخفي حرب النفس، وشفاه شبه باهتة انكسرت بإنحناء حزين..

تواجها بسكون، خارج الإطار تبدو النظرة جامدة، وداخل الصورة تنبض بما يفوق الاحتمال!

- اشتقتِ إليّ!

ابتدأها ببسمة ناعمة تضمر في خلفيتها خبث، وأنامله امتدت بحلم تلامس ذقنها الشامخ رغم انهزام العين، أوقفته دون أن تحيد بوجهها، منعته بلمعة سريعة خطفته بمقلتيها، تراجع واستجاب لصمتها بصمت حتى تمكنت أحرفها من التوالد بعسر:

- أريد الحديث معك.

- كلي آذان مصغية.

وأشار بيده في دعوة للجلوس على أريكة بركن الغرفة، نفت وأبت بهزة رأس واهنة:

- لا داعي.

دنا بخطوة تلاحمت خلالها أنفاسه مع أنفاسها في مسافة اشتعلت بينهما، عناق النظرة أضحى واجبًا، وربما كان في انتظار لمحة توحي بخضوع الشفتين فقد أتت والحُجة لا ينقصها إيضاح، فهمت عينيه فتناءت عنه وولته ظهرها.. تلعنه وتلعن قلبها الذي سلمه نفسه بلا أحقر مقاومة:

- ماذا سنفعل؟

- حيال أي شيء تحديدًا!!

كان يتخابث وهو يدرك مغزى سؤالها، والتفتت إليه عاتبة فبرق ثقبيه الأسودين حد أن كادا يبتلعاها بعمق نظرته، عمقًا أشبه بموج بحر هائج قاعه بعيد المنال، والرغبة فيه لا تجاور الاحتمالات أو يعوزها برهان:

- لا تلاعبني غيث.

- أنتِ من تتلاعبين كارما.

انتابتها حيرة، شردت بغير فهم ومرار العجز يقهرها، حنظل الضعف يؤذيها ويوجعها، وهشاشة امرأة سقطت من أعالي جبال المنطق والصمود، إلى صلابة أرض العاطفة التي لم تطأها قدمها قبلًا تدفعها للخنوع:

- أنا خائفة.

- مني؟!

- من قلبي.. ومنك!

- أنتِ لا تعرفين ماذا تريدين وحسب.

- وهل تعرف أنت؟!

كان يقرر عنها وكانت تسأل والجواب أخرسها جوار نظرته، همسته، دفئه وسيطرته على ذرات الهواء من حولها، وجوده والليل الحالك بين جفنيه الذي استعمر الأفق قبالة عينيها:

- أنتِ.

واقترب.. حد اللمسة، حد القبلة وأمام ثغرها تمم الهمس بحرارة يصلاها في جحيم الشك:

- أريدك بين ذراعي.. ألامسك كيفما أريد، أسعدك كما تستحقين.

والقلب لم تعد به طاقة لنبضات، فاقت الجنون والوجع والخوف وهو يغزل سحر خيوطه حول ضعفها، تتوحش مقلتاه وتشعان بحريق لو طالها لأتى على ما فيها من حياة:

- أريدك كما لم أرِد امرأة من قبل.

تشبثت بذراع حقيبتها تستمد منه سندًا واهيًا وهو يبادر، يلقي بلجام اشتهائه حول فرس مشاعرها الجامحة، يسيطر.. يتحكم.. يخط بأصابعه قدرها:

- بل أريدك وكأنني لم أمّس أنثى أبدًا.

وزفرة ساخنة لفحت جانب فمها مع ميله وملاصقة نبرته الخشنة لأذنها:

- أريدك بفراشي كارما.. اليوم قبل غد.

والجفنان اللذان كانا على وشك العناق في مواجهة غواية شيطان عابث تفرقا بهلع، النبرة التي انحبست وتحشرجت ببحة حب انقلبت لصرخة ألم..

وانتفاضة الجسد جاورت ابتعاده خطوة توازي مائة داخل القلب مع دفعة من يدها لصدره، تبعده أو تتباعد دون فارق:

- لا فائدة.

وبغضب من كان سينال قبلة الأميرة فانكفأ على وجهه بلحظة؛ رمقها.. واستعر جمر اللهب بعينيه فبدا أشبه ببركان خامد أُجبرت حممه على الثورة:

- ماذا؟!.. أليس هذا ما أتيتِ لأجله!

تسارعت أنفاسها وخافقها يصرخ، يئن.. ويشجب معترضًا، وهو ثائر مهتاج كذئب فقد فريسته:

- ألم تأتِ لأُسمعك كلمات الغزل؟!

وعاد خطوتها بشبه انقضاض أجفلها، تحكم بمرفقها بقبضة قاسية، وحبست آهة وجعها خلف جدار الصدمة والرفض:

- ألستِ هنا لتمنحيني بحق العشق.. ما أريد!

وجذبها لترتطم بجسده فاقشعر بدنها:

- ألا تريدينني بقدر ما أرغب بك!.. بدفئك!.. بأنوثتك!.. ألا تريدين الشعور بي وأنفاسي تلامسك كما أريد أنا!

ومد أنامله يمررها فوق وشاحها، بإغماضة وخيال يبيح كل تصور:

- الشعور بأصابعي تغوص بخصلاتك فأمتلكها!.. بنفسك تتحولين لامرأة بين ذراعي!

وقبضته باتت أشد غلظة ونبرته أكثر فظاظة والملامح الوسيمة أضحت وحشية:

- ألم تأتِ تقدمين لي عرضًا وكل ما حدث أن بادرتُ أنا به!

- توقف.

انعقد حاجباه إثر صرختها المتحشرجة، نظرتها المجروحة، هشاشة كيانها التي فطن إليها، رجفتها ورعشة شفتيها وهي تهمس بعذاب بالكاد وصل لمسامعه:

- ظننتُ..

وبترت الكلمات فلا جدوى من الظنون والواقع رهين البصر والتذوق بل يغزو بعبقه الأنفاس، انتزعت ذراعها من تملكه والدموع تغتنم فرصة التيه والوجع لتهاجم وجنتيها بشراسة، تحاشت قربه وجنحت بذاتها تفارق حصاره:

- كيف حدث وأحببتُ شخصًا مثلك!

- للشياطين جاذبيتها الخاصة.. يا ذهبية.

وتبًا له يذكرها بوعيده السابق، يعيد عليها ما قرره من قبل وصدقت هي عليه بغباء أنثى وبصوت بارد غريب كأنما لم يؤجج نار فؤادها منذ ثوان فاتت..

بل كأنما لم يهدم آخر قلعة احتمت بها علَّها تنال النصر:

- لا فائدة.

توقف صدره عن احتواء أنفاسه بنظرتها الأخيرة.. كلام الأب أحيا الأمل، لكن الحقيقة ترفضه، المنطق يعارضه.. والعقل يصارع القلب في حرب خاسرة.. طالما عشقت فالضعف هو ملك اللحظة..

لحظة توجتها بهروب مهزوم من أرض معركة مع شيطان لم يسعَ لتجميل الصورة!

***

الدنيا ما هي إلا لعبة عمادها ذكاء وخطواتها سرعة بديهة.. رقعة شطرنج؛ نضحي فيها بالجنود.. نهدم القلاع ونقدم قرابين النفائس فقط ليحيا الملك!

وبرقعتها هو ملكها.. توجته واعتاد التتويج فبات الاعتياد حقًا ومستحقًا..

ولأن الملك يأمر فيطاع استجابت دون جدال عندما أخبرها ألا تغادر فبينهما حديث هام عقب انتهاء الدوام..

تجلس على مقعد مواجه لمكتبه، وينهض هو ليلتف حوله، يقف أمامها ومن حزامه يخرج سلاحًا تعرفه؛ فقد كان هدية منها!

مسدس خاص من طراز "سميث أند ويسون" ذي الساقية الدوارة.. بسيط التكوين يسع ست رصاصات ولا يكاد يناسب قبضة يده الضخمة..

حدجها بسكون جامد والنظرة مبهمة تحمل توقيعًا يطالب بخوف!

فتح أمامها عجلة السلاح، وضع بها طلقة واحدة، أعادها لموضعها بحركة سريعة من يده.. أدارها بعشوائية ثم تركه على طاولة قصيرة بين مقعدها والمقعد الذي استقر فوقه باسترخاء..

عرق بارد تسلل بطول ظهرها وهي لا تفهم!

التزامه الصمت أثار بنفسها الرعب، عيناها تعلقتا به.. بعينيه.. بشفتيه، بهيئته التي تعشقها، واستقرت عند قبضته المربوطة فوق أثر جرح لم تعلم سببه.. ابتلعت ريقًا شُق عليها استحضاره:

- ماذا هناك آمر؟!

مال يرتكن بمرفقيه فوق ركبتيه، لا يحيد بنظراته عنها، يخضعها لسلطان غيومه التي بدت في تلك اللحظة أشبه بضباب رمادي داكن تعسرت معه الرؤية:

- رافد سليمان.

نبرته تقريرية لا تحمل استفهامًا، ثلجية أشعرتها بصقيع، انكشف المهرب المؤقت، تعرت حقيقة مسكن الوجع والذي بات وجوده إدمانًا:

- أنت لا تفهم؛ هو فقط...

- خطر.

تهدل كتفاها وفركت كفيها في ارتباك ناسب موقفها.. بررت بتوتر:

- لا...

- التقطي السلاح ريما.

- ماذا!!

توسعت عيناها برعب وليد لم تمر به معه من قبل، لكن ملامحه حافظت على جمودها:

- تعرفين هذه اللعبة بالتأكيد!

- لعبة!

تراجع يستند بظهره لمقعده، جالت عيناه حولها.. تتظاهر بالصمود وتدعي الثبات:

- خزانة دائرية، رصاصة واحدة بفُتحة مجهولة.. طلقة.. وحظ!

الرعشة أصبحت جلية فوق شفتيها، شحُب لونها جوار هزة رأسها التي رفضت التصديق:

- سأترك لكِ البداية.

- آمر!

- وجهيه نحو رأسي.

انتفضت بمقعدها مع صوته الحازم بصرامة أرهبت كيانها كله فكادت تسمع صوت أسنانها تصطك وركبتيها تهتزان بإيقاع مشتت:

- لماذا تفعل ذلك!

- ستقتليني بيديك ربما.. ذات النتيجة في كلتا الحالتين.

- لا.

- التقطي السلاح.

- أرجوك!

والرجاء انقلب معه لتوحش فاضت به عيناه ووجهه حتى رَفَّات أهدابه. أمسكه وفي لحظة كانت فوهته تضغط جبينها وسبابته.. تعتصر الزناد!

تكة صامتة وازت اعتصارها لجفنيها وإجفال جسدها..

اعتقل يدها بقبضته ووضع بها السلاح، أجبرها لتتحكم به ثم وجهه نحو رأسه وعاد يأمر ببرود مخيف:

- اضغطي.

رمته كثعبان على وشك نهشها، قفزت خارج مقعدها وبكت، انتحبت ونشجت بضعف:

- لا آمر.. لا أتحمل أن تتأذى ولو شعرة من رأسك.

- وماذا تسمين هذا إذًا؟!

كان جافًا صلبًا كأنما لم يوشك على قتلها قبل ثوان، كأنما لم يمنحها الحق في قتله.. كأنما لم يكن يلعب لعبة المخاطرة كطفل يلهو بأعواد ثقاب:

- حبك وباء تمكن مني.

ونبرتها مهزوزة كما قلبها الواجف بهلع بين ضلوعها:

- وهذا الرافد!!

- ترياق!

- لا ريما.. لا أستطيع منحك ثقة مغلفة بحرية.

ثم نهض يدور حولها، يقبض على ذقنها فيُكره عينيها على مواجهة قسوة عينيه:

- إما أنت تتقبليني كمرض مزمن؛ أو أنهي حياتك كطاعون!

همس قاتم كقتامة جحيمه، قارص رغم حرارة أنفاسه، مفزع رغم جمود اللهجة:

- وربما حياته كذلك.

الاستطرادة التي حسمت اللُعبة دون دماء، دون طلقات رصاص.. ودون مخاطرة!

ستخرجه من حياتها وتعود لقفص امتلاك النمر وكفى.

***

في جنائن العشق كل الثمر مباح..

حتى ثمرة الخطيئة، ثمرة الضعف.. ثمرة التنازل، وثمرة الخضوع!

في دنيا العشق كل رغبة متاحة..

رغبة القرب، رغبة الاحتواء.. رغبة الصمود، ورغبة التغيير!

وفي سماء العشق.. كل السحب وردية، والغيمات قطنية.. والنهايات حالمة!

إنما على أرض الواقع.. تتحطم الأمنيات، تنتهي الأحلام.. ولا تحدث المعجزات!

حرَّمت على نفسها لقياه، وحرَمت عيناها رؤياه لتعتاد الاشتياق.. حد التجاهل، التناسي.. فالنسيان، أو ربما احتلال ركن قصيّ من ذكرياتها التي لن تحاول استدعائها مرة أخرى!

توارت بحجاب جدرانها الصامتة، ولم يحاول هو اقتحامها بعد آخر لقاء..

في ظلمة الليل كعادتها تسللت خارج غرفتها، تقضي بمكتبه قرابة ساعة جوار ضوء خافت مع كتاب من مكتبته التي تحتل جدارًا كاملًا ولا تعلم هل يقرأ بالفعل أم لا!

عيناها في تلك اللحظة التقطتا صندوقًا مخمليًا أنيقًا أثار فضولها محتواه فقررت إلقاء نظرة.. وما الجرم!.. لكن الجرم كان عقابه صدمة، هول.. ونبرته التي روعتها من خلفها:

- لو سألتني لأخبرتك!

استدارت بحدة فأسقطته أرضًا دون انتباه، رمقت ما انفرط منه بتوجس كأنما تراقب وحشًا سيمزقها إربًا.. غفلت عن اقترابه، بروده.. وبذلة العمل التي تدلل على عودته في هاته الساعة فقط:

- لا تزالين تتسللين سديم.

يقر بها لا يسأل.. وتعترف دون صوت، أعاد السلاح الذهبي لصندوقه بعناية، أغلقه ووضعه على المكتب ومنحها كامل اهتمامه:

- ما هذا؟!

برعشة اكتنفت نبرتها ففقدت كل وضوح:

- هدية.. احتفالًا بالضحية رقم.. خمسون.

رباه!

ويتحدث ببرود، يعدد موهبة ويذكر رقمًا من قائمة طويلة كأنه يرمي بقائمة تسوق في قمامة عقله.. ارتجفت واستندت للمكتب تحاول استعادة أنفاسها المهدرة، نبضاتها التي تباطئت حتى قاربت التوقف.. تثبيت تلك الرعشة التي تمكنت من كفيها وشفتيها تحت مراقبته الصقرية..

وكادت تفرغ ما بجوفها حنقًا وقرفًا وخوفًا!

أوشكت أن تستدير على عقبيها تولي فرارًا من عرين الوحش..

بل جحيم الشيطان!

حاولت أن تهرب وهنا يكفي شرف المحاولة.. تحركت تغادر دون أن يمنعها، وقبل الخروج بخطوة توقفت.. تطفئ لهيب فكرها بفهم.. فربما تدرك جواب السؤال..

هل من أمل في العودة!

- كيف فعلتها!!.. المرة الأولى!

- تقصدين كيف قتلت أول مرة!

واللعنة على فاقد الشعور والحس.. فقد كان ساخرًا، لامباليًا.. جمود ملامحه أحيا الخوف بقلبها، وتسلل ببرودة إلي جسدها فارتجفت دون إرادة.. ونظرت بحزن والحزن أجاب بنعم:

- ولماذا ترغبين بالمعرفة؟!

هل تسعى لتبرير ذاك الوحل الدموي الذي غرق فيه!.. هل تفتش عن ماضٍ قهره فأجبره على اتخاذ مسار الدم سبيلًا!.. لم تكن تعلم بحق:

- لا أدري!.. أظن أنه دومًا المرة الأولى تكون خطأً.. قهرًا ربما!

قهقه ساخرًا كأنما استخفاف العين لا يكفي:

- سديم الوردية تبحث عن الملاك بداخلي وعن أجنحته المختبئة خلف ظهري!

واقترب حد أن حركت أنفاسه خصلاتها فأغمضت عينيها هربًا:

- لا سديم.. لم تكن خطأً أو قهرًا.

ومست شفتاه أذنها، يبث الرعب بنفسها كأنما يتغذى على الخوف:

- كانت متعمدة والغرض.. انتقام!

شهقت وارتدت للخلف تكتم شهقتها بكفها فوق فمها، رفع حاجبًا والتوى جانب شفتيه بحقد:

- قتلت زوج والدتي.. هل تريدين أن تعرفي كيف؟!

وابتلعت لعابها بعسر، تأملته بقلق واهن وهزت برأسها توافقه وهي لا تفهم ما تفعل!

- فصلتُ رأسه عن جسده.. بفأس!

وتكررت الشهقة وسال الغِّل من نبرته.. دنا منها ومال أمام وجهها:

- بعدها ألقيتُها في أحضانها.. هل تعلمين ماذا فعلت؟!

لمعة عينيها أخبرته عن فزع تجاوزه بقسوة مردفًا كأنما يحيا السعير مع كل حرف:

- صرخت وبكت ولطمت خديها ثم ركضت بجنون..

وتملكت وحشية من صوته وبسمة مخيفة مست طرف فمه:

- حتى سقطت من فوق الجبل فدقت عنقها.. وماتت.

وتوسعت البسمة وهي قلبها شارف على خوض حرب مع آخر نبضاته:

- أي أنني أطرتُ عنقين في يوم واحد!

وانحبست شهقة ثالثة وتحررت العبرات من سجن المقل بسيل لامس أناملها التي تحجب شفتيها فلم تفلت سوى همسة مبحوحة ضائعة:

- يا إلهي!!

- ماذا.. هل تخافينني الآن.. تشعرين بالرعب ربما!!

- أنت تريدني أن أخافك!

عقد حاجبيه فوق نظرة شرسة:

- حقٌ عليكِ أن تفعلي.

تألمت.. تتساءل كيف أحبته دون أن تكتمل بعينيها الصورة!..

ثوب الأمير وحذاء سندريلا ودقات الساعة وحكايا الخيال.. حلم وأمنية ومعجزة.. والحب وحده لا يكفي!

- كيف لم أرَ هذا المحيط الأسود القاتم الذي تغوص فيه روحك بلا مستقر أو منتهى!

وظنها شفقة عليه لكنها كانت على ذاتها التي تعامت عن كل شيء إلاه:

- لا أحتاج شفقتك سديم.

ثم رحل بغضب..

وسكنت الأرض باكية تنشد الخلاص، والآن توقن أن ما له من سبيل!

(٢٥)

الوعد الممنوح كان ضرورة الماضي، لكن كسر الكلمة هو ضرورة الحاضر..

"نيكولو مكافيللي"

***

في الحماية.. يصل الرجل للحد الأقصى ويبذل حتى المحظور، يتخطى حدود الفضيلة، وينبش أوحال قبر خطايا خصمه كاشفًا عنها بمجاهرة لا تحتمل الكتمان.. بل وينشر غسيله القذر على الملأ لو كان ذاك موطئ إرادة منه..

وهي معه تجاور غريزة أوجدتها بوجودها بمداره العشوائي صاحب فوضى النساء.. تمنحه من لا شيء كل سبب ليكسر قواعده الخاصة جدًا لخاطرها، خاطر العناية بها وبطفلها.. والداعي غير المبرر والحجة غير المسببة..

"أهتم لأمرك"

لن يفتش بخبايا نفسه عن ماضٍ ارتسم على وجه صغير شابهه بالأمس غير البعيد، لن يبرهن لعقله المنهك عن قضية قرائنها تطالب بتفنيد لا يملك مسوغاته!.. فهي تشبه أخرى، وهو يشبه آخر.. والمحصلة، لا يبالي بها!

وبين أنثى هاربة من عشق اقتحم جدران حصونها فقوضَّها فوق رأسها، وامرأة يقترب منها خطوة فتتباعد ثلاث؛ مذبذب هو..

حائر بين واحدة يعشقها وذاك داء عضال لا شفاء منه، وثانية تحتاجه.. ويحتاج هو لوجودها الذي يوازن الصورة المشوهة، يعدل ميزانه المختل.. ويبعثر أفكاره ثم يعيد ترتيبها وفقها هي.

تائه بين دروب لا رجعة منها، وطريق لا تشي نهايته سوى بمفترق سيواجه معه الخيار!

الحب.. أم الاحتياج!

والهروب معه وسيلة جيدة، لعالم رحب خالٍ من مرض الفكر ممتلئ بخيارات الفعل، وفعله في هاته اللحظة جاور خطواته المتمهلة الواثقة، نظرته الصلبة القاسية.. ووجهته نحو تلك الغرفة التي تخص صديقًا ما يحمل رتبة رسمية مع عبق ماضٍ لم يعد منه كما كان..

يواجه ماضيها هي باستقامة قامة مشدودة، لفافة تبغ ينفث دخانها بصمت.. ويراقب بنظرة ذئب متحكم أدرك أن الذئب الطائش.. قد سقط في فخ قائد قطيعه!

يمد يده بورقة مبهمة، يدفعها قبالة عيني الجالس بانحناءة انكساروذُل، خاضع لموقف ضعف أصبح هو بطله هذه المرة:

- ضع توقيعك هنا.

والصامت رفع رأسه إليه، بعينيه مائة سؤال.. وبعيني الصارم لا جواب، فقط وازى نظرته القاتمة نحوه نصف ميل، ونفثة خانقة مباشرة بوجهه.. يد تحمل اللفافة بين سبابتها ووسطاها بأناقة، والأخرى تندس في جيب سروال من الجينز

الأسود كأنما يحجبها منعًا لقبضة تشوه ملامح الجالس بوجوم.. ومن بين شفتيه أتت الهمسة حادة، حازمة لا تحتمل عبث التكرار أو المداهنة:

- لن تقربها مرة ثانية.

ونقرة مسيطرة فوق الورقة المفتوحة أمام ناظريه:

- وقع.. والقضية ستنتهي.. تعود لمنزلك وكأن شيئًا لم يكن.

اشتدت يده المختفية بجيبه يمنعها حرية تخريب وسامة ذاك الوغد:

- اعتبره تهديدًا وحيدًا وأخيرًا.. لن يتكرر، المرة القادمة لو تخطيت حدًا رسمته؛ ستكون نهايتك ولن أحمل هم خاطر أحد.. وصدقني عندما أخبرك؛ لن تتحمل ما أعده لك حينها!

واعتدل بوقفته ثانية، يرمقه من علٍ باحتقار:

- لأجل طفلك فقط.. فلا يليق أن يعلم عن فضائح والده.

- هل مكَّنتك من نفسها!!

الكلمة ثقبت أذنيه كرصاصة طاشت عن هدف غير محدد، انعقد الحاجبان وتوحشت النظرة والهمس بات جليديًا غير مأمون العاقبة:

- لا تذكرها.. لا تفكر حتى بها.

- أخبرني عن الثمن الذي وعدتكَ به.

وكانت عينا الزوج السابق مهتاجة كنبرته الخافتة، والذئب لا يمنح الفرص فقط يبادر بهجوم ويقتنص الطريدة بغتة:

- سأخبرك عن ثمن قد أدفعه أنا لأنالها.

ظاهر الكلمة نيل وباطنها حماية وأفكار ذاك الحقير لعنته، ارتعشت مقلتا الغاضب بتوتر مستحق، فعينا حاميها تحولتا لكهف عتمته لا توحي إلا بموت.. بظلمة تشبه القبر وبسكون أشبه ببرودة الجسد إثر خروج الروح.. وانتشى الذئب عقب همسته التالية مع الخنوع والصمت:

- حياتك.

والمبرر يد امتدت بوجل تمسك بالقلم، توقع على ورقة محتواها يحرمه الكثير، لكن في ظل قضية تخص سمعة طبيب..

لا يتطلب الأمر إعادة تفكير!

فاز الذئب، وفريسته نجت من مخالب مطاردها..

***

جنة الشياطين سعير لا تدخله الملائكة، وعرين الوحوش.. لا تخطو إليه الفرائس بإرادة حرة!

هو احتجزها بين جدران جحيمه، والفرار أصبح حلمًا بائسًا لا يتخطى حدود اليأس، ولا يغادر دائرة الضعف والاستسلام..

هل يخلق التكرار اعتيادًا؟!

هل من بين تتابع الصور تنشأ ألفة، ويصير الغريب صديقًا حتى لو كان.. ألمًا!

وهل تكرار الألم، يولد قسوة!

الوحشية تقتات على الإنسانية!

العنف ينقل السوط من يد الجلاد، ليد الضحية، فتنقلب بطرفة عين.. وتحمل هي السيف وتشيع البترفوق أعناق من تريد!

هو الدليل الحي على جواب تلك الأسئلة اللانهائية، دليل يتنفس، يقضي ويحكم وينفذ بيديه..

دليل باتت قساوة خافقه صلدة لا تخدشها قطرات عشق، ولا وابل غيمة تحتفظ ببرائتها، ونقاء سريرتها رغم أرض تبيح لها السقوط في بئر ضحل داكنة مياهه بفُحش الآثام..

"لديّ سؤال!"

انتزعته من غيابه فيها بهمسة يعلو نبرتها خوف.. حيرة، وشيء ما يجهل كنهه، رفع رأسه من فوق أوراقه إليها، يناظر احتشام زيها كأنما تبتعد عن فتنة إغواء لا تدرك أنها لم تكن جسدًا أبدًا!..

مالت عيناه تتفحصانها بوقاحة متعمدة..

والتوى ثغره بشبه بسمة لمست بها قسوة تلازم غيوم مقلتيه مؤخرًا.. دون جواب مد يده بإشارة تدعوها لدخول مكتبه، وخطت تتجاهل مكان سقوطها السابق عقب تصريحه الفخور عن أول ضحاياه..

لم تجلس فنهض يواجهها وتراجعت خطوة لا إرادية، توسعت البسمة وضاقت النظرة في انتظار:

- أهناك أمل؟!

يفهم مقصدها وتسأل ببراءة، وانتشرت قهقهة داخل كيانه حتى اهتز دون صوت لكن الرد كان باردًا:

- لن يتحول الوحش لأمير وسيم بعد قبلة تبطل على إثرها تعويذة ساحرة شريرة.. غيمتي.

ويدلل ببساطة من حكايا تشبه براءة أفكارها، يقطع حبلًا تعتصم به.. حبل أمنية لن تنزل لأرض الواقع تاركة سماء الحلم.. ولم يمهلها وقتًا لهضم كلماته، بل اقترب وابتعدت وتعلقت عيناها بعينيه فسجنها رافضًا تحرير خضوع نظرتها:

- لا تقولي أنني يمكنني استرداد نفسي التي تاهت مني!.. أن آوان التوبة قد حان وبابها مفتوح لمن هم مثلي!

واللهجة تحمل استفهامًا ساخرًا يستهجن فكرها الحالم:

- البعض يولدون شياطين ويموتون شياطين.. ونهايتهم الجحيم سديم.

خرجت من الغرفة بظهرها ولايزال يتقدم وتتراجع وحبيسة هي، حبيسة ضباب رمادي بين جفنيه شوش الأفق، رهينة دقات قلب سقط وتحطم إثر السقوط.. والهمس منه قاتل يشج فؤادها ويدميه:

- العشق في حياتهم لا يصنع المعجزات!

جدار الدرج أوقفها، فبات قضبان سجن جديد، واحتوتها ذراعاه دون لمس وكل ما تراه أصبح عينيه وحسب:

- لا يميلون لتناسي واقعهم خلف غمامة وردية تعميهم عن حقيقتهم التي لن تتغير.

اهتز جفناها ورعشة نالت من جسدها، انحنى طرفي فمها بوهن جذب ناظريه فانعقد حاجباه، وصوتها أتاه بنبرة تحمل بقايا أمل وتتشبث بدنيا الخيال:

- أنت لم تولد شيطانًا.. لا أحد يفعل!

تجابه، تعاند.. تصر على فتح باب نور لو انشق فقط لأعماه:

- ربما.. لكنني ولدت لأكون واحدًا، ولو بعد حين.

ويعود فيغلقه بوجهها مانعًا شعاع برائتها من اقتحام عتمته.. وتظل هي على إصرارها..

هي لا تقاتل لأجل عشق، لا تحارب لخاطر أميرها الوسيم لتعود هي سندريلا خاصته.. بل تبحث عن فطرة رجل هو لها العالم وذاك لها هو النبض الذي لو انتهى لانتهت معه:

- لستَ شيطانًا آمر.. أنتَ إنسان.

وتقدمت هي واهتز هو.. والتراجع من نصيبه تلك المرة أمام حنان، عذوبة.. صفاء، وطهارة قلب يسكنه الشيطان.. لكنه قبل كل شيء؛ قلب ملاك.. كفها لامس موضع خافقه بعد تردد قصير ونظرتها هي باتت سجنه هو:

- له قلب ينبض، إنسان أحببته لأنه استحق ذاك الحب، خلف هذه الصورة السوداء التي تحاول إخافتي بها أو إقناعي بوجودها.. رجل!

واحتلت عيناها أفقه فغاص فيهما خاضعًا للحظة:

- رجل ساندني، احتواني، اهتم بي وكان مصدر أمان لي وقت حاجتي ودون سبب..

ابتلعت ريقها تستعيد معه ذكرى لم تكن سوى بالأمس القريب، لكنه تناساها وهي فقط لا تحتفظ بسواها زادًا في رحلتها معه.. زادًا لا يحتمل النقصان نتاج قسوته.. نتاج خوف ملأها منه وبكامل رغبته:

- هل تذكر يوم موت خالتي!!

لا جواب سوى الصمت، ولا تبحث هي عن واحد بل لا تزال تصارع في معركة لا تدري من الفائز فيها!.. معركة بقدر ما تأمل الخروج منها سالمة؛ قدر ما تبحث لها عن نهاية مخالفة:

- يومها كنتُ أشبه بطفلة ضائعة وجدت فجأة ملاذها في دفء عينيك ونبرة صوتك المطمئنة..

لكن هل تنتصر الغيمة في حربها فتبرد بسيلها مارد الجحيم!.. أوقفه هو جدار ما، وتوقفت تواجهه بصلابة لم تدرك أنها تمتلك مثلها:

- لا تكذب عليَّ آمر وتخبرني أنك شيطان..

ولمعت مقلتاها ببريق كان كطوق جديد يأسره:

- لا.. تلك قشرة يمكنها أن تنكسر لو أردت، فقط توقف عن الاختباء خلفها..

وناشدته جوارحها، توسله ضعفها، استجداه انكسارها بالعودة:

- أنت تتمسك بغلاف القسوة تظنها أسهل لكنها ليست كذلك، هي تمزقك ببطء من الداخل ودون أن تشعر حتى تتغير كينونتك.. فتتحول بفعلها لوحش لا يأبه لشيء أو أحد.

ودون صوت كانت تخبره "عُد"..

بل تأمره، وهو لم يعتد طاعة الأوامر منذ زمن.. منذ تلوثت يداه بالدماء فبات لا يميز ملامحها، منذ اعتادت أنامله ضغط الزناد.. منذ تشوهت روحه بجلدة سوط تحكم به شيطان آخر خلق منه ما هو عليه.. منذ قتل مرة وثانية.. واختار الثالثة بمحض إرادة!

وتراجعت دقة القلب التي سرقتها من بين ضلوعه مهزومة، مدحورة، مقهورة بمواجهة قسوة هي زاده وزواده هو.. انزوت خلف ضحكة عالية جاور فيها السخرية استخفافًا سافرًا وشراسة يراها مبدأ النمر ولا سواه:

- سديم الرمادية لا تقتنع بغير الوردي!

نال منها ذهولًا وتحولت نظرته التي خضعت لعينيها زمنًا سرقته منه كلصة تتمرس فنون العشق وتحترف السيطرة بالهمس.. تحولت لقسوة خالصة نقية لا تشوبها شائبة ضعف.. نقية تشبه نقاءها هي لكنها قاتمة حالكة مهلكة بدُجنة ظلامها:

- شيطان سديم..

ثم مال برأسه يحرقها بلهيب أنفاسه وفحيح نبرته:

- ولا توبة لشيطان.

وغادرها، تركها تسقط من فوق غيمتها وتتحمل عنف السقوط وحدها.. رحل وهي من وراء رحيل خطواته تجتر مرارة الهزيمة وعلقمها يحبس دمع عينيها حد الألم..

ابتعد يشوه صورة الرجل الذي رافق خيالها، ومنحها الأمل!

***

أحيانًا تضعنا الحياة على حافة هاوية الاختيار.. فخطوة خاطئة تعني سقطة، والتراجع لا يُؤمن جانبه فمعه قد نفقد الكثير!

ولأنها امرأة أدركت بالطريقة الصعبة كيف يكون عالم الرجال؛ فقد عادت بخطواتها للوراء، تقهقرت هاربة من قرار ترك النفس للسقوط، القاع يبدو عميقًا لا تقربه النظرة، وجناحا الحلم لا يلائمان الواقع بقساوة صخوره وحدة خياراته!

حضَّرت نفسها لنهاية تخطها بيديها، وعقدت نيتها على ابتعاد قبل تمام الغرق، فرأسها لا يزال فوق سطح موجاته، رغم غوص قلبها لمسافة ليست بالقاتلة لكنها كذلك لا يستهان بها..

ثم ترددت عن الإقدام مع الخطوة الأخيرة!

عندما أنهى توقيع الهام من أوراق العمل وأغلق الملف، نهض يقابل عينيها بنظرة موحية لم تفهم مغزاها.. ومنع مبادرتها بالهروب بورقة فتحها أمام ناظريها لتقرأ بسرعة ما تحويه وتتوقف نبضاتها لثانيتين..

ثانيتين تسارعت بعدهما.. الخفقات باتت مخيفة وأمان ما ينسدل بردائه ليحيمها وبلا دافع تعلمه!

- ما هذا؟

- وسيلة تأمينك.

ولا مفر من لقاء نظرة تخشى مردودها على ذاك المجنون الذي يركض بصدرها:

- لا أفهم!

ابتسم وتعلقت عيناها ببسمته المسيطرة:

- زوجك السابق لن يتعرض لك بعد هذه اللحظة حياة.

لكنها لم تتراجع.. بل ثبتت نظرتها على توضيح تطالب به، وبتفاصيل يعلم أنها لن تعجبها لكنه لا يبالي!.. تنهد.. جذب يدها وجاورها فوق أريكة مكتبه، احتفظ بها بين كفيه وتركتها هي دون وعي:

- خطة بسيطة، امرأة بثمن مناسب، محضر تحرش بقسم الشرطة.. وطبيب النساء يقتات على سمعته، توقيعه على تنازله عن الصغير ومحضر عدم التعرض إليكما مقابل تنازلها عن تهمتها ضده وإحراق الملف الذي انفتح باسمه هناك.

توسعت عيناها فجذبتا عينيه، تأمل دهشتها.. مقلتاها مع ضوء الشمس القادم من نافذته شكلتا لوحة لا تحمل تفاسيرًا ظاهرة.. لكن خلف الدهشة رأى امتنانًا، وربما طمح لما هو أكثر:

- لم أقم أنا بها.. لكنني من ضمنت خروجه بخدمة من ضابط صديق، وإن كنت أتمنى لو تركته..

وربت على يدها برقة غريبة على عبثه:

- ذاك فقط لأجل إياد.. لن أضر بسمعة والده.

- لماذا تفعل ذلك؟!

صاحب جوابه الهامس المكرر اقترابًا حتى تشابكت النظرات:

- أهتم لأمرك.. حياة.

- لماذا؟!

وتعيدها بتيه، واللفظ على لسانه يرفض الخروج!..

"أريدك"

يعانده حتى لو كان شعورًا يتملك منه لكنه فقط لا يريد خدش أمانها الذي أغرق عينيها بنطقه:

- لا تبحثي عن أسباب..

ورفع كفه يحيط بوجنتها فتعانق جفناها استسلامًا للمسة تخطت حدًا رسمته من قبل ومعه هو بات تخطيه مسموحًا:

- فقط كوني بخير.

ومع رفرفة أهدابها بارتباك ابتسم.. وتاهت، منحها صك الحماية فوهبته هالة "الحارس الحامي الأمين"..

وتلك هالة لن يمكنه تحطيمها مهما حاول..

هالة لن يستطيع كسرها..

هالة تخصه معها هي.. وحسب!

***

"غزو الجنة".. وفانغليس أي "الملاك الطيب" بلغته!

لكن ظلامه لا تقربه ملائكة، ظلامه لا يحتمله سوى الشياطين..

النغمات الثرية تتصاعد مع مشاعره، فترفعها لأعلى عليين، وتعود فتهبط بها لتتناغم مع جحيمه الخاص، تحمله لفراغ لا تُدرك له نهاية، وتريه ألوانًا لا تطوف بفكره سوى معها..

انفعالات ليست أبدًا ثابتة، ممتلئة حد التخمة بالمتناقضات، شجن.. بهجة.. عزلة تقارب الكآبة وفلسفة لا يقرأها أحد مثله من عناصر تلك الملحمة الصوتية الفخمة!

أمام عينه استقر الهدف، ينفث دخان تبغه في عتمة غرفة مكتبه بمنزله الأنيق، عتمة اقتحمها بمنظار الرؤية الليلية المثبت لبندقية القنص التي يكرهها.. فالنمر لا ينتشى سوى بالقرب، بسماع آهة نزع الروح الأخيرة.. وبمراقبة سكرة موت ضحاياه..

ظلمة بددها ضوء المكان عندما أنار فجأة فأوجع عينه وأبعدها بحدة عن منظاره، بثوان بدله بآخر مقرب عادي ليجد أن من اقتحم الصورة قبل الضغطة الحاسمة كان مجرد..

طفل!

طفل لا يتخطى الست سنوات، قفز مبتهجًا بأحضان أبيه؛ هدفه المنشود!

قست شفتاه جوار نظرته التي رفضت تردد إصبعه فوق زناد سلاحه، ترددًا ارتسم بشكل انفراجة طفيفة، ابتعاد عن صلابة المعدن بمقدار ضئيل، وعودة وتشبث بحقيقة لا يريد غيرها..

حقيقة المحترف ذي الخبرة الذي يدرك ما يفعله وكيف ومتى يفعله!

عانقت سبابته الزناد مرة أخرى، ومن خلف منظاره راقب ضحكة الهدف، دغدغة ناوشت بها يداه جسد الصغير، لا صوت يصله لكن سعادة الملامح كافية..

توحشت عيناه، انعقد الحاجبين وتغضن الجبين وارتباك ما أصاب.. القلب!

هل يقتله وبين ذراعيه ابنه؟!

ينشر دمائه فوق وجهه؟!

يغرقه في بحرها الأحمر ويمنحه صورة لن يمحوها زمن؟!

أم يقتلهما سويًا وينهي الأمر بنظافة؟!

لقد فعلها من قبل والتردد لم يمر بذهنه، بل رفع السلاح.. سدد وأطلق وانتهت المهمة بثلاث جثث ونشواه برائحة الدم، بمذاقه ولو عن بعد؛ فما الذي يحدث الآن!!

انتبه من شروده على نهوض الرجل، يحمل صغيره ويتحرك مغادرًا مكتبه، أطفأ من خلفه الأنوار وانطفأت معها شعلة..

القناص!

لملم عدته وأعادها للحقيبة بسرعة تمازج بها غضب هائل.. انتزع سماعتي أذنيه بحدة وأطفأ مقطوعته، تحرك عائدًا لعرينه، اختار مكتب الشركة بعيدًا عنها، بعيدًا عن تلك التي أهدته بحياته.. أول خسارة..

واجه القمر نصف المتكمل بسخط، سيطرته على نفسه حد الجمود خرافية، لكن بداخله استعار لو لامسها سيحرقها، لو اقترب منها.. سيجهز عليها؛ فربما حينها يرتاح.. ويعود!

"أنا لا أصدق!"

صوتها الذي تردد بصدى في عتمة المكان لم يدهشه، كان يعلم أنها ستلحق به، مستغربة، مشدوهة.. مستهجنة، وربما شامتة!.. التفت حوله كأفعى تبث سمومها بهسيس خافت أشبه بلعبة إغواء لا تمس سوى النمر:

- لم تتم مهمتك أيها الباردوس؟!

وبرقت عيناها بعزم على إنهاء أحجية لغز منمنمته بقطعة أخيرة توضح بها المشهد وتضع معها كلمة الختام:

- لقد استعمرت قلبك آمر.. لا، بل استعمرتك بالكامل ولن تنال منها حرية مهما فعلت.

وتسكب الزيت فوق النار فتزكيها ويتأجج اللهب بلا رادع:

- أنت تحبها.

بتقرير.. بتأكيد.. بيقين، والنمر لا يخضع لطريدته، واهمة هي لو ظنت به استسلامًا لفخ عشق كان هو من نصبه!..

- أنت حتى لم تنلها بعد.

صامت هو كقبر، مظلم مثله، وقتامة نظرته باتت مرعبة لكنها اعتادت قسوته، حتى خوفها من فوهة سلاحه التي واجهت جبينها قبل أيام لم يعد مجديًا..

فالضارية.. روضته الفريسة!

- سأفعل.

لامته نظرتها على خداع تفهمه كأنثى عاشقة فأحرقها بحقيقة عشقها المشوه:

- وسأكون رجلها الأول.

- لكنها ليست امرأتك الأولى.

لهجتها تقطر غلًا خالصًا أعماها عن واقعًا أقرت به في لحظة وتجاهلته في التالية.. صدمته ألجمتها لثوان قبل أن تبرأ منها:

- ستكون الأخيرة.

ولفحها لظى أنفاسه حد الاحتراق.. واجهته سخرية عينيها وجسدها بل وضحكتها وهي تغارده تاركة غضبه يفترسه أكثر:

- وكأنني لا أعرفك يا عزيزي!

أشعلت الجمر، أججت السعير.. ومنه سرقت قبسًا أنارت به دربًا لا يمكنه الخوض فيه!

***

لم يخطئ هدفًا في مرة.. لم يفكر ثانية في ضغط الزناد.. تنوعت أسلحته وكلها أجاد استخدامها حد الإتقان.. ارتقى في احترافه حد الخبرة، وبات النمر..

وأتت غيمة رمادية تحيا بعالم وردي وهمي قلَّمت مخالبه، وأفقدته مهمة!

يقنع نفسه بالهدوء طول طريق عودته للمنزل، يتمنى ألا يجدها بانتظاره.. وبذات الوقت شيطانه يحفزه على إيجادها بنفسه.. التخلص من تأثيرها، ولو أنهى حياتها..

القتل، نشوة القوة، مذاق الهيمنة والتحكم!.. متعته التي لن يتخلى عنها في يوم حتى لو دفع حياته ثمنًا!..

ربما كانت المرة الأولى بدافع انتقام، انتقام حدد طريقه وهدفه الأوحد..

حدد ما وجد نفسه فيه وما لن يغيره أبدًا، لكن ما تلاها من مرات.. هو الأهم!!

هو لذة النصر..

السيطرة..

سُلطة حامل منجل الموت على أعناق من يريد وقتما يريد، وبضغطة زناد أو حتى انغراس خنجر في قلب!

وجد المكان مظلمًا كأنما آوت لفراشها هاربة من رؤياه كما اعتاد كل ليلة بعد آخر مواجهة، بل بعد كل مواجهة.. تهرب لبعض الوقت.. ولا تلبث أن تعود، استدار بفتور يغلق باب غرفته ووجدها هناك على الضوء الخافت تتأمله!

رفع رأسه وبادلها تأملها الصامت.. تجمد بموضعه حتى أمست أنفاسه غير ملحوظة لعينيها اللتين أحاطتا به في صلاة صامتة ترجو بها غفرانًا.. لتوبة لم يفكر بها.. لعودة تنشدها ويدرك هو أنه أضاع خريطة طريقها..

وتقدمت نحوه بسكون، وقفت أمامه ونظراتها تتوسله شيئًا يعلم أنه لا يملكه.. بدا عليها الرغبة في قول كلمة ما ماتت على أطراف شفتيها وهو كذلك لم تكن به طاقة لحديث.. غضبه يزداد كلما نظر لملامحها لكنها لم تلحظ تلك النيران المضطرمة خلف أهدابه شبه المنغلقة.. أفسح لها مشيرًا بيده لتدخل إلى مكمنه، وترددت مقلتاها وخطواتها.. توترت تفر بنظراتها ولا تدرك أنها مستقر نظرته!

"ماذا.. تخافينني!!"

بنبرة ساخرة جرحت مسامعها فرفعت إليه عينيها الغائمتين بضعف أضحى نقطة ضعفه:

- هل يرضيك أن يكون جوابي.. نعم؟

وأنَّى له أن يحوز الرد على سؤال ألزمها به قبل أيام!.. والآن تغيرت الفكرة والعقل غادره منطقه:

- ادخلي.

أمرها وهذه المرة استجابت، تعثرت بخطوة تدفعها للوراء رغمًا عنها، وقلبها يجابهها بعناد ملقيًا بنفسه في غيابات جحيم لا مهرب لها منه..

أغلق الباب فرمقته بنظرة متوجسة كأنها ترغب في العودة منه ندمًا على شجاعة لحظية لن تقِها غضبه!

تحرك نحوها فأجبرت قدميها على الثبوت، قابلها بجموده ولم يكلف لسانه عناء السؤال عما تريد.. فهو جليٌّ كشمس منتصف النهار على وجهها.. توسلته بهمسة مشتتة:

- أريد الرجل الذي أحببت.. ذاك هو من أبغي الحديث معه.

- ها هو أمامك.

- لا.. هذا من تزوجت.

بادرته بلهجة معاندة وتجهمت ملامحه بالكلية قبل أن يتمتم أمام ناظريها بزمجرة خافتة:

- هما واحد.. لكنكِ تريدين تناسي ذلك.

وخطا نحوها بغتة فأجفلت بانتفاضة مبتعدة عن طريقه.. نبرته غشيتها صرامة، وصوته كسته قسوة أثارت بنفسها الذعر:

- لا أرغب بالمزيد من الحديث عن التوبة والعودة لطريق النور.. لقد أصبحت مشبعًا بالظلام حتى بات أبسط ضوء يؤلم عيني كما يؤلم روحي.

لكنها عادت تقترب بأمل لم يمت بعد:

- أنا لن أفقد الأمل.. عد إليّ لنحيا معًا كما وعدتني.

- توقفي عن مطالبتي بذلك.

وكانت زعقة زاجرة أفزعتها.. تماسكت وزعقت بالمثل وإن كان صوتها واهنًا يمتلئ بخزي الانكسار وتصديق الخداع والوهم:

- أنت كذبت عليّ.

أحيانًا تكون السخرية مضحكة مبكية فقط لأنها تثبت واقعًا تعاميت عنه عمدًا أو هروبًا، مخيفة لأن ذاك الواقع لا يمكنك أن تغمض عيناك فلا تراه وتفيق بعدها لتجده محض كابوس أثقل أنفاسك حال نومك، وموجعة لأن ابتسامته وهو يذكرها بما تحاول تناسيه عبثًا كانت شرسة:

- مرحبًا بك.. أنتِ في حضرة قاتل.

- لا تقل ذلك.

نهرته بها شبه باكية والدمعات غافلتها وانسابت فوق وجنتيها.. لكن قسوته لم تكترث لها وهو يؤكد من بين أسنانه:

- سكوتي عنها لن ينفيها ملاكي.

- لو كنتُ ملاكك؛ لتغيرتَ لأجلي.

بوهن آخر يوهن عزيمته فيبدو له أنها تبثه بداخله.. وغضِب.. بل تأجج غضبه مرة ثانية وكأن ما حدث لا يكفي فقررت هي أن تزيده اشتعالًا:

- لن أتغير سديم.

بتأكيد لا يقبل شكًا أو مساومة، وأمسك بمرفقها يرمق عينيها بعينيه وتعلو نظرته صرامة آمرة لا تبيح جدالًا:

- تقبليني كما أنا.

- أو ماذا؟!

- ليس هناك أو.. ليس هناك خيار آخر.. أنا وفقط.

ودفعها عنه، ابتعد يوليها ظهره وأنامله تكاد تمزق خصلاته بينما يمررها فوق منابت شعره بعنف:

- آمر.. من فضلك.. أنا..

تبًا لصوتها، لاحتياجه لها، لبرائتها.. لجنون تنشره بنفسه كما النار ولا تطفئه.. استدار إليها بغتة فقاطع حديثها الذي ملَّ تكراره:

- لا تفعلي.. ليس من حقك أن تفعلي.

وعاد يتقدم منها، وبجذوة عينيه المشتعلة تحركت شياطين الإنس والجن مجتمعة، وانقبض قلبها فتراجعت بلا وعي لكنه استمر بهجومه:

- أنتِ في حياتي نقطة سوداء.

واقترب أكثر حتى لفحها لهيب هواء صدره:

- لم يكن من حقك..

لم تفهم، بل لم تحاول.. هي أسيرته والخاتمة معروفة، اكتفت بنظرات طعنته في قلب ادعى عدم امتلاكه فصاح بغضب يأكل كيانه وينهش روحه:

- ليس من حقك أبدًا..

ابتعدت مذعورة والعبرات لمعت بين الجفون مجددًا، تأمل خوفها.. ضعفها بضعف أكبر:

- تلك النبضات التي تطرق جدران صدري حتى تكاد تهدمها متحدية إيايَّ بالمقاومة..

ومال برأسه إليها يحيط نظراتها، أفكارها، ضجيج أنفاسها المتسارعة بل وكامل كيانها بنظرة:

- هذا الذي ولد لكِ ومعكِ وبكِ..

وعاد ينأى عنها بآهة مكتومة بجلد وقبضته تطعن موطن نابضه بلكمات متتابعة:

- ليس من حقك أن تظهري.. تتدخلي.. تتملكي..

ثم دنا منها بغتة ورفعها نحوه بقسوة، فابتعدت أطراف أصابعها عن الأرض كدمية بين يديه:

- سأداوي نفسي منك.. ودمائك هي الثمن.

ولم تدرك عن أي دماء يتحدث!.. هل سيقتلها؟.. ستكون ضحية من ضحاياه!.. رقمًا جديدًا يضاف لسجل انتصاراته التي يزهو بها!!

لكن أفكارها بترتها شفتاه وهما تسيطران على شفتيها.. ذراعاه اللتان طوقتاها بتسلط يرفض رفضها.. تجمدت لحظة.. اثنتان.. ثلاث.. وهو يحبسها في طوق حصاره دون فكاك، لا يبحث عن أنفاس ولا يمنحها حرية نيلها..

أبعدته، هربت بوجهها وتوسلته ألا يفعلها، ناشدته بوعد سابق..

"لن يجبرها".. وصدقت..

لكن..

هل للشيطان وعود!

كم وعدًا أخلفه!.. كم كلمة كانت لها صك أمان وكسرها وحطمها هي معها!

ومع محاولاتها الهرب منه كانت أنفاسه تلامس عنقها، همساته تقتحم أذنها.. ولم تصدق ما سمعته يهذي به..

بل يستجديه!

"داويني سديم"

"لا تبتعدي عني"

"لا تقاوميني"

"أنتِ تسكنين كل خليةٍ من جسدي كمرض لعين"

وشهقة جاورت دمعة مع ختام همسه قبل أن يفكك قيده بعض الشيء كأنما يمنحها الفرصة الأخيرة للفرار من فخ النمر:

- داويني منك.

نبرته، ضعفه، تذلله الصادم.. تضرعه وتوسلاته أمْلَت عليها القرار..

والقلب آزره..

شجبه العقل فانخرس وراء غيمة عاطفته وهو يحررها من أسر ضمته ويرمق عينيها بمناشدة لم تفُتها..

لمح صمتها، وفي لحظة أدرك أنها.. باتت له فعاد إليها!

خضعت تحيطه بذراعيها، تمنحه ما يسعى إليه؛ فربما بالمنح تنال حريتها..

ربما بالمنح يكون الخلاص كما أخبرتها الأفعى..

ربما بالمنح؛ تهبه الترياق..

وسلمت لسطوة اجتياحه.. أو ربما كان احتياجًا!

(٢٦)

يستطيع الرجل أن يجمع بين حب ثلاث نساء:

فهناك امرأة يحبها.. وامرأة يعبث بها.. وامرأة يشكو إليها!

ولكن المرأة لا تؤمن إلا برجل واحد:

تحبه.. وتعبث معه.. وتشكو إليه!

"بلزاك"

***

النمر صياد ماهر.. انعزالي في الغالب، صامت غامض.. ولفرائسه لا توهب نجاة من بين مخالبه..

النمر ضارية قوي مسيطر لا يقبل بالتراجع ولا يفكر بالهزيمة وهذه قاعدة عامة لا استثناء يشذ عنها، قاعدة خاضعة لقوانين الطبيعة التي تجيز له.. صيد فريسته، التلاعب بها.. أو حتى التهامها وقتما شاء.. وكيفما شاء!

ومع ضارية سقط بفخ العشق تنشأ من العدم قواعد أخرى..

وقاعدته السادسة هي:

"تلذذ بصيدك كما تبيح لك رغبتك، فملكيته باتت تامة ليمينك"

هل يمكن أن يعود الشيطان للجنة!.. دون توبة!

هل بابها مفتوح لمن هم مثله!..

وما ينقصه حينها لن يكون سوى بضع خطوات غير محسوبة فوق صراط الحساب، بعد دية لن تسدد!.. إثر فداء يعلم أنه لن يُقبل منه ولو كان مثل ملء الأرض ذهبًا!

وهل جنته تتمثل بعودة!

إياب عن طريق الدم؟

أم أن ما يحياه بهاته اللحظة هو النعيم!.. هو مذاق صيد شهي طال انتظار نيله!

هو الكمال الذي ما دونه بخس بطول سنوات عمره!

هو فقط كمال طال، وانتهى..

أفاق من شغف غيبوبته المسكرة على أنَّة خافتة منها، وحالما رفع رأسه مبتعدًا عنها بعض الشيء كانت تغمض عينيها ودمعة واحدة تتسلل من بين أهداب اليسرى.. تلك التي تعلو القلب.. قلبها الذي تملكه، وأباح لنفسه صك الاستحواذ عليها بالكلية والرُخصة.. عشق!

أفاق بأنفاس تعاند صدره فشهق بلهاث حاد شبه خانق، أفاق بنبضات هادرة لم يسلك خافقه دربها يومًا، أفاق وشيطانه يبتسم ونشوة النصر تغزو عروقه..

أفاق.. لكن هي من غابت!

شمسها غربت، روحها تاهت، فؤادها حائر وجسدها العصيّ حمل آثار عدوانه هو.. عدوان عاشق خلع عنه ثوب الوحش وتذلل لمعشوقته أن تمنحه نفسها.. أن تهدي جروح ذاته بلسمها بامتلاك!

الشيطان سيطر على ملاكه.. فكان أول من مر بجحيمه، أتراه ينجو من لظى لهيبه!.. أم يحترق!

ابتعد أكثر، لم يحِد بناظريه عنها وحادت هي بكل تناءٍ ممكن، ملامحها غادرها ذاك الحب الذي كان يراه قبل دقائق، غادرها الحنو ورحلت عنها الرقة ورغبة القرب.. رغبة المنح.. رغبة الغياب بين ذراعيه، وكل ما كان يخُط نفسه فوقها.. هو القهر!

وجاور القهرَ ألمٌ تمثل في زمة شفاه وتغضُن جبين!

"هل آذيتك؟"

ما إن استعاد صدره هدوءه بادر بالسؤال، يدرك أنه لم يكن واعيًا لما أقدم عليه، بل فقد كل أسلحته أمامها، فقد صلابته وسيطرته الأسطورية.. فقد تماسكه، وعند الضواري..

تلك كارثة لا تحمد عقباها!

يعلم أنه كان شغوفًا، متلهفًا، كمريض أخبروه بينما هو على شفا الموت.. أن هناك دواءً اكتشفوه للتو سيعيده للحياة، سيمنح قلبه النبض، وجسده الشفاء!

تفرق جفناها عن نظرة تحمل لومًا لم يفهمه، هل تلومه!

هو لم يجبرها!

هو فقط أخذها بحق العشق..

أوليس ذاك إكراه على الخضوع!..

سطوة المغرم بين الضلوع تحني جباه الجبابرة؛ فماذا عن غيمة نقية صغيرة بريئة وهبت قلبها لأول طارق.. ولسوء حظها؛ كان صيادًا!

وعاد الجفنان يتعانقان، تلف رأسها بعيدًا فجسدها لايزال أسير قيده، وعلى حافة شفتيها سقطت الكلمات في هاوية اليأس المرير، سقطت مع نابضها البائس ولا نجاة من سقوط لن يتخلف عنه سوى حطام..

هل يسأل عن أذىً؟!

أيها يقصد؟

ذاك الذي نهش كيانها فأتى عليه تاركه شيئًا من فتات!

أم الآخر الذي اعتصر القلب ففقد كل طاقة نبض!

أو ربما الأذى الذي نال نفسها التي عشقت.. منحت.. ضحت؛ وكان الجسد هو النزف الأخير!

ارتعشت شفتاها دون جواب، لكنه وصله كاملًا رغم الصمت والهروب.. ولم يكن ليجود عليها بحرية تفتش عنها في كهفه المظلم، بل في سعير الشيطان..

هو لم يجبرها، نعم لم يفعل!.. هي سلمت، هي لبَّت، هي رضخت.. هي مكنَّته من نفسها فلمَ البكاء على الحليب المسكوب!..

أو بالأحرى لمَ الندم على إهداء برائتها إليه!

- لمَ استسلمتِ؟

وتحكم بذقنها ليعيد وجهها نحوه، والسؤال أجبرها على فتح عينيها بنظرة ضائعة تبحث بعينيه عن لمحة تصرخ بأمنية كانت هي الغاية التي بررت جسدها كوسيلة.. ولم تجد إلا سُحبه الداكنة، سحب رمادية غائمة بمشاعر لم يدرك عقلها أغلبها.. لكن قتامة النظرة ووحشيتها لم تقِل مثقال ذرة!

- أردتَ أن أداويك مني!

نبرتها كانت خاشعة في ملكوت الضعف والوهن وانكسار الروح:

- الآن.. حررني منك.

وهنا شابها شيء من عنفوان دافعه الوحيد.. ضياع الأمل، بدا كأنه لم يسمع أمرها، أو توسلها.. فبكلتا الحالتين هي خاصته وما تلا تلك الملكية غير هام..

وهل بعد تمام الامتلاك.. تخلي!

أم بعد الأسر.. تحرير!

انتفض من جوارها، يهزأ من وردية أفكارها التي لا تتبدل، وصوته الذي كان يبثها به حارًا كل ما قد ترغب امرأة في سماعه من رجلها بينما هي بأحضانه أعلنها قاسية، حادة نافذة لا جدال فيها:

- في أحلامك سديم.. أنتِ امرأتي، امرأتي بالكامل.

وأسفل الماء البارد كانت أفكاره في صراعٍ دامٍ!

تبًا لها.. بعدما أدخلته جنتها تعاود ركله خارجها بكل فظاظة وقسوة!

هي نعيمه وجحيمه..

هي سماؤه وأرضه..

هي ماؤه وناره..

بل هي تلك الحمم التي تشربتها أوردته لحظة بلحظة، لمسة بلمسة، وقبلة بقبلة.. حتى بات جسده بركانًا أطاحت بخُمُوده نيران قربها فغدت تجري منه مجرى الدم!

أغلق الماء وعادت أفكاره لشراستها السابقة.. لف خصره بمنشفة وتأمل ملامحه بالمرآة لثوان.. عيناه اللتان غابتا لفترة طالت؛ تطلان عليه بنظرة جديدة، نظرة لامعة.. نظرة لا توحي إلا بدلالة واحدة..

عودة النمر!

خرج من الحمام ليجد فراشه خاليًا منها..

زفر وفمه مسَّته بسمة وحشية على إثرها ارتدى ملابسه، هبط لمكتبه يتصفح ملف آخر ضحية أنقذها القدر باللحظة قبل الحاسمة، يتفحص مداخل المنزل ومخارجه والمكان من حوله بعدها حمل حقيبة سلاحه وغادر القصر بأكمله عائدًا.. لطريدته!

مرت تسعون دقيقة مع نهايتها كان يقود سيارته في طريق الإياب بعدما أتم مهمة "الباردوس" على أكمل وجه.. كان يقود عائدًا للذته الخاصة جدًا..

شفتاه تعزفان سيمفونيته المفضلة بصفير هادئ منغوم، وبريق مقلتيه.. مرسوم بالدماء!

ترك حقيبته في مستقرها الآمن، خلع قفازه الجلدي وألقى نظرة ثانية على وجهه بمرآة ردهة الغرف، ابتسم بنصر وعروقه تنتشي بزهو لا يذوقه إلا ظافر!

توقف عند باب غرفتها، رفع رأسه وتنهد بحرارة وذهنه يستعيد ذكراها بين يديه، كان التكرار هو الهدف، فمتعة النصر لن تكتمل سوى معها.. مد يده وفتحه وانتفض جسدها بفراشها..

أسئلة لا حد لها عذبت عقلها، أولها، أين ذهب!.. وآخرها، لمَ أتاها الآن!

والجواب تلقته من شفتيه وهما تدوران فوق ملامحها بتبتُل صامت مشتهٍ، تمسحان عبراتها المنهمرة دون أن تتوقف عندها كأنما يفهمها ويدرك سببها.. ولا يبالي بها، ذراعاه تضمانها إليه بتسلط يرفض أي تباعد قد يدور بخلدها.. ودفئه يعود إليها ليغمرها حد الغرق..

فقط بداخله كان يتردد امتنان مغموس بالفوز ويفوح بنكهة القوة:

"لقد أيقظتِ النمر من غفوة مؤقتة.. شكرًا لمنحي حبكِ ونفسكِ غيمتي"

وكانت له..

تعلقت به باحتياج يخبرها عنه قلبها، فهناك بركن خفي معتم..

علمت أنها لن تقول لا!

***

هي تفاصيله المبهمة غير المذكورة في السياق.. وهو فوضى هوامشها المهملة غير مأمونة العواقب!

هو لها داء الشفاء منه يستدعي علاجا باترًا.. وهي ترياق مر لاذع قاسي المذاق لن يتداوى به أبدًا!

هو لها صياد.. وهي طريدته.. لكنها ليست بالضعيفة أو الخانعة لقدر الصيد!

هو لها الجحيم.. وهي جنته التي لم تخطر على قلب بشر!

لا.. بل هي له النعيم، وهو لها سعير مقيم!

سعيرها الذي تهرب منه.. فتجد قدماها تسوقانها إليه، لا.. هو قدرها ولا تعلم كيف!.. فقط كل الطرق بينهما تتقاطع ولو كانت هي نكصت فارةً على عقبيها وتجمد هو بمكانه لا يبحث عنها ولا يتحرك نحوها خطوة وحيدة.

وهذه المرة كان حكم القدر ماضٍ بمرض أمه.. مرض قاصم تبدو معه النهاية وشيكة، ورغم ما فات، رغم الحزن وكسرة القلب وتحطم الهالة المقدسة التي أحاطتها بها يومًا، رغم وجع أتاها في غفلة منها أو هي طعنة غادرة نالت منها العمق.. فقد بكت!

لأكثر من أسبوع غابت عن الوعي، وجاورتها "كارما" بدموعها، بتشبث لا واعي بمن كانت لها أمًا مهما تلبستها خطايا الأمس، بتعلُق آمل أن تعود.. ألا تغادر

عالمها في تلك المرحلة؛ فهناك احتياج ما لم يمتلئ فراغه بعد.. احتياجها لأمها التي لم تعرف غيرها!

وفي اليوم السابع مسحت سيل عينيها الفائض بكثرة، ارتدت ثوب الشجاعة، وانتوت أن تكون أمنيتها الأخيرة الصامتة برؤية فتاها هي ما تسعى إليه ولو جزَّ عنقها قربه.

بخطوات تعارض المنطق، بفكرة تأبى القبول من العقل، وبدفع حثيث من خافق سقط في هوى لا نجاة من أنيابه التي انغرست فيه دون هوادة..

بوجه باهت بات شحوبه كورقة بيضاء فقدت معالم ما بين سطورها رآها.. طلبت مقابلته وسمح، وطافت عيناه حولها كما اعتاد، هذه المرة تبدو أكثر اختلافًا، أكثر ضعفًا، أكثر نحولًا..

دهشة ما مرت بذهنه وهو يفكر بدافع عودتها بعد آخر لقاء!..

لقد طلبها صراحة لتكون ملكه، وهي رفضت وهربت.. فما السبب يا ترى!

- والدتك مريضة للغاية.

وكان ذاك خارج حدود توقعه!

حقًا!.. الذهبية لا تتعلم درسها أبدًا، وكأنه يكترث، وكأنه يبالي.. وكأن بجسده أو قلبه ذرة اهتمام!.. نهض من مقعده ليواجهها وهي على فرارها من عينيه:

- ربما لن تتاح لك الفرصة لتراها مرة أخرى.

- ومن يهتم!

سمعت سؤاله القاسي الذي بتر استرسالها بمحاولة إقناع حضَّرت لها كل المبررات، أُجبرت على النظر إليه، باستنكار متوجع، بقنوط يائس.. وعجز شلَّ كيانها فتجمد لسانها فاقدًا للنطق لحظات:

- أنت حقًا لا تهتم!

- لا.

- أمك غيث رغم كل شيء.

- ربما ألحق بها في الجحيم، وحينها نتفاهم فيما مضى.

- رباه!!

خرجت منها بشهقة شبه مذعورة تحتج على قساوة تغلف روحه بالكامل، وهو لم يتراجع.. بل دنا بصلابة مسيطرة لا تقبل مفاوضة:

- هي غرست القسوة بتربة قلبي، بأعماق روحي، روتها بالألم والغضب.. كيف تطالبين بنبتة لا توافق البذور!

واقترب متخطيًا حد المسموح، غلفت الشراسة نبرته أكثر حتى باتت الوحشية فيها شيئًا ثانويًا جوار ما يظهر منها بل ويكاد يقطر من أحرف كلماته:

- كيف تنتظرين ثمرة شهية وأنتِ زرعتِها فاسدة!

لم تتراجع.. لقد أتت إلى عرينه ولن تفعل بعدما وصلت إليه..

بل اللعنة عليها إن تراجعت فهذه هي الفرصة الأخيرة حتى لو تلبسه شيطانه وأحرقها معه في جحيمه!.. ثبتت عينيها بعينيه، لم تهتز ولو ناء قلبها بحمله من الألم، وفهم هو تلك النظرة القوية المتحدية فابتسم الذئب تحضيرًا للحظة القنص وألقى بعرضه، الفريسة على بُعد ثوان من انطباق الفخ حول عنقها وبكامل إرادتها:

- تريدين مني الاستماع لوالدتي؟!

- نعم.

بعنفوان عنيد ولمعة الذهب في مقلتيها تبرق حد التيه والشغف.. حد زعزعة السيطرة.. حد اختلال التوازن.. حد التوحش والجنون:

- والثمن!

كان مباشرًا حادًا فالذئب لا تضاهي ثباته ضارية أخرى..

لا تروضه طريدته، ولا تجذبه بل تنجذب عنوة إليه، احتارت فيما قال.. وثباتها هي اهتز، قوتها المهلهلة خارت تسحبها معها نحو الغرق!.. ترى ما المضمون الذي يتضمنه سؤاله؟.. هي لن تثق به أبدًا، وعقدة حاجبيها رسمت بسمة ساخرة أشبه بتلذذ فوق ثغره الملتوي بمكر، فلحظة السقوط أوشكت:

- ماذا تعني؟.. تريد ثمنًا لزيارتها؟!

سحابة تبغه الذي أشعله مع ارتباكها تفجرت بوجهها فسعلت رغمًا عنها وهي تسبُّه.. نبرته اكتسبت نعومة توازي الإغواء، وخشونة تشي بما يصول ويجول

بكيانه.. هو يريدها ولتثُر كل براكين الأرض.. هو يريدها ولتستعر بنيرانه فلن يتركها سوى رمادًا تذروه الرياح:

- أريد ثمنًا لتنفيذ طلبك.

صمتت واجمة، تواجه ذلك السواد المخيف بين جفنيه، تترقب استطرادة تخشى أن تكون هي القاصمة!.. مع صمتها أيقن أنه على وشك الوصول، فمال يواجهها بنظرة ثاقبة وصوته خرج بطيئًا متأنيًا بأحرف شيطانية خبيثة:

- ما رأيك!.. لنقل..

وارتفع جانب فمه بمكر خادع لا يشبه عبثه السابق:

- ليلة معي!

وقصمها الثمن كما خمنت.. لقد أردى روحها مورد تهلكة عشقه، والتتمة.. موت!

***

منذ حكايا الليلة وألف.. وكل رجل يظن بنفسه "شهريار"!

لم يتساءل ولو مرة.. هل أدمن الملك الحكايات؛ أم أعجبته تلك التي تقصها عليه!.. وحينها أعتق عنقها من سيف مسرور، واحتجزها لتروي له كل ليلة أقصوصة، ختامها مع صياح يبشر بشروق..

والسخرية أنه رجل.. وهي أنثى، والبداية بينهما تسبق الليلة الأولى بكثير!

البداية كانت في الجنة، والحياة كانت على الأرض، كل آدم يظن أن حواءه تحمل إثم الغواية، ويتناسى أن الوسوسة وقتها حملت صيغة تشملهما معًا.. "لهما"..

وعندما تتبدل فطرة آدمها فينقلب للشيطان نفسه؛ تظل هي تنوء بذات الوزر، تعاقب على نفس الخطيئة.. وتنتهي عندما ينتهي منها هو!

لكن هل في دنيا الضواري شيء مشابه!

في الغالب لا..

ففلسفة حياتهم أولية لا تقبل خوض المتاهات البشرية، ميلاد.. نضوج.. فريسة.. صيد.. قنص.. التهام.

والآن هو أجهز عليها بقضمة واحدة لاكها بتلذذ بطيء، وما هو آت يوقن أنه سيكون أكثر لذة!

راقب سكون ملامحها بين ذراعيه، ضوء الشمس يتسلل على استحياء من خلف ستار النافذة، ابتسم بمتعة وحرك إحدى موجاتها السوداء بعيدًا عن وجهها.. هي أنثاه هو، أول من نامت فوق صدره، أول من سكنت ليلها بأحضانه، وآخر من يريد، وهو رجلها الأول.. وينوي أن يكون الأخير.

تململت بتوتر.. تشنُج جسدها انعقد له حاجبيه، كانت تدفعه بشدة، تزيحه من جوارها، تدمدم بأحرف متقطعة غير واضحة المعنى.. تتباعد عنه وبدنها قربه يختض برعب لم يفهم سببه!

"سديم.. استيقظي!"

تمتم بها وناوشه قلق!.. حركها قليلًا وربَّت على وجنتها بخشونة لم يتعمدها، ناداها وأعاد الكرة، لكنها أفاقت بصدمة جاورت صرخة وأعين متسعة تمكن منها الخوف بلا حساب:

- ابتعد.

ضمها ماحيًا إرادة الابتعاد من عقلها، همس لها وعقدة جبينه تتعاظم كما أفكاره الحائرة في هاته اللحظة:

- سديم هذا أنا.

- أعلم أنه أنت.. ابتعد عني.

بصراخ آخر.. بدفعة شابها وهن، وبنظرات تركته كله وتركزت فوق يديه:

- الدماء.

- أية دماء؟!

وراقب كفيه المفتوحتين بتوتر:

- الدماء تقطر من يديك.. ابتعد.

بلحظة استوعب ما حدث.. كابوس أول يناسب الوردية التي استسلمت له!

ثبت كتفيها وتعمق بعينيها:

- لا دماء هنالك سديم.. أفيقي.

- اتركني.

تملصت منه برعشة انتابتها بالكامل.. جسدها، روحها، قلبها.. وحتى بقايا العقل التي كانت تحثها منذ الخطوة الأولى على الهرب!

"دعني لحالي البائس"

"الدماء تغرق كفيك"

"لا تلمسني"

نشجت بكلماتها باكية، وزعق هو بها تاركًا الفراش بعنف:

- أنتِ حقًا لا تعلمين متى يحين التوقف!

وعاد إليها مستندًا بإحدى ركبتيه فوقه، يمسك بذقنها ويضغط وجنتيها بين أصابعه بغلظة:

- تلك المحطة مررنا بها، تخطيناها.. والآن أنتِ ملكي ولا بديل.

وسطا على شفتيها كأنما يوصمها بختم عاره:

- أنتِ ملكي.. وأنا كابوسك الأبدي.. غيمتي.

هل تخطئ الملائكة!

نعم، عندما ينحنون للشياطين..

وهي لم تنحنِ، بل سوغت للقلب العاشق قربًا لا يقبله منطق، ولا يرضاه عقل!

قربًا حرمته الإنسانية.. جرمته الأخلاق.. ونهى عنه الشرع..

تركها واستقام بصلابة تدرك الآن أنها لن تهتز مقدار شعرة لأجلها.. تركها فتعلقت عيناها به والدموع غافلتها برفقة تعلم بسرمديتها بعد ما كان..

نظرت إليه، بعينيها خيبة.. وبعينيه؛ جمود لا يلين!

***

الحب حبة قمح بين شقي رحى.. يتقابلان بتواز أزلي.. فقط ليحولاها لغبار!

فهي تهديه النور.. وهو يمنحها النار..

هي تروي عطشه بنبع لا ينضب، وهو يجفف قلبها برياح حارة لا تترك من ورائها دليل..

شقي رحى؛ أحدهما ثابت لا يتزحزح، والآخر يدور في فلكه سعيًا وراء تغيير، ومابينهما لا يناله سوى.. السحق!

كانت حمقاء عندما تمسكت بأهداب الأمل، كانت غبية حينما صدقت أنه فقط.. ضل!.. كانت بلهاء وقتما تمنت أن تكون له ترياقًا!

لا.. هي فقط.. كانت عاشقة، ومازالت رغمًا عن أنفها وقلبها الممنوح له قسرًا..

عاشقة مصدومة جامدة وبريق الدمع يلتمع بمقلتيها اللتين لا تفارقان قيد عينيه، وصوته الخشن يتسلل لأذنيها بنبرة احتوت مقتًا غير مبرر:

- تبدين مندهشة!.. وكأنكِ لا تعلمين ما أريده منذ البداية!

ارتجفت شفتاها بانكسار فحط بنظراته فوقهما:

- مجيئك إلى هنا لا يعني سوى شيءٍ واحدٍ.. أنكِ تقبلين كارما.

انضم جفناها أعلى نظرة مذبوحة أخيرة، نظرة قانطة خائبة تدرك أنها وصلت لنهاية الخط!..

نظرة فاضت بالوجع كروحها تمامًا، لكنه تجاهله واستجاب لصمتها بصمت مماثل..

التفتت بوجوم وتحركت بخطوات خائرة مستسلمة تجاه الباب، راقب هو ظهرها بجمود.. قلبه الخائن يدفعه لاحتواء لا يمتلك مقوماته، وخنَّاسه يوسوس له بضرورة الصبر، فوقت الوقوع قد أزف!

يدها امتدت نحو المقبض، تيبست فوقه تقاوم نحيبًا يشج صدرها، اعتصرت عينيها ومع توقفها انتظر.. فربما آن أوان القبول!

- ما الذي تحاول إثباته غيث!

اللعنة عليها وعلى صوتها الدامع بعجز، ألف لعنة.. فكل ما ود فعله بتلك اللحظة هو ضمها وتطييب جرحًا نافذًا يصر على طعنه بنفس الخنجر الثالم دائمًا.. وأبدًا..

- أنا فقط أحاول الحصول عليكِ كارما.

لهجته الباردة جمدت أوصالها..

ألا يكتفي!

ألا يمل!

ألا.. يصدق!

عادت تمنحه الفرصة الأخيرة للقاء عينيها بالتفاتة وازت في شحوبها شحوب ملامحها:

- لثاني مرة أخطئ في الحكم عليك، وأصدق عشقًا كاذبًا ادعيته.

عقد حاجبيه ورده كان حاضرًا.. والدافع؛ قلب:

- أنا لم أكذب.

إخلاص نبرته ووضوح صراحتها فاقا الاحتمال، كيف يجتمع به النقيضان!

كيف يحنو ويقسو.. يصفع ويربت.. يدفع ويضم!

جنون.. هذا كله، ما حولها، بداخلها.. ما بها جنون:

- ماذا تسمي ما طلبته إذًا!!

خرجت منها ببادرة صراخ، متألمة.. تلبسها أنين سافر طغى على أحرفها:

- أنت تريد إيذائي للمرة الألف، دومًا تبحث عن وسيلة.. هل هذا من شروط الحب عندك؟

وكان الوجع هو نديم صوتها الذي لن يفارقه:

- هل وجودك بين ذراعيّ أذىً!

- تلك العلاقة المحرمة التي تطلبها في مقابل رؤيتك لأمك.. بل في كل لقاء بيننا؛ ماذا تظنها؟

- ليست علاقة محرمة.. لا تسميها هكذا.

وتغضن وجهه بنفور لا تفهمه، نفور لم تجد أمامه سوى السخرية:

- ماذا أطلق عليها إذًا؟!

زعقت بها بتعجب، بتيه، بفقدان إدراك، وفكرت.. هو يسعى أن تفقد ذاتها وعقلها فحسب، رمقته بصلابة استدعتها من بين رماد احتراق قلبها:

- أنت موازينك مختلة للغاية غيث، لا أدري كيف تتعايش معها أو حتى كيف يمكن إصلاحها!

وشدت قامتها بمواجهة نظراته الوحشية:

- استمر فيما تفعله.. ربما حينها تجبرني على كرهك فأرتاح.

واتخذت طريق الرحيل لآخر مرة، لكنه استوقفها يهزأ مستخفًا بأوهامها العبثية حد سراب لن يقرب الواقع ما حَيَت:

- أتظنين أن في كراهيتي راحة كارما؟!

سكنت بمكانها.. فاقترب يهمس خلف عنقها بعدما دهس عقب تبغه أسفل قدمه دون أن يأبه لأي شيء:

- الكراهية مرادف آخر للحب، الراحة هي.. اللامبالاة، وتلك.. لن تناليها أبدًا.

صعقتها كلماته، صدقتها.. هو لا يكذب هذه المرة، وراحتها دربها يعانق المستحيل!

خرجت والدمع يطفر من عينيها ثانية، اصطدمت بإحداهن على بعد عدة خطوات فاعتذرت بهمهمة باهتة دون أن ترفع ناظريها.. لكن عيناه هو تقابلتا مع نظرات تلك التي اصطدمت بها..

وكل ما فعله.. أن ابتسم!

***

"لنتزوج ريما"

تتباين عروض الزواج من رجل لآخر!

بعضهم رومانسي النزعة فيُقرنه بدعوة عشاء، شموع وموسيقى هادئة حالمة.. مشروب أنيق وانحناءة واحتواء بنظرة فطلب..

البعض الآخر يربطه بشقاوته، فبقلب الحدث يصرخ بها، كأنما يعلنها فضيحة ويجاهر بها معصية لن يتوب عنها، والويل لعروس هزت رأسها بلا..

والبقية عمليون، يقدمون العرض ببساطة، ينتظرون الجواب.. والأسباب كثيرة لم تتوقع هي أن يكون ذاك أهمها.. وربما أولها وآخرها:

- أحبك.

اهتزت حدقتاها بتوتر.. كفيه تحتويان كفها، عيناه تأسران سماء عينيها، ودفء نبرته يحاوطها فلا يترك لها منفذ هروب آمن..

ورغم كل شيء فأنوثتها رقصت على أنقاض هزائمها المتكررة..

هذا رجل نال اللقب باستحقاق، مستقيم رزين وسامته جاذبة للنظر.. هذا رجل تتمناه أي امرأة وربما كل امرأة..

عداها!

لكنها لم تطلب اللقاء لمزيد من القرب، فالتهديد.. الوعيد الذي أقحمه سيدها بأذنيها لا توازيه احتمالات مغايرة.. حياتها، حياة "رافد" في كفة؛ مقابل كفة فراق وجدت الآن أنه ليس سهلًا البتة كما مر بخيالها..

زال أثر المفاجأة فسحبت يدها من احتواء يديه، ابتعدت بناظريها فرارًا أوحى له بالجواب:

- لا توافقين!

- أنا أحب شخصًا آخر.

ألقتها بوجهه صادمة نهائية دونما لف حول نقطة مركزها حائر:

- ماذا؟!

وانعقد جبينه، نظراته باتت صارمة غاضبة مستهجنة.. والنبرة انقلبت للنقيض بثوان:

- ولقاءاتنا!.. حديثنا والسهر ربما؟!.. ما كان كل ذاك؟

أمسكت هي بقبضته المضمومة بقوة، تربت فوقها تبحث عن تفهمه:

- صداقة رافد.. كنت أريدك صديقًا.

- صداقة!!

وانقلبت يده أسفل ربتاتها لتتحكم بقبضتها بغلظة وليدة.. بل جديدة عليه:

- ما كان بين أعيننا من حديث تدركينه؛ صداقة!

واعتصرها أكثر وبداخله يود طعن قلبها ببرود أشبه بصقيعها الذي تغوص فيه كأنه عالمها الخاص:

- عندما ضممتك بين ذراعيّ.. كانت صداقة!

وجذبها ومال بمقعده ليقترب.. وتسارعت أنفاسها فهو بدا مرعبًا مخالفًا لكل توقع:

- عندما قبَّلتك.. واستسلمت لأحضاني؛ تسمين ذلك صداقة!

ارتجفت خجلًا من فعل مشين حاولت دفعه عن ذاكرتها منذ حدث، منذ تركت نفسها لطوق ضمته الحانية وتركت شفتاه تمتلكان شفتيها، منذ افتقدت الشعور بأنوثتها، بكونها مرغوبة، بأن أحدهم يريدها حد فقدان السيطرة!

نعم يومها هو فقد سيطرته أمام شرودها وضعفها، تلك الليلة التي وعدها فيها برحلة خاصة لأجلها وانتهت بها خاضعة مستسلمة لقبلته..

وعندما أفاقت وجدت أنها باتت بوضع.. خائنة!

تعشق واحدًا.. وتترك آخرًا يتملك منها!

حينها تراجعت، ابتعدت ترفض النظر إليه.. وتمتمت بكلمات غير مسموعة أشبه باعتذار لم تتمه وهي تترك سيارته متجهة نحو منزلها بخطوات متعثرة مذعورة..

أصابها ذعر من استكانتها لتعويض مؤقت تدرك أنه أبدًا غير كاف.. أدمنته وبعدها لم تستطع الإقلاع عنه رغم حدود كان هو من رسمها مراعيًا لها!

نهض بحركة حادة مباغتة فجذبها من قاع بئر شرودها، جاوبته بألم:

- كان خطأً رافد.. لحظة ضعف.

سخرية مريرة ملأت حلقه بغصة ألجمته للحظات.. رمقها من علو بثبات، قلبه ينتفض مذبوحًا فهي بترت عنق أي فرصة بينهما بعشقها لغيره، ولو كان قبل أن يراها.. ولو كان بينهما قربًا لم ينسَ مذاقه للحين، ولو أحبها ورفضت هي ذاك الحب.. تمتمته وصلتها هادئة:

- من هو!

- لمَ تريد أن تعرف؟!

أتتها ضحكته قصيرة ساخرة:

- أتعلمين!.. أنا لا أريد.. لن نتقابل مجددًا ريما..

وانحنى يواجه عينيها بنظرة قاسية تراها للمرة الأولى:

- احتفظي بصداقتك المدعاة لنفسك.. أنتِ لستِ غبية، كنتِ تدركين مشاعري نحوك وتركتِها تنمو.. لم توقفيها، فقط ذبحتِها في الوقت المناسب تمامًا.. عزيزتي.

وجاور القسوة بمقلتيه شيء من شجن:

- قبلتي لك كانت حبًا.. لم تكن خطأً أو ضعفًا كما قررتِ أنت.

ثم اعتدل راحلًا ومقلتاها الغائمتان بدموع غير مفهومة معلقتان به..

هي خاسرة في حرب عشق من طرف واحد.. فالآخر لا يبالي بالقتال!

هي مهزومة بمعركة امتلاك.. كان الفائز فيها؛ غيمة!

هي اندحرت وتراجعت جيوشها فالمواجهة محسومة.. محسومة لصالح الخصم الذي فاز باقتدار.

(٢٧)

عيبنا.. أننا عند العجز نحلم!

"نجيب محفوظ/ الطريق"

***

قواعد الضواري تخضع لطبيعة كل ضارية..

فمنهم العجول الذي ينقض على عنق الطريدة فيقسمها مشتهيًا متلذذًا، ومنهم من يجيد الصبر.. يتقن فن الانتظار، وحين الوصول يكون الفوز مكتملًا تامًا مستطابًا والاقتيات ماتعًا حلوًا..

القاعدة السابعة:

"أحيانًا تُؤجَل لحظة القنص، فقط ليكون المذاق أشهى!"

لكن هل تم تأجيلها بالفعل أم التغاضي التام عنها، عن الفخ.. عن نهاية ينصبها صيادٌ، لتصبح الفريسة طُعمًا.. لرجل!

هو لا يدرك أنها تنزع عنه مخالبه ودون جهد يذكر منها.. لا يتشبث معها بواجهة العبث الذي بات يرافق كريات دمائه عبر شرايينه وأوردته، لا يمنحها ما تناله

الأخريات ولا ترى هي منه ما رأينه هن.. هي فقط متفردة، وهو معها شخص آخر كان ذاك لقاؤه الأول به.

ابتسامته التي ارتسمت على شفتيه بلا سبب ولدت شبيهة لها فوق شفتيها، ورغم حيرة عينيها وتيه نظراتها وهي تتابع الراحلة الباكية فقد تعلقت مقلتاها الشاردتان بوجهه وتبعها جسدها منجذبًا لمكتبه كأنما دُجنة ما بين جفنيه هي أقرب لثقب أسود يوشك أن يبتلعها..

أغلق الباب من خلفها ولم تقاوم فضولها لكن كان هو من بادر:

- كيف حالك اليوم!

رفعت رأسها تتأمله.. لحظات قصيرة منحها حريتها بها دون أن يوزايها بخجل، هزت رأسها بتمتمة خافتة تطمئنه على حالها وباشرت الهدف دون تأجيل.. أشارت من فوق كتفها بحركة مبهمة:

- من كانت الباكية!

انطفأت لمعة عينيه بغتة ومرت بها سحابة شرسة روَّعتها.. كذبت عقلها تخبره عنها وهمًا لأنه بهاته اللحظة بدا هادئًا للغاية ونبرته باهتة:

- ابنة زوج والدتي.

وشرد لثوان خرج فيها مكنون صدره متحررًا من لجام الكتمان والتجاهُل:

- والدتي التي قدمت كل شيء.. قربانًا لعشق!

لم تفهم مقصده!.. حيرتها سيطر عليها الفضول لذا أصرت على الفهم، فحتى لهجته التي لونها الحزن عادت لصلابتها مع تتمة أحرفه الغامضة غير المرتبطة بالسؤال:

- كانت باكية!.. ماذا بها؟

انتبه لحديثها، تأخر في رد كان لا يملكه، وفي النهاية أتاها جامدًا بصوت بارد:

- والدتها تموت.

رجفة طفيفة مرت بجسدها.. رجفة اعتصرت خافقها لأجله:

- والدتها!.. تقصد والدتك؟

صوتها خافت بتساؤل لم يكن به من التدخُل قدر التعاطف، وعادت تلك اللمعة القاسية تزور مقلتيه لكنها طالت هذه المرة وهو يجيبها بنبرة فاقدة للحس:

- لا.. والدتي أنا ماتت بالفعل.. ومنذ زمن.

خطوة واحدة تراجعتها مجفلة؛ لم تعلم أتواسيه!.. أم تخشى ما رأت بغَسَق عينيه!

- آسفة.

- لا تفعلي.. كان هذا منذ وقت طويل.

واقترب خطوتها الفائتة يقطع عليها طريق الهرب، ويجذب فكرها نحو ما يريد:

- كيف حال إياد؟

جارته في فراره من قصةَ ماضٍ موجعٍ كما خمنت.. ابتسمت بارتباك لذيذ صار متعة لناظريه:

- الحمد لله بخير.. ويرسل إليك بتحياته.

- حقًا!

وانحنى مقتربًا وعاد لنبرته تلاعبها ومكرها جوار البسمة المشاغبة:

- ألم يرسل إليّ شيئًا آخر!

بدت حائرة فأردف بهمس دافئ لم يتخلَ عن المكر:

- على سبيل المثال.. قبلة!

شهقت بتراجع خطوة أخرى.. خطاها نحوها مجددًا وهو يكمل بعبث:

- أخبرني أنه سيرسل إليّ واحدة.. لكن يبدو أن ساعي البريد يرفض تسليمها!

- سيد غيث!

وتفر بناظريها نحو الأرض والسقف، اليمين واليسار وحتى أزرار قميصه الداكن، فقط تتلافى لقاء عينيه رغم تلك اللمحة الملتوية لجانب ثغره:

- غيث فقط.. كم مرة عليّ أن أنبهك لذلك!

وأزاح خصلة من شعرها بعيدًا عن وجنتها:

- حتى إياد الصغيرينا ديني غيث.

ابتعدت..

ابتعدت لأقصى ما أمكنها لكن حجزها الجدار المجاور لباب مكتبه، ارتباكها لذة، توترها متعة.. وهي كلها شهية حد أنه يود لو التهمها بقضمة واحدة ولا يدري كيف!

واقترب..

اقترب لأقصى ما أتاحت له حدودها التي يحرص على ألا يتخطاها رغم نفسه التي تراوده، يده التي تجبره، وعيناه اللتان تحيطان بها أسيرة قيد محكم مسلط عليها بسهم نظرة حالكة لا مفر منها..

- اتفقتُ معه على شيء ما.

- أنت تحادثه!

رفع حاجبًا متخابثًا فهو يعلم أنه يضعها حيث يريد وبلا فرصة واحدة للتنائي عنه، وازت كفه المفتوحة كتفه بإشارة قسم وخضوع:

- أقرُ بذنبي.

ويمم رأسه يهمس قرب أذنها.. النبرة موحية والكلمات برداء براءة:

- أنا أحب الفتى.. وهو يستحق الحب.

ثم مد أنامله لذات الخصلة العنيدة:

- كما أنه أيضًا تعلق بي.. لا تنكري ذلك.

- لكن..

بدت قلقة، وألجم قلقها بحزم قاطع ينفي عنها محض فكرة تراجُع أو تباعُد:

- لا لكن.. اتفقتُ معه أن نتناول الغذاء معًا اليوم وسنكمل لعبة الشطرنج التي لم ننهِها في المرة السابقة.

وأخيرًا حظت بشيء من جرأة لترفع عينيها إليه، تغوص بسواد بؤبؤيه الأدهميّ..

لا..

بل تغرق!

ومن موجِ ذاك البحر المظلم.. لا نجاة!

***

طقوس الصيد: أولها انتقاء.. تاليها صبر.. وآخرها قنص برتبة فوز!

ولأنه صياد ماهر فقد انتصر، وهي كانت الخاسرة.. رغم أن المعادلة من طرفه لا تنتهي كما تراها هي، امتلاكها لم يعد محل نقاش، ووجودها بمداره لا نهاية له مهما عاندت أو كابرت.. أو حتى تباعدت ورفضت قربه، رفضت منحه نفسها مرة أخرى بعد تلك الليلة التي استفاقت بصباح يليها على كابوس غارق بالدماء..

انتهى الشتاء أو أزِف..

برودته لم ترحل بعد من قلبها، من روحها الخانعة لقدر يغُلها لشيطان لا مهرب من جحيمه!

صقيعه جمد ما تبقى في كيانها من حياة فبات هشًا واهنًا ينتظر العاصفة التالية ليتحول معها لهباء مبعثر، شتات منثور ويطير مبتعدًا متفرقًا مع النسمات التي شرَّدت به في البقاع..

نظرت لنفسها بالمرآة..

خارج الصورة فوضى وداخلها مشوش.. وما بينهما إطار يحتوي تشوشها فلا تكتسحه فوضاها.. فتتيه أكثر، ولا ينال من تلك الفوضى تشوش فتبهت بها التفاصيل.. أو على العكس؛ تتضح!

هي سقطت..

وماذا بعد السقوط!

منحت..

وما مقابل المنح!

عشقت..

وهل للعشق دواء!

حبها سم زعاف والترياق محرم على شفتيها كحرمة حياة في كنف حاصد أرواح لا مبالي..

كحرمة أنفاس يختنق بها صدرها في ظل سقف قصره الفاخر كسجن أبدي لها..

كحرمة طعامه وشرابه فلا تمنح جسدها منه إلا ما يقيم أودها علّ الحرب لم تنتهِ بعد وحينها يمكنها الفوز.. أو حتى الفرار من أرضها بعد هزيمتها المدوية!

شهر مر.. شهر منعته لمسها، حرمته احتوائها، جاورت فيه آلام خافقها أوجاع ذاتها.. شهر اختبأت فيه بضعف خلف جدار الصمت، واتخذت من الهروب سبيلًا.. برضاه هو!

وعلى الشاهد منقوش.. هنا ترقد بسلام المغبون قلبها بين أنياب العشق والحرمان..

شهر أول أيامه امتلأت بغضبه حد الفيض، وبعدها انحسر وشابه ضيق.. تلا الضيق حزن، والآن تجاهُل رغم نظرة العين المغيمة بمناجاة تنشد القرب..

شهر نهاره طويل وليله أطول وليت حياتها تنتهي فترتاح!

لكن.. أفي الموت راحة!

أغمضت عينيها والفكرة تلتمع بذهنها قاسية مثيرة للذعر..

هل الموت هو الثمن!

هل عليه أن يتذوق مرارة الفقد.. علقم الخسارة، ليعود!

وهل خسارتها ستكون مرة بحلقه؟.. أم صدقت الأفعى وكل ما أراده كان جسدها وقد ناله!

ناله ولم يحررها!.. أليس ذاك دليل حب!

هو هتف بها يومها.. حانقة، ساخطة احتوت كمدًا وقهرًا..

"هي أحييت قلبه!"

نعم ذاك حب.. أم تراه لم يكتفِ منها بعد!.. لم يشبع الضارية من طريدته فقرر نهشها حتى آخر رمق!

تسللت عبرة من خلف أجفانها المتعانقة، وعند باب غرفتها توقفت، تصدم رأسها به بشبه خشونة، الحيرة تمزقها، الخوف يقتلها، والعشق..

آه من العشق..

يفترسها بالكلية!

وقلقها يواري قلقًا آخر.. قلقًا تحسبه باليوم والساعة واللحظة.. فطوال شهر مضى صاحبها الفزع، بل الهلع والفكرة تكاد تخنقها..

تلمست بطنها المسطح بذهن عقيم.. تعد الأيام تطمح لأمنية ترغبها وتخافها بذات الوقت!

رباط لا نهائي خالد بخلود الفكرة والشعور، وربما قيد غير محسوب العواقب.. أمنية ببذرة حملتها أحشائها من عاشق تود فراقه مرغمة، ومناوشة للروح بأن تبقى معه.. مرغمة!

لكن أهي تستحق!.. لا؛ بل هل هو يستحق!

ليس المعشوق، بل الأمنية..

هل قدره أن يأتي للدنيا محملًا بذنوب من عمر أبيه!.. بجزع أمه!.. هل تمتلك هي من القسوة لتحلم!.. وهل القدر سيكون رحيمًا بها وبنطفة تظنها سكنت رحمها بالفعل!.. أم سيكمن عقابها فيه هو!

هي حتى تخشى مجرد مرور الأمر ببالها.. فكيف تظن أنه سيصبح واقعًا قريب المنال حد التعايش!

فتحت بابها وفاجأها وجوده.. كان يقف خلفه، يناظرها بصمت، بعينيه الكثير وبعينيها فتور خامد ساكن خامل كنظراتها التي لا تحيد عن ناظريه بلا شعور:

- كنتِ تصدمين رأسكِ بالباب!

هل يبدو لمقلتيها العاشقتين قلقًا!.. أم هو وهم تخيلته لتداوي به جرح فؤادها الخانع!

- نعم.

حتى ردها كان باردًا، لا يحمل نبرة خاصة، فقط خافت مهمل ومقتضب:

- لماذا!

ربما عليها أن تسبه!

كيف يظهر بتماسك صلب قبالتها كأنما لم يحدث شيء!.. كأنما لم تفقد نفسها فيه وله!.. كأنما لم يمتلك آخر ذرات حريتها ويأسر جوارحها قاطبةً!

- لأنني أشعر بالضعف.. بالذل.. بالقهر والانكسار.. هل هذا جواب كاف سيد آمر!

لم تتغير ملامحه مثقال ذرة.. تبًا له!

- أكثر من كافٍ سديم.

خطوته نحوها نفضتها بلا إرادة ولم يكترث مجددًا:

- فقط لا تظني أن صراحتك ستزعجني.. أو تصيبني بالشفقة عليكِ.

واستند بيمينه لإطار الباب وبيسراه ربت على وجنتها ضاغطًا بغلظة:

- تعايشي مع إرادتي التي تتحكم بحياتنا معًا أو ارفضيها.. لا فارق حلوتي.

أدارت وجهها تتباعد عن لمسته وابتسم بوحشية وازت لمعة عينيه الشرسة قبل أن يصدر من حلقه صوتًا ساخرًا.. ويرحل!

وتتابع هي بعجز خطوات رحيله..

تساند وحدتها الدموع، وفكرة لا تعني سوى الجنون تطرق باب عقلها بعنف!

***

الخطيئة أنثى؛ رحمها جداره من خديعة ومولوده.. قسوة!

وهما توأما رحم واحد وإن اختلف توقيت الميلاد، تشابهت البدايات وتشابكت النهايات وإن تمايزت بعض التفاصيل في المنتصف..

ربما لهذا هما مقربان..

كلمة صداقة لا تمنح ما بينهما حقه أو توفيه كاملًا..

وشراكة لفظ مضمحل لا يعني شيئًا خارج نطاق العمل..

حتى الأخوة؛ رغم قوتها كصلة بين البشر.. لا تقارب علاقتهما في شيء..

علاقة صلدة قوية متينة لا تهزها رياح الاختلاف ولا تسقط أسفلها دعامات الاكتمال.. نعم ذاك هو الصحيح، هي علاقة مكتملة الأركان، يتمم كل منهما صاحبه فيما ينقصه وقت النقصان.. يعوضه حين الاحتياج.. ويكفيه!

كليهما اعتادا فهم الآخر من نظرة.. موالاته بكلمة.. ومجاورة فكره بنبرة، والآن العينان والنبرة والكلمات خاضعة لسلطان غضب غير مفسر، غضب مكبوت مكظوم بعنفوان ليس حاسمًا لأنه يتفلت من سيطرة قبضته بعض لحظات..

أغلق الملف أمامه، أشعل تبغه وحافظ على صمته المراقب والشريك صامت مذعن لتفحصه ببرود لا يروي الفضول ولا يشبع الاهتمام:

- أطفئ تبغك غيث.. تعلم أنني أكره رائحته والآن بتُ أبغضها أكثر.

والصديق كان ساخرًا، يستفزه ربما.. أو حتى يبحث عن جواب لغموض يمقته:

- وأنت تعلم أنني لن أدللك بالاستجابة لرغبتك آمر.

لكن رد الفعل كان خارج حدود منطقة توقعاته التي توقفت عند غم الزوجة المصرية الأصيلة كما هو معتاد، ضرب بيده سطح مكتبه ونبرته عَلَت شبه زاعقة بصيغة صارمة ترفض الجدل أو المحاباة:

- أطفئه غيث.

انعقد حاجباه!

راقب "آمر" ينهض تاركًا مقعده، يوليه ظهره ويراقب رحيل الشتاء من وراء زجاج نافذته بجسد مشدود كأنما هو وتر على وشك الانقطاع.. أطفأ تبغه بالفعل وتبعه، وقف خلفه وأكسب لهجته وجهة مزاح:

- رباه.. أنت غاضب بالفعل!.. ماذا يا شريك؟.. هل انتهى وقت العسل وحانت مرحلة الهم والغم!

لم يحصل على جواب.. الصمت هو الرد الوحيد وهو غير كاف بحق، ربت على كتفه وقلقه يتضاعف:

- آمر!!

و"آمر" خرجت من أعماق صدره تنهيدة وتعانق جفناه في شبه اعتصار قبل أن يستدير إليه مغلقًا بوجهه كل الطرق:

- أنا بخير.

تمعن فيه صديقه قبل أن يُعلق دون مواراة:

- لا تبدو لي كذلك.. لا تخبرني أنك حتى الآن لم...

- بل فعلت.

سؤال لم يكتمل أو ربما لا يعوزه اكتمال، وجواب قاطع حاد شبه زاجر لم يمنع صاحبه من الاستمرار:

- حسنًا هنيئًا لك.. ماذا بك إذًا!

وغمزه بعبث فربما يحسن من مزاجه الأسود:

- لا تقل لي أنها لم ترقَ لتوقعاتك.

- غيث.

ونهره بكلمة وحيدة معنفة.. والآخر قهقه بمرح:

- ها قد عدت.

هزة رأس "آمر" اليائسة زادت من ضحكاته التي لم تطُل وهو يفكر بصديقه..

عشِق.. فضعُف.. فخضَع وتزوج!

والآن نالها.. فماذا بعد؟!

تجاهل كل أفكاره وهو يواسي شريكه بظن منه لما يجول بداخله:

- الحب مؤلم يا صديقي.. لذا تخيل عندما يجاوره زواج!

وكانت ابتسامة الصديق ساخرة باردة، يعلم أن "غيث" عاشق.. ويعلم عن نظرته للعاشقين ودنياهم وأحوالهم التي بات حاله يشبهها:

- حقًا!.. تعني أن لن تتزوج من كارما أبدًا!

مع آخر حروفه أدرك الجواب، أدرك قسوته ووجعه ودائه الذي لا دواء له.. والثاني شرد!

شرد في ذهبية العينين، حمله عقله إليها ودقات خافقه تعالت تصم أذنيه تناجيها وتعلم أنها لن تنال منها ردًا.. شرد ومع شروده خرجت نبرته تائهة رغم يقين القرار:

- لو وقعتُ في غرام امرأة؛ لن أتزوجها آمر.. ولو حدث وقررتُ الزواج؛ لن تكون امرأة أحببتها.

ضاقت عينا المواجه له تطالبان بتفسير:

- على أي أساس ستختارها إذًا؟

فاءَ من شروده محملًا بمرارة الاختيار وإن كان لا يملك غيره؛ وذاك يخرجه من حيز الحرية لحيز القهر:

- الاحتياج يا صديقي..

وربت على كتفه مرة ثانية:

- سأختار امرأة تصلح اهتراء ذاتي بذاتها!

كان يفطن لما به، يدرك وجيعة نفسه وطعنة ماضيه.. يفهمه ويتفهمه حد الدعم والمساندة في القرار أيًا كان..

ماضيه الذي حمل خذلانًا نتيجة عشق اقترن بزواج..

ماضيه الذي لن يتعايش معه أبدًا.. وبالتأكيد لن يكرره!

***

الحب على نهج الرجل معركة.. وفي شريعة الأنثى حرب..

بعد كل واحدة هو يخوض معارك جديدة، أما هي فتنتهي بنهاية حربها؛ إما رافعة لراية الاستسلام مدحورة، أو مهزومة تلعن الحب والمحبين.. وإن انتصرت وتملكت من تحب؛ استمرت الحرب بلا هوادة أو منتهى..

الحب في فطرة الرجل أخذْ حد التشبع دون اكتفاء.. وبقلب المرأة منح حتى النضوب دون بخل!

الحب قد يكون عند البعض مُستهل.. وآخرون هو لهم مصير!

قد يكون ضعفًا.. وقد يصبح اكتمالًا!

هو مصدر خوف.. قلقلة لأمان واهن بالفعل ولن يحتمل ضربة أخرى تصيب القلب.. خلخلة لتوازن بالكاد وصل لحدود التماسك دون سقوط.. خواء لنفس اعتادت الوحدة فبات البعد عنها مثيرًا للرعب والقلق!

لأكثر من شهر كان قربها، حولها.. تتنفس هواءها محملًا بعطره جوار تبغه، نبرته تخرج برنين خاص لأجلها، حتى صغيرها يهاتفه كل يوم، تعلق به.. كما فعلت هي!

ولامرأة مرت من ثقب إبرة الاحتياج بقسوة.. هذا غير مقبول..

قانونها الجديد يحتم عليها الهروب، وخافقها المبتهج منتشٍ بحماقة!

هي تحتاجه وهو يجتاحها، هي تخشاه وهو يمنحها بكل نظرة وكلمة وعدًا بالأمان، هي تتباعد والقدر والدرب والصغير وهو.. يشدونها إليه وحسب..

يجذبونها والمقاومة ثقيلة على النفس والفؤاد والروح!

توقف بسيارته أسفل منزلها، التفت برأسه لطفلها النائم في مقعدها الخلفي وابتسم بحنان لم يزُر شفتيه سوى له.. ولها!

اثنتان وكل منهما تخرج منه أسوأ ما فيه.. وأفضل ما فيه..

إحداهما تؤجج سعير شيطانه فترتفع ألسنة لهبه ترغب بإحراقها، والثانية تقوض عزيمة الذئب الكامن بداخله فيتحول معها لحامٍ مهتمٍ.. لرجل لم يظن أنه قد يكُنه يومًا!.. ولأجل امرأة!

الحبيبة اختفت بعد آخر لقاء..

يشتاقها!.. نعم، يفتقد رؤياها، جدالها، إثارة جنونها وحمرة وجنتيها ولمعة التحدي بذهب عينيها!.. نعم.. بل ألف نعم..

وتأتي "حياة".. بحياة!

حياة نبضت بروحه معها.. لها.. لصغيرها النائم بطمأنينة معه الآن.. ابتسم برقة وهمس لها بخفوت:

- سأحمله لأجلك.

رعدة مرت بجسدها في ظلمة المكان الضيق، قربه يخيفها.. يرعبها من ضعف يتمكن منها بجواره والآن ولأن كل ما كانت تتمناه هو أن تدس نفسها بأحضانه رفضت:

- لا.

نطقتها سريعة كأنما تدفع عن كيانها ما يهلكه، وزوى هو ما بين حاجبيه وأتتها نبرته صارمة ترفض رفضها المتعنت:

- سأحمله حياة.. لن توقظيه، الفتى متعب.

أسقط في يدها!

لا.. بل الفؤاد هو من سيطر وتحكم ووافق رغبته هواه فخضع!

وهو لم يتوقف عند بابها، بل خطا وتقدم ووضع ابنها بفراشه برفق، انحنى ببساطة يخلع عنه حذائه كأنما هي عادته منذ الأزل، يزيح خصلاته الناعمة من فوق جبينه، يبتسم بحنو وتلامس شفتاه رأسه في قبلة خافتة.. أشبه بقبلة أب!

وكادت تفقد عقلها وهي تتأمله!

تراجعت بظهرها تهرب من محيط احتواه، من صورة اقتحمت الخيال.. صورة تضمنته لكن العقل والمنطق يريانه دخيلًا على ألوانها الباهتة..

تجمدت على بعد خطوات من باب منزلها كأنما تنتظر منه الرحيل أو تحثه عليه، وهو وقف أمامها بعينين لا تدركان ما تريدانه:

- سأشتاقه حتى نهاية الأسبوع المقبل.

هي والصغير يوقظان فيه ما لا يفهمه، ورغم أنه جديد عليه فهو لا يخشاه قدر ما يتلذذ به ويتسلله لقلبه وحياته!

أفاقت من شرودها الصامت - تفند كلماته - على اقترابه، أنامله التي امتدت لخصلاتها الثائرة حول وجهها بعد يوم لعب طويل، ومداعبته لإحداها بشبه تملك:

- أتعلمين أن اسمكِ يليق بالمسمى.. حياة!

وتعلقت عيناه بشفتيها كأنما بينهما أنفاس الحياة بالفعل، ورأت اتجاه نظرته فارتبكت وخدر غريب يسري بكيانها المتحفز للهرب، لم تعلم أكان هو من يدنو منها!.. أم هي من انجذبت إليه بلا إرادة!.. لكن رأسه كانت تنحني وشفتاه تهويان بقرب بحثًا عما لا يمكنها منحه!

تراجعت بغتة والهمسة المتحشرجة خرجت منها ضعيفة أرادت بها نهاية يشجبها الخافق بجنون خلف سجن أضلعها:

- تصبح على خير.

أكان هذا ما توقعه، أم ما تمناه!

ابتلع لعابه وأغمض عينيه للحظات قصيرة.. ابتسم بعدها بهدوء بينما يعض على شفتيه بين أسنانه قبل زفرة حارة:

- وأنتِ بكل خير حياة.

وتجرأت ثانية برفع عينين تلاقيان عينيه وعادت لذاك التيه في المقلتين القاتمتين.. حياها ببسمة أخرى والتفت يغادر المكان وخطواته تعانده..

هنا دفء..

هنا احتياج نفس وروح، هنا عوز ذات وافتقار كيان رجل لضمة أنثى خاصة جدًا..

هنا.. هنا حياة!

***

ترى أيهما أقوى!

العتمة أم النور!

من يهزم الآخر في معركة الإرادة، أو ربما حرب السيطرة!

من أكثر احتمالًا وقت الاحتياج!.. وقت الضياع!.. وقت التشبث بالوهم!

وهم تجسد بهاته اللحظة بسلاح ثقيل بارد قاتم يشبه كثيرًا الذي عاشته بأشهر ما يوازي الفائت من عمرها.. وما هو آت!

وهزأت من نفسها.. أهناك آت!

تلمسته بتردد تحول ليماثل حزمًا بعد ثوان، رفعته من مكمنه تحاول تفحصه كمن يستكشف أفعى سامة وينتظر منها انقضاضة حاسمة.. وكما رأت بالأفلام جذبت مشطه العلوي للخلف فكان عسيرًا عصيًا على إرادتها..

لعابها جف تمامًا فتوهمت بعضه تبلل به حلقها المحترق بنيران الخوف، ترطب جوفها الملقى بسعير الرعب والهلع..

تلمست الزناد مرتبكة، وسبابتها الصغيرة يثيرها فضول ضغطه، عادت تجذب المشط، تحرر أمانه وتطلق الوحش المعدني القاتل..

وأمام عينيها المتأملتين انعكست صورته..

ترى يا وردية لمن النصر!

لنور الملاك.. أم ظلمة الشيطان!

للضارية أم لطريدته التي انطبق عليه فخ صيده محكمًا قاسيًا.. داميًا!

للوحش!!

أم للجميلة!

لكن أهي حكاية خيالية يقصونها على الأطفال كترنيمة مهد!

حكاية يبحثون بها عن نعاس وهدهدة ناعمة واحتواء!

اهتز طرف شفتيها بسخرية تستهجن أفكارها، لا يا غيمة جفَّ منها المطر.. هذه هي أرض الواقع، حيث لا يعود الرجل عن قراره إلا بمشيئته؛ لا تجبره أنثى ولا يستسلم لهوى العشق..

تواجها..

بيدها سلاحه الذهبي، وبعينيه يفند لغة جسدها بالكامل، ويسرد عليها تفاصيلًا لن تكون سوى معه.. لا يذكر أن التوترنال منه من قبل كما في تلك اللحظة!

سلاحه بين أصابعها الخائرة، سلاحه وصمام أمانه أفسح الطريق للطلقة الأولى!

بيدها هي!

ظل صامتًا وبادلته صمتًا بصمت.. سكونًا بسكون.. جمودًا بجمود وتأملًا بتأمل رغم غوصه هو بأعماقها.. طفت هي على سطح موجه خشية الغرق..

صمته يخيفها، وصمتها أثار به القلق!

صمت الضواري مهيب.. وصمت الفريسة ذليل مخذول ومهزوم!

سكون الضواري له قواعده.. والثامنة هي:

"لا تأمن لهدوء الوحوش.. فقد يكون ذاك هو السكون الذي يسبق لحظة النهاية!"

وكانت هي تبحث عن نهاية..

عادلة أو ظالمة.. خاسرة أو منتصرة.. بدمها.. أو بدمه!

لا يهم..

عيناها تناقضان رعشة يدها بنظرة ثابتة، تأمر بالخضوع ويتجبر هو دون اهتزاز!

وجهت فوهته لموطن قلبه بذات الرجفة:

- أريد الطلاق.

- أطلقي.

لم تنتهِ أحرفها إلا وارتبط بصداها أمره الصارم المخيف!

وتعاظمت الرعدة التي مرت ببدنها.. وتضاعف اختلاج روحها وتشنُج يدها:

- سأفعل.

وجوابه كان صامتًا.. تحرك مقتربًا وتراجعت كأنما هو من بيده السلاح، دنا واقترب واصطدمت هي بمكتبه فتوقفت لكنه لم يتوقف إلا وصدره يضغط الفوهة الباردة التي تنتظر بلهفة حرارة انطلاق رصاصة!

صدره وقلبه هادئ الخفقات فقط دون حديث..

والرعشة باتت أكثر وضوحًا، والأجفان تخلت عن القوة والصبر فقهرتها عبراتها بسيل.. وهو لا يتزحزح.. لا يرمش.. لا يكترث بالموت، أو ربما هو يعلم أنها لن تفعلها مهما عاندت أو هددت وتوعدت!

بلحظة أدارت الفوهة نحو قلبها..

وانتقلت الرجفة إليه.. جفنيه اختلجا لثانية عادا بعدها للجمود لكن انعقاد الجبين اقتحم الصورة..

وصمت ينتظر وسبَّت نفسها مدعية الشجاعة.. هي جبانة، مرتعدة.. مذعورة، وعاشقة تبحث عن مفر من معشوقها وسجان قلبها!

- سأنهي حياتي أنا إذًا آمر.

انقبض كفاه ولأول مرة منذ سنين طالت كعمر آخر.. يتنازعه عجز!

تُرى لو مد يده بلمحة خاطفة وسحبه منها.. لن تنطلق الرصاصة!

لن يفقدها!

لكن..

هي تفضل الموت عليه!

لا.. ليس أي موت، بل موتًا يحمل بصمة يدها!

تدرك تبعاته كما يدرك هو مصيره!

وقبل أن تجنح به أفكاره لمحها تتداعي.. نظراتها هلعة ورأسها تنخفض بسرعة لتراقب الأرض.. تبع عينيها وباغته خطوط متجاورة نازفة تجري فوق قدميها من أسفل ثوبها المنزلي..

خطوط تجمعت ببركة صغيرة بينهما وتهاوت يدها تحت ثقل السلاح.. بل تهاوى جسدها كله فوق صدره وهو يتشبث بها ويناديها..

بلوعة!

في المشفى جلس فوق مقعد يواجه باب غرفة العمليات التي أدخلوها إليها..

الانتظار يخنقه وذهنه عاجز عن منحه سببًا مفهومًا.. أو حتى طمانة!

استقام واقفًا بخطوات متعجلة نحو صاحب المعطف الأبيض الذي خرج منها.. واجهه وبعينيه سؤال حجزته شفتاه بتوتر لكن الرجل ابتسم بشبه أسى:

- هي بخير والحمد لله.

وقبل أن يتنفس مرتاحًا أتته الكلمات التي لم تكن لتمر بعقله قط!

- لكن للأسف.. فقدنا الجنين.

اضطربت نبضات قلبه لثوان وأضاعت كل منها دورها المكتوب، بعدها كان المنطق والعقل وكل الحسابات الصحيحة تخبره..

القدر اختار عنك أيها النمر؛ فكان أرحم به من أن تكون له أبًا!

(٢٨)

الأخير

كل منا هو شيطان ذاته الخاص.. ونحن مَن نجعل مِن هذا العالم؛ جحيمنا!

"أوسكاروايلد"

***

الحب ميزان.. دومًا مختل!

الحب طعنة في مقتل المنطق، غيبوبة مميتة للعقل بين طياتها شغف، لذة وجنون!

الحب يخلق البدايات اللطيفة.. ويترك التصاريف ورسم النهاية بين يدي المحبين!

والبداية كانت..

"اصطدام سعيد سديم!!.. كرريه فلن أمانع"

بعدها خطوة أولى حذرة لكن واثقة تنصب الفخ..

"هل تجيدين الطباعة على الحاسب سديم؟!"

والخطوة تبعها صعود.. دون إدراك للمنحدر الزَلِق!

"المنمنمة صعدت طابقًا آخر!"

وزلت قدماها لهاوية معتمة كقبر بجذبة ناعمة..

"يعجبني اسمك"

ثم بدأت رحلة.. السقوط!

"مليئة أنتِ بالمفاجآت.. سديم"

وفي السقوط يمر شريط الذكريات بحلوه المُسكر ومره المقبض.. حتى لو كان محض ثوان!

"ليس لأنه لا تبدين جميلة هكذا.. لكن الليل له طقوسه"

الفخ كان ماهرًا فانساقت بغفلة إليه، وخطت داخله بقدميها..

"أنتِ لا تنطقين اسمي مطلقًا!!"

لكن عندما كادت تتملص من بين مخالبه؛ أُحكِم عليها دون رحمة وبطرفة عين..

" تزوجيني سديم"

ثم انغلق بلا مهرب..

"أريدك"

والملكية صارت أبدية، فقط تبقت لحظة النهاية.. لحظة القنص، لحظة إعلان النصر!

"هذه الخصلات أسرها.. إثم"

كانت هناك رسائل.. أضاعها العقل الشارد والقلب العاشق تجاهلها..

"لا تبعديني عنكِ ثانية.. أبدًا"

تركا للصياد زمام السيطرة ومنحاه لجام الحلم..

"لا تفكري في غيري وأنتِ بين ذراعي حلوتي"

"لا تمدحي رجلًا آخر أمامي"

واعترف ولم تصدق، بل أنكرت وتوهمتها مزحة.. ثقيلة!

"لو كنتُ مكانه؛ لقتلتُ من اختطفكِ مني!"

وأكملت السقوط، بوعد شيطان لم يكن ليصدُق..

"لن أترككِ تبتعدين عني أبدًا"

لكن من زاوية أخرى؛ هو عين الصدق.. فهي حبيسة سجن عشقه، مغلولة إليه وقلبها مكبلٌ بلا أمل!.. تكررت الرسائل وثار الفضول ثم خمدت ناره برغبته هو، أو كان أمره!

"ندوبي كثيرة سديم.. ومحرم عليك لمسها.. أتفهمين!!"

تعلمت الدرس، فأتقنت الطاعة وأدَّت فروضها تامة..

"تعاملي مع ديكتاتوريتي.. فأنا لن أتغير صغيرتي"

وخدَّروعيها فلم تعِ أن رحلة السقوط أوشكت على الانتهاء!

"أنا أفقد معكِ سيطرتي سديم"

ثم ارتطمت بالقاع، وكان الارتطام قاتلًا خنق بها صوتها، أنفاسها وأعتق دموعها من أسر صمودها الواهي..

"القتل مهنة كغيرها"

عندها أدركت الخلل، انطبق الفخ والفرار بات يوازي المستحيل دون موت.. والقرب موطن ضعف، ووهن النفس والقلب والروح أقسى من وهن الجسد!

"أنت تستغل ضعف موقفي نتيجة إصابتك"

بعدها حاولت الركون لجانب القوة، تريد إنهاء الرحلة.. وقائد قطار حياتها يأبى، يعاند ويأخذ عنها القرار عنوة..

"لن أكون لك أبدًا"

وخطوة أخرى كشفت خبيئة نفسه، جرح ماض.. بل ظلامه!

"لا سديم.. لم تكن خطأً أو قهرًا"

تلاها تفتيش عن باب الإياب، العودة.. فربما الحلم يتجسد بين يدي واقع قاتم بسعير الشيطان!.. ربما تُصنع المعجزة بخافق محب يمتلئ بالنور.. بالنقاء، بقلب يمنح بلا حساب..

"أهناك أمل؟!"

وكان هو من أغلقه بقسوة تبتر عنق كل فكرة، وتخنق كل أمنية بمهد الميلاد..

"البعض يولدون شياطين ويموتون شياطين.. ونهايتهم الجحيم سديم"

بعدها أعلن عليها الحرب.. أعلن عليها العشق.. أضرم فيها نار الشوق.. وأهال على قلبها تراب الخضوع.. بتوسل!

"داويني منك"

واستسلمت ظنًا منها أن الثمن قد يفتح باب الرجوع له، أو نافذة الحرية لها!

"أردتَ أن أداويك مني؛ الآن حررني منك"

حتى وصلت الرحلة لنهاية لم تدُر بخلد "سندريلا" عندما استجابت لعرافتها الطيبة فارتدت الثوب وتوهمت ثمرة اليقطين وسيلة وصول سهلة لقصر الأمير.. وظنت أن الفأر قد يتحول لحوذي أنيق يقود بها الطريق!

"سأنهي حياتي أنا إذًا آمر"..

وفتحت عينيها بانتفاضة ذعر!

الواقع كما هو رغم غزو الأبيض لكيان أسود ابتلعها دون مقاومة منها، دون قوة، حجزها خلف قضبان القهر والضعف، وسجنها بين جدران اليتم والوحدة وذل النفس..

أدارت رأسها وتلاقت بنظراته الـ..

متوترة!

ونبضت الذاكرة فجأة بآخر لحظة، بنزف روح كانت تسكن أحشائها، بسقوط آخر.. وفقد جديد!

مالت بناظريها إلى بطنها، تحسستها بكفها وانسابت العبرات ساخنة وارتفعت الشهقة تشق صدرها بوجع:

- كنتِ تعرفين!

كانت تلك منه بنبرة تفادت التصديق وجاورت الإنكار، وهي لم تكترث.. زمت شفتيها وقبضتيها وسمحت لدموعها بفيض أساسه احتياج.. ارتعشت، رعشتها رأتها عيناه فناداها وهذه المرة التفتت إليه تنفض عنها الوهن والانكسار.. والخوف!

- كانت لديّ شكوكي.

أشاح بوجهه وتلك الهزيمة تملأ حلقه بمرارة مثيرة للغضب..

كان قد أقسم ألا يتألم بعدما خلَّف السوط أول ندبةٍ فوق ظهره حتى هاته اللحظة.. لكنه لم يكن يدري أن ذاك القسم لن يبر به!

هو الآن..

يتوجع حد الأنين..

عاندته شفتاه فالتحمتا قسرًا ببقايا سيطرة اعتادها لتمنعه.. تحجزه خلف أسوار سجن الصمت، تأسره بأغلال الاحتمال، تقيده بأصفاد العجز المغلف بسطوة نمر..

فقد طفله!

خسر أبوته!

هو الصلب كان ألمه.. امرأة!

هو القوي كان وجعه.. نطفة لم يحتملها رحمها!

هو الآمر.. الذي اختل عرش سلطانه على مملكة الجحيم!

هو الشيطان الذي رضي بقدره، وسار في طريقه الغارق بالسواد دون رجعة!

- لفِظَه رحمي!

همسَتَها قاسية، رافضة.. ناوشها ألم اقتحم نبرتها يُكرهها على الارتجاف، التفت إليها بحدة وهي لم تأبه بل استمرت في حديث تائه تواسي به روحها.. أو تطعن روحه:

- لم يتحمل جسدي أن تنزرع فيه عنوة.. قطعة منك.

انعقد حاجباه..

يدرك أنها قد تكون على حق، فقد ابنه!.. نعم.. لكن هل يستحق من هو مثله ألا ينقطع عمله أو تنتهي سيرته في الدنيا مع موته.. بطفل!

بولد من صلبه!

أتراه يسير على نهجه!

أم يكون مثل أمه!.. طاهرًا نقيًا.. لا يتمكن منه شيطان!

- موته أصلح.

قبضة غليظة اعتصرت قلبه وهي تواجه عينيه بقسوة لم يلمسها منها قبلًا:

- ماذا كنت سأخبره عن والده!

ولم ترمش بأهدابها رغم لمعة الدمع:

- بماذا كنت سأبرر سوء اختياري!

والعقدة فوق جبينه منحت عينيه نظرة وحشية غامضة وهي تكمل بأنين طفا على سطح صوتها دون وعي:

- وماذا لو سألني عنك!.. هل سأخبره أنك شيطان مريد تنتشي بالدماء!

ثم علت نبرتها وهو صامت.. مذنب ولسانه وجوارحه يأبون الاعتراف:

- أنك وحش قاس فقد إنسانيته وماتت الرحمة مع قلبه الذي سبقها لأظلم مصير!

وكادت تصرخ فاقدة لكل اتزان وتعقل بل وإدراك.. ومشاعرها تشبه كيانها الذبيح تنازع بقايا الروح:

- لفِظَه جسدي، رفض امتلاكك.. أبى أن يحتوي شيئًا منك.

أتراه انكسر!

أتلك هزيمة!

أهي نهاية حرب!

أم محض معركة سيعود بعدها للنزال.. للفوز.. للاستحواذ على الغنائم!

سكونه هشَّم ما تبقى متماسكًا منها فودت لو طعنته بعمق خافقه.. ذاك إن كان لديه واحدًا مستترًا خلف ضلوعه!

- لا تظن لأنك نِلته مرة أو اثنتين فسيخضع لأمرك ويتحول الامتلاك لأبدي!

وابتعدت بوجهها تتمم بوجع وصوتها مشروخ كجدار قلبها المتصدع المتهاوي فوق عشق ذابل:

- انتهينا آمر.

ثم عادت تغمض عينيها، وهمسها يخفُت غائبة عن الوعي مرة أخرى بلا سبب:

- انتهينا.

وغيابها هروب مباح.. لأن المتاح كان بيد سجانها الذي لا يرحم!

الذي لا يعشق!

سجانها الظالم الملتحف برداء النمور، المُتسربل بحُلكة عتمته.. الغارق في مستنقع الدماء بلا عودة!

غابت تحت ناظريه.. قلبه يُصدِّق على آخر كلماتها..

وعقله يعلمه أن النهاية.. خطَّها القدر عنه!

***

إن لم يهبك الحب قوة فتركه أَولَى.. وإن ملأ نفسك بالخوف فالبعد عنه.. غنيمة!

وإن كانت حباله واهية، فالسقطة آتية لا محالة..

لذا وجب الاحتراز، والحرص أجدى وأنفع..

هي امرأة خاضت غماره مرة، منحت حتى الثمالة، وخسرت حد الحضيض.. وإعادة التجربة غير واردة خاصة والأفق يلوح فيه هزيمة أخرى..

القرار لم يكن عصيًا بمواجهة مقارنة مجحفة طرفاها غير متلائمين، فرغمًا عن قلبها الذي عشق بغباء كينونة أنثى؛ كفة الأمومة راجحة.. والميزان يميل بها وإليها.

قضت ليلة طويلة بزحمة أفكار، بل بصراع، وشَمَت خافقها بختم الصمت، وأجبرها العقل على الخضوع لمن يستحق.. لمن هو أجدر!

قهرًا تسللت من بين أجفانها عبرة، لاحقتها أناملها بمحو.. فالأثر لا يهم، هي لا تهم..

القلب لا يهم!

عندما تكون الوسيلة لإسعاده؛ فقدان.. الابن!

تحركت بالورقة بيدها، عزيمة نقشت نفسها فوق ملامحها، إصرار تلبس صوتها بحزم، وأنهت القصة قبل أن تبدأ بحكمة حتى لو صرخ الفؤاد واعترض بحماقة بديهية تفاصيلها عشق..

" تتركين العمل!.. لماذا حياة؟"

هتافه لم يبدُ مندهشًا قدرما هو غاضب، ساخط.. به لمسة تيه، ضياع.. هزيمة!

- أنا أكره الضعف غيث..

وصوتها اكتسى بسِتر القوة وإن كانت سرابًا، فالثمن غال والهدف أغلى، وهو لم يفهم!.. قابل دفاعها بشجب، وانتصب ناهضًا من خلف مكتبه وهي تردف بتماسك أثار حنقه:

- لوقتٍ طويلٍ كنتُ مستضعفة.. لم أكن أملك من أمري شيئًا.. وحيدة في دنيا تتحول فيها الأنثى لفريسة تنهشها الوحوش والمسمى أنهم محسوبون على صِنف الرجال..

تفاقمت الحيرة بعقله بينما يناظرها بصمت المتلقي الجَهول قبل أن يتخطاه بطلب تفسير:

- لا أفهمكِ حياة.. هل آذاك أحدهم!

سكنت تفكر، سكونها منح عينيه الوقت ليتأمل رعشة الجفن، رجفة الشفاة الخفية، الغصة التي تحاول ابتلاعها لكنها تتعثر بحلقها قاسية.. وعندما واجهت نظراته المتفحصة أجفلته بالجواب:

- أنت.. أنت آذيتني.

- ماذا!!

صاح بها مستنكرًا وجسده يستقيم باعتدال مشدود، تلا اعتداله اقتراب وإزاء دنوه ابتعدت هي بنهي آمر لا يقبل المراجعة:

- لا تقترب أكثر.

كانت إشارة كفها تشكل حاجزًا وهميًا بينهما جمده بمكانه ونبرتها شابها وهن:

- ضعفي أمامك أذىً لن أتحمل مثله مرة أخرى..

واعتصرت عينيها تمنع دمعة غادرة تصر على تحدي صلابتها المدعومة بأمومتها:

- لقد تعلمتُ درسي بالطريقة الأصعب.. بل الأكثر وجعًا..

وشمخت برأسها جوار تنهيدة جذبت معها من غياهب الأمس ذكرى:

- امتلكتُ القوة للتشبث بحريتي وحياتي..

نظرتها احتوت شيئًا من امتنان وهي تقابل نظرته.. امتنانًا لم يدرك سببه إلا حين أكملت:

- أنت دعمتني في مرحلةٍ أخيرةٍ منها.. وما تبقى؛ هو لي أنا.

ثم أشارت لنفسها بذات الشموخ الصلد:

- مُلكي وحدي.

كانت خطبة عصماء مغزاها مبهم لديه، هي تهرب.. وهو يحتاجها!

ووقت الاحتياج.. الأنانية مباحة!

حين الاحتياج.. المبادرة بالهجوم واجبة!

المبادرة بالهجوم دفاع مستحق:

- لا أفهم.. أنا لا أفهم.. ماذا حدث لكل ذلك!

جوارزعقته الحانقة كان يتأمل فيض الضعف الذي يتسرب فوق وجهها ببطء..

اختلاج النظرة والجفون..

رمشة الأهداب المتسارعة بحثًا عن مفر من عينيه المتطلبتين، وشفتيها اللتين تنفرجان بحثًا عن كلمات منعها عقلها الخروج..

تبًا لها!!

بعدما أدرك احتياجه لوجودها، وقتما أيقن أنها هي من ستنقي قلبه من دنس خطايا ماضيه.. حينما قرر واختار وعزم.. والنية فقط لم تكن كافية!

وهي كانت تتذكر الأيام الفائتة، تسلله لحواسها، بل تسلله لحياتها وحياة طفلها.. تعلق صغيرها به، وتتخيل كيف ستكون نهاية طريق يجمعهما!

هو بعبثه ولهوه.. وربما نسائه!

وهي بقلبها الذي استحوذ على غرفاته، نبضاته.. وابنها الذي بات يشاركه ذات القلب!

- أنا أحبك.

فاجأته بها ناعمة مجروحة خافتة تبتر بها أفكاره في خضم حرب أوشكت على الاندلاع بين جنبيه.. باغتته باعتراف عشق وإن كانت نبرتها تخجل من نطقه، وجوارحها تأبى الإفصاح عنه..

ورد فعل "كازانوفا" على إقرار بالحب هو هروب!

لكن معها هي أتى دون مراوغة وبسلاسة كأنما يوقن اللسان ما يحتاجه العقل وتعوزه الروح.. هي ألقت بالكلمة لا تلقي لها بالًا، وهو كان بانتظارها ليجذب الخيط وينفرط عقد البداية وصولًا لغاية ينشدها.. وبلهفة:

- تزوجيني إذًا.

نعم.. عرض زواج مباشر وصريح لا يحتمل مواراة، هي ليست إحدى غوانيه كي يتهرب من عشقها لحظة السقوط..

لا..

هي يوتوبيا خاصته، هي مدينته الفاضلة..

هي اكتمال نقصان ذاته.. هي من ستعيد رتق ثقوب كيانه المهترئ بنقائها، حنانها، أمومتها ودفئها.. وقلبًا يسكن صدره ليس ملكًا لها.. ستنقذه من سقطة تخصه هو..

سقطة رجل عاشق والعشق في عالمه زلزال.. والسقوط في دنياه مروع وانفجاره مدوٍ:

- لكني أحب ابني أكثر.

جازمة حاسمة شبه هامسة وضعيفة تتمسك بغلاف القوة والصلابة كأنها لم تسمع عرضه.. دامغة لأفكاره التي تخطط وترسم وتتخيل حياة معها تماثل اسمها:

- وما علاقة هذا بذاك؟

ألجمته حيرته فشرد بسؤال تائه، حتى ملامحها التي تواجهه اكتست بألم استشعره بوضوح دون حاجة للجهر به:

- لو تزوجتك من أدراني أنك لن تقسو عليه في يوم ما!.. بل من أدراني أن والده سيتركه في حضانتي بعدها رغم ورقة تنازله عنه!.. أنه لن يأخذه مني فقط نكاية بي لأنني تزوجتُ من غيره!

عاد يقترب.. عيناها تتوسلانه الابتعاد ويعاند كأنما يجذبه إليها خيط غير مرئي ربط بينه وبينها لكنها لا تراه وهو رغمًا عنه يتعلق به:

- أنا أضمن أن يبقى في أحضانك طوال عمره، كما أنني لن...

- لا غيث..

وشدت جسدها هذه المرة، القوة باتت تنبع من أعماق القلب الذي اختار بيقين، من العقل الذي قرر الأصلح ونفذ واستجابت هي له:

- لن أستطيع أن أضع صغيري بوسط صراع طرفيه يشدانه حد الوجع.. لن يفقد أباه ويحصل من أمه على النصف..

النظرة بعينيها التصقت بها عيناه، نظرة ودَّ لو كانت في صالحه، نظرة ودَّ لو غرق فيها وبادلته هي الغرق.. نظرة أعلمته أنه وجد سكن روحه ومستقر راحته لكنه يأبي القبول به، يلفظه دون رحمة ويطرده من جنته المنتظرة غير الموعودة:

- لن يشاركه فيَّ غيره غيث..

وتعانق جفناها لحظة ظنها ضعفًا فتحرك نحوها، لكن عندما فتحتهما مرة أخرى كان القرار خلفهما جليًا لا احتمالات مغايرة قد تعوضه:

- لن أُدخل لحياته رجلًا غريبًا يمتلك من أمه ما هو أحق به عن سواه.. لن أستطيع!

- حياة..

وكفه ممدودة إليها تبغي تشبثًا، تبحث عن وهم لكن الأمل والراحة.. وسد الاحتياج مفقود:

- آسفة.. سأترك العمل في أقرب فرصة.

نهاية خطَّتها بحرفية، رسمتها بامتياز رغم خسارة مؤقتة لكن للمدى الأطول تدرك أنها فائزة وبجدارة.. وهز كتفيه يائسًا فحتى هذه اللحظة لايزال ينشد أذيال أمنية يمنحها الغد، المستقبل المجهول؛ هالة ترقب وانتظار تحقيق:

- لا.. لا تفعلي!

توقفت فخطا نحوها ولم تستدر:

- لا تتركيه بسببي.

كتفيها تهدلا مرة ثانية، ونبرتها عندما لامست مسامعه كانت متوجعة:

- لن أحتمل وجودي معك بنفس المكان.

ردها صدمة، ربما طعنة.. أو حقيقة مجردة لا جدال عليها:

- لهذه الدرجة!

ولم تحرمه حق لقاء الأعين قبل الرحيل بمواجهة تسدل بها ستار الختام:

- أن تكون في متناول اليد لكنك محرمٌ على القلب أمر شاق.. لن أستطيع مواجهته أو الصمود أمامه..

وتحشرج صوتها بعذاب يدركه قلبه العاشق:

- هذا مؤلم بشدة.

ورحلت..

فقد أحقية المنع، وامتلكت هي صك حريتها وإن أضحى قلبها هو الثمن!

اختارت، قررت ونفذت..

وصغيرها فاز بمعادلة خاسرة كان هو الطرف الآخر المهجور بين جنبات الوحشة فيها..

***

مشكلة كل ذكر.. أنه خاسر سيء!

وعندما يعقب المنح بخلًا؛ تتغير النهاية تبعًا لتاريخ لن يكتبه هذه المرة.. المنتصر..

فهو مهما اتزن وتعقل وخرج من اللعبة بأناقة؛ تظل الهزيمة غير محتملة، ومن ورائها يبدأ البحث..

والبحث أوصله لعلاقة بين الحبيبة الغادرة التي اتخذت من رداء الصداقة سترًا لمشاعر نمت بداخله وتجاهلتها رغم علمها بها، وبين.. ربّ عملها المتزوج!

هذا هو من تحب إذًا!

هذا هو من اختارته عليه رغم عرض الزواج!

رغم القلب الممنوح دون مسببات أو دوافع سوى أنها.. هي وحسب!

لم يكلفه الأمر سوى بعض المال، محادثة متوارية خلف اهتمام رجل بامرأة.. وموظفة ثرثارة فضولية تولي انتباهها للقيل والقال.. والعاملين بالمكان، والقصة كانت أوضح مما ينبغي، فيبدو أنها قديمة بعمر عملها في تلك الشركة..

تقليدية، روتينية.. ومملة!

المساعدة الحسناء التي تنصب الشباك حول الرئيس فيسقط بهواها..

والويل لها على خديعتها له، واستغلالها لمشاعر كنَّها نحوها بقلبه وكان ثمنها بخسًا!

لمحها تستقل سيارتها أمام مقر العمل، تعجلت خطواته لتلحق بها، وفي ثوان وقبل أن تدير المحرك كان يجاروها بموازاة شهقتها المذعورة.. بعدها تبينت ملامحه وانقبض قلبها، ورجفة ما تسللت تحت جلدها تفتش عن سبب!

لقد عاد!

- ماذا تفعل؟!

سواد عينيه استحال لظُلمة مهلكة، وجهه جامد دون انفعال، فقط صدره يدل على أنفاس.. غاضبة!

- رافد!

الهمس والنبرة والاسم.. وضعف!.. لكنها واهمة لو ظنت أن الخطأ يمكن أن يتكرر:

- ألا تظنين أن تلك حقارة ريما!

ارتدت بصدمة!.. عمَّ يتحدث؟.. لعابها جف ولا سبيل لترطيب حلقها المحترق بتوتر قلِق، خرج منها السؤال واهيًا مرتبكًا تخشى جوابه وترجوه بذات الوقت:

- ما الذي تعنيه بالضبط!

مال نحوها بجذعه وتراجعت تلتصق ببابها ونظراتها معلقة بالغضب السافر على وجهه والمرسوم بتقطيبة جبينه الحادة ولهجته الباردة تكظم غيظًا بعنفوان:

- أنتِ على علاقة بمديرك المتزوج ريما!

شهقت.. فاقترب وأردف دون منحها فرصة التبرير:

- ما الذي تسعين إليه!.. أن تحتلي مكان زوجته!

ولو ظننت أنها ستنجو بدفاع سخيف فهي واهمة:

- لا رافد.. أنت لا تفهم.. أنا...

- أنتِ ماذا ريما؟!

ثم مد يده يمسك بمعصمها، يقبض عليه بقسوة لكن قساوة عينيه كانت أشد وأطغى:

- أنت محض خائنة، سارقة، مخادعة..

وجذبها ليقربها منه هامسًا أمام وجهها:

- مجرد لعوب لا أدري كيف مال قلبي لها!

صوته محتقر، نظرته متقززة، لغة جسده رافضة..

والتتمة نفض يدها من بين أصابعه بامتعاض:

- لن أدعكِ تهدمين بيتًا وأسرة ريما وإن كان الداعي حبًا تظنينه حقيقيًا.

وفتح الباب المجاور له بقرار أخير:

- لن تكوني فائزة أبدًا عندما تتخذين من الغش والخديعة مسلكًا.

ثم ترجل ورحل بخطوات سريعة حازمة دون أن يلقي إليها بنظرة ثانية..

رحل وقلبها ينتفض بين جنبيها بذعر..

رحل وعقلها يصرخ..

هو علم، هو بحث.. هو اقترب!

هو بات خطرًا لن تحمد عقباه..

مشكلة كل ذكر؛ أنه لا يرضى بالخسارة.. فيدور عائدًا لأرض المعركة باحثًا عن غنيمة، لكن قد يقابل ما لا يرضيه، لتكون النهاية كما لا يرغب!

***

هل يمكن أن تبرأ جروح القلب بالحب!!

ماذا إذًا عن جرح روح لم تعد تؤمن به!..

روح ضلَّت طريقها فسقطت في لظى سعير مضطرم تصلى عذابه السرمدي دون رجوع، دون أمل في نجاة.. دون حتى موت!

روح باغتها الوجع فاقتنص منها الطمأنينة، السكن.. ذبح فيها الحياة رغم أنها قيد نبض الفؤاد!

روح هشة رغم الواجهة الصلبة، واهنة رغم المظهر القاسي المخيف!

روح عاشقة.. في عالمها لا معجزة سيصنعها الحب، بل سيملأها بمخاوف أبدية لا تنتهي إلا بنهايتها!

روح أضاعت الدرب ومحطة الوصول باتت مبهمة لا يوازيها سوى ارتطام بقاع بئر اليأس والخسارة..

وقتما بات الحب وسيلة وليس غاية؛ بهت تأثيره وضاع رونقه.. وفقد الطريق نحو غايته..

وكما يبدو فهي قررت إنهاء لعبة هو أحد طرفيها، ودون أن يمنحها صك الموافقة، أو يختمها بإمضاء عاشق ترك ساحة العشق لأنه.. جبان!

يرتعد قلبه مع كل خفقة وجد، وتنقلب كل فكرة بعقله لشك أسود جوارها!

قررت ونفذت ولم تهتم بمنحه معلومة الختام المفترض!

وخاسر ملعون هو لو ظنت أن الذئاب تترك فرائسها ترتع بحرية..

دلف لمكتبها بعنف وازى خطواته المقتربة منها بتصميم، لقد وصله الخبر إذًا!..

تمت مناقشة الأمر.. واستقر القرار على فض الشراكة بينهما بموافقة شريكها..

ملامحه عنيدة صارمة جافة لا تشي بانفعال محدد، تبغه مفقود ومزاجه عكر.. وهو غاضب!

لا مفر من مواجهة، وإن أتاها ظانًا أنه سيشهر بوجهها أسلحته لترفع راية الهزيمة وتعلن الاستسلام فهو بالتأكيد.. واهم، الحرب حربها.. وهذه هي المعركة الأخيرة، والفوز باسمها حتى وإن دفعت الثمن.. قلبها!

- تهربين!!

بادر بالهجوم.. بادر بالخطوة الأولى وانتهى بالأخيرة أمامها، يجذب ذراعها ليقيمها قبالته، عيناها بعينيه، التحام النظرة أشد اشتعالًا من وطيس الحروب:

- بل أنهي أي تقاطع بين طريقينا مستقبلًا.

صدت هجومه بدفاع مستميت لكنه قاسٍ، صريح مباشر لا يبحث عن أبواب هروب خلفية:

- القدر جمع بين الطريقين كارما.. مهما فعلتِ سنلتقي!

ولم يكن ليتراجع، هي حمقاء وسيكون أكثر حُمقًا لو تخلى عن غنيمته، لا.. بل سبيته بمجرد رفض منها.. لم تحرر نفسها من قبضته، ظلت على صلابتها وجمود نظرتها وقساوة نبرتها:

- ليس القدر.. بل حماقتي.

خدشت الدمعة أحرف الكلمات، ووارتها هي بعنفوان أنثى.. كانت تحترق، وبيد العاشق عود الثقاب، وبالأخرى ماء بُرَاد لن تتوسله منه، ولن تهبه راحة مراقبة ألمها..

دهشتها وُلِدت عندما ابتعد فجأة، رجفة ما مرت بجسده كانت ظاهرة لعينيها، خصلاته تخللتها أصابعه حد التمزق والألم، زفراته الحارة بدت نارية وتوتره لم تفهم سببه فهي منحته ما يريد..

الخلاص!

الابتعاد!

راحة التحرر من غرام أشبه بذنب يثقل القلب!

- تريدين الزواج!

لا تنكر هزة الروح، رعشة القلب، لا تنكر على نفسها بل تستنكر عليه ما نطق به وهو يلتفت نحوها بغتة ويتأملها بعينين.. موجوعتين!

عاد يقترب، وتحدت نفسها ألا هروب..

واجهها وفتح فمه بحثًا عن كلمات لم تسعفها أحرفه أو تساندها شفاهه فأدار رأسه بتنهيدة طويلة همس بعدها بشبه أنين:

- الزواج سيقتل كل ما في أرواحنا من حياة كارما..

وكان يعنيها بصدق، لكنه ذبحها..

ذبحها بأحرف قاسية لا تمت لما أخبرها به من عشق قبلًا، هربت.. حررته، وهو يأبى، يعود ويعترض ويعرقل المسير نحو النهاية!:

- لكنني أريدك.. بل أموت شوقًا إليك..

أتم همسه باقتحام عينيها بنظرة متملكة، مسيطرة، راغبة!..

وانهار سد الدموع، هو يقتلها وبعنف دون أن يبالي.. خلت يداه من هجوم الألم، فامتلك سلاح الضعف!.. الحب.. القلب!:

- تريدني خارج الإطار الشرعي!!

ظلت تكذب نفسها، تهديه الترياق وجواب السؤال، تغدق عليه بتلميحات الطريق، بل تمنحه خريطته الكاملة وهو لا يرى.. لا يأبه.. لا ينظر!.. اقترب يمسك بكفيها بين دفء أصابعه:

- كوني لي.. لا ترفضيني..

انتزعت نفسها منه، من مجال هالته التي تحيط به فتخدر عقلها وقلبها بل وروحها التي تذوب فيه:

- حتى تكتفي.. وحينها كل منا يذهب في طريقه.. صحيح!!

عاد يدنو يحاول تلمس أناملها بأمل، بوهن.. باحتياج!:

- لن أكتفي أبدًا.

تطلعت إليه بذهول.. نبضاتها تتسارع حد الجنون، الموقف كله جنون.. ما يقوله، ما تشعر به.. وما يظن أنه سيؤول إليه!.. جنون:

- أنت مخبول غيث.. فقدت عقلك وتريد أن تفقدني عقلي.

وانتحبت تحاول مسح دموعها بحدة ولا فائدة.. ابتعدت أكثر، ابتعدت حد أنها ودت لو اخترقت الجدار لتغوص فيه دون عودة، ابتعدت وقلبها يهفو إليه ويلعنه وعقلها يصرخ بها أن تفيق فالمنح في هاته الحالة.. موت:

- لن تنالني أبدًا.. حتى لو قتلت نفسي قبلها.

حملتها إليه ذرات الهواء بنبرتها مختنقة تحشرج بها صوتها فخرجت كأنما هي آخر كلمات جثة مجذوذة العنق، من الوريد إلى الوريد.. مطعونة القلب في العمق، نازفة لكل ملامح الحياة!

حملتها إليه النسمات صادقة رغم الوهن، نهائية تذبح الأمل.. قاطعة لا تقبل الجدل..

والعجز بات سلطان المشهد وبطله في مسرحية هزلية ظن أنه هو مؤلفها ومخرجها.. وبطلها الأوحد!

وهذه المرة كان اقترابه أخيرًا.. كلماته محبوسة بين جدران اليأس، والقضبان من ضياع محتمل.. اقترب حتى كاد يلمسها وكل خلية في جسده تشتاق ضمتها..

ليست رغبة..

ليس اشتهاء رجل لامرأة..

وليس هوس اللحظة بأنثى هي الحب!

بل عشق اكتماله امتلاك.. لن يخرج عن مدار الحلم، والوهم!

اقترب وتمم وكتب النهاية بهمس سبقته زمة شفاه تمنع تأوه وجع:

- ربما لو تقابلنا في زمان آخر.. حياة أخرى!.. لكنت ذاك الرجل الذي تحلم به امرأةً مثلك.. كنت رجلًا يمنحها الأمان، الحب والدفء والاحتواء، وكانت هي أنثاي التي تكمل نقصاني، وترمم ذاتي وتملأ عوزي وافتقاري لوجودها.

طعنات متتالية سددها لقلبها دون رحمة، دون عفو.. دون غفران لهواه الذي استحوذ عليها ولم تسدد الثمن سوى من ألم وخسارات متتابعة تتوسل القدر أن تكون هذه آخرها:

- للأسف نحن في هذا الزمان، في هذه الحياة.. لستَ أنت رجلي ولا أنا امرأتك، لن تمنحني ما يُسكن خوفي ولن أهبك ما ينقصك.

بصعوبة وصلت الهمسات الختامية لأذنيه فتعانق جفناه جوار تهيدة بنيانها لواعج صدره الضائق بأنفاسه:

- ربما في زمان.. قادم.. من يدري!

لم ينهي ألمًا.. ولم يمنح أملًا.. بل مد يده نحو السراب علَّ الأنامل تطاله، فيتبدل لحقيقة كانت أمنية!

تهدل كتفاه وانتهى العرض دون تصفيق.. فالجمهور كان ينتظر الثوب الأبيض، القبلة.. ولحظات العشق، تحرك بعد نظرة أخيرة ضمتها دون صدره وأوقفه نداءها.. استدار واللهفة ترسم المُقل والملامح لكنها مدت يدها بورقة صغيرة:

- هنا دُفنت والدتك.. لو كان يهمك الأمر.

اختلاج كبرق مر بجانب شفتيه.. مر وانتهى، عيناه ارتفعتا لعينيها والصمت كان أبلغ رد..

صمت تبعه رحيل، فنهاية تاركًا الحبيبة.. والورقة وكل التفاصيل..

وأسدل الستار على فشل جديد!

***

قيل: أنه إذا استمررت بطرقِ باب الشيطان.. فعاجلًا أو آجلًا ستأتي تلك اللحظة التي يدعوك فيها للدخول!

وقيل: أن الحب أحيانًا يأتينا كحلم، ويغادرنا ككابوس!

هي طرقت.. دعاها فلبَّت.. وبعدها أي كابوس سيكون أكثر ظُلمة مما تعيش فيه!

نعم.. الحب إغماءة لا إفاقة منها دون خُسران.. نشوة قلب لم يدرك أن لكل سعادة ثمن، وببداهة سيكون باهظًا غير محتمل..

مرآة الحب عمياء!

وبسخرية جواب؛ بلى..

فلسفته صعبة.. مهلكة.. تستنزف قلوب المحبين..

فلسفة الحب.. فوضوية مربكة.. ومخيفة..

الحب لعنة لا شفاء منها!

الحب تعويذة لا تنكسر.. وسحر لا ينفك!

الحب.. جحيم شيطان لن يتوب أو يغفر!

وربما لن يحرر رغم مرار الفقد..

وتائهة هي بين زمن ضائع؛ ووجع مستتر وراء اصطناع القوة والجمود..

تائهة بين دروب لم يكن مقررًا لأجلها أن تخُضها، ومفترق.. كان خيارها فيه خطأً عواقبه وخيمة!

هل مرت أيام!.. أسابيع!.. شهر أو حتى أشهر!

بالفعل فقدت الحس والإدراك بمحيطها، تعتكف بغرفتها في عتمة ترفض منحها شيئًا من نور، تقيم أود جسدها بلقيمات أشبه بغصة تتقيأها أحيانًا وتنجبر على ثباتها أحيان أخرى..

تعكتف وهو تتكرر زياراته دول ملل أو كلل بشكل يومي..

خمس دقائق أقصى احتمالها واحتماله، يقضيها معها صامتًا، وهي تود الصراخ وحلقها لا يساندها بموقف اعتراض يتبدل دومًا لتخاذل.. وضعف!

وقفت تتأمل الشمس الغاربة من خلف النافذة بشرود، عقلها تتناحر به الأفكار وتتحطم داخلها كل الثوابت.. وقلبها يعيش بحالة فوضى!

والسؤال الأهم.. الأول والأخير.. وماذا بعد؟

تحرك مزلاج بابها فنبهها لحضوره، منضبط كعادته دون تأخير، توسلت صوتها همسًا، تمتمة.. رفضًا، ورفعت إليه عينين لائمتين ساكنتين قابلهما جمود وجهه.. وشيء من وجوم جديد عليه!

عقدت ذراعيها عند صدرها وأصرت على مواجهة النظرات الرمادية التي تحيطها بغموض، سخرت من حالها وحاله وكل ما تملكه هو السخرية جوار الصمت:

- أتيتَ تطمئن على آخر ضحاياك!

لم تختلج بملامحه ذرة فهزت كتفيها ببؤس واهن:

- مازالت تتنفس حتى وإن ماتت روحها.. يبدو أنك فقدت مهارتك.

والتوى فمها بعبث هازئ:

- هل منحتني رقمًا بعد!

وتنفست بعسر وانطبق صدرها:

- واحد وخمسون ربما!

ثم انتبهت لخطأ جعل نبرتها تعود لسخريتها المريرة:

- لا.. انتظر.. يوم أُصِبت كان ذاك واحدًا.. تراه بعد ضحيتك الخمسون أم قبلها!

والهزة كانت من نصيب رأسها تلك المرة بضياع:

- ربما أكثر.. من يدري!

بعدها جابهت عينيه تدعي الثبات.. تتظاهر بالصمود وعنوان النظرة رغم كل شيء؛ رفض:

- سواك.

فجأة اقترب فانتفضت، اقترب وفكه مزموم بحزم صارم أخافها، اقترب وقبضتيه نالتا من كتفيها دون قسوة فقط بحسم يمنع هروبها.. اقترب وانفرجت شفتاه برعشة وهمسة شبه مسموعة بمشقة:

- أنا أحبكِ.

اللعنة!

هل نطقها!

همسها!

صدح بها ضعفًا!

جهر بها ذنبًا!

اللعنة.. وماذا بعد!

- الآن تنطقها؟!

الآن بعدما تعدت الخسارة حدها الأدنى وما بقي لا يستوي مع ما فُقِد!

لم تقاوم العبرات، لم تحارب الأنين، واستكانت بنشيج متوجع ليديه اللتين لم تحرراها من طوق قربه وإن أعلن هو حرية من نوعٍ آخر:

- الآن أحررك.

كانت بميل، بتمتمة جوار أذنها.. كانت محترقة كأنما نطقها من قلب اللهب الذي استشعرته بأنامله المحيطة بذراعيها.. رفعت رأسها إليه بتيه.. بخوف.. بانتظار غير مصدق!

يحررها من جدران سجنه!

لكن من يعتقها من أسر عشقه!:

- أنتِ طالق.

أغلق السطر بقطع فاصل.. حاد..

أنهى القصة بسرد واقعي..

وعاد بالأميرة لأرض مادية، ملموسة وحقيقية.. عاد بسندريلا جوار اليقطينة الفاسدة والثوب الممزق.. ودون حذاء الكريستال الذي من المفترض أن يدل أميرها عليها!

عاد بها لنقطة الصفر..

وليت النهاية كما البداية.. دون خسارة!

***

تبدأ الحكايا دومًا بـ "كان ياما كان"..

سطور خيالية، أشجار.. غابة وزهور، فراشات وأرانب بفراء أبيض ناعم، سيمفونية مقاطعها ناعمة، نغماتها هادئة.. والتصاعد بها بطيء مريح..

سطور على غرار النظرة الأولى.. فالسقطة والقرب.. ثم "عاشا بسعادة وهناء إلى الأبد"..

وتنتهي هنا كل قصة، تتعانق دفتي الكتاب.. وننام أسرى الحلم..

وتأتي الصحوة دائمًا وأبدًا على أرض واقع لا يشبه عالم الروايات في شيء، واقع قاس مؤلم حقيقي حد أنك لن تستطيع تجاهله، لن تغمض عيناك عنه.. لن تدعي عدم رؤياه.. هو هناك، موجود.. قائم.. ومحسوس لأقصى حد!

هو منحها الحلم، وأيقظها قدرها على كابوس تضمن حضور النمر..

ضارية قانونه الأوحد "صيد".. ونتيجته المنتظرة "افتراس"!

ومن بين تلك القواعد هناك قاعدة إعفاء.. انتهاء.. لا تتضمن حرية إلا بموازاة آخر الأنفاس..

تلك كانت التاسعة:

"عندما يطلق الضارية سراح فريسته؛ فذاك معناه أنه أجهز على رمقها الأخير!"

نعم فعل.. ولو عاد للوراء لأعاد الكرَّة مرة ومرة!

حررها، ولولا عظيم الفقد لما تنازل، هي خسرت طفلهما وهو خسرهما معًا، ولن يقبل عزاءً فيمن قتله بنفسه كما أخبرته!

بلى.. تمتم بيمين الطلاق على مسامعها، منحها صك الخروج من سجنه؛ لكنها لا تعلم أن النمر عنيد، صلب..

ووحش لا يرحم!!

تأمل الملف الموضوع بعناية فوق مكتبه وهو ينتظرها بقصره، حانت ساعة الرحيل.. أعدت العدة تاركة كل ما ربطها به يومًا، واستعدت لغياب لا لقاء بعده!

التقطه، تصفحه باهتمام وعقله يعود لماضٍ بعيد انحبس بخزانة الغرفة جوار تلك الأوراق.. بيت صغير فقير، أرض لا تكاد تساوي شيئًا، وبقايا من ذكرى أب.. حمل اسمه، حمل من ظُلمة ماضيه البراءة والطُهر!

ذكراه عندما تلبس رداء النمر، ومدربه يُعني به.. يعلمه، قواعد اللياقة وقواعد العمل!

دراسته المفتوحة التي أنهاها بنهم مفتقِد الشيء، اللغات الأربع التي أتقنها ورغب بمزيد، وعندما أصبح رجل الأعمال الشاب "آمر صفوان".. الشريك بالنصف في شركة رفعت عمادها بالسوق حديثًا، عاد من حيث أتى..

آبَ من حيث بدأ!

بلدته الجنوبية الصغيرة.. بيتًا سكنه طفلًا، وأرضًا ثمنها بخسًا وهو لديه عظيم!..

وها هي الأوراق باتت تحمل اسمها.. البيت والأرض.. النقاء، وحلال المال، بعدما نقل ملكيتها إليها كحق لن ترحل لو رفضته!

أفاق من شروده على نحنحتها، تلاقت الأعين وميز بين جفنيها بريق العبرة، وخلف أجفانه لمعت الهزيمة..

هل ينهزم الشيطان!

أي معاركه تلك التي يخرج منها دون غنيمة!

والجواب: حربه الخاسرة مع بشر برتبة ملاك..

تقدم ومد يده بالملف إليها، كسا نبرته بصلابة معتادة.. وأخرس ملامحه عن إبداء مشاعر:

- هذه أرض باسمك.. كانت رخيصة في وقت ما لكنها الآن تساوي الكثير.

ولم تمد يدها، بل نال الورق منها نظرة مستهجنة استمرت حتى طالت عينيه:

- لن ألمس من مالك شيئًا.

كعادتها توقظ شيطاينه!..

اقترب أكثر وأحكم قبضته حول أصابعها التي حشر بينها ملفه، صمت ثوان قليلة بتفكُر ثم احتواها بنظرة خلف جدران صلابتها الظاهرة توسل.. شجن، ورجاء واهن:

- هذه الأرض آخر ما تبقى من آمر الذي لم تقابليه يومًا.. وربما لن تفعلي، خالية من الدماء سديم.. لأجلكِ أنتِ.

تعلقت عيناها به، تستجدي شرخًا في هالة القسوة التي تحيطه، ثقبًا بشرنقة الغلظة والقوة التي يحبس نفسه داخلها.. تبحث والمحصلة صفر..

وخسارة أخرى!

وافقت مذعنة وضمت الملف بين يديها بسكون، كأنما تحتفظ لنفسها بقطعة منه عوضًا عمن فقدته!.. تأملها، وفكه يمنحها راحة شعور بأنه.. يهتز، يرتجف كبني البشر، وكما امتلك هو البداية.. قررت هي أن تنهي الحكاية بخواء خانع:

- لن تحصل على نهايتك السعيدة آمر.

- هذه هي النهاية.. لن تبقي معي.

يقرر الواقع كأنما ينفيه، أو يتمنى ذاك النفي:

- أنتَ اخترت طريقًا مُعبدًا بدماء ضحاياك، ليس لنا مستقبل معًا.

صادقةٌ هي.. ومصدِّقٌ هو:

- نعم.. فالجميلة من نصيب الوحش في حكايا الخيال فقط.

أومأت تجاريه، والقلب ينبض موبخًا ينفي عنه وحشيةً اتخذ منها ستارًا لماضٍ تجهله، اعتنقها عقيدة لطريق لن يسلك سواه!..

الوجع ينتشر بخلاياها كما النار، أتراه يتوجع مثلها!..

يتساءل!.. ينتظر.. يأمل!

تحركت مغادرة وقبل أن تقطع أول خطوة عادت إليه بفضول غريب:

- ألا تخشى أن أبلغ عنك الشرطة؟

- لن يجدوا شيئًا لديّ.

رده واثق وتتمة حديثها حانقة:

- ماذا عن الصحافة وسمعتك؟

لم يبالِ بحدود باتت بينهما بديهية، اقترب يبعث في جسدها رعشة خوف:

- ألا تخشين أنتِ أن أقتلك؟

لكنها لم تخف هذه المرة، بل رفعت رأسها إليه واحتلت بعسل عينيها غيوم عينيه:

- لن تفعلها.

تقررها بيقين أغضبه:

- ولمَ؟

ابتسمت فغرق في ابتسامتها ثم تمسك بجمود وجهه كطوق نجاة:

- لأنك عاشق.

- وأنتِ كذلك سديم.

لاحق آخر أحرفها بحديثه، يثبت عليه التهمة لا ينفيها، بل يلبسها إياها بسبق إصرار وترصد، جوار عقدة حاجبين لم تدرك مدلولها سوى أن اليأس عاودها وأن لحظة إسدال الستار قد حانت..

سيغادر المؤدون خشبة المسرح يصاحب خطواتهم الصمت والسكون، فالعرض فاشل والجمهور المنتظِر.. رحل بخيبة!

استدارت بعدما حاوطته بنظرة متبتلة أخيرة وانحنى كتفاها بقنوط الفراق، نداؤه المباغت أوقفها.. وهمسه خلف أذنها أجبرها على التفاتة سريعة وازت نبرته الصارمة المخيفة:

- لو سمحتِ لأحدهم بالاقتراب منك؛ إثم دمائه سيلطخ يديكِ أنتِ.

- بأي حق!

- بحق جحيم أنا شيطانه.. غيمتي.

تبًا له لو ظن أنها ستنكمش على نفسها ذعرًا.. لقد اكتفت، شدت قامتها تواجه حزم ملامحه، وأعلنتها سافرة توحي بجدية كل حرف منها:

- أنا لا أخافك آمر.

- خافي عليه هو.. أنا لا أهدد سديم..

ومال يكمل جوار أذنها مع أنفاس حارة تمنحها قربًا لن يتكرر:

- هذا وعد.. ووعيد.

ودت لو أخبرته أن قلبها لن يقبل.. لن يسمح.. لن يتحرر من قيده، لكن عناد أنثى بريء أخرسها فالتفتت دون رد.. ورحلت وكلمات وداعها يتردد صداها في إثرها!

" لا يهم أن تجد طريقك معي.. فقط جِده لنفسك"

"أو.. جِد نفسك أولًا.. أدرِك هُويتك"

"اعلم من تكون!"

أغمض عينيه ومن صدره خرجت تنهيدة ثقيلة كثقل هموم اعتاد تجاهلها لكن اليوم الِحمل بات مقيتًا مُهلكًا.. تحرك نحو الجدار الزجاجي يراقب مغادرتها منزله، سجن والمسمى قصر.. سائقه معها حيث تذهب راحلة عنه، ودلفت للسيارة دون أن تعود بعينيها إليه..

كم هي قاسية!

لم تلتفت بخاتمة نظرة.. لم تمنحه لقاء مُقل أخير..

وربما لديها كل الحق..

فجدار قسوته وصموده لن يتحمل من معول ضعفها.. تصدُّعات عشق!

ولأنه كتب عليه أن يحوز الكمال معها.. ثم يفقده؛ فقد استسلم وأخبر عائقه الجديد، ألمه الوليد.. جرحِ روحه المديد.. أن الحياة ستستمر..

أنه لن يتوقف..

أن الشيطان عاد بعد ضياع في دنيا ملاك.. غادر سعيره محترقًا!

الخاتمة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

"مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ"

صَدَق اللّٰه الْعَظِيم

***

وأُسدِل الستارعلى حكايا.. لم يكن ينبغي لها أن تبدأ..

**

فقط في الحب والقتل نظل مخلصين!

أحيانا تطغى نشوة اجتثاث الروح من الأحياء على سعادة قلب خاض طرقات العشق الوعِرة ولم يخرج منها سالمًا..

قد نكره عقدنا، مخاوفنا.. والأقسى؛ ذنوبنا.. لكننا في النهاية نفقد السيطرة، لا نستطيع الهيمنة عليها فتقود هي وننقاد نحن في ظل عاطفة تمردت على جوانحنا..

وتظل المعجزة غير قابلة للتحقيق، والأمل تائه في غياهب ظلام عشش بنفوسنا حتى استكانت له، بل استعذبته..

ومن لم يعتصم بحبال التوبة، لم يتشبث بخيوط النور.. من أضاع الخطوة الأولى والتالية، من نأى بنفسه عن طريق الفطرة السوية؛ فقدها حد التلاشي..

ولن تجدي معه الرسائل.. أو المنح!

من لم يبادر بالخطوة الأولى.. خسر لذة القرب!

ومن لم يستطع الخروج من مستنقع الوحل.. غاص في أعماقه أكثر!

***

كثيرًا ما تتشابه النهايات مع البدايات، تتشابك الأحلام مع الأمنيات.. يقتحم الواقع عالم الوهم ونكتشف أنه كان فقط محض سراب!

البعض يتمسك بسرابه فيضيع..

والأقوياء وإن كانوا قساة.. طغاة؛ يدركون ماهية أوهامهم فيمرون فوقها بأقدامهم، يدهسونها.. بحثًا عن واقعهم الملموس..

الواقع وكل المعادلات تجمعهم سويًا، تربط خيوطهم معًا، ليس لأنهم دُمى.. ولكن لأن طبيعة الضواري هي تكوين قطيع.. قطيعًا يتألف منهم وحسب دون غيرهم، بل غيرهم في هاته الحالة يتحول.. لفريسة!

كان يومًا عاديًا يشبه أي يوم غيره، يومًا يبدأ بالعمل.. وينتهي بعمل أيضًا لكنه من نوع آخر لكليهما!.. انتهوا من الاجتماع ومراجعة ملف الصفقة الجديدة.. نهض "غيث" تتبعه "ريما" لمغادرة مكتب "آمر".. واستقام هو بالمقابل، دار حول مكتبه ونادى شريكه باهتمام:

- غيث.. لا تنسَ اجتماعنا بعد ثلاثة أيام مع وزير التجارة والصناعة.. نقلة جديدة وأريد منك التركيز معي.

والذئب توقف قبل أن يصل للباب، التوى جانب ثغره ببسمة ساخرة عابثة كأنما نبتت من ماضٍ غير بعيد، ديجافو لمشهد مماثل، التفت إليه من فوق كتفه نصف لفتة جاورت ذات الرد:

- لك كامل تركيزي يا رئيس.

وغادر تاركًا الأفعى تتبع النمر حيث توقف قبالة نافذة الغرفة، شاردًا بعض الشيء وهي تود السؤال وكعادتها رد فعله يخيفها..

حسمت رأيها أخيرًا ووقفت خلفه ساكنة لثوان شق صوتها المرتجف الصمت بعدها:

- قتلته!

استقر كفاه بجيبي بنطاله دون استدارة:

- لن أترك خيطًا حرًا يقود إلى أطراف خيوط أخرى ربما.

جوابه توقعته.. تدرك جيدًا تبعات الموقف، تبعات اختيار قامت به رغمًا عنها، والدافع قلبها دون سواه، هي فقط لا تدري حتى هذه اللحظة لمَ ذاك الضيق يناوشها!:

- لكن رافد كان...

- ماذا!.. كان ماذا؟!.. رجلًا شريفًا.. انظري ليديك فهما ملطختان بدمائه.

ووازى كلماته الحادة لفتة منه بكامل جسده إليها، أصابعه التي تحركت خارج جيبه لتشيرليديها.. وتوترت، ارتعشت، وتراجعت خطوة مبهوتة شبه مذعورة:

- أنا لم أقصد أن أدخله لحياتنا آمر، كنت فقط أحتاج لوجوده.

نظر إليها صامتًا.. عيناه تشبهان دوامة عاصفة، تدور بلا نهاية.. وتقسو دون رحمة، وهي عادت لترددها بلا هدف سوى اطمئنان صاحبه برود قلبها ومشاعرها:

- هل أنهيت الأمر..

- بنظافة!.. بالطبع، حادث بسيط غير مشكوك بأمره.

عاجلها مكملًا السؤال وأتبعه بجواب.. ومال نحوها بنبرة حاسمة تنهي كل قلق محتمل:

- لا تسألي الخبير كيف يقطع الذيول المهملة ربما.

هروب عينيها منحه هوحق التساؤل تلك المرة بينما تتابع السماء من فوق كتفه بشرود.. أدار وجهها إليه واستحوذ على ذقنها بين أصابعه:

- لا تقولي أنكِ أحببتِه!

تهدل كتفاها يأسًا وضعفًا.. سكن مقلتيها عشقًا يدركه، وفوق شفتيها وُلدت بسمة شجن:

- أنت تعلم أنني سأموت وأنا أحبك أنت.

لكن فوق شفتيه كانت البسمة مزهوة.. منتصرة ومتملكة:

- جيد.

وتمازجت البسمتان بقبلة مسيطرة منه قبل أن يتراجع قليلًا وهمسه متسلط:

- أراكِ الليلة.

وهل تملك سوى الخضوع!

حررها هي "غيمته" وقتله هو "ترياقها".. ظللها بثقته، وأحرقه بشكه!.. اختار وقرر وحدد المصيروفق أهوائه، وما عليها سوى الانقياد له..

لكن لمَ تهتم!

ما قررته بنفسها منذ البداية.. ما خمنته عن النهاية؛ هو ما نالته بعد إسدال الستارعلى ذاك العرض المخزي.. عاد إليها، انتهى معها.. وليس له سواها.

حتى ظلامه الذي اعتادت الغرق معه فيه بدده هو بشيء من ضوء كشف أمامها حقيقته..

عرّى لها ندوبه التي صعقتها رؤيتها يوم أصيب وسقط بين ذراعي الزوجة الراحلة ولم تجرؤ هي على إبداء اهتمام أو خوض متاهة سؤال حينها وللآن..

منحها حرية لمسها بأناملها، بعينيها.. مادامت لا تسأل أو تتدخل!

وبمنحه ذاك هي بحالة اكتفاء.. لا تطمح للمزيد، وهل هناك مزيد..

والباردوس ملكها!

وغايتنا القاعدة الأخيرة التي حددت المصير:

"لا يباح أن تجتمع الوحوش مع طرائدها.. فلا يناسب ضارية سوى ضارية مثله، يكملون معًا وينتهون سويًا على درب الافتراس"

***

يكفي المرأة رجلًا واحدًا لتفهم جميع الرجال.. ولكن لا يكفي الرجل مئات النساء كي يفهم امرأة واحدة!

"جورج برنارد شو"

ورغم ذاك فكل رجل يدعي أنه العالم ببواطن أمور النساء، المغامر في غابات أرواحهن، وقبطان بحورهن السحيقة، يكفيه أن يغرق بأنثى.. وما تلا ذلك بخانة اللامبالاة..

ماذا إن كانت المرأة متعته!

ماذا إن كانت ملهاته!

وماذا إن أراد منها شيئًا واحدًا وحسب!

بحاله راضٍ، وهو خاسر جيد للغاية.. فلن يقف باكيًا على الحليب المسكوب..

بل يُرضيه ذاك الشهد الذي يتذوقه بتلك اللحظة متجاهلًا كل ما عداه!

مبتعدًا عنها ببسمة تزين شفتيه وأنفاسه تهدأ ببطء؛ استند لظهر الفراش ومد يده للأرض يجذب سرواله، التقط منه علبة تبغه وأشعل واحدة نفث دخانها باستمتاع وهي ترمقه بنعومة متخمة..

اعتدلت تجاوره وأناملها المطلية بحمرة قانية تسحب لفافته منه.. تدسها بين شفتيها بشهيق خبير وتزفره بتمهل متلذذ قبل أن تنظر إليه.. زوى ما بين حاجبيه ونظرته أبدًا لا تخلُ من وقاحته المعتادة بينما يتأمل السحابة المتصاعدة من فمها بهدوء..

أخذها منها مجددًا فحانت منها نظرة دهشة كان رده عليها ماكرًا:

- أتعلمين أنني من الطراز القديم!

دهشتها تضاعفت وعيناها تشاكسانه بجرأة أعجبته:

- ماذا تعني؟

أطفأ اللفافة بمرمدة مجاورة ورفع حاجبًا واحدًا عابثًا:

- لا أفضل المرأة المُدخنة.

جلجلت ضحكتها المغناج بسكون الغرفة.. مالت تقترب، تمد يدها.. تمرر سبابتها فوق فكه بإغواء ونبرتها لعوب:

- وأنا أفضل الطراز القديم من الرجال عزيزي غيث.

وعاد لملهاته بإرادة تامة!

إرادة تخرس صوت الماضي تأبى الخضوع له.. تقرر الحين وتتجاهل الغد..

هل نتحكم نحن بماضينا أم يسيطر هو!

تخلقنا البارحة!.. يتلاعب الأمس باليوم!.. يبعثر الحاضر بين طيات رياح تعصف باستقراره!

فلا يعود بعدها لوجع تناساه فينهيه، ولا يتشبث بعبث هو الواجهة ورد الفعل لمن كانت أنثاه الأولى، ملجأ طفولته ومراهقته بل وحضن رجولته؛ محض صورة منسوخة بتشوه لكل أخرى سلكت طريقًا غير مأهول أو ممهد بحياته..

هو عابث لا قانون يحكمه سوى الرغبة، وعندما يظهر الحب في الأفق: تتحول غانيته لكم مهمل يرميه عند أول مفترق طرق!

هو المقيد بذكراه..

أو المنتقم بعقدة خيانة..

هو المذنب..

هو الضحية..

هو في النهاية..

من يمسك السيف بيده.. لينفذ حكمه الخاص..

هو القاضي والجلاد!

***

كلّ واحد منا يختار جحيمه الخاصّ.. ذلك الجحيم الذي يجد نفسه فيه أكثر راحة!

"خوان خوسيه ميللز"

أن تقتل لأجل انتقام تعتقده عدالة؛ تلك راحة ينالها صدرك بعد طول عناء..

لن تحقق عدالتك الشخصية، لن تقتص لنفسك، لكن تحقيقها لغيرك يملأ قلبك بقسوة لا حد لها، تشابه موقف ومحض ذكرى بُعثت من قبرها بين ثنايا عقلك المغيب عنوة في حاضر من صنع يدك..

بكامل إرادتك..

زوج أم آخر.. غادر آخر.. وانتقام مشبع!

المهمة تماثل الرقم صفر، والضحية مذنب باقتدار.. ذاك يشبهه، دمًا سيريقه بمتعة أشد، ونهاية سيسطرها باشتهاء أقوى..

تحقق من خزانة سلاحه، ملأها حد التخمة وأقسم أن يفرغها في جسد فريسته كاملة رغم أنه يعلم..

واحدة فقط مع النمر تكفي!

أعادها لمستقرها وجذب صمام الأمان بعنف ليدفع إحدى الرصاصات داخل ماسورة المسدس.. صوبه بدقة دون هدف واضح وامتلأت عيناه بشراسة مخيفة لو رأيتها لفررت من محيطه كأنك في حضرة الموت!!..

وهو الموت لو شئنا الدقة..

أعاد الصمام لموضعه، نهض يرتدي سترته، يضع السلاح بجوار كاتم الصوت في حقيبته.. حملها بعناية وانطلق..

النمر على وشك القنص، والطريدة لا مهرب لها من الفخ..

***

هل هناك ما هو أكثر عذابًا من المضي قدمًا في طريق نهايته خلود في الجحيم!

لا خيار..

لا مفترق طرق..

لا دوران حول المصير!

لا تطالب بنهاية شاعرية ينتصر فيها الخير على الشر ويعاقب المذنب على أرض واقع ليست بأرض عدل.. إلا لو صادف الأمر قدرًا حتميًا يحقق عدالة القصاص..

فلو كنت تنتظر تتمة حالمة يفوز فيها الحب ويسيطر على قاطن قلوبهم: أنت واهم.. وإن توقعت خاتمة يتحكم فيها نقاء الفطرة ليزيح دنس النفس البشرية؛ فدعني أخبرك بهذا..

الحياة ليست بهذه المثالية!

رغم وجود الأمل والأمنيات..

تمت بحمد الله

٢٠١٧/٢/٢٥

صابرين الديب

حلم-هن

إهداء

لرفيقات الدرب، إدارة جروب حلم-هن.. شكرًا

لكل من قرأ حرفي.. شكرًا

لقارئات الجروب وكل من تقدم بنقد، بتعليق، من تأثر بشعور كان إعجابًا أو غضبًا.. أو تفاعلًا مع شخصياتي.. شكرًا..

شكرًا من أعماق القلب..